٣٥٠٠٨

الحمد لله وبعد فقد قام الطالب بتعديل ما طلب منه بموافقة
عبد الرزاق البدر
١٤٢٣/١/٢٤

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

التكبير ودلالاته العقدية وإبطال المفاهيم الخاطئة فيه

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة العالمية (الماجستير)
في العقيدة

إعداد الطالب :
بابا بسا نكي سيسي

إشراف

فضيلة الشيخ الدكتور : عبيد بن عبد العزيز السلمي

العام الجامعي
١٤٢١-١٤٢٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

إن الحمد لله ،نحمده ونستعينه ونستغفره،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ،وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

﴿ يآأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[١]

﴿ يآأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونسآء واتقوا الله الذي تسآءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[٢]

﴿ يآأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما ﴾[٣]

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[٤]

وبعد : فإن الله عز وجل قد شرع لعباده المؤمنين في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، جملاً من الأذكار، في كلمات طيبات مباركات، تشتمل على معانٍ

---

[١] سورة آل عمران / آية : ١٠٢

[٢] سورة النسآء / آية : ١

[٣] سورة الأحزاب / آية : ٧٠ —٧١

[٤] هذه الخطبة تسمى (خطبة الحاجة) التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها أصحابه، وقد أخرج الإمام مسلم جزءا منها في صحيحه، ورواها الإمام أحمد في المسند، وأصحاب السنن الأربع ، وصححها الشيخ الألباني رحمه الله في ((تخريج المشكاة)) رقم :(٣١٤٩)وله فيها رسالة مفردة سماها(خطبة الحاجة) جمع فيها طرقها وخرجها .

جليلة؛ ليذكروه بها فيشكروه ويعظموه، وتزكو بها نفوسهم، وتطمئن بها قلوبهم، ويتحصنوا بها من الشيطان ووساوسه، ويرضى بها عنهم ربهم تبارك وتعالى ٠

ومن هذه الأذكار، بل من أشرفها وأفضلها وأحبها إلى الله تعالى: ذكر الله تعالى بالتكبير " الله أكبر" فإنها كلمة وجيزة في مبناها وحروفها، لكنها عظيمة في مدلولها ومعناها، الذي إذا استقر في قلب العبد، وعملت جوارحه بمقتضاه، نال سعادة الدنيا والآخرة ٠

فهي على هذا، كلمة ذات شأن عظيم في الدين؛ لذا جاءت النصوص الكثيرة في الحث على المداومة عليها، وبيان ما فيها من أجر عظيم، وثواب جزيل ٠

قال الله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ [١]

وقال تعالى : ﴿ يآأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر ﴾ [٢]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله يملأه ، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض)) [٣]

وشرعها الله عز وجل للمسلمين في عباداتهم، وفي كثير من أحوالهم المتكررة في حياتهم اليومية، فهي شعيرة من شعائر الصلاة، والأذان، والأعياد، والجهاد في سبيل الله، وهي من الباقيات الصالحات، وهي الذكر المشروع في الأماكن العالية، وهي إحدى الكلمات الأربع التي هي أفضل الكلام وأحبه إلى الله تعالى بعد القرآن الكريم .

---

[١] سورة الإسراء / آية : ١١١

[٢] سورة المدثر / آية : ١ – ٣

[٣] أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٥ / ٣٦٣ ، والترمذي في سننه : ٥ / ٥٣٦ ، كتاب الدعوات ، باب (٨٧) ح : ٣٥١٩ ، وقال : هذا حديثٌ حسن .

هذا، ومن المعلوم أن الله تعالى لم يتعبد عباده بذكره بهذه الكلمة وغيرها؛ لجمال ألفاظها فحسب، بل ولما اشتملت عليه من المعاني العظيمة، والمدائح البليغة، والثناء الحسن على الله عز وجل.

فالتكبير مثلا : معناها : الإخبار بأن الله تعالى أكبر وأعظم من كل شيء كائنا ما كان، مع اعتقاد ذلك بالقلب ، وعمل الجوارح بمقتضاه .

وهذا المعنى الذي دلت عليه كلمة (الله أكبر) هو من حيث المبدإ، محل إجماع واتفاق بين جميع أهل الملة ، على اختلاف طوائفهم ونحلهم، فلا تجد أحداً منهم، إلا ويزعم أن الله تعالى في قلبه أكبر وأعظم من كل شيء، غير أنهم يختلفون اختلافاً كثيراً في لوازم هذا التعظيم القلبي ومقتضياته ؛ تبعا لاختلاف مفاهيمهم، ومصادرهم، التي منها يصدرون، وإليها عند التنازع يرجعون .

فبدعوى التعظيم والإجلال عطلت أسماء الله وصفاته، فإن المعطلة يرون أن إثباتها، وإجراء نصوصها على ظواهرها، ينافي تعظيم الله وإجلاله، كيف لا؟! وفي ذلك من تشبيه الله بخلقه ما فيه ! وتلك عظيمة يجب تعظيم الله وإجلاله عنها-هذا زعمهم- .

في حين يرى المثبتون لها أن إثباتها والإقرار بها، وإجراء نصوصها على ظواهرها، هو مقتضى التعظيم والإجلال ، وهو الذي يوجبه قولنا : " الله أكبر " أي أن تكون له صفات الكمال والجلال، التي يستدل بها على عظمته وكبريائه وفضله ،كما أن ذلك مقتضى تصديق كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وصونهما عن التأويل المتكلف، والتفسير الخاطىء، الذي منيت به طوائف المعطلة .

وهكذا نجد نفاة القدر ومنكريه، يزعمون أن تتريه الله تعالى عن خلق أفعال العباد، وعن إرادتها وتقديرها – والتي تشتمل على المعاصي والفجور وسائر القبائح – هو الذي يستلزمه تكبير الله وإجلاله، وأن هذا صنيع من لله في قلبه وقار ! جاهلين أو متجاهلين عن كل ما يترتب على هذا الاعتقاد، من أمور خطيرة، ولوازم فاسدة ، هي منافية لعظمة الله تعالى وكبريائه

في الوقت الذي يرى المثبتون للقدر،أن ذلك إخلال واضح بما تقتضيه كلمة "الله أكبر" من أنه سبحانه خالق كل شيء،وأنه لا يقع في الكون شيء بغير إرادته، وخلقه التابع لعلمه الأزلي.

بل حتى المشركون، يزعمون أن اتخاذهم للوسائط من دون الله تعالى هو من مقتضيات تعظيم الله وإجلاله، وصدق الإمام عبد الرحمن بن مهدي [(١)] في قوله: ((قد هلك قوم من وجه التعظيم ...)) [(٢)]

ومحال مع هذا التباين الشاسع في المفاهيم، أن يكون جميعها حقا وصوابا، بل الذي يقطع به أن بعضها ضلالة وجهالة، وأنها بمعزل عما أوجب الله تعالى من تعظيمه وإجلاله، وهي بحاجة إلى بيان ما فيها من خطأ، وأنها تتنافى مع ما يقتضيه تكبير الله عز وجل .

ومن هنا جاء تبني فكرة الكتابة والتسجيل في هذا الموضوع بعنوان :

((التكبير ودلالاته العقدية وإبطال المفاهيم الخاطئة فيه))

بعد استخارة لله تعالى، ثم استشارة من إشارته غنم، من أهل التخصص والتتبع في هذا المجال .

أهمية الموضوع :

تبرز أهمية الكتابة في هذا الموضوع بالنظر إلى تعلقه بصفة عظيمة من صفات الله تعالى، تقتضي معرفتها والإيمان بها الإقرار لله بجميع صفات الكمال ، ونفي جميع صفات النقص عنه سبحانه ، وهذه الصفة هي صفة الكبرياء والعظمة .

---

(١) هو أبو سعيد العنبري ، وقيل الأزدي مولاهم البصري ، الإمام الثبت ، ولد سنة : ١٥٣هـ وكان رحمه الله قدوة في العلم والعمل ، قال الشافعي رحمه الله : ((لا أعرف له نظيراً في هذا الشأن)) وكان من أئمة أهل السنة في الاعتقاد ، أثر عنه أنه سئل عمن يقول : القرآن مخلوق ؟ فقال : ((لو كان لي سلطان ؛ لقمت على الجسر ، فلا يمر بي أحد إلا سألته ؟ فإذا قال مخلوق ضربت عنقه ، وألقيته في الماء)) توفي رحمه الله سنة ١٩٨هـ ترجمته في سير أعلام النبلاء ٩ / ١٩٢ .

(٢) انظر : الحجة في بيان المحجة ، للتيمي ١ / ٤٤٠ ، تحقيق الدكتور / محمد ربيع المدخلي .

ومما يدل على أهمية هذا الموضوع أيضا : تعلقه بالأذكار الشرعية، التي شرعها الله لعباده، وجعل لها من الأهمية والأفضلية ما جعل، ورتب عليها من الأجر العظيم والثواب الجزيل ما رتب، فكانت بذلك جديرة بدراسة معانيها، والنظر في دلالاتها وإبرازها، ولاسيما دلالاتها العقدية، التي تجب معرفتها، واعتقادها، والعمل بما تستلزمها، هذا بالإضافة إلى أن كثيرا من المسلمين، يرددون هذه الكلمات بألسنتهم، مع غفلة قلوبهم عما تدل عليه، ولذلك لا تعجب، عندما تجد أحدهم يردد هذه الأذكار، من تسبيح ، وتحميد ، وتهليل ، وتكبير، وغيرها، وهو في الوقت نفسه متلبس بما يضادها و يناقضها، أشد المناقضة، من شرك، وتعطيل، ومجاهرة بالذنوب والمعاصي، وتعال وتعاظم، وخضوع وخنوع لغير الله عز وجل، وغير ذلك من الأقوال والأعمال والاعتقادات، التي تنافي مدلول هذه الكلمات، فإن هذا ناتج عن الجهل بمعانيها، والغفلة عما تدل عليه .

أسباب اختيار الموضوع :

لقد رغبني في هذا الموضوع جملة من الأسباب أهمها ما يلي :

١ – إنه قد لفت نظري شدة عناية الشارع بموضوع الأذكار، تلك العناية التي تتمثل في الأمر بها، والحث عليها، وتفضيلها على سائر الطاعات و القربات، وبيان الفضائل والمكرمات المعدة لأهلها المداومين عليها، ولاشك أن من وراء هذه العناية حكما بالغة، لعل من أظهرها إرادة الشارع حث العباد على التدبر والتأمل في معانيها، الكفيلة بربط قلوبهم بالله عز وجل،

٢ – ما خص الله به كلمة "التكبير" من خصائص التكريم والتشريع، حيث شرعها مصاحبة للمسلم في كثير من عباداته وأحواله، مما يجعل النفس تواقة إلى معرفة أسباب هذا التخصيص، ولا يتأتى ذلك بغير البحث والدراسة .

٣ – كثرة اختلاف الناس فيما يستلزمه تكبير الله عز وجل من إثبات الكمالات لله تعالى وتتريهه عن النقائص والعيوب، والحاجة المتأكدة إلى بيان المفهوم الصحيح لتكبير الله وتعظيمه، مع بيان ما أدخل في نطاق تعظيم الله وليس منه، بل هو مما يناقضه وينافيه .

٤ – بيان وجه الصلة بين الأذكار الشرعية وبين عقيدة التوحيد، التي هي أهم المهمات وأول الواجبات، وخاصة كلمة ((الله أكبر)) التي هي أعظم ما قيل في الإخبار عن عظمة الله تعالى .

منهج البحث :

سرت في إعداد هذا البحث على المنهج التالي :

١ – جمعت مادة البحث من مظانها في كتب العقيدة ، والتفسير،وشروح السنة، وكتب الأذكار، ثم قمت بترتيبها وتوزيعها على فقرات الموضوع .

٢ – سلكت منهج الاختصار غير المخل في عرض المسائل؛ تحاشياً من التطويل غير المجدي

٣ – نقلت الأقوال من كتب أصحابها مباشرة، إلا فيما تعذر ذلك علي، أوتعسر فأنقل بواسطة أحسبها مأمونة .

٤ – عزوت الآيات القرآنية إلى سورها ببيان اسم السورة ورقم الآية ٠

٥ – خرجت الأحاديث النبوية من كتب السنة المعتمدة، كالصحيحين والسنن الأربع، فإذا كان الحديث عند الشيخين أو أحدهما إكتفيت بعزوه إلى موضعه منهما، وإذا كان الحديث في غير الصحيحين، عزوته إلى مصدره، مع الاجتهاد في بيان حكم العلماء عليه من حيث الصحة والضعف، و لم ألتزم ذلك فيما سوى الأحاديث المرفوعة كالأقوال والأفعال المأثورة عن الصحابة ومن بعدهم،

٦ – ترجمت للأعلام غير المشهورين الوارد ذكرهم في البحث في أول موضع يرد فيه .

٧ – ذيلت البحث بفهارس فنية كاشفة عن محتواه، وهي :

- فهرس الآيات القرآنية على ترتيب السور ٠
- فهرس الأحاديث النبوية مرتبا إياها حسب حروف المعجم ٠
- فهرس المصادر والمراجع مرتبة على الحروف ٠
- فهرس الأعلام المترجمين ٠
- فهرس الموضوعات حسب تسلسل البحث

خطة البحث :

قسمت البحث حسبما اقتضته طبيعة الموضوع في نظري، إلى مقدمة، وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

أما المقدمة: ففيها بعد الافتتاح بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المتبع فيه والخطة المرسومة له .

وأما التمهيد ففيه الحديث عن أهمية الذكر ، وفوائده ، وصلته بالعقيدة .

الباب الأول: معنى التكبير ، وأهميته ، ومواطن مشروعية لفظة " التكبير"

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : معنى التكبير ومدلوله وفيه مبحثان :

المبحث الأول : معنى التكبير لغة .

المبحث الثاني : معنى التكبير شرعا .

الفصل الثاني : أهمية التكبير ومترلته ودرجاته وفيه مبحثان :

المبحث الأول : وجوب تكبير الله وتعظيمه والأدلة على ذلك .

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : دلالة القرآن الكريم على وجوب تكبير الله عز وجل وأوجه تلك الدلالة :

الوجه الأول : الأمر الصريح به :

الوجه الثاني : وصف الله تبارك وتعالى نفسه بأنه الكبير ، والمتكبر ، وأن له الكبرياء .

الوجه الثالث : ذمه تعالى من أخل بتكبيره وتعظيمه من الكفار والعصاة .

الوجه الرابع : التنبيه بالمخلوقات العظيمة التي تدل على عظمة وكبرياء خالقها .

المطلب الثاني : ما جاء في السنة النبوية وأقوال السلف وأحوالهم من بيان

عظمة الله وكبريائه ، وفيه فرعان :

الأول : بيان شدة تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لربه وسده كل طريق يفضي إلى الإخلال بذلك .

الثاني : السلف الصالح وما أثر عنهم من أقوال وأحوال تدل على تعظيمهم لله عز وجل .

المطلب الثالث : دلالة العقل على وجوب تكبير الله وتعظيمه .

المبحث الثاني : درجات تكبير الله عز وجل : وفيه توطئة وثلاثة مطالب :

التوطئة : العلم بالله عز وجل وعلاقته بتكبيره وإجلاله .

المطلب الأول : اسم الله تعالى : " الكبير- المتكبر" معناهما وأثر الإيمان بهما في عقيدة العبد وسلوكه .

المطلب الثاني : تكبير الله تعالى في قضائه وقدره .

المطلب الثالث: تكبير الله وتعظيمه في أوامره ونواهيه وشعائره وحرماته وحدوده .

الفصل الثالث : ذكر بعض المواطن التي شرع فيها لفظ التكبير "الله أكبر" وفيه مدخل وثمانية مباحث :

أما المدخل ففيه بيان أن التكبير إنما يشرع في المواضع الكبار مكانا وزمانا وحالا .

المبحث الأول : مشروعية التكبير على الهداية .

المبحث الثاني : التكبير على الرزق .

المبحث الثالث : التكبير في الصلاة .

المبحث الرابع : التكبير في العيدين .

المبحث الخامس :التكبير في أيام "منى" أيام التشريق .

المبحث السادس: التكبير في الطواف وعلى الصفا والمروة .

المبحث السابع : التكبير عند العلو على شرف .

المبحث الثامن : التكبير في الحرب عند لقاء العدو ٠

الباب الثاني : دلالات التكبير:

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : دلالة التكبير على توحيد الأسماء والصفات ٠

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات ٠

المبحث الثاني : وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة ٠

المبحث الثالث : التلازم بين تكبير الله وتعظيمه وبين إثبات أسمائه وصفاته ٠

الفصل الثاني : دلالة التكبير على تتريه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقات في شيء من صفاته ، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: المشبهة ومذهبهم في صفات الله عز وجل وبيان تنافيه مع تكبير الله وتعظيمه ٠

المبحث الثاني : بطلان مذهب المشبهة من جهة النقل والعقل ٠

المبحث الثالث: موقف علماء أهل السنة والجماعة من التشبيه والمشبهة ٠

الفصل الثالث : دلالة التكبير على توحيد العبادة ٠

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول: تعريف توحيد العبادة والتنبيه على أهميته ومكانته في الدين٠

المبحث الثاني: دلالة التكبير على وجوب إخلاص الدين لله تعالى وعلى بطلان الشرك والتنديد٠

المبحث الثالث: دلالة التكبير على بطلان الإلحاد٠

المبحث الرابع : دلالة التكبير على خطورة المعاصي والبدع ٠

الباب الثالث : بعض المفاهيم الباطلة والتصورات الخاطئة لتكبير الله ،

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تكبير الله وتعظيمه عند طوائف المعطلة ،

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف التعطيل مع بيان دركاته

المبحث الثاني : دعوى تكبير الله بتعطيل أسمائه وصفاته ،

المبحث الثالث: الطوائف التي ادعت تكبير الله بتعطيل أسمائه وصفاته شبههم والرد عليها ،

الفصل الثاني : مقتضى تكبير الله عند القدرية والجبرية ،

وفيه مبحثان :

المبحث الأول: تكبير الله وتعظيمه بنفي القدر ،

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول: تعريف القدر وبيان مراتبه ومذهب أهل السنة فيه ،

المطلب الثاني : منشأ ضلال القدرية في هذا الباب ،

المطلب الثالث: ما أثر عن السلف من التحذير من القدرية ومقالتهم ،

المبحث الثاني : مقتضى تكبير الله عند الجبرية " نفي فعل العبد " ،

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الجبر والفرق بينه وبين " الجبل "،

المطلب الثاني : بطلان مذهب الجبرية وبيان لوازمه الفاسدة ،

المطلب الثالث: موقف أهل السنة من مقالة الجبرية ،

الفصل الثالث : تكبير الله بنفي الحكمة والتعليل عن أحكامه وأفعاله ،

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الحكمة والعلة ،

المبحث الثاني : أدلة نفاة الحكمة والتعليل ومناقشتها .

المبحث الثالث: دلالة النصوص الشرعية على تعليل أفعال الله وأحكامه .

المبحث الرابع: مذهب أهل السنة والجماعة في تعليل أفعال الله وأحكامه وبيان أنه مقتضى التكبير .

الخاتمة : وقد اشتملت على جملة من النتائج المستفادة من هذا البحث .

شكر وتقدير

أحمد الله تعالى وأشكره وأثني عليه الخير كله وأرجوه أن ينالني وعده الصادق الـــذي وعد به الشاكرين من عباده، إذ قال وقوله الحق : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ [1]

ثم أقدم جزيل شكري ووافر تقديري لوالديَّ العزيزين اللذين ربياني تربية إســـلامية ووجهاني إلى طلب العلم الشرعي، وفرغاني له مذ كنت صغيراً ، فأســـأل الله تعـــالى أن يجزيهما عني خير الجزاء وأوفاه، وأن يغفر لمن توفي منهما ويرحمه، ويبارك في عمر من بقي ،وأن يجعلني وسائر إخوتي قرة أعين لهما في الدنيا والآخرة .

ثم أتقدم بالشكر الجزيل والثناء العطر للقائمين على الجامعة الإسلامية — حرســـها الله وأدام النفع بها — على ما يقدمونه من جهود مباركة في خدمة الإسلام والمسلمين، عـــن طريق تعليم الأجيال المسلمة العلوم الشرعية، والعقيدة الصحيحة الصافيـــة مـــن جميـــع الشوائب، فأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجزل لهم المثوبة، ويجعل ما يبذلونه مـــن جهد خالصاً لوجهه، وسبباً موصلاً إلى مرضاته .

ثم أقدم الشكر الجزيل والتقدير الفائق لفضيلة شيخي وأستاذي المشرف على هـــذه الرسالة : فضيلة الشيخ الدكتور/ عبيد بن عبد العزيز السلمي الذي غمـــرني بأخلاقه الفاضلة، مدة إشرافه على عملي هذا، وأفادني بآرائه وخبراته، ولم يأل جـــهداً في تقويم هذا العمل وتوجيهه وتكميله ، فأسأل الله تعالى أن يبارك في علمه وعمله ويجعل مـــا قدمه لي من إرشاد وتوجيه في ميزان حسناته، وأن يختم لي وله بالصالحات .

كما أقدم جزيل شكري وتقديري للأستاذين الفاضلين، العالمين الجليلـــين ، فضيلـــة الأستاذ الدكتور / عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر ، الأستاذ بقسم العقيـــدة في كليـــة الدعوة وأصول الدين ، وفضيلة الأستاذ الدكتور / سعود بن عبد العزيز الخلف ، الأســـتاذ المشارك بقسم العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة ، على تفضلـــهما بقبـــول

---

[1] سورة إبراهيم / آية : ٧ .

مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، أسأل الله تعالى أن ينفعني بما يبديانه من ملحوظات قيمة ، وتوجيهات سديدة ، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناقمما .

وأخيراً ، أقدم الشكر والدعاء لكل من أعانني على إنجاز هذا العمل، بإعطاء نصيحة أو إعارة كتاب، أو الدلالة على معلومة، فجزى الله الجميع عني خير الجزاء ، وجعل ما قدموه لي من عون سبباً للفوز بمرضاته .

وبعد ، فهذا جهد مقل ، وعمل عبد خطاء ، فما كان فيه من صواب، فذاك محض فضل الله وتوفيقه ، وما كان من خطأ وزلل، فسببه قلة البضاعة وقصر الباع ، فأسأل الله تعالى أن يجبر كسري، ويغفر زلتي، ويتجاوز لي عن الخطأ والنسيان ، إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم، على عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

التمهيـــد :

ويشتمل على :

أهمية ذكـــر الله عز وجل ، فـــوائده ، صلتـــه بالعقيـــدة :

لما كان التكبير نوعا من أنواع الذكر، بل هو من أفضل أنواعه التي حـــــث عليـــها الشارع كثيرا وشرعها في مواضع وأزمنة وأحوال كثيرة ،تمر بالمسلم في حياتـــه اليوميـــة ؛كان من مقتضيات المقام أن أمهد في سطور قليلة أبين فيها :

أهمية ذكر الله عز وجل ، وما أولاه الشارع الحكيم من عناية عظيمة واهتمام بـــالغ يليق به، ثم ذكر شيء يسير من فوائده الكثيرة، وثمراته المتعددة، التي وردت في النّصـــوص الشرعية و من ثم التنبيه على ما له من صلة وثيقة بالعقيدة التي هي مجال البحث ٠

أولا : أهمية ذكر الله عز وجل :

ذكر الله عز وجل من أهم الروابط التي تربط العبد بربه، وتقربه منه، وتجعلـته أهـــلا لنعمه وآلائه، في العاجل والآجل ٠

ولهذا لما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل، حيـــث كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منـــــه لـــه وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتسبيحه ذكراً منه له وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهّبته ذكراً منه له، وسكوته وصمته ذكراً منه بقلبه وكان ذكر الله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله

يجري مع أنفاسه قائما وقاعدا وعلى جنبه وفي مشيه وركوبه ومسيره ونزوله وظعنه وإقامته [1] فلمّا كان كذلك كان أقرب الخلق إلى الله ،وأحبهم لديه .

وقد تضافرت نصوص القرآن والسنة على التنويه بشأن الذكر ،آمرة به تارة ومبينة فضله وآثاره الطيبة على الذاكر تارة ،ومحذرة من ضده الذي هو الغفلة تارة أخرى .

فمن النصوص القرآنية التي جاء فيها الأمر بالذكر: قول الله عز وجل :

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ [2]

ففي هذه الآية الكريمة الأمر بذكر الله تعالى مع بيان الثمرة المترتبة عليه وهي ذكر الله تعالى للعبد، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية : ((أذكروني بطاعتي أذكركم بمعونتي)) وقال سعيد بن جبير [3] ((اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي وقيل اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء بيانه :

﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [4] [5]

---

[1] انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٢ / ٣١٤ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ط/١٠، ١٤٠٥ هـ ، مؤسسة الرسالة .

[2] سورة البقرة / آية : ١٥٢

[3] هو : أبو محمد ويقال أبو عبد الله الوالبي مولاهم الكوفي أحد الأعلام قرأ القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما قتله الحجاج بن يوسف الثقفي المبير سنة ٩٥ هـ فرحمه الله انظر : سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٢١ – ٣٢٣

[4] سورة الصافات / آية : ١٤٤

[5] معالم التنزيل للبغوي ١ / ٦٧١ تحقيق / محمد عبد الله النمر وآخرين ط/ دار طيبة

وقال الإمام أبو عبد الله القرطبي [1] رحـــمه الله تعالى في تفسيره" الجامع لأحكـــام القرآن ": ((قوله تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ : أمر وجـــوابه وفيه معـــنى المجـــازاة ولذلك جزم ـــ)) [2]

وقال الإمام الربيع بن أنس رحمه الله في هذه الآية : ((إن الله ذاكر من ذكره ،وزائد من شكره، ومعذب من كفره)) [3]

ومنها قول الله تعالى : ﴿ يآأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ [4]

أمر الله المؤمنين في هذه الآية بالإكثار من ذكره في كل حين وعلى كل حال وهذا يـــدل على أن الإكثار من ذكر الله من لوازم الإيمان ومن أعظم صفات المؤمنين كما قال تعـــالى في وصفهم : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ [5]

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((لا يفرض الله تعالى على عباده فريضة إلا جعـــل لها حداً معلوما، ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه و لم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوبا على عقله، وأمرهم به في كل الأحوال فقال :

---

[1] هو : محمد بن أحمد بن أبي فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي ، مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان وكتاب : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة شهد له العلماء بأنه كان إماما متفننا متبحرا في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته ،وكثرة اطلاعه، ووفور فضله . مات سنة ٦٧١ هـــ انظر: طبقات المفسرين للسيوطي رقم : ٨٨ ص : ٧٩ ، ط/١، ١٤٠٣هـــ ، دار الكتب العلمية ، وطبقات المفسرين للداودي ٢ / ٦٩، ط/١، ١٤٠٣هـــ ، دار الكتب العلمية .

[2] تفسير القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٧٦ ط/١، دار الحديث - القاهرة

[3] تفسير الطبري : (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ٢ / ٤٠ ط/١ ، ١٤١٢ هـــ دار الكتب العلمية .

[4] سورة الأحزاب / آية : ٤١

[5] سورة آل عمران / آية : ١٩١

﴿ فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ [(١)] [(٢)]

بل لقد أمر الله المؤمنين بالإكثار من ذكره في أحرج الأحوال وأصعب الساعات أعني ساعة المسايفة ومنازلة الأعداء في ساحات القتال ·

قال الله تعالى مخاطبا المؤمنين المجاهدين : ﴿ يآأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [(٣)]

ذلك أن الذكر في تلك الساعات الحرجة التي يفكر فيها الإنسان في نجاة نفسه من القتل من أصدق الأدلة على صدق الذاكر في دعوى محبة المذكور، وهو الله تبارك وتعالى

وفي الآية دلالة واضحة على العناية الكبيرة التي حظي بها الذكر وأنه مطلوب من المؤمن أن لا يفارق ذكر الله بلسانه وقلبه لما في ذلك من الحصانة له من عدوه الحريص على إغوائه وإهلاكه و من الوقوع فيما لا يرضي الله تعالى من المعاصي والذنوب المهلكات الناتجة عن الغفلة عن الله تبارك وتعالى .

قال الإمام الماوردي [(٤)] رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكراً كثيراً ﴾ الآية

((فيه قولان :

أحدهما : اذكروه بالقلب ذكراً مستديما يؤدي إلى طاعته واجتناب معصيته ·

---

(١) سورة النساء / آية : ١٠٣

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره ، وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦ / ٦١٨ .

(٣) سورة الأنفال / آية : ٤٥

(٤) هو: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، كان حافظا للمذهب الشافعي، وله مصنفات كثيرة في الفقه والتفسير وفي الآداب، وكان رحمه الله من وجوه الفقهاء الشافعيين وولي القضاء ببلدان كثيرة ،و توفي رحمه الله سنة ٤٥٠ هـ انظر : طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٥ / ٢٦٧ تحقيق / محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ط/ دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي ·

الثاني : اذكروا الله باللسان ذكراً كثيراً قاله السدي)).

وقال أيضا : ((وفي ذكره وجهان :

أحدهما : الرغبة إليه قاله ابن جبير

الثاني : الإقرار له بالربوبية والاعتراف له بالعبودية)) [١]

وهذان الوجهان اللذان ذكرهما في الذكر يمثلان التوحيد بنوعيه العلمي الخبري والقصدي الإرادي؛ فإن الرغبة إلى الله تعالى -وهي دعاؤه والافتقار إليه- نوع من العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى، ويحرم صرف شيء منها لغيره، ولا يدعى الله تعالى إلا بأسمائه الحسنى، التي أذن لعباده أن يدعوه بها، كما في قوله : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ [٢]، ولا يتصور ذلك كله من العبد إلا بعد تحقيق الوجه الثاني، وهو الإقرار لله بالربوبية، والاعتراف له بالعبودية .

والمقصود هنا بيان أن الله تعالى في هذه الآية وغيرها أمر عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، ولم يجعل لذلك حداً ولا غاية، فدل ذلك على أن المؤمن مطالب باستدامة ذكر الله، وأنه كلما ازداد لربه ذكراً ؛ ازداد له حبا ومنه قربا .

قال القرطبي رحمه الله : ((أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك، على ما أنعم عليهم، وجعل تعالى ذلك دون حد؛ لسهولته على العبد، ولعظم الأجر فيه)) [٣]

وأما الآيات التي فيها التنبيه على مكانة الذكر، وفضل أهله، فهي أيضا كثيرة ومنها :

---

[١] تفسير الماوردي : (النكت والعيون) ٤ / ٤٠٩ ط/ دار الكتب العلمية .

[٢] سورة الأعراف / آية :١٨٠ .

[٣] تفسير القرطبي ١٤ / ١٩٢ .

قول الله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (١)

قال البغوي (٢) رحمه الله : ((أي ذكر الله أفضل الطاعات وقال قوم : معنى قوله : ولذكر الله أكبر : أي ذكر الله إياكم أفضل من ذكركم إياه ويروى ذلك مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم)). (٣)

وذكر الماوردي في قوله تعالى ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ سبعة تأويلات

أحدها : ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه قاله ابن عباس

الثاني : ولذكر الله أفضل من كل شيء قاله سلمان .

الثالث : ولذكر الله في الصلاة التي أنت فيها أكبر مما نهتك عنه الصلاة من الفحشاء والمنكر . قاله عبد الله بن عون (٤)

الرابع : ولذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة قاله أبو مالك (٥)

---

(١) سورة العنكبوت / آية : ٤٥

(٢) هو : أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الملقب بـ"محي السنة " وهو صاحب كتاب : " معالم التنزيل " في التفسير قال الإمام الذهبي : " وله القدم الراسخ في التفسير والباع المديد في الفقه " توفي رحمه الله سنة ٥١٦ هـ سير أعلام النبلاء ١٩ / ٤٣٩ .

(٣) معالم التنزيل ٦ / ٢٤٥ –٢٤٧ ، ولم أقف على المرفوع ، ولكن ورد موقوفا على ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣ / ٩٨ ، وتفسير الطبري ١٠ / ١٤٦ .

(٤) هو : الإمام القدوة عالم البصرة أبو عون المزني مولاهم البصري الحافظ ولد في حياة ابن عباس وطبقته وكان مع أنس بن مالك بالبصرة وروى عنه الأئمة كالثوري وشعبة وابن المبارك وكان من المشهود لهم بالفضل والعلم والحفظ حتى قال شعبة : " شك ابن عون أحب إلي من يقين غيره " وتوفي بالبصرة سنة ١٥١ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٦ / ٣٦٤

(٥) لا أدري من هو أبو مالك هذا .

الخامس : ولذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم .

السادس : أكبر من قيامكم بطاعته .

السابع : أكبر من أن يُبْقِيَ على صاحبه عقاب الفحشاء والمنكر .[1]

وهذه التأويلات السبعة كل واحد منها له وجه ولا مانع من أن يراد بالآية جميع هذه المعاني فإن الاختلاف الذي بينها هو من قبيل اختلاف التنوع على أنها جميعا متفقة فيما قصد من إيرادها هنا، وهو الدلالة على ما للذكر من أهمية كبرى، ومكانة عظمى .

ومنها أيضا قول الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[2]

((ومعنى اطمئنان القلوب : زوال قلقها واضطرابها وحضور أفراحها ولذاتها وحقيق بها وحري ألا تطمئن لشيء سوى ذكر الله فإنه لاشيء ألذ للقلوب ولا أشهى لها وأحلى من محبة خالقها والأنس به ومعرفته ، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له هذا على القول بأن ذكر الله ـ في الآية ـ هو ذكر العبد لربه من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك .

وقيل إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله : أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم وذلك في كتاب الله موجود ومضمون على أتم الوجوه وأكملها، وأما ما سواه من الكتب

---

[1] تفسير الماوردي ٤ / ٢٨٥

[2] سورة الرعد / آية : ٢٨

التي لا ترجع إليه فلا تطمئن بها، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة وتضاد الأحكام ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾))[1]

ويستفاد من هذه الآية أن ذكر الله تعالى سمة بارزة من سمات المؤمنين الصادقين، وأن به تطمئن قلوبهم؛ ولذلك حرم المنافقون من هذا الفضل العظيم الذي ضمنت الآية الكريمة حصوله للمؤمنين الذاكرين، فلا تطمئن قلوبهم، بل هم في اضطراب دائم، وخوف مستمر يحسبون كل صيحة عليهم ، وذلك لأن قلوبهم لا تعرف الله، ولا تعرف عظمته وكبرياءه فلا تطمئن بذكره، قال الله تعالى ذاما لهم : :﴿ يرآءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [2]

قال الإمام ابن جرير الطبري [3] رحمه الله : ((فلعل قائلا أن يقول : وهل من ذكر الله شيء قليل ؟ ! قيل له : إن معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت، إنما معناه : ولا يذكرون الله إلا ذكر رياء ؛ ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسباء وسلب الأموال ، لا ذكر موقن مصدق بتوحيد الله ، مخلص له الربوبية، فلذلك سماه الله قليلا ؛ لأنه غير مقصود به الله ، ولا مبتغى به التقرب إلى الله ، ولا مراد به ثواب الله وما عنده ، فهو وإن كثر من وجه نصب عامله وذاكره في معنى السراب الذي له ظاهر بغير حقيقة ماء ، وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل)) ثم ساق بسنده :

---

(1) تفسير ابن سعدي ٤ / ١٠٨ –١٠٩ وهو (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) تحقيق / محمد زهري النجار من علماء الأزهر الشريف ط/ المؤسسة السعيدية .

(2) سورة النساء / آية : ١٤٢

(3) هو: الحافظ الكبير محمد بن جعفر بن جرير شيخ المفسرين وأحد الأئمة الأعلام الذين يرجع إليهم لمعرفته وفضله له المصنفات النافعة في مختلف الفنون في التفسير، والتاريخ، والاعتقاد توفي سنة ٣١٠ هـ انظر : تاريخ بغداد ٢ / ١٦٢ وطبقات المفسرين للسيوطي رقم : ٩٣ ص : ٨٢

عن الحسن [1] رحمه الله أنه قال : ((إنما قل ؛ لأنه كان لغير الله)) .

وعن قتادة [2] رحمه الله أنه قال : ((إنما قل ذكر المنافق ؛ لأن الله لم يقبله، وكل ما رد الله قليل، وكل ما قبل الله كثير)) . [3]

هذا وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة فيها الحث على الإكثار من ذكر الله تعالى بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وغيرها، وذلك ببيان فضل

الذكر وشرف أهله، والإخبار عما خصهم الله به من محبته ومعيته ، وما أعد ه لهم من المغفرة والأجر العظيم في الآخرة .

فمن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : ((أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ...)) الحديث [4]

---

(1) هو: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري الفقيه الزاهد كان من سادات التابعين وكبرائهم ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه في المدينة وتوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٦٩ تحقيق / د. إحسان عباس دار صادر

(2) هو: أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري كان تابعيا عالما كبيراً يقال إنه أول من لقب المعتزلة بهذا اللقب وكان يرمى بالقدر قال أبو عمرو بن العلاء " حسبك قتادة لولا كلامه في القدر لما عدلت به أحداً من أهل عصره " ولد سنة ٦٠ هـ وتوفي سنة ١١٧ هـ بواسط انظر : وفيات الأعيان : ٤ / ٨٥ .

(3) تفسير الطبري ٤ / ٣٨٤

(4) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ ح : ٧٤٠٥ (١٣ / ٣٨٤ من فتح الباري) ط/ دار المعرفة بدون رقم وتاريخ الطبعة . وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والتوبة والاستغفار ، باب الحث على ذكر الله (١٧ / ٢ من شرح النووي) ط/١، ١٣٤٩ هـ المطبعة المصرية بالأزهر .

وهذه المعية المذكورة في الحديث هي المعية الخاصة ، فإن معية الله لخلقه على نوعين كما حرره أهل العلم [1] وهما :

أ- معية العلم والإحاطة: وهي حاصلة لجميع المخلوقات ، وتسمى المعية العامة ، وتقتضي علم الرب سبحانه وإحاطته بكل خلقه ، فهي من لوازم عظمته وسعته وهي المرادة في مثل قول الله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ [2]

فقوله : ﴿ إلا هو معهم ﴾ معية علم وإحاطة؛ ولذلك صدرت الآية بالعلم وختمت بالعلم ، وهذا بإجماع المسلمين من أهل السنة والاتباع كما قال الحافظ أبو عمر الطلمنكي [3] رحمه الله :

((أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ ونحو ذلك من القرآن : أنه علمه وأن الله تعالى فوق السماوات بذاته ، مستو على عرشه كيف شاء)) [4]

---

(1) انظر : مجموع الفتاوى ٥ / ١٠٣ وما بعدها

(2) سورة المجادلة / آية : ٧

(3) هو: أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الطلمنكي القرطبي الإمام الفقيه والمحدث الواسع الرواية، ألف مؤلفات نافعة كبارا ومختصرات منها كتاب : الدليل في معرفة الجليل وكتاب : البيان في إعراب القرآن ورسالة مختصرة في مذهب أهل السنة توفي سنة ٤٢٩ هـ بعد حياة حافلة بالعلم انظر: شجرة النور الزكية ص : ١١٣ تأليف / محمد بن محمد مخلوف ط/١، ١٣٤٩ هـ نشر دار الكتاب العربي .

(4) العلو للعلي الغفار للذهبي ص: ٢٤٦ تحقيق / أشرف عبد المقصود ط/١، ١٤١٦ هـ مكتبة أضواء السلف . وانظر : اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم تحقيق / د. عواد عبد الله المعتق ص : ١٤٢ ،ط/١ ١٤٠٨ هـ

= =

وهذه المعية لا توجب مخالطة بين الله وخلقه – تعالى الله وتقدس عن تأويل الجاهلين الذين ما قدروا الله حق قدره – فإن هذا خلاف ظاهر اللغة ((وذلك أن كلمة "مع" إذا أطلقت في اللغة فليس ظاهرها إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال)) [1] كما أنه خلاف مقتضى العقول الصحيحة ، والفطر السليمة ، التي توجب أن يكون الخالق مباينا للمخلوقات ، في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله .

ب – معية النصر والتأييد والولاية : وهي معية الله الخاصة بأوليائه وأهل طاعته من الأنبياء والمرسلين وسائر عباد الله الصالحين ، وهي المعنية في مثل قول الله تعالى لموسى وهارون، حين أرسلهما إلى فرعون وقومه ، فاعتذرا بما خافا وقوعه من فرعون ، من الاعتداء عليهما :

﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [3]

ومن الفروق بين النوعين أن أحدهما وهو المعية العامة تتضمن التخويف والتهديد، وتقتضي من العبد مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه سبحانه مطلع على أموره كلها، الظاهرة منها والخفية ، وبذا يكون دائم الحذر من أن يطلع الله منه على ما يكون سببا في سخطه عليه .

= =

مطابع الفرزدق التجارية الرياض .

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥ / ١٠٣

(2) سورة طه / آية : ٤٦

(3) سورة النحل / آية : ١٢٨ .

والثاني : وهو المعية الخاصة تتضمن طمأنة قلوب أولياء الله، فيفرحوا ويهنئوا بـأن الله تعالى معهم بمؤازرته ورعايته، ولاسيما عند حلول الشدائد والخطوب .

وإنما لزم حمل المعية الواردة في الحديث على المعية الخاصة ؛ لأن الحديث إنما سيق لبيان عظم شأن الذكر، والتنويه بالذاكرين، والإخبار عما لهم من فضل وميزة على غيرهم ، وعند حملها على المعية العامة لا يكون ثم تنويه بهم، ولا تفضيل لهم في ذلك؛ إذ يستوي فيها الغافل والذاكر، والبر والفاجر، بل والمؤمن والكافر كما تقدم .

قال الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: ((قوله : وأنا معه إذا ذكرني)) أي بعلمي وهو كقوله : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ ،والمعية المذكورة أخص من المعية في قوله تعالى : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... إلى قوله : ﴿ إلا هو معكم أينما كنتم ﴾))[1]

وهذا الحديث ، وآية سورة البقرة التي تقدمت، - أعني قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ - هما من أصرح الأدلة على فضل الذكر وأهله؛ إذ فيهما مقابلة الذكر بالذكر، وأي شرف وفضل للعبد مثل أن يذكره الله تعالى في الملأ الأعلى، ويباهي به الملائكة .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله :((قال بعض أهل العلم : يستفاد من هذا الحديث أن الذكر الخفي أفضل من الذكر الجهري والتقدير : إن ذكرني في نفسه ذكرته بثواب لا أطلع عليه أحدا وإن ذكرني جهرا ذكرته بثواب أطلع عليه الملأ الأعلى))[2] .

---

[1] فتح الباري ١٣ / ٣٨٦ .

[2] فتح الباري ١٣ / ٣٨٦ .

وهذا تأويل قصد به صاحبه التهرب من الإقرار بصفة النفس لله تعالى ، وكان الأولى بالحافظ رحمه الله أن ينبه على ذلك ، ويبين فساد هذا التأويل .

وما ذكره من دلالة الحديث على تفضيل الذكر النفسي على الذكر في الملأ ليست بظاهرة ، بل دلالته على تفضيل الذكر في الملأ أظهر ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رتب على ذلك ثمرتين عظيمتين :

إحداهما : ذكر الله للعبد .

الثانية : كون ذلك في ملأ خير من الملأ الذين ذكره العبد فيهم ، بينما الذكر النفسي لم يرتب عليه إلا أمرا واحدا وهو ذكر الله للعبد .

ومن الأحاديث الدالة على أهمية الذكر وعظم أمره في الدين : حديث أبي موسى الأشعري [1] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت)) [2] وهذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، وفيه من بيان فضل الذاكرين على غيرهم ما لا يخفى فلا يستوي الذاكرون والغافلون كما لا يستوي الأحياء والأموات .

---

(1) هو الصحابي الجليل عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار، اشتهر بكنيته أبي موسى، أسلم عام خيبر، وكان عامل النبي صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن من أرض اليمن، واستعمله عمر على البصرة، وأقره عليها عثمان ثم استعمله بعد على الكوفة، وكان رضي الله عنه أحد الحكمين بعد وقعة صفين ، مات بالكوفة سنة ٤٤ وقيل ٤٩ وقيل ٥٠ هـ انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٣ / ٣٦٤.
تحقيق / علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ط/ ١، ١٤١٥ هـ ، دار الكتب العلمية .

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب فضل الذكر ، ح : ٦٤٠٧ (١١ / ٢٠٨ فتح الباري) ومسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في البيت (٦ / ٦٨ شرح النووي) واللفظ للبخاري .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ((وقيل موقع التشبيه بالحي والميت لما في الحي من النفع لمن يواليه والضر لمن يعاديه وليس ذلك في الميت)) [1] .

ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال : ((سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيرا والذاكرات)) [2].

وأمثال هذه من الأحاديث الكثيرة المشتملة على بيان مكانة الذكر والإشادة بأهله وتفضيلهم على غيرهم، وبيان أهم هم السابقون .

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ يآأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ : ((يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكرا كثيرا من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير، وغير ذلك من كل قول فيه قربة إلى الله ، وأقل ذلك : أن يلازم الإنسان أوراد الصباح والمساء ، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب، وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف للسان عن الكلام القبيح)) [3].

ثانيا – فوائد الذكر :

في الفقرة السابقة ذكرت طائفة من النصوص القرآنية والحديثية المبينة عظم أمر الذكر، وفضل أهله المداومين عليه، وشيئا من كلام أهل العلم عليها، مما يدل على العناية البالغة التي أولاها الشارع الحكيم لشعيرة الذكر ،من التسبيح ،والتحميد ، والتهليل ،

---

(1) فتح الباري ١١ / ٢١١ .

(2) أخرجه مسلم في كتاب الذكر باب الحث على ذكر الله (١٧ / ٤ شرح النووي)

(3) تفسير السعدي ٦ / ١٢٩ .

والتكبير، وغيرها؛ لتضمنها المعاني العظيمة ،والدلالات العميقة الهادفة ، التي يحبها الله ويرضاها .

وقد تمثلت عناية الشارع بالذكر في وجوه كثيرة، أوصلها الإمام ابن القيم رحمه الله إلى عشرة أوجه .[1]

ولا شك أن هذه العناية الكبيرة التي حظيت بها شعيرة الذكر، والتي تمثلت في الأوجه العشرة السابقة؛ إنما هي للفوائد الكثيرة التي يجنيها الذاكرون من وراء مداومتهم على الذكر في العاجل والآجل .

وأود هنا تسجيل جملة من الفوائد العظيمة ،والثمرات المتحققة للذاكرين في الدنيا والآخرة، وذلك باختصار:

فمن فوائد الذكر : أنه يورث أهله الحياة الحقيقية، فالذاكرون هم الأحياء حقا، ومن سواهم أموات غير أحياء، كما تقدم في حديث أبي موسى المثل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للذاكر والغافل ، والمراد بالحياة في الحديث حياة القلوب، كما أن المراد بالموت موت القلوب ، فالذكر شأن أصحاب القلوب الحية ، ولاشك أن حياة القلوب أفضل وأولى بالعناية من حياة الأبدان التي يستوي فيها جميع الحيوانات ، وموت القلوب أضر وأعظم مفسدة من موت الأبدان، والغافلون عن ذكر الله هم موتى القلوب وإن كانوا أحياء بأبدانهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء)) [2]

---

[1] مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ٢ / ٤٢٤ – ٤٢٥ ، تحقيق الشيخ / محمد حامد الفقي ط/٣ ، ١٣٩٣ هـ، دار الكتاب العربي .

[2] نقلا عن الإمام ابن القيم في الوابل الصيب ص : ٨٥ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : ((ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لمقلوهم وقلوهم فيها كالأموات في القبور كما قيل :

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم   وأجسادهم قبل القبور قبور ٠

وأرواحهم في وحشة من جسومهم   وليس لهم حتى النشور نشور))٠ [1]

ومن فوائد الذكر : أنه يجعل أهله في زمرة السابقين عند الله تعالى، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : ((سبق المفردون)) ثم فسر المفردون بـ((الذاكرون الله كثيراً والذاكرات))، والسبق هنا مطلق عن ذكر المسبوق إليه، وذلك يفيد الإخبار عن سبقهم إلى كل ما يكون السبق إليه محموداً مرغوباً فيه ((فإن حذف المتعلق المعمول فيه يفيد تعميم المعنى المناسب له)) [2] وأعظم ذلك وأفضله السبق إلى مغفرة الله ورضوانه والذاكرون أولى الناس بذلك ٠

ومنها : أن الذكر يغرس في قلب الذاكر الشعور بعظمة الله ،وكبريائه ،فيمتلىء من مهابة الله ،وإجلاله، ومحبته، ويخرج منه كل ما سوى الله تعالى ،وهذا الذي يعينه على تحقيق العبودية لله عز وجل ،والتخلص من العبودية لغيره، كما يعينه على الامتثال الكامل لأوامر الله ونواهيه، فلا يترك شيئا مما أمر الله به ورسوله يقدر على فعله إلا فعله ،ولا شيئا مما نهى الله عنه ورسوله ،إلا تركه طمعاً في ثواب الطاعة ،وخوفا من عقوبة المعصية ، وهكذا يرتقي العبد في درجات العبودية ؛كلما حافظ على ذكر الله وواظب عليه ،حتى يصل إلى أن يكون أهلا لمحبة الله إياه ،فإذا أحبه ؛كان سمعه ،وبصره ،ويده ،ورجله ٠

ومنها : أن الذكر يجلب الرزق ،ويذهب الفقر والفاقة فقد دل القرآن الكريم على أن الاستغفار- وهو ضرب من الذكر- من أسباب الرزق قال الله تعالى عن نوح عليه السلام

---

(1) مدارج السالكين ٢ / ٤٣٠ ٠

(2) القواعد الحسان لتفسير القرآن، للشيخ عبد الرحمن بن سعدي ص : ٤٣ ((القاعدة الرابعة عشرة)) ط/١، ١٤٢٠ هـ مكتبة الرشد ٠

أنه قال لقومه : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ [1]

قال الإمام القرطبي رحمه : ((في هذه الآية والتي في هود [2] دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار)) [3]

وقال ابن كثير رحمه الله : ((قوله تعالى : ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ أي إذا تبتم إلى الله، واستغفرتموه، وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار،وخللها بالأنهار الجارية بينها)) [4].

وهذا لأن الاستغفار يدل على اعتراف العبد بذنبه، واستكانته لربه، وطمعه في رحمته وعفوه، ففيه جمع بين الخوف والرجاء، فلا غرو أن تكون له هذه النتائج الطيبة والعواقب الحميدة.

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا : ((من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب)) [5]

---

(1) سورة نوح / آية : ١٠ -١٢

(2) هي قوله تعالى ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ سورة هود / آية : ٥٢ .

(3) تفسير القرطبي : ١٨ / ٢٩٠ ، ط/ دار الحديث ، القاهرة .

(4) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٦ ، ط : دار الفكر بيروت ١٤٠١ هـ

(5) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٢٦١، ط/ المكتب الإسلامي، وأبو داود في سننه كتاب الصلاة "باب في الاستغفار ح: ١٥١٨ ، ٢ / ١٧٩ إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس ط/١، ١٣٨٩ هـ دار الحديث وابن

= =

ومن فوائد الذكر العاجلة : أنه يخلع على الذاكر ثوبا من المهابة والاحترام لدى الناس وهذه من الفوائد المتحققة التي لا تتخلف، فمن عظم الله تعالى وأجله بدوام ذكره ، والثناء عليه بما هو أهله، و بما شرعه من الأذكار، كان حريا بأن يجعل له الاحترام والقبول في قلوب عباده ، من دون أن يكون له سلطان يقهرهم به ،أو مال يسودهم به ،

ومنها : أن الذكر من أسباب زيادة الإيمان ونمائه وقوته في القلب .

قال الشيخ السعدي رحمه الله : ((ومن أسباب دواعي الإيمان : الإكثار من ذكر الله، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، فإن ذكر الله يغرس شجرة الإيمان في القلب ويغذيها وينميها ،وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوي إيمانه، كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي الإيمان بل هي روحه)) [1]

إذن : فالإيمان بالله وكثرة ذكره قرينان لا يفترقان، فكما أن الإيمان يبعث على الإكثار من ذكر الله، بل ذكر الله من أعظم علامات أهل الإيمان، ومن أخص صفاتهم، فكذلك الذكر يغذي الإيمان وينميه؛ لأنه يزيد من تعلق قلب الذاكر بالله عز وجل؛ فيزداد بذلك إيمانه ويقينه .

= =

ماجه في الأدب ، باب في الاستغفار ح : ٣٨١٩، ٢ / ١٢٥٤، وصححه الإمام الحاكم في المستدرك انظر : ٤ / ٢٦٢ .

وأورده الشيخ الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم : ٥٨٢٩، وكذا في ضعيف ابن ماجه برقم : ٨٣٤ .

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ص : ٣٢ ط/١، ١٤٠٦ هـ ، مكتبة دار الأقصى – الكويت .

ومنها : وهي أعظمها وأولاها بالسعي في تحصيلها، أن الذاكر يقابل بذكر الله تعالى إياه ،كما دل على ذلك القرآن والسنة ((ولو لم يكن في الذكر إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها فضلا وشرفا)) [1] وإذا كان ذكره لله في ملأ قوبل بذكر الله له في ملأ خير منهم، بل إنه قد صح أن الله يباهي بالذاكرين الملائكة، [2] وما ذلك إلا دليلا على رضاه عنهم ،ومحبته لهم ، وفرحه بعملهم .

ومنها : أن الذكر إذا كان مقرونا بالبكاء في الخلوة كان سببا في إظلال الله تعالى العبد في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما في حديث السبعة : ((ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)) [3] .

ومنها : أن المداومة عليه فيها الأمان من الغفلة عن الله تعالى التي هي أصل شقاوة العبد في الحال والمآل، أما في الحال فتؤدي إلى نسيان العبد نفسه وما يصلحها،كما قال الله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ [4]

قال ابن كثير رحمه الله : ((أي لا تنسوا ذكر الله تعالى؛ فينسيكم العمل الصالح الذي ينفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل)) [5] وأما في المآل فكما قال تعالى :

---

[1] الوابل الصيب ص : ٨٥ .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، (١٧ / ٢٣ من شرح النووي) .

[3] جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب الصدقة باليمين ، ح : ١٤٢٣ ، (٣ / ٢٩٢ فتح الباري) ومسلم في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة ، (٧ / ١٢٠ من شرح النووي) .

[4] سورة الحشر / آية : ١٩ .

[5] تفسير ابن كثير ٤ / ٣٤٣ .

﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (١) .

ومنها : أن مجالس الذكر رياض الجنة، كما أن الذكر غراس الجنة، ففي حديث جابر رضي الله عنه مرفوعا: ((إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا)) قلنا يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : ((مجالس الذكر)) (٢) وأما أن الذكر غراس الجنة فلما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لقيت ليلة أسري بي إبراهيم فقال لي : يا محمد ، أقرئ أمتك مني السلام ،وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ،عذبة الماء، وأنها قيعان ،وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)) (٣)

ومعنى كونها رياض الجنة : أنها تورث روادها تلك الرياض النضرة في الجنة، فالذكر باب عظيم من أبواب مرضاة الله تعالى عن العبد، ومن رضي الله عنه أرضاه، وجعله من ورثة الجنة التي فيها تلك الرياض .

ومنها : أن الذكر يكفر السيئات، ويمحوها بإذن الله ،كيف لا ! وقد قال الله تعالى :

---

(١) سورة طه / آية : ١٢٤ .

(٢) رواه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات ، باب : (٨٧) ح: ٣٥١٠ ، ٥ / ٥٣٢ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس ، سنن الترمذي : ٥ / ٥٣٣ ، ورواه الحاكم في المستدرك ١ / ٦٧٧، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قلت : عمر – يعني ابن عبد الله مولى غفرة – ضعيف ، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة برقم : (٢٥٦٢) لوروده من طريق أخرى تقويه ، وقال محقق الوابل الصيب لابن القيم ، الشيخ بشير محمد عيون ص : ٧٨ ، هامش (٢) : (وهو حديث حسن بطرقه وشواهده)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الدعوات ، باب : ٥٩ ح: ٣٤٦٢ . ٥ / ٥١٠ وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود– رضي الله عنه – وقال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم : ١٠٦ : (وهو حديث حسن بشواهده) .

﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [1] وذكر الله من أعظم الحسنات، بل هو أعظمها، كما دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، ومن أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ،ويضربوا أعناقكم))؟ قالوا: بلى يا رسول الله ، قال : ((ذكر الله تعالى)) [2]

هذه بعض الفوائد التي تجنى من ذكر الله تعالى، وهي غيض من فيض، وقطرة من بحر، من فوائد الذكر الكثيرة العظيمة، التي لا تعد إلا بكلفة، وحسبك أن الإمام ابن القيم رحمه الله ،ذكر أن لذكر الله أكثر من مائة فائدة، ثم شرع في سردها فائدة ،فائدة، حتى ذكر منها ثلاثا وسبعين فائدة، استدل على كثير منها بنصوص من الكتاب، والسنة، وآثار السلف .[3]

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا: أن هذه الفوائد المسرودة وغيرها، إنما تحصل بالذكر المشروع، الوارد في الكتاب والسنة أوفي أحدهما، كالتهليل ،والتسبيح ،والتحميد، والتكبير ،والحوقلة ،والحسبلة ، وغيرها .

وأما الأذكار المبتدعة، والأوراد المخترعة، التي لا أصل لها في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنها أحط من أن تثمر لأصحابها هذه الفوائد، بل إنها تحدث عكس ذلك، من تقسية القلوب، وإبعادها عن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ،كما هو الحاصل عند كثير من مبتدعة الصوفية وضلالهم، الذين اختلقوا لأنفسهم

---

[1] سورة هود / آية : ١١٤ .

[2] أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ / ١٩٥ والترمذي في سننه كتاب الدعوات باب (٦) ح : ٣٣٧٧ ٥ / ٤٥٩٠ ،والحاكم في المستدرك ١ / ٦٧٩ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وسكت عنه الذهبي ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم : (٥٥٢٠)

[3] انظر : الوابل الصيب ص : ٨٤ -١٦٧.

أذكارا، وافتعلوا أورادا استغنوا بها عما ورد في الكتاب والسنة، بل جعلوا ما أحدثوه أفضل مما شرعه الله في القرآن والسنة! ورتبوا عليه من الأجر والثواب ما لم يستندوا فيه إلى شيء من كتاب ولا سنة، بل هو من وحي الشيطان وزخرفته للباطل، وأعظم من ذلك أنهم يجعلون ما أحدثوه أذكار الخواص ، أو خواص الخواص ، أو العارفين .ويجعلون

الوارد في الكتاب والسنة أذكار العوام ،وهذا مع ما فيه من جرم الابتداع في دين الله ،فيه أيضا جريمة السخرية بشرع الله تعالى .

ومن أمثلة ذلك: إحداثهم الذكر بالاسم المفرد، مظهرا نحو : الله ، الله ، الله ... أو مضمرا نحو: هو ، هو ، هو، والذي لا يفيد معنى يعظم الله تعالى به ويثنى عليه به، كما تفيد الأذكار المأثورة نحو : سبحان الله ،والحمد لله ،ولا إله إلا الله ، والله أكبر، فإنها- على اختصار ألفاظها ومبانيها -كلمات طيبات مباركات تشتمل على معاني عظيمة، تتضمن توحيد الله، وإجلاله، والثناء عليه بما هو أهله .

وقد حاول بعض شيوخ الصوفية أن يعلل اقتصارهم على هذا النوع من الذكر، فـأتى بما يدل على الجهل بشرع الله تعالى .

قال ابن عربي[1] ((دخلت على شيخنا أبي العباس العرني من أهل العليا، وكان مستهترا بذكر الاسم المفرد (الله) لا يزيد عليه شيئا قلت له : يا سيدي ،لم لا تقول : "لا إله إلا الله"؟! فقال لي : يا ولدي ، الأنفاس بيد الله ما هي بيدي، فأخاف أن يقبض الله روحي عندما أقول "لا" أو "لا إله" فأقبض في وحشة النفي)) .

---

[1] هو : محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي الصوفي، الملقب : محي الدين !! قال الذهبي رحمه الله : " كان ذكيا كثير العلم ،كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب، ثم تزهد وتفرد، وتعبد وتوحد، وسافر وتجرد، ... ومن أردإ تواليفه كتاب " الفصوص" فإن كان لا كفر فيه فما في الدنيا كفر، نسأل الله العفو والنجاة، فوا غوثاه بالله ! توفي سنة ٦٣٨ هـ ، سير أعلام النبلاء ٢٣ / ٤٨ .

قال : ((وسألت شيخا آخر عن ذلك ؟ فقال لي : ما رأت عيني ولا سمعت أذني من يقول : أنا الله غير الله، فلم أجد من أنفي، فأقول كما سمعته يقول : "الله، الله")) [1] .

وقد رد العلماء على هذا النوع من الذكر، وبينوا ما فيه من المخالفة لما شرعه الله عز وجل، كما ردوا على التعليل الذي ذكروه ، وبينوا أنه لا يصلح أن يكون حجة لهم على هذه البدعة المنكرة ؛ إذ إنه استحسان محض لم يقم على اعتباره نص من الكتاب أو السنة، فكان ساقطا لا قيمة له ، مردودا على صاحبه من كان !!

قال القرطبي رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ [2] : ((قوله : ﴿ لا إله إلا هو﴾ : نفي وإثبات ، أولها كفر [3] وآخرها إيمان ، ومعناه : لا معبود إلا الله ، وحكي عن الشبلي [4] رحمه الله أنه كان يقول : "الله" ولا يقول:

"لا إله إلا الله" ! فسئل عن ذلك ؟ فقال: أخشى أن آخذ في كلمة الجحود ولا أصل إلى كلمة الإقرار ،- قال القرطبي :- وهذا من علومهم الدقيقة التي ليست لها حقيقة، فإن الله جل اسمه ذكر هذا المعنى في كتابه نفيا وإثباتا، وكرره ووعد بالثواب الجزيل لقائله، على

---

(1) الفتوحات المكية لابن عربي ٥ / ١٢٤ –١٢٥ ، تحقيق وتقديم الدكتور/ عثمان يحي ، المكتبة العربية –القاهرة ١٣٩٧ هـ .

(2) سورة البقرة / آية : ١٦٣ .

(3) يعني لو أن أحداً قال (لا إله) واقتصر على ذلك معتقداً نفي الإله مطلقاً – كما هو قول الملاحدة المنكرين للإله – فإنه يكفر بذلك .

(4) هو أبو بكر البغدادي ، واسمه : دلف بن جحدر ، وقيل : جعفر بن يونس ، وقيل : جعفر بن دلف، أصله من قرية : ((الشبلية)) وإليها ينسب ، وولد بسامراء ، قال الذهبي رحمه الله : ((كان فقيها عارفا بمذهب مالك ، وكتب الحديث عن طائفة ، وقال الشعر ، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن ، لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسكر ؛ فيقول أشياء يعتذر عنه ، فيها بأو لا تكون قدوة)) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٣٦٧ ، توفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ .

لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ...والمقصود القلب لا اللسان فلو قال :" لا إله " ومات ومعتقده وضميره الوحدانية، وما يجب له من الصفات ، لكان من أهل الجنة باتفاق أهل السنة)) [1]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً، فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي ،ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً،وإنما يعطيه تصوراً مطلقا، لا يحكم عليه بنفي

ولا إثبات، والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه ، لاما تكون الفائدة حاصلة بغيره)) [2]

وقال رحمه الله في الجواب عما ذكروه من تعليل، وهو خوف مفاجأة الموت بين النفي والإثبات :

((وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال : أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، حال لا يقتدى فيها بصاحبها، فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به؛ إذ لو مات العبد في هذه الحال لم يمت إلا على ما قصده ونواه؛ إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتلقين الميت "لا إله إلا الله " وقال : ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة))[3]

---

[1] تفسير القرطبي ٢ / ١٩٥ –١٩٦ ط/ دار الحديث ، القاهرة .

[2] العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص :١٢٥– ١٢٦ تحقيق الشيخ / علي حسن عبد الحميد ط/٢ ، ١٤١٩ هـ دار الأصالة .

[3] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥ / ٢٣٣ ، و أبو داود في سننه كتاب الجنائز باب في التلقين ح : ٣١١٦ ، ٣ / ٤٨٦ ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع الصغير وزياداته رقم : ٦٤٧٩ ، ٢ / ١١٠٥ ، ط/٣ ، المكتب الإسلامي ، وكذا في صحيح سنن أبي داود ٢ / ٦٠٢ .

ولو كان ما ذكروه محذوراً ؛ لم يلقن الميت كلمة يخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد)) [1]

والمقصود : بيان ما للذكر المشروع كالتهليل، والتكبير، ونحوهما، من فوائد جمة؛ لاشتمالها على المعاني الجليلة التي امتدح الله تعالى بها، والصفات الكاملة التي اتصف بها، الدالة على كمال الموصوف بها وكبريائه .

وأما الأذكار المحدثة : فإنها لا تنفع بل تضر ، لاسيما إذا اعتقد صاحبها الاستغناء بها ؛ لكونها أفضل من الوارد في الكتاب والسنة ،! وذلك لأن الذكر عبادة فلا بد أن يخضع لأصلي العبادة، وهما :

أ- أن لا يعبد إلا الله .

ب - وأن لا يعبد الله إلا بما شرعه في كتابه أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا بالبدع، والآراء المستحسنة ،التي لم يترل الله بها سلطانا .

وفيما يلي : بعض الضوابط المهمة التي ينبغي مراعاتها عند الاشتغال بذكر الله عز وجل :

١ - ألا يكون الذكر مخالفاً لما ورد عن الشارع؛ كأن يتضمن معاني فاسدة لا تليق بمقام الثناء على الله عز وجل، أو يشتمل على أمور شركية تنافي التوحيد أو كماله الواجب .

٢ - أن يراعى فيه العدد والزمن في حالة ورودهما من الشارع ، وعدم تحديد عدد أو زمن معين ما لم يرد .

٣ - أن لا يرتب الذاكر أجراً محدداً من قبل نفسه ؛ فإن ذلك من اختصاص الشارع، هذا مع اليقين بأن الذكر الوارد عن الشارع لا يخلو من الأجر وإن لم يحدد .

---

[1] العبودية ص : ١٢٦- ١٢٧ .

٤- أن لا يكون جهراً على صورة المناداة ؛ لورود النهي عن ذلك، ولأنه يوحي بأن من يخاطبه الذاكر بعيد عنه ،ولما فيه من إيذاء الآخرين، ويستثنى من ذلك ما ورد النص بمشروعية رفع الصوت به ،كالتلبية للحاج ،وكالذكر بعد الصلاة ،والتكبير في الحرب ، وفي العيدين، ونحوها .

٥- أن لا يضاف إليه شيء من الكيفيات، ولا يعتقد فيه شيء من الاعتقادات التي لم تنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه المكلف بالبيان وقد فعل [1]

وإذا كان للذكر عموما تلك الفوائد التي تقدم ذكر شيء يسير منها، فإن للتكبير- وهو من جملة الأذكار- فوائد أخرى، تنتج عن معرفة العبد لمعناها، واعتقاده له ،وعمله بمقتضاه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى أكبر وأعظم وأجل وأعلى من كل شيء ، فإذا امتلأ قلبه من هذا أثمر له فوائد عظيمة جداً في إيمانه وأخلاقه ، وسلوكه في نفسه ،وفي تعامله مع غيره .

ومن هذه الفوائد :

أولاً : إفراد الله تعالى بالخوف والرجاء ،فالقلب الممتلئ من معرفة معنى " الله أكبر " يستحيل أن يخاف غير الله، أو يرجو سواه؛ لأن علمه بأنه سبحانه أكبر من كل شيء يورثه اليقين بأن الأمن من المخوف، وحصول المرجو المؤمل، لا يكون إلا بالله تعالى الكبير العظيم، الذي من كبريائه أن أزمة الأمور كلها بيده، فبدونه لا تحصل نعمة، ولا تندفع نقمة، فهو النافع الضار وحده، ومن كان كذلك فهو الحقيق بأن يخاف ويرجى، ومن سواه ليس أهلا لشيء من ذلك .

ثانياً : صدق التوكل عليه، وقلة الالتفات إلى غيره، لأن كل من سواه بالنسبة إليه صغير فقير، لا يملك من أمر نفسه شيئا فضلا عن غيره، فإذا عرف العبد هذا الأمر العظيم

---

[1] انظر: تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة للدكتور / محمد أحمد لوح ١ / ٢٧٧ – ٢٧٨ ، ط/١، ١٤١٦هـ ، دار الهجرة للنشر والتوزيع .

وهو كونه سبحانه أكبر من كل شيء، أفرده تعالى بالتوكل عليه، الذي هو من مقتضيات علمه بأكبريته من كل شيء ؛وفوض جميع أموره الصغيرة والكبيرة إليه، واتخذه وكيلاً ،وكفى بالله وكيلاً .

ثالثا : الشعور بضرورة الاستعانة به على مشاق الحياة وصعوباتها ؛لأنها بالنسبة إلى كبريائه سهلة ويسيرة؛ لأنه الكبير بل هو الأكبر، ومقتضى ذلك أن كل أمر عليه هين ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ [1]

فاستشعار العبد لعظمة الله وكبريائه المطلقة ،التي تدل عليها كلمة "التكبير "يجعله لا يفزع في الملمات إلا إليه ،ولا يستعين على إزالة ما يكرهه إلا به .

ولما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعمق الناس شعوراً بعظمة الله وكبريائه ،وبما تقتضيه هذه الصفة من مقتضيات- من ذلك : قدرته على كل شيء، وخضوع جميع الأشياء لقهره وقدرته – كانوا أشدهم استعانة به فيما ينوبهم من الأمور العامة والخاصة .

فهذا نبي الله نوح عليه السلام الذي لبث في قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى توحيد الله ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، فلم يزدهم دعوته إياهم إلا عناداً واستكباراً، فلما استعصوا عليه، وتحدوه بأن يأتيهم بما يعدهم به من العذاب العاجل، وأيس منهم ،توجه إلى الكبير المتعال، العظيم الشأن ،لعلمه بأنه الذي خضعت لعظمته وكبريائه جميع الكائنات، وهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ،فكفله الله وشفا غيظه منهم ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .

ونبي الله شعيب عليه السلام، لما هدده قومه بإخراجه هو والمؤمنين معه من قريتهم أو يعودوا في ملتهم – ملة الكفر والبغي والصد عن سبيل الله – توجه إلى الله واستعان به عليهم؛ لأنه يعلم أنهم مهما بلغوا من القوة والجبروت، فإن ذلك في جنب عظمة الله

---

(1) سورة يس / آية : ٨٢

وكبريائه كلا شيء ؛إذ هو الأكبر من كل شيء ،وقال كما حكى القرآن عنه: ﴿ ربنـــا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ فاستجاب الله له وكفاه أمرهـم، ﴿ فأخذهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ [1]

ونبي الله موسى عليه السلام لما قال له قومه: ﴿ إنا لمدركون ﴾ خوفاً من فرعـــون وملأه، لجأ إلى الله وفوض إليه أمره وقال : ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ [2].

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان من هديه المروي عنه أنه ((إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة)) [3]لأن في الصلاة مناجاة العبد لربه، ففيها طمأنينة القلب، والشعور بالقرب من الله تعالى، وهكذا كان الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام؛ لكمال علمهم بكبريـــاء الله وقدرته، قال الله عنهم : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ [4]

ولما ضعف هذا الإحساس ، أعني الشعور بأكبرية الله من كل شيء ، وخضوع جميع الكائنات – ناطقها وبهيمها حيها وجمادها- لعظمته وكبريائه، في قلـــوب كثـــير مـــن المسلمين اليوم، وصار نظر أكثرهم وإكبارهم للماديات فقط؛ قلـــت اســـتعانتهم بـــالله وضعف توجههم بقلوبهم إليه، فصاروا في واقع لا يحسدون عليه، بل يعزون !ولن يرفـــع عنهم ذلك حتى يقوى هذا الشعور في قلوبهم " الله أكبر " كلمـــة يقولونهـــا بألســـنتهم، وتعتقد معناها قلوبهم، وتعمل جوارحهم بمقتضياتها ولوازمها .

---

[1] سورة الأعراف / آية : ٨٩ – ٩١ .

[2] سورة الشعراء / آية : ٦١ –٦٢ .

[3] أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٢٠٦ و ٥ / ٣٨٨ وأبو داود في سننه كتاب الصلاة باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل ح : ١٣١٩ ، ٢ / ٧٨ قال الشيخ الألباني : (حسن) أنظر : صحيح أبي داود ١ / ٢٤٥ .

[4] سورة الأحزاب / آية : ٣٩ .

ومن فوائد استشعار معنى" التكبير " دوام المراقبة لله عز وجل، والحذر منه في السر والعلانية ؛لأنه يورث قلب العبد العلم بإحاطة علم الله تعالى بجميع الأمور دقها وجلها، فلا تخفى عليه خافية، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، وهذا موجب عظمته وكبريائه .

فليت المسلمين اليوم أدركوا حقيقة معنى ((الله أكبر)) فيفردوا الله تعالى بالخوف والرجاء، والاستعانة والتوكل، ويداوموا مراقبته، ويصغر في قلوبهم كل ما سواه، وبذلك وحده يعود لهم مجدهم المسلوب، وعزهم الذاهب، ويرتفع عنهم هذا الذل والهوان الذي يعانون منه ،والذي سببه إعراضهم عن الله؛ لجهلهم بعظمته وكبريائه، وقدرته وقهره لكل شيء، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ولنا عبرة في سلفنا الماضين، فقد حاربوا شعوبا كثيرة ،كانت أقوى منهم في جميع ما يحتاج إليه القتال ،من عَدد وعُدة، وسلاح وكراع، وحصون وقلاع، ولكنهم قاتلوهم وقهروهم حتى أخضعوهم لدين الله وحكمه، وحرروا الشعوب المستعبدة لغير ربها الواحد الأحد، [1] وسلاحهم الأكبر في كل ذلك : هو الإيمان الذي امتلأت منه قلوبهم ؛فأيقنوا أن الله أكبر وأقوى من كل ما سواه،وأن كل ما سواه فقير محتاج إليه احتياجا ذاتيا لا ينفك عنه .

---

[1] انظر تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ١ / ٥ ، ط/٢ ، دار المعرفة .

ثالثاً- صلة الذكر بالعقيدة :

علاقة الأذكار الشرعية بالعقيدة ، علاقة تضمن واحتواء ، فألفاظ الذكر المشروع تحتوى على العقيدة الحقة، والتوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، ويتبين لنا ذلك بوضوح باستعراض سريع لجملة من ألفاظ الأذكار الشرعية، والنظر في معانيها ودلالاتها، وليكن تلك الكلمات الأربع التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها أفضل الكلام وأحبه إلى الله تعالى بعد القرآن الكريم [1] وهي التسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير .

فهذه الكلمات الأربع، كل واحدة منها تشتمل على معاني ودلالات اعتقادية عظيمة يجب اعتقادها في الله عز وجل .

فأما التسبيح: فيعني تتريه الله وتقديسه عن كل سوء وعيب ونقص، على وجه التعظيم والإجلال، وهو مأخوذ من السبح، بمعنى الجري والذهاب، فالمسبح جار في تتريه الله وتبرئته من السوء [2] والنقائص وجميع العيوب التي لا تليق به سبحانه، فيلزم من ذلك نفي الشريك، والصاحبة، والولد، وجميع الرذائل [3] التي تتنافى مع استحقاق التفرد بالربوبية والألوهية ،كما تتنافى مع ما تقتضيه حقائق أسمائه وصفاته .

ونظراً لهذه المعاني العظيمة التي تنطوي عليه هذه الكلمة، فقد سبح الله نفسه في مواضع كثيرة من كتابه العزيز؛ رداً على الذين يصفونه بما يقتضي النقص والعيب، كقوله في الرد على من زعموا أن له ولداً : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ [4] وقوله : ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ [5]

---

[1] انظر : صحيح مسلم كتاب الآداب باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة (١٤ / ١١٧ شرح النووي)

[2] انظر : القاموس المحيط مادة : (سبح) ١ / ٢٣٤ دار الجيل

[3] انظر : فتح الباري ١١ / ٢٠٦

[4] سورة البقرة / آية : ١١٦

[5] سورة الأنعام / آية : ١٠٠

وقوله: ﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ [1] فسبح سبحانه نفسه عن الولد والشريك، كما سبح نفسه عن قول من وصفه بغير ما يليق به ،وفي ذلك رد على طائفتي المعطلة والمشبهة، فإن كلاً منهما يصفونه بالعيب والنقص، فالمعطلة وصفوه بما يقتضي عدمه، كقول من لا يصفه إلا بالسلب، أو بما يقتضي امتناعه، كقول من ينفي عنه النقيضين .

وأما المشبهة: فإنهم جعلوا صفاته كصفات خلقه الناقصين بالذات سبحان الله وتعالى عن قول الطائفتين علواً كبيراً ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [2]

كما أخبر سبحانه عن ملائكته الكرام أنهم لاينفكون عن تسبيحه ليل نهار، فقال تعالى : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ [3] وقال : ﴿ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ﴾ [4]

وكما حكى عن أنبيائه ورسله عنايتهم بالتسبيح، فقال عن نبيه يونس عليه السلام لما كان في بطن الحوت:﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ [5]

يعني أن إنجاء الله تعالى إياه من بطن الحوت في ظلمات البحر؛ كان لكثرة تسبيحه .

وقال عن موسى عليه السلام أنه قال : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ [6]

فكان طلبه للوزير المعين من أجل أن يكثرا من تسبيح الله تعالى ومن ذكره .

---

(1) سورة التوبة / آية : ٣١

(2) سورة الشورى / آية : ١١

(3) سورة الأنبياء / آية : ٢٠

(4) سورة فصلت / آية : ٣٨

(5) سورة الصافات / آية : ١٤٣ –١٤٤

(6) سورة طه / آية : ٢٩ – ٣٤

وأمر الله نبيه زكريا عليه السلام بأن يكثر من ذكره وتسبيحه، فقال : ﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾ (١)

وأمر به نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم مرات كثيرة، وفي مقامات وأحوال مختلفة، كل ذلك يدل على محبة الله لهذه الكلمة؛ لما اشتملت عليه من معاني توحيده وتعظيمه وتقديسه عما لا يليق بجلاله وعظمته وكبريائه، من العيوب والنقائص التي تنافي كماله المطلق .

وأما التحميد : فهو الثناء على الله بالجميل، على جهة التعظيم والتبجيل (٢)

وهو يعني اعتراف العبد الدائم بأن النعم المتوالية عليه إنما هي من الله تعالى لا غير، وأنه سبحانه يستحق عليها كمال الحمد ، وهذا توحيد من العبد لربه بقدرته على المنع والإعطاء، كما أن التحميد يتضمن الإقرار بتوحيد الأسماء والصفات ، فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه ، من صفات كماله ونعوت جلاله ، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق، ومن أجل تضمن الحمد للتوحيد الواجب لله تعالى، فقد كثر في القرآن الكريم الاعتناء به ، وافتتح الله به عدداً من سور القرآن من ذلك :

سورة الفاتحة أعظم سور القرآن قال الله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وسورة الأنعام ، وسورة الكهف ، وسورة سبأ ، وسورة فاطر . وهذا يتضمن أمره سبحانه عباده بأن يحمدوه ويثنوا عليه بمحامده، فكأنه يقول لهم : " قولوا الحمد لله " (٣) بل لقد أمر الله عباده بحمده أمراً صريحاً في بعض الآيات، كقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً . . . ﴾ (٤) وقوله : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما

---

(١) سورة آل عمران / آية : ٤١

(٢) انظر : المصباح المنير للفيومي ص : ١٥٠ تحقيق الدكتور / عبد العظيم الشناوي ، دار المعارف .

(٣) انظر : تفسير الطبري ١ / ٩١

(٤) سورة الإسراء / آية : ١١١

ربك بغافل عما تعملون ﴾ [1] وقوله ﴿ فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾ [2] وقوله : ﴿ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ [3]

وأما التهليل : فهي الكلمة التي قامت بها السماوات والأرض ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والعرض في الدنيا ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق به ، وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ، ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهي العمود الحامل للفرض والسنة ، و((من كان آخر كلامه " لا إله إلا الله" دخل الجنة)) [4] [5]

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، أي لايستحق العبادة بجميع أنواعها الظاهرة والباطنة إلا الله تعالى ، فهي كلمة التوحيد وإنما سميت بذلك لدلالتها على أعظم ما يجب توحيد الله به وهو العبادة ، فهي تعني إخلاص العبادة وتجريدها لله تبارك وتعالى ٠

وهي كلمة التقوى في قول الله تعالى : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾ [6]

---

(1) سورة النمل / آية : ٩٣

(2) سورة المؤمنون / آية : ٢٨

(3) سورة العنكبوت / آية : ٦٣

(4) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الجنائز باب في التلقين ح : ٣١١٦ ، ٣ / ٤٨٦ والإمام أحمد في المسند ٥ / ٢٣٣، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته برقم : ٦٤٧٩ ، ٢ / ١١٠٥،ط/ ٣ المكتب الإسلامي وانظر : صحيح أبي داود ٢ / ٦٠٢

(5) وانظر : الجواب الكافي لابن القيم ص : ٢٦٥ ط/٢ ، ١٤١٧ هـ دار اليقين

(6) سورة الفتح / آية : ٢٦

قال مجاهد : (كلمة التقوى : لا إله إلا الله)[1] وهي كلمة الله العليا [2] وهي الكلمة الباقية في قوله تعالى : ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ [3]

وقال الله تعالى : ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ [4] أي التوحيد والخلق والأمر ونفي كل إلـه سواه ، وترجم عن ذلك كله بقول "لا إله إلا الله " [5] ؛ ولهذا كله كانت "لا إلهَ إلا الله " أفضل الأذكار ، وأحسن الحسنات ، وأفضل ما قاله الأولون والآخرون ، كما قال النـبي صلى الله عليه وسلم ((أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي " لا إله إلا الله ")) [6]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعـها من الدين فوق ما يصفه الواصفون، ويعرفه العارفون،وهي حقيقة الأمر كله، كما قـــال سبحانه: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنــــه لا إلـــه إلا أنـــا فاعبدون ﴾)) [7]

---

(1) أورده البخاري في كتاب الأيمان والنذور باب : إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى أو سبح أو كبر أو حمد أو هلل فهو على نيته . قال الحافظ ابن حجر : وقد جاء مرفوعا من أحاديث جماعة من الصحابة منهم : أبي بن كعب و أبو هريرة وابن عباس وسلمة بن الأكوع وابن عمر أخرجها كلها أبو بكر بن مردويه . فتح الباري ١١ / ٥٦٦

(2) انظر : تفسير الطبري ٦ / ٣٧٦ .

(3) سورة الزخرف / آية : ٢٨ وانظر : تفسير الطبري ١١ / ١٧٩ .

(4) سورة الروم / آية : ٢٧

(5) انظر : شرح السنة للبغوي ٥ / ٥٣ تحقيق / شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش ط/ المكتب الإسلامي

(6) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب القرآن باب ما جاء في الدعاء ح : ٣٢ من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز مرسلاً ١ / ٢١٥ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي ١٤٠٦ هـــ وأخرجه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كتاب الدعوات باب في دعاء يوم عرفة ح: ٣٥٨٥ ، ٥ / ٥٧٢ وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقال الشيخ الألباني عن إسناد مالك : وهذا إسناد مرسلٌ صحيح وقد وصله ابن عدي و البيهقي في الشعب عن أبي هريرة مرفوعاً به ... وجملة القول : أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد ، والله أعلم . السلسلة الصحيحة ٤ / ٦ – ٨ ط / مكتبة المعارف .

(7) سورة الأنبياء / آية : ٢٤ وانظر : مجموع الفتاوى ٢ / ٢٥٦

وأما التكبير: فهي أيضا من الكلمات الدالة على التوحيد والتعظيم لله عز وجل وسيأتي مزيد تفصيل عن معناها، ودلالاتها العقدية في المباحث القادمة من البحث-إن شاء الله تعالى .

وقس على هذه الأربع : سائر ألفاظ الأذكار المشروعة ،كالحوقلة ، والحسبلة والاستغفار تجدها كلها مشتملة على العقيدة الصحيحة ، مفيدة التوحيد الخالص لله تعالى في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته .

وندرك من هذا قوة العلاقة والصلة بين الذكر وبين عقيدة التوحيد، وأن لفظ الذكر كلما كان أبلغ في الدلالة على التوحيد وبيانه؛ كان أعظم وأفضل عند الله تعالى، ومن هنا حق لهذه الكلمات الأربع أن تتبوأ هذه المكانة السامية ، والمترلة الرفيعة في الدين ، وهي كونها أفضل الكلام، وأحبه إلى الله تعالى بعد القرآن الكريم؛ لقوة دلالتها على توحيد الله، وتعظيمه، وتقديسه، وإثبات كماله المطلق .

الباب الأول :

معنى التكبير ،وأهميته، ومواطن مشروعية لفظة "التكبير"

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : معنى التكبير لغة وشرعا :

الفصل الثاني : أهمية التكبير ، ودرجاته :

الفصل الثالث : ذكر بعض المواطن التي شرع فيها لفظ "التكبير":

الفصل الأول :

معنى التكبير ومدلوله :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : معنى التكبير لغة :

التكبير في اللغة : مصدر الفعل : "كبّر يكبّر-المضعّف- تكبيراً " ومعناه: التعظيم، والإجلال ،والتقدير .

ومنه سمي رئيس القوم كبيرهم؛ لأنه المعظم ،والمقدر عندهم .

قال الله تعالى : عن فرعون أنه قال للسحرة لما الهزموا أمام موسى عليه السلام ومعجزته التي أيده الله بها، وأعلنوا إيمانهم بالله عز وجل : ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ [1] والمعنى : رئيسكم [2]

وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ [3]

أي رؤساءها،ومن هذا يقال:ورثه كابراً عن كابر أي أباً كبيَر القدر عن أبٍ مثله [4]

ومنه الكبرياء : وهي العظمة والملك، قال تعالى: ﴿ قالوا أجئتنالتلفتنا عما وجدنا عليه ءاباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض ...﴾ [5] والمعنى : الملك والسلطان [6]

وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود ولا يوصف بها إلا الله تعالى [7]

---

(1) سورة طه / آية : ٧١ .

(2) انظر : المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص : ٦٩٦ تحقيق / صفوان عدنان داودي ط/١، دار القلم .

(3) سورة الأنعام / آية : ١٢٣ .

(4) المفردات للراغب ص : ٦٩٦ .

(5) سورة يونس / آية : ٧٨ .

(6) انظر : تفسير الطبري ٦ / ٥٨٩ ، ومعاني القرآن لأبي جعفر النحاس ٣ / ٣٠٨ ، تحقيق / محمد علي الصابوني ، ط/١، ١٤٠٩ هـ جامعة أم القرى- مكة المكرمة .

(7) لسان العرب لابن منظور الإفريقي . ١٢ / ١٢ . ط/ دار إحياء التراث العربي .

المبحث الثاني :

معنى التكبير شرعا :

التكبير شرعاً : يراد به كلمة " الله أكبر " التي تعني تخصيص الرب عز وجل بوصفه بالكبرياء والعظمة والجلال، اعتقاداً ،وقولا ،وعملاً ،وتتريهه عما يقول فيه عبدة الأوثان وسائر الظالمين من المعطلة والمشبهة وغيرهم .

وعلى هذا فالتكبير : هو تعظيم الله جل وعلا وإجلاله واعتقاد أنه أكبر وأعظم وأجل من كل شيء ذاتا وقدرا، وأنه الذي يصغر دون جلاله وعظمته وكبريائه كل كبير، فهو الذي خضعت لعظمته الرقاب،وعنت لكبريائه الوجوه، وذلت لجبروته وقهره الجبابرة العتاة، ودانت له الخلائق كلها واستكانت ، وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه الكوني جميع المخلوقات، وانفرد بالتدبير والتصرف فيها، واستغنى عن كل شيء ،وافتقر إليه كل شيء افتقاراً ذاتيا مستمراً، فلا غنى لشيء عنه طرفة عين ،وهو عن كل شيء غني [(١)]

قال ابن العربي المالكي[(٢)] : ((التكبير : هو التعظيم – حسبما بيناه في كتاب الأمد الأقصى – ومعناه : ذكر الله بأعظم صفاته بالقلب، والثناء عليه باللسان، بأقصى غاية المدح والبيان، والخضوع له بغاية العبادة، كالسجود له ذلة وخضوعاً)) [(٣)]

---

(١) انظر : فقه الأدعية والأذكار د. عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد ص : ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ط/١ ، ١٤١٩ هـ ، دار ابن عفان .

(٢) هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي ، كان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها، والجمع لها، متقدما في كثير من المعارف، حريصا على أداء العلم ونشره ، ويجمع إلى ذلك كله الأخلاق الفاضلة الرفيعة ، له مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه ووفور فضله منها : عارضة الأحوزي شرح سنن الترمذي ، وكتاب : أحكام القرآن ، والعواصم من القواصم وغيرها توفي سنة ٥٤٣ هـ انظر : الديباج المذهب لابن فرحون ٢ / ٢٥٢ ، تحقيق الدكتور / محمد الأحمدي أبو النور ، ط/ دار التراث ، وشجرة النور الزكية رقم : ٤٠٨ ص : ١٣٦ ، ط/ دار الكتاب العربي .

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ١٨٨٦ ، تحقيق / علي محمد البجاوي ، مطبعة الحلبي ، ١٣٩٤هـ .

وهذا يدل على أن التكبير التام ليس هو قول اللسان فقط، بل هو قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح بمقتضى ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ [1]

قال البغوي في قوله تعالى : ﴿ وكبره تكبير ﴾ ((أي : وعظمه عن أن يكون له شريك أو ولي)) [2]

وقال القرطبي : ((أي عظمه عظمة تامة، ويقال : أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: " الله أكبر "، أي : صفه بأنه أكبر من كل شيء .

قال الشاعر :

رأيت الله أكبر كل شيء   محاولة وأكثرهم جنودا)) [3]

وقال أي القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وربك فكبر ﴾ [4] ((أي سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظم وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد)) [5]

وهذا يدل على أن" التكبير" كما يدل على إثبات الكمالات كلها لله تعالى يتضمن أيضا تنزيهه عما لا يليق به، من العيوب والنقائص، كالصاحبة والولد والشريك وغيرها ،

ويلاحظ في آية الإسراء السابقة أن الله تعالى نفى أن يكون له ولي من الذل أي من أجل الذل المقتضي للحاجة والافتقار إلى الغير، فإن ذلك يتنافى مع كونه سبحانه أكبر من كل شيء، فالله تعالى أكبر وأعظم من أن يحتاج إلى شيء البتة، لأن مقتضى كبريائه وعظمته كمال غناه عن كل ما سواه، وحاجة كل شيء إليه، فولايته لغيره إذا لا من حاجة منه إليه سبحانه .

---

(1) سورة الإسراء / آية : ١١١ .

(2) تفسير البغوي " معالم التنزيل " ٥ / ١٣٩ .

(3) تفسير القرطبي : ١٠ / ٣٥٢ .

(4) سورة المدثر / آية : ٣

(5) تفسير القرطبي ١٩ / ٦١ .

وقد أثبت سبحانه لنفسه نوعاً آخر من الولاية كما في قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [١] وغيرها من الآيات

وقوله في الحديث القدسي ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ...)) الحديث [٢]

فالولاية المثبتة في الآية والحديث: هي ولاية المحبة والنصرة والتأييد للمؤمنين المتقين والمنفية هي ولاية الذلّ والضعف والحاجة، التي يتنزه الله عنها ويتعاظم ،وتتنافى مع ما تقتضيه أسماؤه الحسنى ، وصفاته العلى ، ومنها صفة الكبرياء والعظمة ،

فالأولى صفة كمال ومدح، لأنها من مقتضيات رحمته ولطفه، وحكمته،وهو سبحانه أولى بكل كمال .

والثانية صفة نقص وضعف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكلمة "الله أكبر" : فيها لأهل اللغة قولان :كما قال الإمام الأزهري [٣] رحمه الله :

((وقول المصلي : "الله أكبر " وكذلك قول المؤذن فيه قولان :

أحدهما : أن معناه كبير ،كقول الله عزّ وجلّ:﴿ وهو أهون عليه ﴾ [٤] أي: هين عليه، ومثله : قول معن بن أوس :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل)) [٥]

ومعنى هذا الكلام أن صيغة "أفعل" في" الله أكبر": ليست على بابها من التفضيل وإنما هي لمجرد الوصف بالكبرياء وليس فيها تفضيل .

---

[١] سورة يونس / آية : ٦٢ –٦٣ .

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب التواضع ح : ٦٥٠٢ (١١ / ٣٤٠ فتح الباري)

[٣] هو : أبو منصور محمد بن أحمد بن طلحة بن نوح بن الأزهر الأزهري الهروي الشافعي ، ولد بهراة سنة ٢٨٢ هـ قال السبكي (كان إماماً في اللغة بصيراً بالفقه عارفاً بالمذهب عالي الإسناد ثخين الورع كثير العبادة والمراقبة، شديد الانتصار لألفاظ الشافعي متحرياً في دينه) توفي الأزهري سنة : ٣٧٠ وقيل ٣٧١ هـ أنظر : طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ٣ / ٦٣ –٦٨ تحقيق / محمود محمد الطناحي .

[٤] سورة الروم / آية : ٢٧

[٥] تهذيب اللغة للأزهري ١٠ / ٢١٤ - ٢١٥ ، تحقيق الأستاذ / علي حسن هلالي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

قال الفيومي :((ويكون "أكبر" بمعنى"كبير" تقول:"الأكبر، والأصغر" أي الكبير والصغير، ومنه عند بعضهم:"الله أكبر" أي كبير، وعند بعضهم:"الله أكبرمن كل كبير))[1]

قال الأزهري :((والقول الآخر : أن فيه ضميراً والمعنى : الله أكبر كبير، وكذلك الله أعز : أي أعز عزيز، قال الفرزدق [2]

إن الذي سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول [3].

معناه : أعز عزيز، وأطول طويل)).[4]

ولا شك في أن أصح القولين، وأولاهما بالصواب : هو الثاني ؛ لأنه اللائق بمقام الثناء، والتعظيم، والتمجيد الذي يستحقه الرب جل وعلا ،

وأما القول الأول الذي جعل "أكبر" بمعنى كبير، فليس هو معنى "الله أكبر" إذ ليس فيه من التعظيم، والثناء ما في القول الثاني، فلا يحسن حمل "أكبر" عليه، وإن كان ذلك سائغاً لغةً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في إبطال هذا القول :

((التكبير يراد به أن يكون الله عند العبد أكبر من كل شيء، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم رضي الله عنه : ((يا عدي ، ما يُفِرُّكَ ؟! أيُفِرُّك أن يقال لا

---

(1) المصباح المنير ص : ٥٢٤ تحقيق الدكتور / عبد العظيم الشناوي دار المعارف .

(2) هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية والفرزدق لقب غلب عليه وإنما لقب بالفرزدق لغلظه وقصره شبه بالفتيتة التي تشربها النساء ، وهي الفرزدقة، وكنيته أبو فراس ، ولد في البصرة سنة ٢٠هـ وكانت البصرة يومئذ حاضرة حافلة بالعلماء والشعراء فاتجه الفرزدق منذ صغره إلى الشعر فبرع فيه ، و عاش متنقلا بين الخلفاء والولاة يمدحهم وينال من عطاياهم ، وهو صاحب القصيدة الشهيرة في مدح زين العابدين : علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه والتي يقول فيها :

هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقي النقي الطاهر العلم .

عاش الفرزدق حياة طويلة قضى معظمها في الفسق والمجون وتوفي في حدود سنة : ١١٠هـ انظر : الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ص : ٣١٠ تحقيق الدكتور / مفيد قميحة ، ط/٢ ، ١٤٠٥ هـ، دار الكتب العلمية

(3) ديوان الفرزدق ٢ / ٢٠٩ تقديم وشرح : مجيد طراد ط/١ ، ١٤١٢ هـ، دار الكتاب العربي .

(4) تهذيب اللغة ١٠ / ٢١٥ ، وانظر أيضاً : مجاز القرآن لأبي عبيد ٢ / ١٢١ .

إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ يا عدي، ما يُفِرُّك ؟! أيُفِرُّك أن يقال: الله أكـــبر؟ فهل من شيء أكبر من الله ؟!)) [1] وهذا يبطل قول من جعل "أكبر" بمعنى "كبير")).[2]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : ((أهل السنة والجماعة يثبتون لله سـبحانه العلــو الذاتي والمعنوي، والعظمة الذاتية والمعنوية، والجمال والجلال الذاتي والمعنوي، ومن هـــذا قول المسلمين: ((اللهُ أكبر))، فإنه أفعل تفضيل، يقتضي كونه أكبر من كلّ شـيء، بجميع الاعتبارات، وبهذا فسره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الـــذي رواه أحمـد والترمذي وابن حبان في صحيحه ...)) [3] وذكر حديث عدي السابق

وهذا لأن "كبير" لا يفهم منه أن يكون الله أكبر من كل شيء، بل يفهم منه فقط وصفه بالكبرياء، وهذا ليس فيه من المدح والثناء والتعظيم، مثل ما في " أكبر" الدآلة علـى التعظيم والتفضيل على غيره .

****** ****** ******* ****** ******

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٣٧٨ ، والترمذي في سننه ، كتاب التفسير ، باب سورة الفاتحة ؛ح: ٢٩٥٣ ٥ / ٢٠١ وما بعدها ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، أنظر : الإحسان لابن بلبان : ١٦/ ١٨٣ ، برقـم : ٧٢٠٦ ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ط/١، ١٤٠٧هـ ، مؤسسة الرسالة . وقال الهيثمي في مجمـع الزوائـد ٥ / ٣٣٤ –٣٣٥ : رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة .

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥ / ٢٣٩ .

(3) الصواعق المرسلة للإمام ابن قيم الجوزية ٤ / ١٣٧٨ – ١٣٧٩ .

الفصل الثاني :

أهمية التكبير ، ودرجاته :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : وجوب تكبير الله وتعظيمه والأدلة على ذلك :

وفيه ثلاثة مطالب :

المبحث الثاني : درجات تكبير الله عز وجل :

وفيه توطئة وثلاثة مطالب .

المبحث الأول :

وجوب تكبير الله وتعظيمه والأدلة على ذلك :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول :

دلالة القرآن الكريم على وجوب تكبير الله عز وجل ،وهي على وجوه عدة :

لما كان تكبير الله عز وجل بالمنزلة التي جعلها الله له في الدين إذ هو مع المحبة بمنزلة الروح للعبادة- التي هي الدين كله، والتي من أجل تحقيقها والقيام بها خلق الله الجن والإنس، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب- وعليهما مدار الامتثال والانتهاء، والفعل والترك، أعني أن العبد لا يمكنه القيام بالمأمورات الشرعية- واجباتها ومندوباتها – كما لا يمكنه الابتعاد عن المنهيات –محرماتها ومكروهاتها- على الوجه المطلوب شرعا، حتى يمتلئ قلبه أولاً من معرفة الآمر والناهي – وهو الله تبارك وتعالى – ومن محبته وتعظيمه، وتقديمه في المحبة والتعظيم على كل ما سواه، [1] وعندها يمتثل ما أمر الله به ورسوله على نورمن الله راجيا ثواب الله موقنا به، وينتهي عما نهى الله عنه ورسوله على نورمن الله خائفا من عقاب الله، وقدرته عليه ، والقاعد أن : (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) .

ومن هنا فقد عظم اعتناء الشارع بهذه الشعيرة العظيمة، وجعلها منزلة من منازل العبودية الرفيعة ، ودل القرآن الكريم على وجوبها من أوجه كثيرة ، منها :

الأمر به أمراً صريحا مؤكداً، وبيان وجوب تخصيص الله عز وجل به :

---

(1) فمتى كان في قلب العبد شيءٌ هو أعظم عنده ، وأحب إليه من الله تعالى ، أو هو مساوٍ لله عنده في المحبة والتعظيم لم تتحقق عبوديته لله تعالى، حتى يكون الله عنده أكبر وأعظم ، وأحب إليه من كل شيءٍ ، اعتقاداً وقولاً وعملاً. ؛ ولهذا ذم الله تعالى قوماً عدلوا به غيره في المحبة فقال : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ ، سورة البقرة / آية : ١٦٥ .

ومنها: تعظيم الله تعالى لنفسه، بتسميته لها بالأسماء الحسنى، والصفات العلى.

ومنها : ذمه- سبحانه- المخلين بتعظيمه من الكفار والعصاة، الذين ما عظموه حق تعظيمه .

ومنها : دعوته العباد إلى النظر والتفكر، في آلائه وآياته، ومخلوقاته العظيمة، التي تدل دلالة واضحة على عظمة خالقها سبحانه .

وإليك تفصيل الكلام في هذه الأوجه إن شاء الله تعالى ، وجهاً وجهاً .

الوجه الأول : الأمر الصريح المؤكد به :

أمر الله تعالى عباده بأن يكبروه ويعظموه ويجلوه ، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، أمراً مؤكداً ، دالاً على الوجوب والإلزام ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ .

فهذا أمر صريح مؤكد بتكبير الله ، أي : تعظيمه وإجلاله، الذي يوجب تنزيهه وتقديسه عن هذه الأمور المذكورة في الآية، وغيرها مما لا يليق بعظمة الله وكبريائه وجلاله؛ لاقتضائها نقصاً وعيباً في حق الله تعالى وتقدس عن ذلك .

فقوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴾ .

قال أبو السعود [1] رحمه الله في تفسيره : ((كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا: عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك

---

[1] هو : محمد بن محمد مصطفى العمادي الرومي ولد في قرية قريبة من القسطنطينية عام ٩٠٠ هـ وكان والده من أهل العلم والفضل ، وعنه أخذ أصول العلوم الشرعية ، تولى أبو السعود عددا من المناصب الكبيرة تدل على تفوقه واقتداره على العلوم الشرعية وإلمامه بها. ترجمته في الأعلام للزركلي ٧ / ٥٩، ط/٥، ١٩٨٠م ، دار العلم للملايين.

علواً كبيراً ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ أي الألوهية ، كما يقول الثنوية [١] القائلون بتعدد الآلهة.

﴿ ولم يكن له وليٌّ من الذلِّ ﴾ أي ناصرٌ ومانعٌ منه؛ لاعتزازه به أو لم يوال أحداً من أجل مذلة ليدفعها به)) .

ثم قال أبو السعود : ((وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة إيذان بأن المستحق للحمد من هذه نعوته ، دون غيره ، إذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الإيجاد، وما يتفرع عليه من إضافة أنواع النعم، وما عداه ناقص مملوك نعمته أو منعم عليه ، ولذلك عطف عليه قوله : ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ وفيه تنبيه على أن العبد وإن بالغ في التتريه والتمجيد، واجتهد في الطاعة والتحميد ، ينبغي أن يعترف بالقصور في ذلك)) [٢] .

وهذا المعنى هو الذي جعله الرازي غاية التكبير والتعظيم المقدور عليه، وهو اعتراف العبد بقصوره، عن إيفاء حق الله تعالى من التعظيم والإجلال، فعقله وفهمه لا يحيط بمعرفة جلال الله وعظمته ، ولسانه لا يطيق أن يفي بشكره والثناء عليه ، وجوارحه وأعضاءه لا تفي بخدمته ، فيكبر الله عن أ ن يكون تكبيره وافياً بكنه مجده وعزته .

وهذا الاعتراف بالقصور بعد بذل الوسع والطاقة هو معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعاء القنوت في الوتر:((لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)) [٣]

---

[١] هم أصحاب الاثنين الأزليين يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان بخلاف قول المجوس القائلين بأن الظلام حادث غير أزلي . الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢٩٠ .

[٢] تفسير أبي السعود ٥ / ٢٠١ ، تحقيق / عبد القادر أحمد عطا، دار إحياء التراث العربي .

[٣] أخرجه أصحاب السنن الأربع :

أبو داود في الصلاة باب القنوت في الوتر ح : ١٤٢٧ ، ٢ / ١٣٤ .

والنسائي في قيام الليل باب الدعاء في الوتر ٣ / ٢٠٦ ، ط/١ ، ١٣٨٣ هـ مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده .

وأخرجه الترمذي في الدعوات باب دعاء الوتر ح : ٣٥٦٦ ، ٥ / ٥٦١ ، وقال : (حديث حسن غريب).

وأخرجه ابن ماجه : كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في القنوت في الوتر ح : ١١٧٩ ، ١ / ٣٧٣ .

وصححه الشيخ الألباني رحمه الله ، انظر : صحيح سنن الترمذي ٣ / ١٨٠، وصحيح ابن ماجه ١ / ١٩٤

==

أي : بعد اجتهاده في الثناء، ومبالغته في الطاعة والتقرب إلى الله عز وجل، يشعر بأنـه لا يحصي ثناء على الله، وليس في وسعه وقدرته ذلك،

فالله أكبر وأعظم من أن يؤدي العباد القاصرون العاجزون حقه من التكبير .

وقد حكى الألوسي رحمه الله عن بعض العلماء أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وكبره تكبيرا ﴾ : ((تكبير الله : أن تعلم أنك لا تطيق تكبيره إلا به)) – يعني غاية تكبير الله – ((وقال آخر: تكبير الله عز وجل بتعظيم منته وإحسانه في القلب، بالعلم بالتقصير في الشكر، وكيف يوفي أحد شكره تعالى ! ونعمه جل وعلا لا تحصى، وآلاؤه لا تستقصى)) [1]

وإذا بلغ العبد هذا الحد أعني حد الشعور بالعجز والاعتراف بالقصور عن إيفاء حق الله–تعالى– من التكبير مهما بذل، فقد بلغ أقصى ما يجب عليه لاما يجب لله وما يستحقه تعالى من التعظيم والإجلال؛ فذلك أمر لا يدخل في وسع العبد الضعيف،[2] والله تعالى لا يكلفه به؛ فهو سبحانه أكبر وأجل ، وأرحم وأرأف ، من أن يكلف عباده بما هو خارج عن طاقاتهم وقدراتهم . [3]

وهذا الشعور هو من تكبير القلب، فإن التكبير يكون بالقلب ، واللسان ، والجوارح.

==

وإرواء الغليل ٢ / ١٧٥ ، ط/٢ ، ١٤٠٥ هـ ، المكتب الإسلامي .

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥ / ١٩٨ ، ط/ دار إحياء التراث العربي .

(٢) يقول ابن القيم رحمه الله : (ولا يقدر أحد من العباد قدره فإنه إذا كانت السموات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا والأرضون السبع في يده الأخرى كذلك فكيف يقدره حق قدره من أنكر أن يكون له يدان فضلا عن أن يقبض بهما شيئاً ... إلخ) الصواعق المرسلة ٤ / ١٣٦٣ – ١٣٦٤ .

(٣) ولهذا جاء عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه قال : إن الله لو كلف العباد العمل على قدر عظمته لما قامت لذلك سماء ولا أرض ، ولا جبل ، ولا شيء من الأشياء ، ولكن أخذ منهم اليسر ولو أراد أو أحب أن لا يعصى لم يخلق إبليس رأس المعصية . شرح أصول الاعتقاد للالكائي ٤ / ٧٥٢ ، تحقيق الدكتور / أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي ط/٤ ، ١٤١٦ هـ دار طيبة للنشر والتوزيع .

فأما تكبير القلب : فيكون بإقرار العبد في قرارة نفسه بأن الله تعالى أكبر وأعظم وأجل وأعلى وأفضل من كل شيء، ويؤمن بمقتضى هذه الكبرياء ، وهو كماله المطلق ، وغناه عن كل شيء ،وافتقار كل شيء إليه، ووجوب توحيده بإخلاص الدين كله له، وإحسان الظن به، والشعور الدائم بالقصور ، والعجز عن أداء حقوقه المستحقة له ، على وجه الكمال .

وأما تكبير اللسان : فيكون بإدامة ذكره وشكره وتعظيمه ، والتحدث بنعمه ، كما يكون بالدفاع عن دينه وشرعه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإصلاح بين الناس، وأداء العبادات القولية المتعلقة باللسان ، والحذر والابتعاد عن كل ما ينافي تعظيمه تعالى ،كالكذب، وشهادة الزور،والغيبة ،والنميمة ، وجميع الآفات المتعلقة باللسان.

وأما تكبير الجوارح : فيكون بتسخيرها في طاعة الله، والقيام بحقوقه ، ونصرة دينه ، بالجهاد في سبيل الله ، وعدم استعمالها في معاصي الله عز وجل .

ومن الأمر بالتكبير قول الله تعالى- مخاطبا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في سياق تكليفه إياه بتبليغ الرسالة والقيام بأعبائها-: ﴿ يآأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبّر ﴾[1]

قال أبو السعود في مناسبة الأمر بتكبير الله تعالى في هذا المقام :

((لعل هذا الأمر بالتكبير إنما جيء به بعد أمره- عليه الصلاة والسلام- بالقيام بالإنذار ؛ للدلالة على أن المقصود الأول من الأمر بالقيام ؛ أن يكبر ربه وينزهه من الشرك))[2] .

وقال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في معنى :﴿ وربك فكبر ﴾ : ((أي : عظمه بالتوحيد))[3] .

---

(1) سورة المدثر / آية : ١-٣ .

(2) تفسير أبي السعود ٩ / ٥٤ .

(3) الأصول الثلاثة مع حاشية الشيخ / عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله ص : ٧٧ .

وقال الزمخشري [1] : ((أي واختص ربك بالتكبير، وهو الوصف بالكبرياء، وأن يقال : ((الله أكبر)) ... إلى أن قال :

وقد يحمل على تكبير الصلاة ، ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل : وما كان فلا تدع تكبيره)).[2]

وقال العلامة ابن عاشور [3] رحمه الله : ((والمعنى : أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده ،في كل زمان، وكل حال، وهذا من الإيجاز)).[4]

وهذا أولى من حمل الأمر على تكبير الصلاة فقط، وتخصيصه بذلك، لأن الحمل على عموم الحالات ممكن ؛ فيتعين ،لا سيما وقد تقدم أن التكبير لا يقتصر على القول اللساني فحسب، بل التكبير القلبي أعلى وأفضل، وهو دوام اعتراف القلب بعظمة الله وكبريائه، فوق كل شيء ،وشعوره بالقصور في أداء حق الله تعالى في كل حين وعلى كل حال، وإشفاق العبد على نفسه من ذلك ، وخوفه الدائم من مغبة ذلك التقصير، وهذا من نتائج الإيمان الصادق ، والمعرفة الحقة بالله سبحانه .

وقيل في معنى قوله تعالى :﴿ وربك فكبر ﴾: ((أي لا يكبر في عينك غيره، وقل عندما يعروك من غير :

---

[1] هو محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي المعتزلي ، كان مولده بزمخشر قرية من أعمال خوارزم سنة ٤٦٧هـ وكان رأساً في البلاغة والعربية والمعاني ، من مؤلفاته : " الكشاف " في التفسير ، و" أساس البلاغة " و "الفائق " في غريب الحديث وغيرها ، قال الذهبي : وكان داعيةً إلى الاعتزال ، والله يسامحه ، مات ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ ، ترجمته في : وفيات الأعيان ٥ / ١٦٨ ، وسير أعلام النبلاء ٢٠ / ١٥١ .

[2] الكشاف للزمخشري ٦ / ٢٥٢ تحقيق / عادل أحمد عبد الموجود و علي محمد معوض ط/١ ، ١٤١٨ هـ مكتبة العبيكان

[3] هو : محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور عالم أديب تولى القضاء والفتيا ونقابة الإشراف بتونس وتوفي بها من آثاره العلمية تفسيره الذي سماه التحرير والتنوير ، وحاشية على قطر الندى لابن هشام سماها هدية الأريب ، وحاشية على المحلى على جمع الجوامع . انظر : معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٠ / ١٠١ ، والأعلام للزركلي ٧ / ٤٣ .

[4] التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩ / ٢٩٥ – ٢٩٦ .

(("الله أكبر".)) [1]

وفي هذه الآية فائدة دعوية عظيمة، وهي: أن الداعية إلى الله حال قيامه بـــالدعوة، ينبغي أن يجعل نصب عينيه وفي قلبه، عظمة الله، وكبرياءه وجلاله؛ فإنه إذا استحضر هـذا المعنى وتيقنه، علم أنه سبحانه هو وحده النافع الضار، المعطي المانع، وأن المدعوين مـــهما بلغوا من القوة ،والعتو والجبروت، فالله تعالى أكبر منهم وأعز، بل لا نسبة بـــين قوتهم وتجبرهم وبين عظمة الله تعالى وكبريائه، فإذا تمكن هذا الشعور في قلب الداعية، وحل منه السويداء ؛انطلق في سبيله داعيا إلى الله ، لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله ، ولا يعظـم في قلبه وأمام ناظريه غير الله، وهذا الشعور هو الذي امتلأت منه قلوب الأنبياء والرســل عليهم السلام؛ فكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ [2]

وهو الذي جعل موسى- عليه السلام- يخاطب فرعون المعروف بطغيانه وتكـــبره، وشدة بأسه ونكاله بمخالفيه، فيقول له- كما حكى القرآن عنه-: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلآء إلا رب السماوات والأرض بصآئر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ [3] بعـد قول فرعون له: ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ [4]

لأن قلب موسى قد امتلأ من استشعار عظمة الله الذي أرسله، وتيقن من تـــأييده الذي وعده إياه ، بقوله :﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾، فلم يعد يرى قوة فرعون وشـدته شيئا أبداً .

فهاتان الآيتان، صريحتان في الأمر بتكبير الله وتعظيمه ،عامتان للنبي وغيره مفيدتـــان للوجوب ؛ إذ الأصل في أوامر القرآن والسنة أن تحمل على الوجوب .

---

[1] تفسير النسفي " مدارك التتريل وحقائق التأويل " ٣ /٥٦٢، تحقيق / يوسف علي بديوي ، ط/١، ١٤١٩هـ، دار الكلم الطيب .

[2] سورة الأحزاب / آية : ٣٩ .

[3] سورة الإسراء / آية : ١٠٢ .

[4] سورة الإسراء / آية : ١٠١ .

وعلى هذا، فيجب على العبد أن يعظم ربه ويكبره ويجله ،بقلبه ولسانه وجوارحه، فيكون الله في قلبه أكبر وأعظم من كل كبير، وكل عظيم، وينطق لسانه بذلك ، وتعمل جوارحه بموجبه ، وهذا من مقتضيات الإيمان الصحيح، والعبودية الصادقة .

الوجه الثاني : وصف الله تبارك وتعالى نفسه بأنه الكبير والمتكبر وأن له الكبرياء :

فقد وصف الله تعالى نفسه في القرآن الكريم بصفة الكبرياء ، في مواضع متعددة وفي ختام الآيات الواردة في مناسبات وموضوعات مختلفة؛ لتأكيد اتصافه بها، واختصاصه بها دون من سواه، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (1)

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (2)

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ (3)

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ (4)

وقال تعالى : ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ (5)

---

(1) سورة النساء / آية : ٣٤ .

(2) سورة الرعد / آية :٩ .

(3) سورة الحج / آية : ٦٢ .

(4) سورة لقمان / آية : ٣٠ .

(5) سورة سبأ / آية : ٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ [1]

وقال تعالى : ﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [2]

وهذه الآية تفيد اختصاص الرب سبحانه بالكبرياء حيث جعل تعالى لنفسه الكبرياء في السماوات والأرض ، فلم يبق لغيره من أهل السماوات والأرض شيء من الكبرياء ، ومن هنا كانت دعوى الكبرياء من غير الله منقصة ومذمة ؛ لأنها صفة لا تليق بغيره ، وقال تعالى : ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ [3]

فهذه ثمانية مواضع من القرآن الكريم ، وصف الله فيها نفسه بصفة الكبرياء ، كما وصف نفسه بالعظمة – وهي والكبرياء بمعنى [4] – فقال تعالى : ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾[5]، ووصف كلامه الذي هو صفة من صفاته، بالعظمة والمجد، فقال تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ﴾ [6] وقال : ﴿ ق~ والقرآن المجيد ﴾[7] وعظمة الصفة دليل على عظمة الموصوف بها كما لا يخفى .

---

(1) سورة غافر / آية : ١٢ .

(2) سورة الجاثية / آية : ٣٧ .

(3) سورة الحشر / آية : ٢٣

(4) وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إلى أن بينهما فرقاً لطيفاً وأن الكبرياء أبلغ من العظمة ، واستدل على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:((الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما عذبته)) قال : ((وهذا يدل على أن الكبرياء أبلغ من العظمة ؛ فإنه جعلها بمنزلة الرداء وجعل العظمة بمنزلة الإزار ، والرداء أعلى من الإزار)) مجموع الفتاوى ١٦ / ١١٢ .

(5) سورة البقرة / آية : ٢٥٥

(6) سورة الحجر / آية : ٨٧ .

(7) سورة ق / آية :١-٢ .

وهنا أمر لافت للنظر، جدير بالتنبيه عليه، وهو : أن الله تعالى أينما وصف نفسه بصفة الكبرياء في القرآن الكريم ، قرنها بصفة العلو ، [1]حتى كأنهما صفتان متلازمتان، وهما كذلك[2] ؛ فإن كبرياء الرب وعظمته تقتضي أن يكون في العلو، فوق جميع المخلوقات، لا في السفل؛ لأن ذلك يوجب أن يكون شيء من المخلوقات ظرفا له، فيكون أكبر منه ، – تعالى الله عن ذلك - ،كما يوجب أن يكون شيء من المخلوقات فوقه، و هو يتنافى مع كونه- تعالى- أكبر من كل شيء ، كما يتنافى مع كونه- سبحانه- الظاهر الذي ليس فوقه شيء، وكل ذلك خلاف ما اتصف به- عز وجل- من العظمة التي لا يعلم كنهها إلا هو- سبحانه وتعالى -.

وفي هذا إبطال لقول من يزعم تعظيم الله وتتريهه، بنفي علوه الذاتي على خلقه ؛ بدعوى أن إثبات العلو له تحييز له وتجسيم ، [3]ويفسر علو الله تعالى بعلو المكانة والقدر ، ففرقوا بين أمرين قرن الله بينهما في كتابه تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، بل هو سبحانه كما أنه هو الكبير ذاتا وقدرا ، فهو العلي ذاتا وقدراً ، ومن نفى علو الله على خلقه بذاته فإنه لم يعظم الله تعالى، ولا قدره حق قدره ؛لما يلزم من ذلك من لوازم فاسدة ، تنافي عظمة الرب وكماله .

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى في سورة الحج :﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ :

((العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات، وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات ، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من كبريائه:

---

[1] يقول ابن القيم رحمه الله : ((وهو كثيراً ما يقرن بين هذين الاسمين كقوله ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقوله :﴿ هو العلي الكبير﴾ وقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ يثبت بذلك علوه على المخلوقات وعظمته ، فالعلو رفعته ، والعظمة عظمة قدره ذاتاً ووصفاً ، وعند الجهمية ليس له علو ولا عظمة إلا ما في النفوس من اعتقاد كونه أفضل من غيره)) . الصواعق المرسلة ٤ / ١٣٦٥ .

[2] انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٦ / ١١٢ .

[3] انظر : الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ص : ٢٤ .

أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه ، ومن كبريائه:أن كرسيه وسع السموات والأرض ، ومن عظمته وكبريائه: أن نواصي العباد بيده ، فلا يتصرفـــون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإرادته ، وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو- لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل- : أنها كل صفة كمال وجلال، وكبرياء وعظمة، فـهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه: أن العبادات كلها- الصـادرة من أهل السموات والأرض كلها-: القصد منها تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامـــه ، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها)) [1]

ووجه دلالة هذه الآيات، وما في معناها على ما سيقت له من وجـــوب تكبـــير الله وتعظيمه :

هو : أنه إذا كان الله قد وصف نفسه بصفة الكبرياء والعظمـــة ، وأكـــد ذلـــك بتكراره في المواضع السابقة ، فإن ذلك يدل على أن هذا الأمر أمر عظيم، مطلوب مـــن العباد تحقيقه والقيام به، اعتقاداً بقلوبهم بأنه سبحانه الكبـــير العظيـــم كمـــا وصـــف نفسه،وقولاً بألسنتهم ،وعملا بجوارحهم ؛لأن الإخلال به يوقع في مشاقة الله- تعالى- التي توجب سخط الله وعذابه على العبد .

الوجه الثالث : ذم الله تبارك وتعالى من أخل بتكبيره وتعظيمه من الكفار والعصاة :

قد ذم الله- تعالى- في كتابه العزيز من أخل بتعظيمه بقول أو فعل، كما نهى عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الإخلال بذلك، ومعلوم أن الذم لا يكون إلا على ترك واجب ، أو فعل محرم ، ومن ذلك: ما جاء في ذم الغلو في تعظيم غير الله- تعالى- لما في ذلك مـــن هضم حق الله ،وصرفه لغيره، ومعلوم أيضا أنه ما أوقع الإنسان في الشرك أول ما وقع فيـه

---

[1] تفسير السعدي ٥ / ٣١٧ .

، إلا عندما أخل بتعظيم الله- عز وجل- وملاحظة كبريائه وجلاله، وبالغ وغلا في تعظيم المخلوقين، تعظيما أخرجهم به من حدود البشرية ، فقوم نوح عليه السلام الذين هم أول أمم الأرض وقوعا في الشرك بالله- بعد أن كان الناس كلهم أمة واحدة على التوحيد - إنما أتوا من غلوهم في تعظيم صالحيهم ، ود، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، [1]

وذلك، لأن تعظيم غير الله، ورفعه فوق مترلته، يوجب له أنواعا من العبادة التي هي خالص حق الله- سبحانه -كالخوف والرجاء ، والتوكل ،والدعاء لجلب المنافع، وكشف الكربات، وغير ذلك من صنوف العبادة الظاهرة والخفية، التي لا تنبغي لغير من اختص بالكبرياء والعظمة، وهو الله جل جلاله .

يقول الإمام ابن القيم-رحمه الله - : ((إن من عظم مخلوقا فوق مترلته التي يستحقها بحيث أخرجه عن مترلة العبودية المحضة ، فقد أشرك بالله ،وعبد مع الله غيره،وذلك مخالف لجميع دعوات الرسل)) [2]

ومما جاء في القرآن في ذم المخلين بتعظيم الله عز وجل : قوله سبحانه وتعالى في ذم منكري النبوات : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾[3]

قال ابن كثير رحمه الله : ((يقول تعالى وما عظموه حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم)) [4] .

والآية قيل : نزلت في قريش ، وقيل في طائفة من اليهود ، وقيل في فنحاص رجل من

---

(1) في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت . أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء باب سورة نوح ، ح : ٤٩٢٠ (٨ / ٦٦٧ فتح الباري) .

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣ / ٦٤٢ .

(3) سورة الأنعام / آية :٩١ .

(4) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٧٥ ، ط/ دار الفكر ، ١٤٠١ هـ

اليهود وقيل في مالك بن الصيف وصحح ابن كثير الأول[1] بدليل أن الآية مكية ،واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش كانوا ينكرون إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه من البشر، كما قال- تعالى-:﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ... ﴾ [2]

وأيا ما كان ، فليس المقصود معرفة عين من نزلت فيه الآية ، وإنما المقصود معرفة ما نزلت فيه، وهو النعي والذم لمن لم يعظم الله تعالى حق تعظيمه، فجوز عليه ما لا يليق بعظمته وكبريائه، وهو : أنه خلق الخلق، ثم تركهم هملا، دون أن يبعث إليهم رسلا ؛ يدعونهم إلى الله، ويقيمون عليهم حجة الله، ويقطعون عنهم العذر ، فمن جوز هذا على الله فقد ظن به ما يضاد كماله ورحمته وعدله، وأخل بما يستحقه الرب تعالى من التعظيم والتنزيه الذي يتضمنه قولنا " الله أكبر "، الذي نردده في صلاتنا وفي كثير من أحوالنا .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله وجه كون هؤلاء المنكرين للنبوات ما عظموا الله و لم يقدروه حق قدره فقال : ((وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وأعلى ذكرهم، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز، ووضع أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وأهانهم وأذلهم، وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا، وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين : إنه أرسل ملكا ظالما، فادعى النبوة لنفسه، وكذب على الله، ومكث زمنا طويلا يكذب عليه كل وقت، ويقول : قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، ينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول : الله أباح لي ذلك، والرب تعالى يظهره ويؤيده، ويعليه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن خالفه، ويقيم الأدلة على صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، ويحدث أدلة تصديقه شيئا بعد شيء ، ومعلوم أن

---

[1] المصدر السابق .

[2] سورة يونس / آية : ٢ .

هذا يتضمن أعظم القدح في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، تعالى عن قول الجاحدين علوا كبيرا .

فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قيل :

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما   بأسحم داج عوض لا تتفرق)) [1]

يعني لا فرق بينهما ، وكلاهما غاية في التنقص والقدح في رب العالمين ، والظن به خلاف كماله ، ومقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى - والتي منها العدل ، والحكمة ، ونصرة أوليائه ، وخذلان أعدائه ، وإظهار الحق وأهله ، وكسر الباطل وأهله — وهذا من أوجه الشبه بين الرافضة واليهود، في تجويز كل من الفريقين على الله تعالى ما لا يليق بكبريائه وجلاله ، اليهود بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وزعمهم أن الله تعالى لم يرسله !!

والرافضة ببغضهم الصحابة وزعمهم- كذبا- أنهم اغتصبوا من أهل البيت حقا واجبا لهم بالوحي !!

والمقصود : بيان ذم الله تعالى من لم يعظمه حق تعظيمه، فأنكر نبوة أنبيائه ورسله، بقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾

وهذه الآية قد جاء نظيرها في القرآن الكريم في موضعين آخرين ، ذم الله تعالى فيهما من أخل بتكبيره وإجلاله، بقول أو فعل أو اعتقاد ، ونزه نفسه عما يقولونه وما يعتقدونه فيه، مما يتنافى مع كونه سبحانه الكبير العظيم الذي لا أكبر منه، بل هو أكبر من كل شيء .

أحدهما : في النعي على المشركين، وبيان أنهم ما عظموا الله تعالى، وما عملوا بما يليق بكبريائه، فعبدوا من دونه ما لا يملك لهم نفعا ولا ضرا ، بل ما لا يملكون لأنفسهم

---

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص : ١٩٢ -١٩٣ ط/٢ ، ١٤١٧ هـ دار اليقين

ولو كان الأمر كما زعم منكرو النبوات لكان اللائق بعظمة الله وكبريائه أن لا يترك الباطل يمضي طويلا بل يكشفه ويفضح صاحبه ويظهر كذبه وافتراءه على الله كما هو سنة الله في المتنبئين الكذابين فإنه سرعان ما يقصم ظهورهم ويبدي للناس باطلهم كما فعل بمسيلمة الكذاب والعنسي وأشكالهما ممن ادعى النبوة لنفسه .

نفعا ولا ضرا ، وذلك في قول الله تعالى :﴿ يآأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾ [1]

ولا شك أن عبادة ما هذا شأنه وضعفه وعجزه من دون الله ، أو مع الله الكبير المتعال ، إضاعة واضحة لتعظيمه تعالى ، يستحق فاعلها الذم ، والعذاب المقيم ، إن مات عليه من غير توبة .

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله : ((أي ما عظموا الله حق عظمته حين عبدوا معه من لا يقدر على خلق ذباب وهو عاجز عن أن يسترد ما سلبه الذباب كالطيب الذي يجعلونه على أصنامهم إن سلبها الذباب منه شيئا لا تقدر على استنقاذه منه .

ثم قال:وكونهم لم يعظموا الله حق عظمته و لم يعرفوه حق معرفته حيث عبدوا من لا يقدر على جلب نفع ولا دفع ضر)) [2]

الثاني : في قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [3]

فيها التنبيه على أن من هذه قدرته وعظمته يجب على العباد تعظيمه وتكبيره ، وأن من أخل بذلك فهو مستحق للذم والعقاب .

قال ابن كثير رحمه الله في هذه الآية : ((أي ما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء وكل شيء تحت قهره وقدرته ،

قال مجاهد : نزلت في قريش ،

---

(1) سورة الحج / آية : ٧٤ .

(2) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣ / ٥٣٨ .

(3) سورة الزمر / آية : ٦٧ .

وقال السدي : ما عظموا الله حق تعظيمه .

وقال محمد بن كعب [1] : لو قدروه حق قدره ما كذبوه ،

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره)) [2]

وهذه الآيات الناعية على المخلين بتعظيم الله تعالى تشمل المعطلة "نفاة الصفات" كذلك- على اختلاف طوائفهم — ؛ فإنهم لم يقدروا الله حق قدره، لما نفوا عنه صفات كماله التي يستدل بها على كونه سبحانه أكبر وأعظم من كل شيء ، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : ((وللجهمية والمعطلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب، وللمتفلسفة وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم)) [3]

وقال تعالى مخاطبا الكفار، ومنكرا عليهم أعمالهم المنكرة، الدالة على استخفافهم بربهم وعدم تعظيمهم له : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ [4]

والمعنى : ما لكم لا تعظمونه حق عظمته ولا تخافون بأسه ونقمته [5]

فهذا ذم لهم وإنكار عليهم؛ لعدم تعظيمهم وتوقيرهم لله جل جلاله، مع علمهم بأنه هو الذي خلقهم طورا بعد طور، من نطفة فعلقة فمضغة، وهذا يدل على كمال قدرته عليهم، وأنه مالك نفعهم وضرهم، فاستحق منهم غاية التعظيم والإجلال والتوقير والهيبة،

---

(1) هو أبو حمزة ، وقيل أبو عبد الله القرظي المدني ، من حلفاء الأوس ، كان أبوه كعب من سبي بني قريظة ، وكان ممن لم ينبت يومئذ فترك ، كان محمد بن كعب من أئمة التفسير ، ثقة عالما كثير الحديث ، حدث عن جماعة من الصحابة منهم أبو هريرة ، وأبو أيوب الأنصاري ومعاوية وغيرهم رضي الله عنهم ، اختلف في سنة وفاته فقيل : سنة ثمان ومائة ، وقيل سنة سبع عشرة ومائة ، وقيل سنة تسع عشرة ومائة ، وقيل غير ذلك ، ترجمته في سير أعلام النبلاء ٥ / ٦٥ .

(2) تفسير ابن كثير ٤ / ٦٣ .

(3) الصواعق المرسلة ٤ / ١٣٦٣ — ١٣٦٤ .

(4) سورة نوح / آية : ١٣-١٤ .

(5) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٢٦ .

ومن لم يكبر من هذا شأنه ويعظمه، ويكون في قلبه أكبر من كل شيء ؛ استحق الـذم والإنكار عليه، فالمقصود أن هذه الآيات دلت على أن له سبحانه قدرا عظيما، كما دلت على أنه يجب على العبد أن يقدر الله حق قدره، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته، وأن يجاهد فيه حق جهاده .

الوجه الرابع : التنبيه بالمخلوقات العظيمة التي تدل على عظمة وكبرياء خالقها

في القرآن الكريم دعوات متكررة، تلفت أنظار العباد إلى النظر والتفكر في مخلوقات الله العظيمة الكبيرة ، التي تدل على كبرياء الخالق وجلاله وكمال قدرته وعزته .

وقد عقد الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني [1] رحمه الله تعالى في كتابه : " العظمة " باباً طويلاً أسماه : ((التفكر في آيات الله عز وجل وقدرته وملكه وسلطانه وعظمته ووحدانيته)) [2] ثم ساق الأحاديث الكثيرة الداعية إلى إجالة الفكر في عظم مخلوقات الله عز وجل وآياته الكونية .

ذلك لأن عظمة الله وقدرته لا تتبين للعبد على الوجه المطلوب، إلا بالتفكر في آياته العظام، ومخلوقاته الكبار، وكذلك بتدبر معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى .

ومن ثم، أكثر القرآن من الحث على التفكر، وتتابعت فيه الدعوة إلى التدبر وإعمال الفكر والنظر، والتفكر - كما قال ابن القيم رحمه الله -: ((إحضار معرفتين في القلب؛ ليستثمرمنهما معرفة ثالثة))، وضرب لذلك مثالاً، وهو: أن العبد إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها، وما يقترن بها من الآفات، وانقطاعه وزواله، ثم أحضر في قلبه

---

[1] هو : أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان محدث أصبهان المعروف بأبي الشيخ صاحب التصانيف الكثيرة التي منها كتاب " العظمة " قال الذهبي رحمه الله : " قد كان أبو الشيخ من العلماء العاملين صاحب سنة واتباع لولا ما يملأ تصانيفه بالواهيات " توفي رحمه الله سنة ٣٦٩ هـ سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٧٦ .

[2] العظمة لأبي الشيخ : ١ / ٢٠٩ ، دراسة وتحقيق / رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ، النشرة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ، دار العاصمة -الرياض .

الآخرة ونعيمها، ولذته ودوامه، وفضله على نعيم الدنيا، وجزم بهذين العلمين، أثمر له ذلك علما ثالثا، وهو: أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم، أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة .[1]

وكذلك الحال، إذا استحضر العبد في قلبه هذا الكون الفسيح الكبير المترامي الأطراف، بسمواته وأرضه، وما فيهما من جبال وبحار وأنهار، وليل ونهار، كل ذلك في نظام بديع متقن، ثم استحضر ثانيا: أن كل ما يشاهد في هذا الكون من هذه المخلوقات العظيمة، لم يوجد صدفة - كما هو قول الملاحدة الفجار -، ولا هي أوجدت نفسها، أثمر له ذلك علما ثالثا ضروريا، لا يعتريه فيه شك ولا ارتياب، بأنه إذاً لابد لها من رب خالق، يدبرها ويتصرف فيها، كما يجزم بأن ذلك الخالق أعظم وأكبر من هذه المخلوقات ؛ إذ الخالق أكبر من المخلوق بالضرورة .

ومن هنا كان للتفكر فوائد جليلة؛ فإنه يطلع صاحبه على ما لولاه لم يطلع عليه ، وينكشف له بسببه أمور وحقائق عظيمة لها آثارها الإيجابية في إيمان العبد، فيقويه ويزيده ، وهو أيضا يحي القلوب الميتة بداء الغفلة والسهو والإعراض ، ويزيد في حياة القلوب الحية ويزيل عنها الوحشة ، ويملؤها بالأنس بمعرفة فاطرها سبحانه .

لهذه الأسباب وغيرها،جاء الحض كثيراً في القرآن الكريم، على التفكر في آيات الله ومخلوقاته، وأثنى الله تعالى على المتفكرين فيها ،وأشاد بهم، ونوه بشأنهم ،أولئك الذين ينظرون بأبصارهم وبصائرهم إلى الآيات الكونية، من ليل ونهار، وإلى المخلوقات العظيمة، من سماوات وأرضين؛ ليصلوا من خلال هذا النظر إلى معرفة عظمة خالقها وباريها والمتصرف فيها؛ فيعظمونه ويجلونه ، ويزدادون اعترافا له بالربوبية ، والألوهية، وتصديقاً بأسمائه الحسنى وصفاته العلى .

ومن الآيات الحاضة على التفكر في مخلوقات الله العظيمة وآياته العجيبة الباهرة، قول الله عز وجل:

---

[1] انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ / ٥٤٢ تحقيق الشيخ / علي حسن عبد الحميد ط /١ ، ١٤١٦ هـ دار ابن عفان .

﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنـــهار لآيــات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهـــم ويتفكـــرون في خلـــق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [1]

ففي هذه الآية حث على التفكر، وثناء على المتفكرين ، ومدح لهم بأنهم أولو الألباب ،

وفي مقابل الثناء والمدح لهؤلآء، ذم الله الغـــافلين اللاهـــين عـــن دلالـــة الآيـــات والمخلوقات، الدالة على وجوب تعظيم خالقها فقال عز وجل : ﴿ وكأين من آيـــة في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بـــالله إلا وهم مشركون ﴾ [2]

فكما أن الفريق الأول قد أثمر لهم التفكر والنظر فتوصلوا من خلاله إلى معرفـــة عظمة الله تعالى، ووجوب تعظيمه وإجلاله، وأعظم ذلك توحيـــده في ربوبيتـــه وإلهيتـــه وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العلى، والإيمان بحكمته البالغة ولذلك قالوا: ﴿ ربنـــا مـــا خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ تعظيما له وتتريها عن أن يخلق هذه المخلوقات العظيمة عبثـا وسدىً .

كذلك الفريق الثاني، قد أثرت فيهم الغفلة، حتى استهانوا بربهم وبعظمته وكبريائـــه فأفضى بهم ذلك إلى التنقص منه، وأعظم ذلك وأشنعه: وقوعهم في الإشـــراك بـــالله في ربوبيته، وألوهيته، وجحدهم لحقائق أسمائه وصفاته .

ومما جاء في الحث على التفكر في عظم مخلوقات الله تعالى قوله ســـبحانه :﴿ قـــل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[3]

---

[1] سورة آل عمران / آية : ١٩٠ – ١٩١ .

[2] سورة يوسف / آية : ١٠٥ –١٠٦ .

[3] سورة يونس / آية : ١٠١ .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ [1]

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدعو بإلحاح إلى إعمال الفكر في الكون، والتأمل والنظر إلى عظمة ما فيه من مخلوقات الله وآياته الدالة عليه .

ومعلوم أن الأمر بالنظر إلى ما في السماوات والأرض، من الآيات والمخلوقات، وما أودعها الله من عجائب خلقه ، وإلى الإبل وعظمتها، وإلى الجبال وارتفاعها ،والأرض وانبساطها،... إلخ ،ليس أمراً مقصوداً لذاته، لكنه وسيلة إلى ما هو المقصود الأعظم والغاية الكبرى، وهي التوصل إلى معرفة عظمة من خلقها وأوجدها، ومعرفة ما تقتضيه هذه العظمة من حقوق وواجبات، فيخاطب العاقل نفسه قائلا لها : إذا كان هكذا عظمة المخلوق المربوب فكيف بالرب الخالق ؟! لاشك أنه أعظم وأكبر .

وكذلك الشأن في الأمر بالنظر في عواقب الذين من قبلنا، من الكفار والجبابرة ، والنظر فيما أوتوا من قوة عظيمة، ثم النظر إلى ما فعل الله بهم من قطع دابرهم ، وإزالة ملكهم، وتدمير قواهم، لما عتوا عن أمره، وعصوا رسله، واستكبروا على عباده ،ليس مقصودا لنفسه، وليس مراد الله منا أن يقف بنا النظر عند هذا الحد، بل المقصود منه هو الوصول إلى معرفة أن من هذا قدرته وقوته حقيق بأن يعظم ويكبر، وذلك بإفراده بالعبادة التي خلقنا من أجلها .

يقول ابن القيم رحمه الله في ثنايا كلامه عن الآيات الداعية للإنسان إلى التفكر في خلق نفسه، وما فيه من دلائل باهرة على عظمة الخالق سبحانه :

((فلم يكرر الله سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع ذكر النطفة والعلقة والمضغة والتراب، ولا لنتكلم بها فقط، ولا لمجرد تعريفنا بذلك، بل الأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب، وإليه جرى ذلك الحديث)) [2]

---

(1) سورة الغاشية / آية : ١٧ — ٢٠ .

(2) مفتاح دار السعادة ٢ / ٦ .

ذلك الأمر هو الاستدلال بها على عظمة الله تعالى وكبريائه ، التي تقتضي اتصافه بالكمالات كلها، وتتزهه عن النقائص والعيوب جميعها، كما تدل على استحقاقه وحده للعبادة دون كل ما سواه، من أنواع الطواغيت التي اتخذت آلهة من دونه سبحانه .

والمقصود : أن العبد عندما يفتح بصيرته للتفكر في مخلوقات الله العظام، كالسماوات والأرض، ويتأمل في عجائب البحار، وفي تقلب الليل والنهار، ودوران الأفلاك، ثم فيما يصل إليه العلماء والباحثون يوما بعد آخر من اكتشافات هائلة، تدهش العقول البشرية، فإنه بذلك سيزداد يقينا بعظمة الله الخالق عز وجل، بل بأعظميته من كل شيء، ويتحقق من معنى قول ((الله أكبر)) كما يتحقق من قدرة الله القاهرة لكل شيء، والتي توجب على العباد أن يكبروه، ويعظموه، ويجلوه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم .

****** ****** ******

المطلب الثاني :

ما جاء في السنة النبوية وأقوال السلف وأحوالهم من بيان عظمة الله وكبريائه

وفيه فرعان :

الفرع الأول : بيان شدة تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لربه وسده كل طريق يفضي إلى الإخلال بذلك :

لما كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بالله وبحقوقه الواجبة المستحقة له ؛كان أخشاهم وأتقاهم، وأشدهم له تعظيما وتكبيراً، وإجلالاً وهيبةً، قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً ،وكان الله في قلبه أكبر وأعظم من كل شيء، حتى إنه كان لا يغضب إلا لله، ولا يرضى إلا له، ولا ينتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله، فينتقم لله عز وجل .

ومما يدل على شدة تعظيمه لله وأن الله تعالى كان في قلبه أكبر من كل شيء، قوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم لما جاءه مسلما وكان قد هرب منه قبل ذلك كرها في الإسلام : ((يا عدي، ما يُفِرُّك ؟! أَيُفِرُّك أن يقال : لا إله إلا الله ؟! فهل تعلم من إله إلا الله ؟! يا عدي ، ما يُفِرُّك ؟! أَيُفِرُّك أن يقال : الله أكبر ؟! فهل من شيء أكبر من الله ؟!)) [١]

فالمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شديد التعظيم والإجلال لربه، قولا وعملا وحالا، حتى إنه كان يجيب كل من دعاه إلى شيء فيه تعظيم الله جل وعلا، حتى ولو كان الداعي له كافرا ! لم ينظر إلى كفره، بل إلى ما دعاه إليه من تعظيم الله تبارك وتعالى وتعظيم حرماته، كما في قصة الحديبية، وما كان بينه وبين مشركي قريش من مصالحة رأى بعض الصحابة أن في بعض بنودها إجحافا عليهم، وقبولاً منهم للدنية في الدين ! ومع ذلك فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ :

((والذي نفسي بيده !! لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها)) [٢] فبين عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث أن تعظيم حرمات الله عز وجل مطلب هام ، وأنه ينبغي أن يجاب كل من دعا إلى ذلك، مسلما كان أو غير مسلم .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله –وهو يسرد الفوائد الفقهية المستفادة من صلح الحديبية –:

((ومنها : أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيها حرمة من حرمات الله تعالى ، أجيبوا إليه ، وأعطوه ، وأعينوا عليه ، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى ، لا على كفرهم وبغيهم ، ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى ، مرض له ، أجيب إلى ذلك كائنا من كان ، ما

---

[١] تقدم تخريجه في ص : ٥٥ .

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الشروط ، باب الشرط في الجهاد ، ح : ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢ (٥ / ٣٢٩ من فتح الباري)

لم يترتب على إعانتة على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه ، وهذا من أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس ؛ ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق)) [1]

هذا إلى جانب حرصه الشديد على سد كل طريق ورد كل أمر من شأنه المساس أو الإخلال بتعظيم الله عز وجل ، ويظهر ذلك في أمور منها :

تواضعه الجم ، وحرصه الدؤوب على تعريف الناس ببشريته ، عليه الصلاة والسلام ؛ خشية أن يغلوا فيه ، فيرفعوه فوق ما يستحقه من التوقير والاحترام ، على حساب ما يجب لله تعالى من إجلال وإكبار ، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث عمر رضي الله عنه :

((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله)) [2]

ومعلوم ما فعله النصارى بعيسى ابن مريم ، حيث عظموه تعظيما جاوزوا به حدود البشرية، حتى جعلوه ابنا لله ، بل جعلوه الله، كما حكى القرآن عنهم ذلك في غير موضع ، ونهى عن سلوك سبيلهم ، تعالى الله وتقدس عن قول النصارى علواً كبيراً ، فسدَّ النبي صلى الله عليه وسلم على أمته هذا الباب المفضي إلى الشرك بالله عز وجل ، وهذا منه امتثال لأمر الله تعالى له بأن يقول للناس :

﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنماإلهكم إله واحد ﴾ [3]

وقوله : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ [4]

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد ٣ / ٣٠٠

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ((واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)) ، ح : ٣٤٤٥ ، (٦ / ٤٧٨ من فتح الباري)

[3] سورة الكهف / آية : ١١٠ .

[4] سورة الأنعام / آية : ٥٠ .

وغير ذلك من الآيات التي فيها الإخبار عن بشريته وتأكيدها- وإن كانت معلومة- ؛ ليكون بذلك قد أعذر إلى كل من غلا في تعظيمه، بقول أو فعل أو اعتقاد، بدعوى محبته ومدحه صلى الله عليه وسلم كما سيأتي .

ومما يدل على ذلك أيضا قوله عليه الصلاة والسلام لوفد بني عامر لما قالوا له : أنت سيدنا :((السيد الله تبارك وتعالى)) قالوا أنت أفضلنا فضلا وأعظمنا طولا قال: ((قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان)) [1]

قال الإمام الخطابي [2] رحمه الله ((قوله : السيد الله : يريد السؤدد حقيقة لله عز وجل ، وأن الخلق كلهم عبيده، وإنما منعهم- فيما نرى- أن يدعوه سيدا، مع قوله -صلى الله عليه وسلم -: ((أنا سيد ولد آدم))، وقوله لبني الخزرج : ((قوموا إلى سيدكم)) - يريد سعد بن معاذ - من أجل أنهم قوم حديثو عهد بالإسلام ، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة كهي بأسباب الدنيا ، وكان لهم رؤساء يعظمونهم وينقادون لأمرهم ويسمونهم السادات فعلمهم الثناء عليه وأرشدهم إلى الأدب في ذلك فقال :

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٢٤ -٢٥ وأبو داود في سننه كتاب الأدب باب في كراهية التمادح ح : ٤٨٠٦، ٥ / ١٥٤ ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : ٥ / ١٧٩ : ورجاله ثقات وقد صححه غير واحد ، و قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : رواه أبو داود بسند جيد ،

انظر : كتاب التوحيد مع شرحه : تيسير العزيز الحميد ص : ٧٣٠ ، ط/٧ ، ١٤٠٨ هـ المكتب الإسلامي ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع الصغير برقم : ٤٤١٨

وقد اختلف الناس في جواز إطلاق "السيد " على البشر ، فمنعه قوم واحتجوا بهذا الحديث ، وجوزه آخرون ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : ((قوموا إلى سيدكم)) يريد به سعد بن معاذ رضي الله عنه في قصة تحكيمه في بني قريظة ، والظاهر : منع إطلاق لفظ السيد على غيرالله إلا مضافا فيقال : سيد بني فلان ، ولا يقال : " السيد " مطلقا ، كلفظة " الرب " يقال : رب الدار ، ورب الإبل ، ونحو ذلك ، ولا يقال لأحد : " الرب " على سبيل الإطلاق ، من غير إضافة ، تأدبا مع الله وسدا لذريعة الغلو في تعظيم غير الله تعالى ، انظر : فتح الباري : ٥ / ١٧٩ – ١٨٠ ، وتيسير العزيز الحميد : ص : ٧٣٣ .

(2) هو الإمام العلامة الحافظ اللغوي أبو سليمان حمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي أخذ الفقه على مذهب الشافعي عن أبي بكر القفال الشاشي وله مصنفات منها : كتاب " شرح الأسماء الحسنى " وكتاب : الغنية عن الكلام وأهله وشرح سنن أبي داود الذي سماه " معالم السنن " توفي الخطابي سنة ٣٨٨ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢٣ .

((قولوا بقولكم)) يريد بقول أهل دينكم وملتكم، وادعوني نبيا ورسولا، كما يماني الله عز وجل في كتابه فقال : ﴿ يآأيها النبي ﴾ ﴿ يآأيها الرسول ﴾ ، ولا تسموني سيدا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم؛ فإني لست كأحدهم ؛ إذ كانوا يسودونكم بأسباب الدنيا، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة؛ فسموني نبيا رسولا)) [١]

هذا كلام الخطابي رحمه الله، وهذا تعليله لنهي النبي صلى الله عليه وسلم إياهم عن أن يقولوا له : ((أنت سيدنا)) والظاهر الأقرب : أنه إنما نهاهم عن ذلك، ومنعهم من إطلاق السيادة عليه؛ سدا لذريعة الغلو فيه، واعتقاد ما لا ينبغي اعتقاده فيه، مما هو تنقص لجناب الرب تبارك وتعالى .

ويدل على ذلك قوله : ((السيد الله)) فحصر السيادة الموجبة للتعظيم والإجلال في الله عز وجل ، كما يدل عليه قوله في آخر الحديث ، ((ولا يستجرينكم الشيطان)) أي: لايستغلبنكم فيتخذكم جريا أي رسولا ووكيلا [٢]

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لمن خطب بحضرته فقال في خطبته (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى) : ((بئس الخطيب أنت قل : ومن يعص الله ورسوله)) [٣] وذلك لأنه أشرك في الضمير بين الله ورسوله من غير فصل بينهما وهذا يشعر بنوع مساواة بين الخالق والمخلوق ، وهو باطل ، فسدّ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الباب ؛ لما فيه من تعظيم غير الله تعظيما لا يستحقه إلا الله تعالى .

قال بعض العلماء : ((إنه صلى الله عليه وسلم أمره أن يرتب بالحقيقة الزمانية وأن ينطق بلفظ "الله" أولاً ، ثم يذكر الرسول صلى الله وسلم ثانياً ، فيحصل الترتيب الدال على الاهتمام والتعظيم ، وقد فات بسبب جمعهما في الضمير ؛ فلذلك ذمه)) [٤]

---

[١] معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٥/ ١٥٤ –١٥٥ .

[٢] مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار للفتني محمد طاهر الصديقي الهندي ١ / ٣٤٩ ط/٣ ١٤١٥ هـ مكتبة دار الإيمان .

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجمعة ، باب صلاة الجمعة وخطبتها ، (٦ / ١٥٩ شرح النووي)

[٤] تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية – بهامش الفروق للقرافي ١ / ١٢٧ ، ط/ دار المعرفة .

وحكى النووي مثل هذا عن القاضي عياض [1] وجماعة من العلماء [2]

ونظير هذا غضبه الشديد على من قال له : ما شاء الله وشئت وقوله له : ((أجعلتني لله نداً قل : ما شاء الله وحده)) [3]

وذلك : أن ما شاء الله كان وإن لم يشأ غيره ، فمقتضى عظمته وكبريائه أن تكون المشيئة المطلقة له ، وليس للخلق مشيئة إلا ما شاء لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما تشآؤون إلا أن يشآء الله ﴾ [4]

---

(1) هو: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي، ولد سنة ٤٧٦ هـ وكان من أهل العلم والتفنن والذكاء والفهم، تولى قضاء سبتة مدة طويلة، حمدت فيها سيرته، له من المؤلفات: كتاب : الشفا في شرف المصطفى ، وكتاب :" ترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك " وغيرهما، قال القاضي ابن خلكان رحمه الله: (وكل تواليفه بديعة)، توفي القاضي عياض سنة ٥٠٤ هـ ترجمته في : الديباج المذهب ٢ / ٤٦

(2) شرح صحيح مسلم للنووي ٦ / ١٥٩ وتعقب النووي ذلك بأن سبب النهي أن الخطب شأنها البسط والإيضاح واجتناب الإشارات والرموز قال : ولهذا ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ليفهم وأما قول الأولين فيضعف بأشياء منها : أن مثل هذا الضمير قد تكرر في الأحاديث الصحيحة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله صلى الله عليه وسلم : ((أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)) وغيره من الأحاديث وإنما ثنى الضمير ههنا لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكم فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف خطبة الوعظ فإنه ليس المراد حفظه وإنما يراد الاتعاظ بها ومما يؤيد هذا ما ثبت في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة الحاجة – الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا)) هذا كلام النووي ، والأظهر ما قاله الأولون لأن ما ذكره النووي رحمه الله لو كان هو السبب لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى تنبيهه بمثل هذه الشدة التي لا يقتضيها المقام، فظهر أن السبب أعظم من ذلك وأنه الإخلال بالتعظيم الواجب لله تعالى والذي فات بسبب الإشراك بينه وبين غيره في الضمير ، وأما ما احتج به النووي رحمه الله من أحاديث جاء فيها التشريك فالمتكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان المحذور مأمونا من جانبه بخلاف غيره .

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٢٤١ ، والبخاري في الأدب المفرد رقم : ٧٨٣ ، والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم : ٩٨٨ ، وأبو نعيم في الحلية ٤ / ٩٩ ، وأورده الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم : ١٣٩ .

(4) سورة التكوير / آية : ٢٧ .

وقول القائل : ((ما شاء الله وشئت)): فيه ربط بين مشيئة الخالق ومشيئة المخلوق وإقران بينهما حتى كأنهما متلازمان، أي : أن إحداهما لا تنفذ حتى تنضم إليها الأخرى، وهو باطل غير لائق بعظمة الله وكبريائه ، ثم إن فيه غلواً في تعظيم المخلوق المخاطب بذلك ، ورفعاً له فوق منزلته على حساب ما يجب لله تعالى من التعظيم والإجلال ؛ ولذلك غضب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ رعاية لحمى التوحيد، وسداً للذريعة المفضية إلى الشرك بالله عز وجل .

ومن ذلك أيضا : قوله صلى الله عليه وسلم لما قال بعض الصحابة : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق : ((إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله))[1] وهذا، لأن المستغيث إنما يحمله على الاستغاثة ما يعتقده في المستغاث به من القدرة والقوة على المستغاث منه؛ فيعظم في قلبه، فخاف النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون ذلك ذريعة إلى الإشراك بالله تعالى فيما هو خالص حقه ، من التعظيم والتكبير في قلب المستغيث، وكره أن يستعمل هذا اللفظ في حقه؛ تعظيماً لله وإجلالا عن أن يصرف شيء من حقوقه لغيره، وسداً لجميع الوسائل الموصلة إلى الشرك، سواء كان ذلك بالأقوال أو بالأفعال .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله : ((والظاهر أن مراده صلى الله عليه وسلم إرشادهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ؛ لأن استغاثتهم به صلى الله عليه وسلم من المنافق من الأمور التي يقدر عليها، إما بزجره ، أو تعزيره، ونحو ذلك ، فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ ، والحماية منه صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد ، وتعظيم الله تبارك وتعالى)). [2]

---

[1] أخرجه الطبراني في الكبير كما في مجمع الزوائد ١٠ / ١٥٩ ، وقال الهيثمي : ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة ، وهو حسن الحديث ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ / ٣١٧ .

[2] تيسير العزيز الحميد للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص / ٢٤٢ ، ط/ ٧ ، ١٤٠٨ هـ المكتب الإسلامي .

وإذا كان هذا موقف النبي صلى الله عليه وسلم ممن قال : ((قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق)) مع أن ذلك كان في حياته ، وفي أمر يقدر عليه ، إما بزجر المنافق أو تعزيره أو قتله ، إذا تعين ذلك طريقا للخلاص من أذيته للمسلمين ، فكيف يكون موقفه ممن غلا فيه وجاوز الحد في تعظيمه وتوقيره ، باسم المدائح النبوية ، وبدعوى محبته وتعظيمه صلى الله عليه وسلم ، حتى أضفوا عليه في أشعارهم ما هو من خصائص من له الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، ألا له الخلق والأمر ، وهو الله تبارك وتعالى .

ومن ذلك قول بعضهم :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي   إذا الكريم تجلى باسم منتقم
فإن لي ذمة منه بتسميتي   محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم
إن لم يكن في معادي آخذا بيدي   فضلا وإلا فقل يا زلة القدم [1]

فنفى هذا الغالي في النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون له ملاذ – إذا حلت به الحوادث ونزلت به الشدائد – إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له ، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو سبحانه وتعالى ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه ، وسأله مطالب لا تطلب إلا من الله تعالى القادر على كل شيء ، وذلك هو الشرك في الإلهية [2]

وهكذا أوغل هذا في الشرك وهو يرى أنه يتقرب إلى الله تعالى بمدح النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، فكان ممن أصابته هذه الآية ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [3]

وقول الآخر :

---

[1] ديوان البوصيري ص : ٢٤٨، تحقيق / سيد كيلاني ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٩٩٣هـ.

[2] انظر : تيسير العزيز الحميد ص : ٢٢٢ .

[3] سورة الكهف / آية : ١٠٣ – ١٠٤ .

ماذا تعامل يا شمس النبوة من أضحى إليك من الأشواق في كبدي
فامنع جناب صريع لا صريخ له نائي المزار غريب الدار مبتعد
حليف ودك واه الصبر منتظر لغارة منك يا ركني ويا عضدي
أسير ذنبي وزلاتي ولا عمل أرجو النجاة به إن أنت لم تجد

إلى أن قال داعيا النبي صلى الله عليه وسلم ومستغيثا به استغاثة لا تجوز إلا بالله سبحانه :

وحل عقدة كربي يا محمد من هم على خطرات القلب مطرد
أرجوك في سكرات الموت تشهدني كيما يهون إذا الأنفاس في صعد
وإن نزلت ضريحا لا أنيس به فكن أنيس وحيد فيه منفرد
وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن يليه من أجله وانعشه وافتقد
وإن دعا فأجبه واحم جانبه من حاسد شامت أو ظالم نكد [1]

إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة في النبي صلى الله عليه وسلم والتي صاغها أصحابها في كلمات ألبسوها ثياب التعظيم والتوقير والمدح للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهم في الحقيقة قد آذوه ، وأساءوا الأدب في حقه ، وبالغوا في اقتراف ما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اقترابه ، وحاول جاهداً سد كل الطرق الموصلة إليه ، والذرائع المفضية إلى ساحته .

ولو أن هؤلاء توجهوا بهذه الكلمات إلى الله تعالى ، لكان ذلك غاية التضرع والتذلل والدعاء المأمور به شرعا ، والذي يحبه الله ويرضى عن فاعله .

وهذه الاعتقادات : هي بعينها اعتقاد النصارى في المسيح بن مريم عليه السلام ، غير أن النصارى أطلقوا على المسيح اسم الإله، وهؤلآء لم يطلقوا ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنهم أتوا بمعناه، حيث طلبوا منه ما لا يجوز طلبه إلا من الله ؛ إذ لا يقدر

---

[1] انظر تيسير العزيز الحميد ص : ٢٢٤-٢٢٥ ، وقائل هذه الأبيات الشركية هو عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي ، - نسبة إلى برع-كعمر- جبل بتهامة - المتوفى سنة : ٨٠٣هـ ، من أهل اليمن ، شاعر متصوف له ديوان شعر مطبوع ، أكثره في المدائح النبوية . ترجمته في الأعلام للزركلي ٣ / ٣٤٣ .

عليه سواه ، وهذا من تلبيس الشيطان عليهم ؛ لأنه رأى أن الإتيان بالمعنى دون الاسم الصريح ، أدعى إلى ترويج الباطل وقبوله عند هؤلآء .

فلا شك أنه صلى الله عليه وسلم إذا سمع هذه الأشعار الموغلة في الغلو ، ومجاوزة الحد ، سيكون أشد غضبا وأعظم إنكاراً ؛ إذ مضمونها الشرك الأكبر المخرج من الملة ، وإن كان أصحابها قد قالوها باسم المدح للنبي صلى الله عليه وسلم ، فذلك من تلبيس إبليس وتلاعبه بعقولهم ، حتى عميت عما فيها من هضم حق الله تعالى في الدعاء ، والاستغاثة به وحده دون من سواه ، وعلى مثل أقوالهم هذه قاتل الرسول صلى الله عليه وسلم الكفار ، واستباح دماءهم وأموالهم وأعراضهم .

وهؤلاء إنما أتوا من سوء فهمهم لتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه ، حيث ظنوا أن مثل هذا داخل في توقيره الواجب على أمته ، وأن الشخص مهما بالغ في ذلك فلا عتب عليه ولا لوم ، نعم ، من حقه صلى الله عليه وسلم على أمته توقيره وتعظيمه ، لكن في الحدود الشرعية ، وإلا ينقلب التوقير تنقيصا ، على قاعدة :" ما زاد عن حده انقلب إلى ضده " .

قال الحافظ ابن عبد الهادي [1] في رده على السبكي [2] في قوله : " إن المبالغة في تعظيمه- أي الرسول صلى الله عليه وسلم – واجبة " : ((إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيما، حتى الحج إلى قبره، والسجود له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب ، وأنه يعطي ويمنع ، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع ، وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرج كرب المكروبين ، وأنه يشفع فيمن يشاء ، ويدخل الجنة من

---

[1] هو : محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ولد في رجب سنة ٧٠٥ هـ وقيل قبلها وقيل بعدها وكان جبلا في العلل والطرق والرجال حسن الفهم جداً قال الذهبي رحمه الله " وله توسع في العلوم وذهن سيال " . له كتاب : " الصارم المنكي في الرد على السبكي " وغيره توفي سنة ٧٤٤ هـ أنظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ٤ / ١٥٠٨ والدرر الكامنة ٣ / ٣٣٢ .

[2] هو : علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الشافعي ولد سنة ٦٨٣ هـ وتوفي سنة ٧٥٦ هـ وهو والد تاج الدين السبكي صاحب كتاب : طبقات الشافعية الكبرى، انظر ترجمته في : طبقات الشافعية الكبرى لابنه ١٠ / ١٣٩ وما بعدها و طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣ / ٣٧ – ٤٢ .

يشاء ، فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين ، أم يريد بها التعظيم الذي شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، من وجوب محبته ، وطاعته ، ومعرفة حقوقه ، وتصديق أخباره ، وتقديم كلامه على كلام غيره ، ومخالفة غيره لموافقته ، ولوازم ذلك ، فهذا التعظيم لايتم الإيمان إلا به ، ولكن هذا المعترض وأضرابه عن ذلك بمعزل)) [1]

وهذه الأمور كلها قد صرح بها أصحاب هذه الأشعار؛ بدعوى جواز المبالغة في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ومدحه، فالشكوى إلى الله !! عندما يكون الشرك الظاهر البين الذي بعث النبي صلى الله عليه لبيان بطلانه، ومصادمته للعقل والفطرة، ومحاربة أهله ، وإعلان البراءة منهم ، تعظيماً له عليه الصلاة والسلام ومدحاً !!

بل هذا منتهى التنقص له ، وغاية التنكر لما جاء به من التوحيد الخالص لله عز وجل؛ إذ كيف يرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعظم بما هو تنقص من قدر الرب العظيم ، ومساواة لخلقه به ، وصرف شيء من حقوقه لأحد منهم ؟! وهو الذي قد بلغ الذروة في تعظيم الله تبارك وتعالى ، فإجلال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن مثل هذا التعظيم، هو عين تعظيمه المأمور به شرعاً .

ومن تعظيمه عليه الصلاة والسلام لربه تحاشيه من ذكره تعالى على غير طهارة ،

قال الإمام البيهقي[2] رحمه الله : فصل: في ترك قراءة القرآن في الحمام والكنيف والمواضع القذرة تعظيماً للقرآن ، [3] فقد روينا في كتاب السنن عن النبي صلى الله عليه

---

(1) الصارم المنكي في الرد على السبكي ص : ٤٦٤ طبع مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء التراث الإسلامي .

(2) هو : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني ولد سنة ٣٨٤ هـ وكان من كبار العلماء صنف المصنفات الكثيرة في الحديث وغيره من ذلك كتاب : " السنن الكبرى " و " الأسماء والصفات " و" شعب الإيمان " وغيرها ، قال الذهبي رحمه الله (لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالخلاف ولهذا تراه يلوح بنصر مسائل مما صح فيها الحديث " سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٦٣ توفي البيهقي سنة ٤٥٨ هـ انظر ترجمته في : طبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٨ - ١٦ .

(3) شعب الإيمان للبيهقي ٢ / ٥٣٦ تحقيق : محمد السعيد بن بسيوني زغلول ط/١ ، ١٤١٠ هـ دار الكتب العلمية.

وسلم أنه لم يرد السلام على من سلم عليه وهو يبول وقال بعد ذلك : ((إذا رأيتني على هذه الحال فلا تسلم علي فإنك إن سلمت علي لم أرد عليك)) [1]

قال البيهقي : ((فإذا كان رد السلام يتحاشى في حال البول فقراءة القرآن أولى أن يكرم ويعظم)) [2]

ومما يدل على مبالغة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تكبير الله وإجلاله : حديث الأطيط الذي رواه أبو داود في سننه من حديث جبير بن مطعم [3] رضي الله عنه قال :

أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابيٌّ فقال : يا رسول الله ، جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((ويحك أتدري ما تقول ؟! وسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه ؛شأن الله أعظم من ذلك ، ! ويحك، أتدري ما الله ؟! إن عرشه على سماواته لهكذا وقال بأصبعه مثل القبة عليه وإنه ليئط أطيط الرحل بالراكب)) [4]

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي ١ /٩٠ ، دار الفكر .

[2] شعب الإيمان ٢ / ٥٣٦ .

[3] هو : أبو محمد وقيل أبو عدي - يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف- القرشي النوفلي كان من أكابر قريش ومن علماء النسب -قيل أخذ ذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه – قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في فداء أسارى بدر فسمعه يقرأ آيات من سورة الطور قال : فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي اسلم بين الحديبية والفتح وقيل في الفتح ومات في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ه انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ١ / ٥١٥ – ٥١٧ والإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر ١ / ٥٧٠ – ٥٧١ .

[4] أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة باب في الجهمية ح : ٤٧٢٦ ٥ / ٩٤ – ٩٥

قال الذهبي عن هذا الحديث :" هذا حديث غريب جداً فردٌ وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند وله مناكير وعجائب فالله أعلم أقال النبي صلى الله عليه وسلم هذا أم لا ؟ والله عز وجل " ليس كمثله شيء " جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره والأطيط الواقع بذات العرش من جنس الأطيط الحاصل في الرحل فذاك صفة للرحل

==

هذا الحديث اشتمل على تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم لشأن ربه ومبالغته في ذلك وتعليمه الأعرابي به وذلك في عدة مواضع من الحديث منها :

قوله صلى الله للأعرابي : ويحك ، أتدري ما تقول ؟ فيه زجر شديد عن مثل هذا الكلام غير اللائق بجلال الله وكبريائه ، ثم تسبيحه واستمراره في التسبيح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه للإشعار بخطورة الكلام الذي تفوه به الأعرابي، والمبالغة في تنزيه الرب تعالى عن مثل هذا الاعتقاد .

ثم قوله بعد ذلك : ((شأن الله أعظم من ذلك)) فيه بيان أن عظمة الله وكبرياءه تمنع من أن يستشفع به على أحد من خلقه ؛ ذلك لأن الشفاعة طلب على وجه الحاجة والافتقار إلى المشفوع إليه ، والله تعالى أكبر وأجل وأعز من أن يطلب شيئا من خلقه على وجه الافتقار ؛ لكمال غناه ، وشدة حاجة الخلق إليه ، فهو الغني بذاته والخلق كلهم فقراء إليه .

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((أتدري ما الله ؟)) : استفهام مراد به التهويل والإنكار الشديد، وفيه بيان شناعة هذا القول في حق الله تعالى .

ثم أراد النبي صلى الله عليه وسلم تقريب عظمة الله تعالى إلى فهم الأعرابي ؛ ليعلم أن من هذه عظمته وكبرياؤه لا يستشفع به إلى أحد من خلقه، فضرب له مثلا بأعظم مخلوقات الله وأكبرها ، وهو العرش وأنه فوق السماوات كالقبة ، أي من كبره وسعته ، وهو مع ذلك ليئط من جلال الرب جل وعلا وعظمته كما يئط الرحل بالراكب .

==

وللعرش ومعاذ الله أن نعده صفة لله عز وجل ثم لفظ الأطيط لم يأت به نص ثابت ، وقولنا في هذه الأحاديث : أننا نؤمن بما صح منها وبما اتفق السلف على إمراره وإقراره فأما ما في إسناده مقال واختلف العلماء في قبولّه وتأويله فإنا لا نتعرض له بتقرير بل نرويه في الجملة ونبين حاله وهذا الحديث إنما سقناه لما فيه مما تواتر من علو الله تعالى فوق عرشه مما يوافق آيات الكتاب " العلو للعلي الغفار ص : ٤٤ — ٤٥ .

قال الخطابي رحمه الله: ((ومعناه: إنه ليعجز عن جلاله وعظمته حتى يئط بـــه؛ إذ كان معلوما أن أطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه، ولعجزه عـــن احتماله)) [1]

والمراد من هذا كله : أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد تقرير عظمة الله وجلالـــه وارتفاع عرشه ؛ ليعلم هذا الأعرابي وغيره أن الموصوف بهذه الصفات العظيمة ، الدالـــة على كمال غناه وصمديته ، لا يجعل شفيعا إلى من هو دونه ، بل هو في حاجة دائمة إليه، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً ، ومن فعل ذلك استدل به على جهله بكبرياء الله عز وجل .

وأطيط العرش من عظمة الرب تبارك وتعالى ، قد جاء في حديث آخر بشيء مـــن الزيادة عما في هذا الحديث ، وهو حديث عبد الله بن خليفة [2] الذي يروي عن عمـــر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه :

((إن عرشه أو كرسيه وسع السماوات والأرض ، وإنه يجلس عليه فما يفضل منـــه قدر أربعة أصابع، وإنه ليئط به أطيط الرحل الجديد براكبه)) [3]

وقد روي هذا الحديث بلفظ آخر وهو قوله : ((فما يفضل منه إلا قـــدر أربعـــة أصابع ...)) لكن ابن تيمية رحمه الله وهن هذه الرواية وأبطلها من وجوه :

---

[1] معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٥/ ٩٥ .

[2] هو : عبد الله بن خليفة الهمداني الكوفي تابعي مخضرم روى عن جابر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وروي عنه أبو إسحاق السبيعي وابنه يونس وذكره ابن حبان في " الثقات " ٥ / ٢٨ وروى له ابن ماجه في التفســير في قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ انظر : تهذيب الكمال للمزي ١٤ / ٤٥٦ وميزان الاعتدال للذهبي ٤ / ٨٩ .

[3] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وقد رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاره وذكـــر أن طائفة من أهل الحديث كأبي بكر الإسماعيلي وابن الجوزي ترده لاضطرابه ولكن أهل السنة قبلوه .
وقال : والحديث قد رواه أهل السنة كأحمد وأبي داود وغيرهما وليس فيه إلا ما له شاهد من رواية أخرى ولفـــظ الأطيط قد جاء في غيره " مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٦ / ٤٣٤ – ٤٣٦ .

أحدها : ما فيه من الاضطراب والاختلاف بين الروايتين،فإحداهما تنفي والأخرى تثبت، وأنه لا يمكن مع هذا الاضطراب الجزم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد الإثبات، أي: أنه يفضل من العرش قدر أربعة أصابع لا يستوي عليها الرب تعالى .

الثاني : أن الأخذ بهذه الرواية — رواية الإثبات - يقتضي أن العرش أعظم من الرب - تبارك وتعالى- وأكبر منه، وذلك معلوم البطلان بالكتاب والسنة وصريح العقل .

الثالث : أنه يقتضي توقف معرفة عظمة الله- تعالى- على عظمة العرش المخلوق ، فيكون الرب لا يعظم إلا بالمقايسة بمخلوق، وهو أعظم منه، وهذا المعنى فاسد مخالف لما علم من الكتاب والسنة والعقل، فإن طريقة القرآن في ذلك هي أن يبين عظمة الرب، فإنه أعظم من كل ما يعلم عظمته، فيذكر عظمة المخلوقات، ويبين أن الله أعظم منها، كما في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه .

قال شيخ الإسلام : ((وهذا وغيره، يدل على أن الصواب في روايته النفي، وأنه ذكر عظمة العرش ، وأنه مع هذه العظمة ، فالرب مستو عليه كله ، لا يفضل منه قدر أربعة أصابع، وهذه غاية ما يقدر به في المساحة من أعضاء الإنسان ... إلى أن قال : فبين الرسول أنه لا يفضل من العرش ــ أي بعد استواء الرب تعالى عليه — ولا هذا القدر اليسير الذي هو أيسر ما يقدر به ، وهو أربعة أصابع ، وهذا معنى صحيح ، موافق للغة العرب ، وموافق لما دل عليه الكتاب والسنة ، وموافق لطريقة بيان الرسول ، وله شواهد، فهو الذي يجزم بأنه في الحديث)).[1]

والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد من هذا أن يبين أن العرش مع عظم خلقته -إذ هو أعظم المخلوقات- فهو صغير جداً بالنسبة إلى عظمة الخالق وكبريائه، وهذا أحد الطرق التي سلكها القرآن الكريم في الدلالة على عظمة الله تبارك وتعالى، وهو التنبيه بالمخلوقات العظيمة الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

ومما يدل على تعظيم النبي- صلى الله عليه وسلم- لربه: ما جاء عنه من النهي عن الحلف بغير الله؛ لما يتضمنه ذلك من تعظيم غير الله تعظيما لا ينبغي إلا لله تعالى .

---

[1] انظر : مجموع الفتاوى ١٦ / ٤٣٧ -٤٣٨

ففي الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم)) قال عمر: ((فوالله ما حلفت بها منذ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ذاكرا ولا آثرا)) (1)

وقال صلى الله عليه وسلم: ((من حلف بالله فقد كفر أو أشرك)) (2)

قال النووي رحمه الله: ((قال العلماء: الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله تعالى أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به، وحقيقة العظمة مختصة بالله، فلا يضاهى به غيره، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أحلف بالله مائة مرة فآثم خير من أن أحلف بغيره فأبر، فإن قيل: الحديث مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم:((أفلح وأبيه إن صدق)) (3)

فجوابه أن هذه كلمة تجري على اللسان لا تقصد بها اليمين،

فإن قيل: فقد أقسم الله تعالى بمخلوقاته كقوله تعالى: ((والصآفات، والذاريات، والطور، والنجم)) فالجواب أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته تنبيها على شرفه))(4)

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور باب لا تحلفوا بآبائكم ح: ٦٦٤٧ (١١ / ٥٣٠ فتح الباري) واللفظ له ومسلم في كتاب الأيمان باب النهي عن الحلف بغير الله (١١ / ١٠٤ شرح النووي)
ومعنى ذاكرا: قائلا لها من قبل نفسي، ومعنى آثرا: حالفا عن غيري وقيل: ذاكرا: أي عامدا وآثرا أي حاكيا عن الغير والمعنى: ما حلفت بها ولا حكيت عن غيري ذلك انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ١١ /١٠٥ –١٠٦ وفتح الباري ١١ / ٥٣٢

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ١٢٥، وأبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، ح: ٣٢٥١، ٣ / ٥٧٠، و الترمذي في سننه في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، ح: ١٥٣٥، ٤ / ١١٠ وقال: هذا حديث حسن. والحاكم في المستدرك ١ / ١٨، ٤ / ٢٩٧ – وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، انظر الإحسان ١٠ / ١٩٩
قال المناوي في معنى قوله: ((فقد كفر أو أشرك)) (أي فعل فعل أهل الشرك، أو تشبه بهم إذ كانت أيمانهم بآبائهم وما يعبدون من دون الله، أو فقد أشرك في تعظيم من لم يكن له أن يعظمه ؛ لأن الأيمان لا تصلح إلا بالله، فالحالف بغيره معظم غيره مما ليس له فهو يشرك غير الله في تعظيمه ورجحه ابن جرير) فيض القدير ٦ / ١٢٠، ط/١، ١٣٥٧ هـ مطبعة مصطفى محمد.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من أقام الفرائض فقد أفلح (١ / ١٦٧ –١٦٨).

(4) شرح صحيح مسلم للنووي ١١ / ١٠٥

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ((وأما ما ورد في القرآن من القسم بغير الله ففيه جوابان أحدهما : أن فيه حذفا والتقدير : ورب الشمس ، ونحوه

والثاني : أن ذلك يختص بالله فإذا أراد تعظيم شيء من مخلوقاته أقسم به وليس لغيره ذلك)) [1]

هذا وكما أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن الحلف بغير الله؛- لما فيه من الإفراط في تعظيم غير الله، وذلك شرك أصغر، ينافي كمال التوحيد الواجب، وقد يكون شركا أكبر ينافي التوحيد إن قام بقلب الحالف أن المحلوف به له من العظمة مثل ما لله عز وجل ،- كذلك أمر من حلف بالله أن يصدق، وأمر من حلف له بالله أن يرضى ويقتنع؛ استشعارا لعظمة المحلوف به سبحانه.

فعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قال :

((لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله)) [2]

وهذا وعيد لمن لم يكفه الحلف بالله، ولم يرض به؛ لأن عدم رضاه بذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الرب تعالى، إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله ،وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك [3] ولهذا فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق فقال له : أسرقت ؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو فقال عيسى : آمنت بالله وكذبت عيني)) [4]

---

[1] فتح الباري ١١ / ٥٣٣ وهناك أجوبة أخرى عن حديث ((أفلح وأبيه إن صدق)) ذكرها الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

[2] أخرجه ابن ماجه في سننه ،كتاب الكفارات ، باب : من حلف له بالله فليرض ح : ٢١٠١ ، ١ / ٦٧٩ وأورده الشيخ الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ٢ / ١٩٦ .

[3] انظر : تيسير العزيز الحميد ص : ٥٦٩

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب : واذكر في الكتاب مريم ح : ٣٤٤٤ ، (٦ / ٤٧٨ فتح الباري) ومسلم في كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام (١٥ / ١٢١ شرح النووي)

قال ابن القيم رحمه الله : ((وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز أن يكــون قد أخذه من ماله فظنه المسيح سرقة وهذا تكلف ! وإنما كان الله سبحانه وتعالى في قلــب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبا، فلما حلف له الســـارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فرد التهمة إلى بصره، لما اجتهد له في اليمين، كما ظــن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل [1] وقال : ما ظننت أحدا يحلف بــالله تعالى كاذبا))[2]

وقال ابن كثير رحمه الله بعد نقل هذه الحكاية عن المسيح عليه السلام :

((وهذا يدل على سجية طاهرة حيث قدم حلف ذلك الرجل - فظن أن أحـــدا لا يحلف بعظمة الله كاذبا – على ما شاهده منه عيانا فقبل عذره ورجع على نفسه فقـــال : آمنت بالله أي صدقتك وكذبت بصري لأجل حلفك)) [3]

لكن الظاهر أن هذا ما لم تكن قرائن واضحة تبين كذب الحالف وأن يمينـــه يمـــين فاجرة ، فإن اقترنت باليمين دلائل كذب الحالف أو عرفت عنه سوابق تدل على-فســـقه وعدم اكتراثه بأن يحلف بالله تعالى كذبا، فليس عدم الرضا بيمينه إخلالا بتعظيم الله تعالى،

كمن قضي عليه بموجب البينة الصحيحة عند القاضي ثم شرع يحلف الأيمان المغلظـــة بخلاف البينة، فإنه لا يلتفت إلى يمينه ولا يعد ذلك إخلالا من القاضي بتعظيم الله تعالى .

*********** ********** ***********

---

[1] كما في قوله تعالى في سورة الأعراف آية : (٢١) ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾

[2] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ١ / ١٧٩ تحقيق / خالد عبد اللطيـــف الســـبع العلمـــي ط/٢ ،١٤١٧ هـــ دار الكتاب العربي .

[3] البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ٢ / ٧٧ ط/٢، ١٤١٨ هـــ دار الكتب العلمية .

الفرع الثاني : السلف الصالح وما أثر عنهم من أقوال وأحوال

تدل على تعظيمهم لله عز وجل :

لما كان السلف الصالح من هذه الأمة أكمل الناس علما بـــالله، ومعرفــة بحقوقــه المستحقة له وصفاته الكاملة الثابتة له ؛كانوا أشدهم له تعظيما ، وإجـــلالا ، بـأقوالهم، وأحوالهم ، في خلواتهم وجلواتهم ،في خاصة أنفسهم ، وفي تعاملهم مع غيرهم ، وكـــانوا أبعد الناس عن كل ما يتنافى مع الشعور بعظمة الله وكبريائه، من الأخلاق والتصرفـــات كالكبر والعجب بالأعمال واستكثارها، وغير ذلك من السلوك المشين الذي لا يصدر ممن لله في قلبه وقار، والمستقرئ لسيرهم ، الواقف على أخبارهم ، يرى ذلك جليا واضحـــا ، ويتيقن من أن الله تعالى كان في قلوبهم أكبر وأعظم وأعلى وأجل من كل ما سواه كائنـــا ما كان .

وقد تجلت هذه الحقيقة في خوفهم الشديد من الله تعالى لأنه أهل أن يخاف ويــهاب وهو أعظم من أن يأمن العبد مكره ،كما تجلت في تواضعهم وتصـــاغرهم واحتقـــارهم لأعمالهم، وإزرائهم على أنفسهم ، لعلمهم أن الكبرياء حق خالص لله تعالى فـــلا يجـــوز للعبد الضعيف العاجز أن يزاحم الله تعالى فيها .

وفيما يلي بعض المواقف المأثورة عنهم والتي تدل علـــى استشـــعارهم لعظمـــة الله وكبريائه وهي نماذج يسيرة أوردها للتمثيل والتدليل .

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو من ! قد حاز الرتب العليا، والمكانة الأسمى في الدين ،كان ثاني اثنين ، والصاحب في الغار ، وأبا أحب أزواج النبي صلى الله عليـــه وسلم إليه، وأحب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، ونزلت في حقه آيات مـــن

القرآن تتلى [1] ورويت في مناقبه الأحاديث الصحيحة الكثيرة ثم كان الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بإشارة هي كالعبارة الصريحة منه عليه الصلاة والسلام[2] وهو خير هذه الأمة بعد نبيها بلا خلاف وأول العشرة المبشرين بالجنة ،ومناقبه أكثر من أن تحصى ، ومع حصول هذه الفضائل الجمة لأبي بكر رضي الله عنه كان شديد الخوف من الله عز وجل، عظيم الإشفاق على نفسه ، سريع الدمع بكاء من خشية الله؛ لأنه لا يأمن مكر الله ؛ لأن الأمن من مكر الله من علامات الخسران ، وأمارات الخذلان روى زيد بن أرقم [3] رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه استسقى فأتي بإناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ، فسكت وما سكتوا ، ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته ، ثم مسح وجهه وأفاق ، فقالوا : ما هاجك على هذا البكاء ؟ قال:كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عن نفسه شيئا ويقول : ((إليك عني إليك عني)) و لم أر معه أحدا ، فقلت : يا رسول الله ، أراك تدفع عنك شيئا ولا أرى معك أحدا قال : ((هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها فقلت لها : إليك عني فتنحت وقالت : والله لئن انفلت مني لا ينفلت مني من بعدك)) فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي

---

[1] كقوله تعالى : ﴿ وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾ سورة الليل / آية : ١٧ – ٢١ ، فقد جاء أن هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك فيما أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٢ / ٦٢٠ ، والحاكم في المستدرك ٢ / ٦١٨ –٦١٩ ط/١ ، ١٤١٧ هـ ، دار الحرمين ، من طريق ابن إسحاق – وقد صرح بالتحديث عند الحاكم –، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه ، وقال الذهبي : مسلم لم يعتمد على ابن إسحاق .

[2] كقوله صلى الله عليه وسلم للمرأة التي قالت له : أرأيت إن جئت و لم أجدك كأنها تعني الموت : ((إن لم تجديني فأتي أبا بكر)) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل أبي بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم ح : ٣٦٥٩ ، (٧ / ١٧ من فتح الباري) ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر (١٥ / ١٥٤ شرح النووي)

[3] هو أبو عمرو الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه كان من مشاهير الصحابة ، و شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم المشاهد العظيمة، جاء عنه أنه قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة كما في صحيح البخاري ، وسكن الكوفة ومات بها سنة ٦٦ وقيل ٦٨ هـ انظر : معجم الصحابة للبغوي ٢ / ٤٧٦ تحقيق / محمد الأمين بن محمد محمود بن أحمد الجكني ط/١ ١٤٢١ هـ مكتبة دار البيان وسير أعلام النبلاء ٣ / ١٦٥ .

أبكاني، [1] فهذه القصة تدل على ما في قلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه من مخافة الله تعالى ومعرفة عظمته والحذر من عذابه، فمع ما حصلت له من الفضائل وما تحققت له من المناقب والبشارات على لسان الصادق المصدوق-رسول الله صلى الله عليه وسلم- لم يجد الغرور والإعجاب إلى قلبه سبيلا ، ولم يسمح لنفسه يوما من الدهر أن تتعاظم ؛لأنه يعلم أن أعماله مهما عظمت وكثرت وحسنت ، فإنها في جنب حق الله تعالى عليه وما له من الكبرياء والجلال قليلة جداً بل إنها نعمة من نعم الله تعالى يجب عليه أداء شكرها وهذا موقف آخر من المواقف الإيمانية لأبي بكر رضي الله عنه يدل على ورعه ونزاهته وحرصه على الابتعاد عما حرم الله تعالى تعظيما لحرمات الله عز وجل .

روى زيد بن أرقم قال : كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام ،فتناول منه لقمةً ، فقال له المملوك : مالك ! كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع من أين جئت بها ؟ قال : مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني ، قال : إن كدت أن تهلكني ، فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها فقيل له يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة ؟! قال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به)) فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة [2]

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خير الأمة بعد نبيها وصديقها، كان على درجة كبيرة من استشعار عظمة الله تعالى، والخوف منه، والحذر من عقابه، يدل على ذلك حاله مع الآيات المشتملة على التخويف والإنذار ، فقد كان يتدبرها ويقف عندها

---

[1] أخرجها أبو نعيم في الحلية ١ / ٣٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٧ / ٣٦٥ . وفي إسنادها عبد الواحد بن زيد البصري ، وهو متروك . انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ٦٧٢ .

[2] أخرجه الإمام أحمد في الزهد ص : ١٠٩ ، و أبو نعيم في الحلية ١ / ٣١، وفي إسناده عبد الواحد بن زيد البصري ، وهو متروك كما تقدم . انظر : ميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ٦٧٢ .

ويتأثر بها، أثر عنه أنه قرأ مرة سورة الطور حتى إذا بلغ قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ [1] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعاده الناس [2] .

وعنه أنه قال لابنه عبد الله -رضي الله عنهما وهو في الموت يودع الدنيا - : ((ويحك ، ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم قال : بل ويل أمي إن لم يغفر لي)) [3] ثلاثا ثم قضى، وكان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء [4] من خشية الله وتذكر عظمته .

ولما قال له ابن عباس رضي الله عنهما - مثنيا عليه ومطمئنا له بعدما طعن وتيقن من موته - ((أليس قد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعز الله بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة ، فلما أسلمت كان إسلامك عزاً ، وظهر بك الإسلام ، وهاجرت فكانت هجرتك فتحا ، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتال المشركين ، ثم قبض وهو عنك راض ، ووازرت الخليفة بعده على منهاج النبي صلى الله عليه وسلم فضربت من أدبر بمن أقبل ، ثم قبض الخليفة وهو عنك راض، ثم وليت بخير ما ولي الناس ، مصر الله بك الأمصار ، وجبا بك الأموال ، ونفى بك العدو ، وأدخل بك على أهل بيت من سيوسعهم في دينهم وأرزاقهم ، ثم ختم لك بالشهادة ، فهنيئا لك ! قال عمر رضي الله عنه : والله إن المغرور من تغرونه ، ثم قال : أتشهد لي يا عبد الله عند الله يوم القيامة ؟ فقال نعم ، فقال : اللهم لك الحمد)) [5] .

---

(1) سورة الطور / آية : ٧-٨ .

(2) انظر الزهد للإمام أحمد ، وتفسير ابن كثير ٤ / ٢٤١، والدر المنثور للسيوطي ٧ / ٦٣١

(3) المعجم الأوسط للطبراني ١ / ١٨٣ .

(4) انظر : فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٢٥٣ ، وأخبار مكة للفاكهي ٢ / ٣١٩ ، وشعب الإيمان للبيهقي ١/ ٤٩٣ ، وحلية الأولياء لأبي نعيم ١ / ٢١ .

(5) أخرجه الإمام أحمد في كتاب الزهد ص : ١٢٤، والطبراني في المعجم الأوسط ١ / ١٨٣، وأبو نعيم في الحلية ١ / ٥٢ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠ / ٩٧ ، وأورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٧ / ٦٥ -٦٦ ، والهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ٧٥-٧٧ ، وقال : ((رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح)) .

فالشاهد : ما كان عليه عمر رضي الله عنه – مع كثرة فضائله ومناقبه – من الخوف من الله عز وجل ، واستصغار نفسه واحتقار عمله ، استشعارا لعظمة الله-تعالى وكبريائه ، وهكذا المؤمن ، يجمع إحسانا وشفقة ، وهذا مقتضى العبودية الكاملة؛ فإن حقيقة العبادة لا تحصل إلا بغاية الذل مع غاية الحب ، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة ، وأن لا يرى العبد نفسه إلا في مقام الذم والمعاتبة لها على تفريطها في حق ربه العظيم سبحانه [1] وهذا بخلاف المنافق ؛ فإنه- لفرط جهله بكبرياء الله وعظم حقه عليه- يجمع إساءة وإعجابا !! ،

وهذا عثمان رضي الله عنه ذو النورين، أثر عنه أنه كان إذا وقف على القبر بكى حتى تبل لحيته[2] ، وكان يقول : ((لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير !!))[3] .

هذا ، وهو المبشر بالجنة، المخصوص باستحياء الملائكة منه [4] وهو الذي جهز جيش العسرة وقال له النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ : ((ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين)) [5] وفضائله كثيرة وشهيرة، ومع ذلك كان هذا خوفه من الله، وإشفاقه على نفسه؛ لأنه يعلم أن الله تعالى أكبر وأعظم، وأن له المنة والفضل وحده ، وأعماله وإن جلت وعظمت فهو بحاجة إلى رحمة الله تعالى؛ فلم يغتر بها و لم يعجب بنفسه ولا بأعماله.

وكذلك كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة رضي الله عنها، والذي بشره النبي صلى الله عليه وسلم

---

(1) انظر : تيسير العزيز الحميد ص : ٧٣٢ .

(2) الزهد للإمام أحمد ص : ١٦٠ .

(3) حلية الأولياء ١ / ٦٠

(4) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، (١٥ / ١٦٩ من شرح النووي) .

(5) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب المناقب ، باب : في مناقب عثمان ابن عفان رضي الله عنه، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، سنن الترمذي ٥ / ٦٢٦ ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ١ / ٥٩ .

بأن الله يحبه ورسوله، وأنه يحب الله ورسوله،[1] وكفى بهذه الشهادة الصادقة شرفاً وفضلاً إلا أنه مع هذه البشارة العظيمة وغيرها مما ثبتت له على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، كان عظيم الإشفاق على نفسه، كثير البكاء من خشية الله والتفكر في عظمته والشعور بالتقصير في حقه سبحانه، وكان رضي الله عنه يشتد خوفه من اثنتين : طول الأمل،واتباع الهوى وكان يقول : ((أما طول الأمل، فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق)) [2].

وعلى هذا النهج الصالح كان سائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين، في تعظيمهم لله عز وجل، ونظرهم إلى عظم حقه عليهم، وفي إزرائهم على أنفسهم، واحتقارهم لأعمالهم ،وخوفهم أن لا تقبل منهم .

فهذا أبو الدرداء [3] رضي الله عنه يقول :

((إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لي : يا أبا الدرداء ، قد علمت فكيف عملت فيما علمت)) [4]؟

---

(١) في الصحيحين من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: ((لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقيل هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال فأرسلوا إليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ...)) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر، ح: ٤٢٠٩ –٤٢١٠ ، (٧ / ٤٧٦ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في صحيحه، في الفضائل ، فضائل علي بن أبي طالب ، (١٥ / ١٧٦ من شرح النووي) .

(٢) الزهد لابن المبارك ١ / ٢٦٩. وحلية الأولياء ١ / ٧٦

(٣) هو عويمر بن زيد ، ويقال ابن عامر ، ويقال ابن عبد الله، الأنصاري الخزرجي ، حكيم هذه الأمة ، أسلم يوم بدر و كان ممن جمع القرآن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآخى النبي بينه وبين سلمان الفارسي رضي الله عنهما، وكان أبو الدرداء من علية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، خرج إلى الشام وسكنها، وولي قضاء دمشق في خلافة عثمان رضي الله عنهما ، وتوفي سنة ٣١ وقيل ٣٢ هـ في عهد عثمان رضي الله عنه ، ترجمته في : الطبقات الكبرى لابن سعد ٧ / ١٩١ ، ط/ دار صادر بيروت، وأسد الغابة ٦ / ٩٧ .والإصابة ٢ / ٣٥٩

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٢ / ٣٥٨ ،

وكان يقول لأصحابه : ((لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة ،ولا شربتم شرابا على شهوة ،ولا دخلتم بيتا تستظلون فيه ،ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ،ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل)) [١] .

كل هذا الخوف وأبو الدرداء هو المعروف بصيامه وقيامه وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعماله الجليلة ؛لأنه يعلم أن الله تعالى أكبر وأعظم من أن يوفيه حقه ،وأن أعماله وإن عظمت فإنها لا تنجيه فلم يعجب بها .

وأثر عن تميم الداري[٢] رضي الله عنه أنه قرأ ليلة سورة الجاثية، فلما أتي على قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم سآء ما يحكمون ﴾ [٣] جعل يرددها ويبكي حتى أصبح [٤]

وأثر عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها مرت بشجرة فقالت ((ياليتني ورقة من هذه الشجرة)) [٥] من شدة خوفها من الله تعالى ومن هول المثول بين يديه سبحانه .

---

[١] الزهد لابن أبي عاصم ١ / ١٣٨، وشعب الإيمان للبيهقي ١ / ٤٨٥، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ٢٣٠ ، إلى الطبراني والبزار من طريق ابنة أبي الدرداء ،وقال الهيثمي : ((لا أعرفها ، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح)) .

[٢] هو أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة اللخمي الفلسطيني الصحابي رضي الله عنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع هـ فأسلم وحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر بقصة الجساسة في أمر الدجال كما في صحيح مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب قصة الجساسة مات سنة ٤٠ هـ انظر : الإصابة في تمييز الصحابة ١: / ٤٨٨

[٣] سورة الجاثية / آية : ٢١ .

[٤] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢ / ٥٠ ، برقم (١٢٥٠ و ١٢٥١) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة ، ونسبه الحافظ ابن حجر في الإصابة ١ / ٤٨٨ إلى البغوي في الجعديات ،

[٥] أخرجه ابن المبارك في الزهد ١ / ٢٥٩، بسند صحيح كما قال المحقق .

وعنها أنها سئلت عن قول الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾[١] فقالت للسائل :

((يا بني ،هؤلآء في الجنة ،أما السابق بالخيرات: فمن مضي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله بالجنة ،وأما المقتصد: فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ،وأما الظالم لنفسه: فمثلي ومثلكم)) ، [٢] فجعلت نفسها- مع الظالمين أنفسهم مع أنها كانت من خيار السابقين الأولين- تواضعاً منها رضي الله عنها واحتقاراً لأعمالها ،وتفكراً في عظمة الله وكبريائه، التي تتضاءل عندها أعمال العباد، مهما كانت، فالله أكبر من أن تكون أعمال العباد وافية بحقه سبحانه .

وأخبار الصحابة في هذا كثيرة جداً، كانوا عن الكبر بمعزل ،وعن الإعجاب بأنفسهم وأعمالهم بمنأى، وفي العلم بعظمة الله وكبريائه على درجة كبيرة ،كانوا كما وصفهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حيث قال : ((لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم،لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله ،يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله، مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين)) .[٣]

وهذا تصوير لمجتمع الصحابة الطاهر، وكيف كان خوفهم من الله تعالى، ومعرفتهم بعظمته، وبحقوقه، وشعورهم بعدم القيام بها كما ينبغي، فكانوا بذلك المؤمنين حقاً، وصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾[٤]

---

(١) سورة فاطر / آية : ٣٢ .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٦ / ١٦٧، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، كما في الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٢٤ ، ط/دار الفكر ، ١٩٩٣ م

(٣) حلية الأولياء ١ / ٧٦ .

(٤) سورة الأنفال / آية : ٢ .

وكانوا هم المتقين المحسنين، الذين وصفهم الله في قوله: ﴿ إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [1] فمع إحسانهم ومداومتهم على قيام الليل، حريصون على الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى؛ لشهودهم تقصيرهم وعلمهم بعظمة الرب سبحانه وتعالى، وأنهم مهما عملوا من أعمال صالحة فهم في أمس الحاجة إلى رحمته وفضله .

وقد يتساءل أحدنا- وهو يطالع سير السلف، وما كانوا عليه من شدة الخوف والإشفاق على أنفسهم- لم هذا الخوف كله مع أن هؤلاء لهم في الإسلام قدم راسخة ، بل بعضهم قد فاز بالبشارة بالجنة على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الصادق المصدوق ، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ؟! فالجواب ما قال الإمام البيهقي رحمه الله : ((... أن كل من كان بالله عز وجل أعرف؛ كان منه أخوف، وبشارة من بشر منهم بالمغفرة ودخول الجنة، لا يمنع من الخوف عند ذكر الآيات، فقد ينسيه الله تعالى تلك البشارة في ذلك الوقت؛ لتكميل أحواله في العبودية، وقد يطمئن لها في العاقبة بخبر الصادق به، ثم لا يأمن حدوث ما يستحق عليه العقاب إلى أن يدرك بالرحمة والمغفرة في العاقبة)) [2]

******* ******** *******

---

[1] سورة الذاريات / آية : ١٥ – ١٨ .

[2] شعب الإيمان للبيهقي ١ / ٤٧٧ .

المطلب الثالث :

دلالة العقل على وجوب تكبير الله وتعظيمه :

سبق أن ذكرت أن في القرآن الكريم دعوات متكررة ، ونداءات متتابعة للعقل إلى إمعان النظر في ملكوت الله تعالى، وإلى مخلوقاته العظيمة ، وآياته الدالة على عظمته وكبريائه وعزته وجلاله ؛ كيما يستخلص منها النتيجة المقصودة من وراء هذا النظر ؛ إذ النظر الصرف ليس هو الغاية المطلوبة من الأمر بالنظر كما هو معلوم .

فالعقول المستجيبة لهذه النداءات الإلهية، استفادت من جراء نظرها إلى ما دعاها الله عز وجل إلى النظر فيه، فأيقنت بعظمة الله وجلاله ، وتوصلت إلى العلم بأن من هذا خلقه وملكه، حقيق بأن يكون أعظم وأكبر من كل شيء ، وأنه واجب على العباد تعظيم من هذه قدرته وعلمه، وذلك بأن ينقادوا له بالطاعة المطلقة، ويفردوه بالعبادة التي لا تنبغي إلا للعظيم الذي لا أعظم منه، بل هو أعظم وأكبر من كل عظيم .

وأما العقول التي أعرضت عن النظر المأمور به، أو تأثرت ببعض المؤثرات الخارجية التي لوثتها وعطلت وظيفتها، فهي التي أخلت بواجب تعظيم الله وتكبيره ، فراحت تصرف حق التعظيم لغير الله عز وجل ، كما هو حال المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة أخرى، يعبدونهم، ويعظمونهم تعظيماً لا يجوز إلا لله تعالى، فهؤلاء أهملوا العقول وعطلوها عن وظيفتها، أو تعارض وحي الله تعالى بما يزعم أنه موجب العقل !! كما هو حال المتكلمين المقدسين للعقل، والمدعين له العصمة ! حتى وصل بهم الأمر إلى أن عزلوا الكتاب والسنة عن أن تنال بهما معرفة الله عز وجل، وصرحوا بأن معرفته تعالى لا تنال إلا بحجة العقل ! [1] ولا شك أن هذا تقول على العقل وافتراء عليه؛ إذ العقل السليم

---

[1] يقول القاضي عبد الجبار :(فاعلم أن الدلالة أربعة : حجة العقل ، والكتاب، والسنة ، والإجماع ، ومعرفة الله لا تنال إلا بحجة العقل) ! شرح الأصول الخمسة ص : ٨٨ ، تحقيق / عبد الكريم عثمان ، ط/١، ١٩٦٥م، مكتبة وهبة .

السالم مما يفسده لا يرى لنفسه حقاً في معارضة الخالق جل جلاله، بل يعظمه ويجله عن ذلك ، و يعتقد وجوب التصديق لأخباره ، والانقياد لأحكامه ، وإن لم يعقلها ويدرك حكمها؛ إذ من الجائز أن تأتي النصوص بما تحار فيه العقول، لكن من غير الجائز أن تأتي بما تحيله العقول .

فإذن : من أوجه دلالة العقل على عظمة الله تعالى – إجمالاً –تفريقه بين الخالق والمخلوق ، فإن كل ذي عقل سليم يدرك بعقله - من حيث الجملة – أن بين الخالق والمخلوق فرقاً في الذات والصفات والأفعال ، ويعلم أن الخالق أعظم من المخلوق من كل وجه ، وبناء على هذا ، يفرق العقل السليم بين الخالق والمخلوق في الحقوق ، فيعلم أن حق العبادة – مثلاً – حق خالص لله عز وجل ، ولا يجوز صرفه لمخلوق أياً كان ، وذلك أن للخالق صفات كمال وجلال استحق بها العبادة لا توجد في غيره؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يصف المشركين الذين يصرفون حق العبادة لغير الله تعالى بعدم العقل، فيجعلهم مثل الحيوانات؛ لأنه لو كانت لهم عقول صحيحة لعلموا أن الله تعالى أعظم من أن يسوى بأحد من خلقه ، فيصرف شيء من حقه له .

وإذا علمنا أن العقل السليم يدل على وجوب تعظيم الله عز وجل، والتفريق بينه وبين المخلوقات، وذلك باعتقاد اتصافه بصفات العظمة والجلال التي لا توجد في غيره، والتي لا يمكن إثبات عظمته وكبريائه بدونها ؛ علمنا أن كل من نفى شيئاً من تلك الصفات ، أو شبهها بصفات غيره من المخلوقات، مدعياً أن عقله دله على ذلك أخل بتعظيم الله عز وجل وخسر خسارتين عظيمتين :

١- إعراضه عن الكتاب والسنة، وعن الحق والهدى الذي اشتملا عليه، وهذه الخسارة لا تساويها خسارة .

٢- فساد العقل واختلاله؛ إذ إن من دلائل صحة العقل موافقته للنقل، واهتداؤه به ، وتبعيته له، فمتى زعم له التحرر والاستقلال عن النقل، بدعوى أنه أصل النقل، كان ذلك بداية هلاكه ودليل فساده .

ولهذا كان نهاية إقدام المفتونين بالعقليات وتقديمها- عند دعوى التعارض - على السمعيات، أن أصبحوا مفلسين تمام الإفلاس من العقل والنقل جميعاً، فأصبحوا لا عقل لهم ولا نقل !!

وتبين من هذا : أن كل من أثبت لله تعالى ما ثبت له بالقرآن والسنة، ونفى عنه ما نفاه القرآن والسنة، كان أولى بالمعقول الصريح، كما كان أولى بالمنقول الصحيح، وأن كل من خالف صحيح المنقول فقد خالف صريح المعقول أيضاً، وكان كمن قال الله تعالى فيهم :﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ [1]

فالمقصود : بيان أن من وظائف العقل الصحيح أن يدل صاحبه على الله عز وجل ، وأن يعرفه عظمته وكبرياءه وجلاله، وأنه سبحانه أكبر وأعظم من كل شيء، وإن كان العقل لا يمكنه أن يستقل بمعرفة ذلك المعرفة التفصيلية الواجبة؛ ولهذا اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين ، وجعل خلاصة دعوتهم معرفة الله تعالى بإلهيته، وأسمائه وأفعاله ، التي تبنى عليها سائر مطالب الدين كلها من أوله إلى آخره . [2]

---

[1] سورة الملك / آية : ١٠ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل ١ / ١٠٠ .

[2] انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص : ١٧ .

المبحث الثاني :

درجات تكبير الله عز وجل :

وفيه توطئة وثلاثة مطالب :

التوطئة : العلم بالله عز وجل وعلاقته بتكبير الله وإجلاله :

العلم بالله تعالى هو السبب الحامل على الشعور بعظمته وكبريائه وجلاله ، وهو أصل صلاح العباد وسعادتهم وكمالهم، وأصل مصالحهم في دنياهم وآخرتهم ، كما أن الجهل به سبحانه هو أصل الشقاوة في الدنيا والآخرة .

ذلك أنه بقدر معرفة العبد بربه ، ومعرفته بأوامره ونواهيه ،وحقوقه الواجبة له ، ووعده ووعيده ، يكون تعظيمه له ،وخوفه ورجاؤه ، وخشيته منه وتوكله عليه ، وبالجملة : بقدر علمه بالله يكون تحقيقه العبودية لله تعالى ، كما قال تعالى :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [1] فالحصر في الآية الكريمة يفيد بأن خشية الله تعالى لا تحصل في القلب إلا نتيجة للعلم به ، وأن غير المتصفين بهذه الصفة – صفة العلم بالله– لا تحصل لهم خشية الله ؛لعدم حصول ما يقتضيها ، فالعلماء عرفوه معرفة أوجبت لهم خشيته والخوف منه والحذر من عقابه والرغبة في ثوابه ، وهذه الأمور مجتمعة أوجبت عليهم إجلاله ، واستشعار عظمته وكبريائه .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في الربط بين العلم بالله وبين الشعور بعظمته وكبريائه :

((وهذه المترلة – يعني مترلة تعظيم الله وتكبيره – تابعة للمعرفة فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب ، وأعرف الناس به أشدهم له تعظيماً وإجلالاً ، وقد

---

[1] سورة فاطر / آية : ٢٨ .

ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته ولا عرفه حق معرفته ولا وصفه حق صفته ، وأقوالهم تدور على هذا فقال تعالى : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾

قال ابن عباس ومجاهد [1] : لا ترجون لله عظمة .

وقال سعيد بن جبير : مالكم لا تعظمون الله حق عظمته .

وقال الكلبي [2] لا تخافون لله عظمة)) [3].

وقال البغوي في معنى الآية : ((والرجاء بمعنى الخوف والوقار: العظمة اسم من التوقير وهو التعظيم .

وقال الحسن : لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة .

وقال ابن كيسان : مالكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً)) [4]

فالمقصود : أن تكبير الله وإجلاله، وتعظيم شأنه فيما أمر ونهى، أو فيما قضى وقدر، منوط بالعلم به ، ومعرفة حقوقه ، وما يجب له سبحانه ، فكما أن أعرف الناس بالله أشدهم له تعظيماً ، كذلك أجهل الناس به أشدهم انغماساً في معاصيه ، واستخفافا بحقوقه ، وجراءة على تعدي حدوده ، فما عصي الله تعالى بمثل الجهل بقدره وبما له من عظمة وكبرياء ، بل ما عصي الله عز وجل إلا بسبب الجهل به سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ [5]

---

[1] هو : أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ، روى عن ابن عباس وأخذ عنه القرآن والتفسير والفقه وهو القائل : (عرضت القرآن على ابن عباس كذا عرضة أوقفه عند كل آية وأسأله عنها) مات مجاهد رحمه الله سنة ١٠٢ هـ وقيل غير ذلك انظر : سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٤٩ – ٤٥٧

[2] هو : العلامة الأخباري أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر ، كان رأسا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث ، توفي سنة ١٤٦هـ ترجمته في وفيات الأعيان ٤ / ٣٠٩ ، وسير أعلام النبلاء ٦ / ٢٤٨ .

[3] مدارج السالكين ٢ / ٥١٦ –٥١٧ .

[4] معالم التنزيل للبغوي ٨ / ٢٣١ .

[5] سورة النساء / آية : ١٧

قال قتادة رحمه الله : ((أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة)) [1]

وقال أبو العالية [2] رحمه الله : ((سألت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ...﴾ ؟ فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب)) [3]

والظاهر أن معنى هذا : أنه يستحيل أن يجتمع في قلب عبدٍ معرفة الله المعرفة الحقيقية، التي تقتضي الشعور بعظمته ، وقدرته البالغة ، مع حب معصيته والإقدام عليها؛ لأن معرفة العبد لربه تلك المعرفة، تبغض إليه المعصية، وتذهب الشهوة الدافعة إليها .

ومن هنا كان لموضوع أسماء الله وصفاته أهمية بالغة، ومكانة عظيمة ؛إذ من خلالها تعرف الله إلى خلقه، وبها عرفه من عرفه منهم ، وكلما رسخت قدم العبد في العلم بأسماء الله وصفاته، وفقهها الفقه الصحيح، السالم من أقذار التعطيل والتشبيه ،كان تعظيمه لله أبلغ وأكمل؛ لما لتلك الأسماء والصفات الثابتة لله عز وجل، من المعاني والدلالات على عظم شأن المتصف بها، فإذا ما اطلع العبد على تلك المعاني، وعرفها حق المعرفة ،أورثته تلك المعرفة تحقيق العبودية لله- تعالى- بالذل له، والانكسار بين يديه، وامتلأ قلبه من محبته وتعظيمه، والخوف منه، والرغبة في طاعته، والعمل بما يرضيه ، والرهبة من معصيته والفرار والهرب من كل ما يسخطه .

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١ / ١٥١ تحقيق / د . مصطفى مسلم محمد ، ط / ١، ١٤١٠ هـ، مكتبة الرشد ، وابن جرير في تفسيره ٣ / ٦٤٠، ومثله عن مجاهد ، أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي ٢ / ٤٥٩

(2) هو : رفيع بن مهران الرياحي الإمام المقرئ الحافظ المفسر البصري أدرك زمان النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، وسمع من كبار الصحابة كعمر وعلي وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما وحفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب ثم تصدر لإفادة العلم وبعد صيته ، وثقه أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان وقرأ عليه جماعة من أئمة العلم ، كأبي عمرو بن العلاء مات أبو العالية سنة ٩٠ وقيل سنة ٩٣ هـ انظر : سير أعلام النبلاء : ٤ / ٢٠٧ .

(3) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر كما في الدر المنثور ٢ / ٤٥٩ .

المطلب الأول :

اسم الله تعالى " الكبير والمتكبر " معناهما

وأثر الإيمان بهما في عقيدة المؤمن وسلوكه:

من أسماء الله الحسنى التي سمى بها نفسه وتعرف بها إلى عباده : اسمه تعالى :((الكبير)) كما قال الله تعالى : ((عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال))

وقال تعالى : ﴿ إن الله كان عليا كبيراً ﴾ وقال : ﴿ وأن الله هـو العلـي الكبير ﴾ ، وقد سبق حصر المواضع التي ورد فيها ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم .

أولاً : معنى اسم الله : الكبير :

أ- المعنى اللغوي :

الكبير : فعيل من الكبر ، يقال : كبُر بالضم ، يَكْبُر : أي : عَظُمَ فهو كَبـير : أي عظيم .

قال ابن سيده [(1)] : ((الكِبَرُ : نقيض الصغر ، وكبّر الأمرَ : جعله كبيراً ، وأكـبرت الشيء : استعظمته ، واستكبر الشيءَ : رآه كبيراً وعظم عنده))[(2)] .

وقوله تعالى : ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ [(3)] أي أعظمنه عند أكثر المفسرين [(4)]

---

(1) هو إمام اللغة أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي الأندلسي الضرير ، توفي سنة ٤٥٨ هـ وعمره ستون سـنة ترجمته في : الديباج المذهب لابن فرحون ٢ / ١٠٦ ، وبغية الوعاة للسيوطي ٢ / ١٤٣ ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/١ ، ١٣٨٤ هـ مطبعة عيسى البابي الحلبي .

(2) المحكم والمحيط في اللغة ٧ / ١٢ .

(3) سورة يوسف / آية : ٣١ .

(4) تهذيب اللغة للأزهري ١٠ / ٢١١ .

والكبر والكبرياء : الرفعة في الشرف ، والكبرياء : الملك أيضاً كقوله تعالى :

﴿ وتكون لكما الكبرياء في الأرض ﴾ [1]

وكذلك من معاني الكبرياء : العظمة والتجبر [2]

وقيل هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود [3]

وقريب من معنى " الكبير " المتكبر" وهو أيضا من أسماء الله الحسنى، وقد ورد اسما لله تعالى في موضع واحد من القرآن الكريم وهو قول الله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إلـه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سـبحان الله عما يشركون ﴾ [4]

والتاء في المتكبر : قيل هي تاء التفرد والتخصص ، وليست تاء التعاطي والتكلف

قال الأزهري : ((التفعل قد يجيء بغير التكلف ، ومنه قول العرب : فلان يتظلـم أي : يظلم، فلان يتظلم، أي: يشكو من الظلم، وهذه الكلمة من الأضداد، فثبت أن هـذا البناء غير مقصور على التكلف)).[5]

على أن التكلف غير جائز في حق الله- تعالى- ؛ لأنه يعني المعالجة، والمغالبة للشـيء الشاق، والله- تعالى- أكبر وأعظم من أن يشق عليه شيء، في الأرض ولا في السماء، بـل هو القوي القاهر، الذي لا يعجزه شيء، فكل شيء خاضع منقاد لقدرته وإرادته، ﴿ إنمـا أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ [6]

قال الفخر الرازي بعد ما ساق كلام الأزهري في معنى " المتكبر " :

---

[1] سورة يونس / آية : ٧٨ .

[2] المحكم والمحيط في اللغة ٧ / ١٣ .

[3] النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٤ /١٣٩ .

[4] سورة الحشر/ آية : ٢٣ .

[5] تهذيب اللغة ١٠ / ٢١١ .

[6] سورة يس / آية : ٨٢ .

((وأنا أقول : يمكن أن يجاب بوجه آخر وهو : أن المتفعل هو الذي يحاول إظهار الشيء ويبالغ في ذلك الإظهار ثم إن كان صادقا فيه كان ذلك الإظهار منه صفة مدح وإن كان كاذبا كان صفة ذم))، [1] ومعلوم أن هذا إنما يصدق في حق البشر، لا في حق الله- تعالى- الذي تعتبر صفة الكبرياء صفة ذاتية له سبحانه .

ب _ المعنى الشرعي :

الكبير في حق الله تعالى معناه : العظيم الذي كل شيء دونه .

وقيل : هو الموصوف بالجلال وكبر الشأن، فصغر دون جلاله كل كبير .

وقيل: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين [2]

وقيل : الكبير : الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض [3] وهذا التفسير أمثل هذه التفاسير، وأجمعها لمعنى كبرياء الله عز وجل ؛ حيث أدخل فيه كبر الذات والصفات، وهو الحق،فالله تعالى كبير في ذاته، كبير في صفاته، وهذا الذي أوجب له كبر الشأن والقدر،وأوجب على العباد تكبيره وتعظيمه، بقلوبهم وألسنتهم وسائر جوارحهم .

أما المتكبر : فمعناه في حق الله تعالى : الذي تكبر عن كل شر قاله قتادة .

وقيل : هو الذي تكبر عن ظلم عباده، [4] وهذا راجع إلى المعنى الأول، وداخل في عمومه.

وقال الخطابي رحمه الله : ((هو المتعالي عن صفات الخلق، ويقال : هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة، فيقصمهم، والتاء في المتكبر: تاء التفرد والتخصص بالكبر، لا تاء التعاطي والتكلف ، والكبر لا يليق بأحد من المخلوقين، وإنما سمة العبيد

---

[1] شرح الأسماء الحسنى للرازي ص : ٢٠١ .

[2] انظر تفسير الطبري ٧ / ٣٤٨ وشأن الدعاء للخطابي ص : ٦٦ – ٦٧ تحقيق / أحمد يوسف الدقاق ط/١ ١٤٠٤ هـ دار المأمون للتراث .

[3] تفسير ابن سعدي ٥ / ٦٢٢ و ٦ / ١٧١ .

[4] تفسير الطبري ١٢ / ٥٣ .

الخشوع والتذلل وقيل:إن المتكبر من الكبرياء الذي هو عظمة الله لا من الكبر الذي هو مذموم في الخلق)) [1]

وقال القرطبي رحمه الله : ((المتكبر الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله .

وقيل: المتكبر عن كل سوء، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم، وأصل الكبرياء : الامتناع وقلة الانقياد قال حميد بن ثور [2]:

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت   بها كبرياء الصعب وهو ذلول .

وقيل: المتكبر معناه: العالي، وقيل معناه الكبير؛ لأنه أجل من أن يتكلف كبراً ، والكبرياء في صفات الله مدح وفي صفات المخلوقين ذم)) [3]

وقال عبد الله النسفي [4] رحمه الله :

((المتكبر : هو البليغ الكبرياء والعظمة)) [5]

فتحصل من بيان العلماء لمعنى اسم الله " الكبير والمتكبر " في حق الله تعالى ما يلي :

أ- أنه الذي تكبر عن كل سوء وشر وظلم ، فمن معاني كبرياء الله تعالى التتره والتقدس عن جميع الشرور، وأنواع الظلم كلها، لأن الاتصاف بشيء من ذلك يدل على النقص والعيب الذي يتعاظم الله عنه .

ب- أنه الذي تكبر وتعالى عن صفات الخلائق فلا يشبه شيئا منهم ، ولا يشبهه شيء، كما قال تعالى عن نفسه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ فهو سبحانه أكبر وأعلى من أن يكون شبيها بخلقه ، أو يكونوا أشباها به، تعالى وتقدس .

---

(1) شأن الدعاء ص : ٤٨ –٤٩

(2) لم أجد ترجمته !

(3) تفسير القرطبي ١٨ / ٤٧ .

(4) هو : عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي أبو البركات يلقب " حافظ الدين " ونعته الحافظ ابن حجر " علامة الدنيا " له تصانيف مفيدة في الفقه والأصول وغيرهما توفي ببلده " إيدج" سنة ٧٠١ وقيل ٧١٠ هـ

انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٢ / ٣٥٢ تحقيق / محمد سيد جاد الحق ط/٢ ١٣٨٥ هـ دار الكتب الحديثة .

(5) تفسير النسفي ٣ / ٤٦٤ تحقيق / يوسف علي بدوي ومحي الدين ديب ط/١ ١٤١٩ هـ دار الكلم الطيب .

ج- أنه الذي كبر وعظم، فكل شيءٍ دون جلاله صغيرٌ حقيرٌ، وهذه العظمة الثابتة له تعني عظمة الشأن والمكانة ، وعظمة الذات أيضاً، فهو- سبحانه- كبير الشأن ، كبير الذات .

د- أنه الذي له الكبرياء في السموات والأرض أي الملك والسلطان الذي لا يشاركه فيه غيره .

ثانيا : أثر الإيمان بهذين الاسمين في عقيدة المؤمن وسلوكه :

تقدم أن معنى اسم الله " الكبير" أنه العظيم الذي كل شيءٍ دونه ، وإذا استقر هذا المعنى في نفس العبد المؤمن أثر فيها أثاراً إيمانية وسلوكيةً طيبة ، وأحدث له أنواعا من العبودية الصادقة لله تعالى ؛ إذ إن كلّ اسمٍ من أسماء الله الحسنى ، له تعبد مختص به علماً ومعرفةً وحالاً [١]

واسم الله "الكبير" هو من الأسماء التي تنتظم معاني متعددة [٢] ، فهو كما يدل على إثبات الكمال المطلق لله تعالى الذي يقتضي اتصافه بالصفات الكاملة ، يدل كذلك على تنزهه عن النقائص والعيوب التي تضاد ذلك الكمال ، فهو كاسمه "الصمد ،والمجيد " ونحوهما من الأسماء الحسنى -.

فمن الآثار الطيبة التي يورثها الإيمان بهذا الاسم : علم العبد القاطع ، ويقينه الجلزم بأن الله سبحانه أكبر وأعظم وأجل من كل شيءٍ كائنا ما كان ،وهذه الأكبرية الثابتة له تدل على قدرته وهيمنته على كل شيءٍ ، كما تدل على إحاطته بكل شيءٍ علماً فلا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، ولا يخفى عليه شيءٌ فيهما ، وأنه سبحانه أكبر من أن يحيط الخلق به علماً، أو أن يعرفوا حقيقة صفاته التي وصف بها نفسه كما قال

---

(١) انظر : مدارج السالكين لابن القيم ١ / ٤٢٠ .

(٢) يقول الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله : (وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم، والمجيد، والحميد، والصمد، فهذه قاعدة نافعة)، الحق الواضح المبين في توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية ص: ٥٥ .

سبحانه عن نفسه :﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ [1] وقال : ﴿ ولا يحيطون به علما﴾ [2] فهاتان الآيتان تدلا ن على عظم شأن الرب تبارك وتعالى، وأنه تعالى أكبر من أن يدرك العباد كيفية ذاته أو كيفية صفاته فوجب عليهم إذا الاستسلام التام لما وصف به نفسه من الصفات ، من غير طمع في معرفة كيفياتها وحقائقها التي استأثر الله تعالى بعلمها، وهذا هو السر في النهي عن التفكر في ذات الرب عز وجل؛ لأنه أعظم من أن تدرك كنه ذاته وصفاته عقول البشر القاصرة الناقصة، كما في حديث عبد الله بن سلام[3] رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله)) [4]

ولما أخلت الفلاسفة ومن شايعهم من أهل الكلام الفاسد بهذا الأصل العظيم- وهو اعتقاد أن الله تعالى أكبر من أن يعرف المخلوق الضعيف حقيقة صفاته، وحاولو أن يدركوا ذلك بعقولهم ومقاييسهم البشرية، وسوغوا لأنفسهم أن ينكروا كل ما لم تدركه عقولهم ، مما وصف الله به نفسه في كتابه أوفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم - ضلوا ضلالا بعيدا، وارتكبوا في حق ربهم سبحانه جرائم خطيرة، حيث خاضوا في الإثبات والنفي بغير علم ولا برهان من الله، بل بما أملته عليهم عقولهم –في زعمهم – وألزموا

---

(1) سورة البقرة / آية : ٢٥٥ .

(2) سورة طه / آية : ١١٠ .

(3) هو الصحابي الجليل عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي ثم الأنصاري ، يكنى أبا يوسف وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام وكان اسمه قبل إسلامه " الحصين" فلما أسلم سماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله وكان إسلامه يوم وصل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو أحد الأحبار وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ، توفي بالمدينة سنة ٤٣ هـ في خلافة معاوية رضي الله عنه انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ٣ / ٩٢١ – ٩٢٣ تحقيق / علي محمد البجاوي ط/١ ، ١٤١٢ هـ دار الجيل .

(4) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦ / ٦٦ –٦٧ ط/٢ ، ١٣٨٧ هـ دار الكتاب العربي وأورده الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة ٤ / ٣٩٦ من رواية أبي نعيم وقال : وهذا إسناد حسن في الشواهد ، عبد الجليل وشهر وهو ابن حوشب صدوقان سيئا الحفظ وسائر الرجال ثقاة وفي الباب عن أبي ذر وابن عباس عند أبي الشيخ والثاني عند أبي نعيم كما في الجامع ... وبالجملة فالحديث بمجموع طرقه حسن عندي ، والله أعلم

أنفسهم بلوازم لا دليل لهم عليها، وأكثروا من قولهم : لو كان له كذا من الصفات لكان كذا، وبهذا المراء الباطل عطلوا أسماء الله وصفاته كلها أو أكثرها، فلزم من صنيعهم هذا تعطيل الذات الإلهية ونفي وجودها بالمرة؛ لما علم من امتناع وجود موجود عار عن جميع الصفات ، وقابل هؤلاء طرف آخر بالغوا في إثبات الصفات لله تعالى ، ولم يقفوا في الحد الذي أوقفهم فيه القرآن والسنة –وهو حد إثبات الصفات والإيمان بوجودها وثبوتها لله– حتى شبهوا الله بخلقه– تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا– والطائفتان لم يعملوا بمقتضى اسم الله " الكبير" ولم يكبروه ، ولم يجلوه ، فالطائفة الأولى جفت ونفت وعطلت، والثانية غلت ومثلت، وكلا المسلكين مذموم ، ثم كان نهاية إقدامهم بعد هذا الخوض الجريء فيما نهوا عن الخوض فيه، الحيرة والانقطاع، والعجز عن معرفة الحق ، باعترافهم أنفسهم بذلك ،كما قال بعضهم :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ وأقرأ في النفي : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ﴿ ولا يحيطون به علما ﴾ ﴿ هل تعلم له سميا ﴾ ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي [1]

وهذا ابن أبي الحديد من فضلاء الشيعة المعتزلة المولعين بالفلسفة والكلام في الإلهيات على طريقة الفلاسفة يعترف – بعد تطوافه وتجواله في العقليات التي أراد معرفة الرب تعالى من خلالها– بحيرته فيقول معلنا عن عدم وصوله إلى شيء :

---

[1] قائل هذا هو أبو عبد الله الرازي كما نسبه إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في أكثر من موضع من كتبه انظر مثلا : درء تعارض العقل والنقل ١ / ١٦٠ ومجموع الفتاوى ٤ / ٧٢ – ٧٣ .

فيك يا أغلوطة الفكر ... حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ... ربحت إلا أذى السفر
فلحى الله الألى زعموا ... أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا ... خارج عن قوة البشر [1]

وهذا ابن رشد الحفيد [2] أعلم الناس في زمانه بمقالات الفلاسفة ومذاهبهم [3] يقول في كتابه " تهافت التهافت " الذي صنفه ردا على شيخه أبي حامد الغزالي في كتابه : تهافت الفلاسفة : ((مع أنه لم يقل أحد من الناس في العلوم الإلهية كلاما يعتد به)) [4] فيقال : أجل ، إن من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام الفاسد المتكلف ، وخاض في الإلهيات بعقله القاصر ، وإدراكه المحدود ، فمحال أن يقول في الإلهيات شيئا يعتد به ؛ لأن قضايا الإلهيات توقيفية ، والتوقيف إنما يكون بالكتاب والسنة ، فمن رام أن يتكلم في الإلهيات بكلام صحيح معتبر معتد به ، فليجعل الوحي إمامه ودليله ، يقف معه حيث وقف ، ويضيف الضعف والقصور إلى عقله فيما اشتبه عليه وجهه ، وليرده إلى أهل العلم الراسخين فيه كما قال تعالى :

﴿ ولوردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمرمنهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ [5]

فمن كان هذا حاله في الإلهيات، فمن الظلم أن يقال : إنه لا يأتي بشيء يعتدّ به، لأنه حينئذ لا يتكلم إلا بموجب الكتاب والسنة ، ومن ذا الذي لا يعتد بهذين الأصلين؟! إلا من سفه نفسه ، واستحوذ عليه الشيطان ، وساء ظنه بربه والعياذ بالله .

---

(1) انظر : درء التعارض ١ / ١٦١ .

(2) هو : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المعروف بالحفيد تمييزا عن ابن رشد الجد ولد في قرطبة بالأندلس عام ٥٢٠ هـ وتوفي عام ٥٩٥ هـ قال الذهبي : (... وبرع في الفقه وأخذ الطب عن أبي مروان بن جربول ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يضرب به المثل في ذلك) وقال الذهبي : (ولا ينبغي الأخذ عنه) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٠٨ – ٣١٣ .

(3) كما وصفه بذلك ابن القيم في كتابه : إغاثة اللهفان ٢ / ٣١٣ .

(4) تهافت التهافت ص : ٨٨ .

(5) سورة النساء / آية : ٨٣ .

وهذه الاعترافات الصريحة، من أساطين الكلام، وفحول الفلسفة، تدلنا على النتائج الخائبة التي توصلوا إليها، لما عولوا على العقول فيما لا مجال لها فيه، وذلك بسبب غفلتهم عن كبرياء الله وعظمته وجلاله، وأنه أكبر وأعظم من أن تكون صفاته مسرحا للعقول القاصرة، والمقاييس البشرية الفاسدة، التي – وللأسف – قصد بوضعها أساسا إفساد عقائد المسلمين ، وزعزعة الإيمان من قلوبهم ، وزرع الشك فيها ، فنسأل الله السلامة

وهنا يتطلب المقام بيان نظرة أهل السنة والجماعة إلى العقل، وموقفهم منه، حتى لا يظن ظان أنهم يهدرون العقل ويلغون وظيفته، كلا!! إنهم كعادتهم وسط في ذلك، فليسوا ممن يقدسون العقول تقديس الفلاسفة وأذنابهم، المعولين عليها في كل شيء، المجاوزين بها الحد، ولا ممن يلغون العقول ولا يعملونها ، وعلى هذا ، فهم يعتقدون أن العقل في باب العلم بالله وفي باب الأحكام الشرعية، تابع للنقل ، فليس للعقل إثبات شيء من ذلك أو نفيه، وإنما المعول في ذلك على ما في القرآن وصحيح السنة [1]

والعقل ليس بإمكانه إدراك ما يستحقه الرب- تعالى- من الأسماء والصفات ؛ لأنه يقصر عن معرفة حقيقة المغيبات، حتى وإن كانت أقرب شيء إليه، فهو مثلا عاجز عن إدراك حقيقة الروح التي بين جنبي العبد، مع إيمانه بوجودها قطعا، قال الله- تعالى- : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [2]

فإذا كنا نعجز عن إدراك حقيقة أرواحنا المخلوقة، بعقولنا مع يقيننا بوجودها فينا، وجب أن نعلم أن الله تعالى أكبر ، وشأنه أعظم، من أن يحيط العباد به علما بعقولهم ،حتى يسلطوها على أسمائه وصفاته بالإثبات والنفي ، بغير هدى من الله ، ولو تصور العقلانيون

---

[1] والقول بمحدودية قدرة العقل وتابعيته في هذا الباب ، لا يعني القدح فيه ، ولا في مداركه ، يقول ابن خلدون رحمه الله:(... بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك : مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عند حده ، ولا يتعدى طوره ، حتى يكون أن يحيط بالله وبصفاته !!) مقدمة ابن خلدون ص : ٤٦٠ ، ط/ دار البيان ، بدون رقم الطبعة ولا تاريخها .

[2] سورة الإسراء / آية : ٨٥ .

– أعني المعولين على العقول في باب الإلهيات ، وفي سائر القضايا الغيبية –، هذه الآيـــة الكريمة وطرحوا على أنفسهم هذا السؤال : هل نحن أحطنا علما بأرواحنا الـــتي فينـــا ؟ لرجعوا فورا عن غيهم المتمثل في جحد صفات الله– عز وجل– بدعوى تعارض العقـــل والنقل فيها ، ولعلموا أن شأن الله أكبر من أن يحاط علما بحقـــائق أسمائـــه وصفاتـــه ، ولسلموا من الحيرة والاضطراب الذي وقعوا فيه؛ نتيجة تقديس العقول، وإخضاع جميـــع الأمور لها، كما سلم أهل السنة، الذين انبنى مذهبهم على الإيمان والتسليم لما جـــاء بـــه الوحي في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، سواء أدركوا ذلك بعقولهـــم أم لا؛ ولهذا لما قال بعض أولئك المتكلمين – مصرحا بحيرته في هذا الباب ، وعدم وصولـــه إلى شيء، بعد أن أنفق نفيس عمره في ذلك، وجادل فيه وناظر ، وأصل وفرع :

لعمري ! لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

ثم قال : فعليكم بدين العجائز فهو من أسنى الجوائز [1]

أجابه بعض علماء أهل السنة [2] بقوله :

لعلك أهملت الطواف بمعهد الرسول ومن لاقاه من كل عالم

فما حار من يهدى بهدي محمد ولست تراه قارعا سن نادم [3]

وصدق والله ! فإن من التزم بالكتاب والسنة ،لا يحار ولا يندم ؛ لأن فيهما النـــور والهدى ، والنصح والبيان ، والأمان من الحيرة والندامة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – بعد أن نقل جملة من اعترافات أهل الكـلام بعجزهم وانقطاعهم ، وإعلانهم عن ضلال سعيهم في باب العلم بالله، وإحالة بعضهم على دين العجائز –: ((وهكذا ،كل من أمعن في معرفة هذه الكلاميات ، والفلسفيات الـــتي

---

(1) الشهرستاني في كتابه : نهاية الإقدام في علم الكلام ص : ٣ –٤. وهذان البيتان نسبهما ابن خلكان إلى ابـــن سينا في ترجمته له في وفيان الأعيان ٢ / ١٦١ .

(2) هو الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني اليمني صاحب كتاب : سبل السلام شرح بلوغ المرام وغيره .

(3) ديوان الصنعاني ص : ٣٤٥ ط/١ ، ١٣٨٤ هـ مطبعة المدني .

تعارض بها النصوص ، من غير معرفة تامة بالنصوص ولوازمها ، وكمال المعرفة بما فيها ، وبالأقوال التي تنافيها، فإنه لا يصل إلى يقين يطمئن إليه، وإنما تفيده الشك والحيرة)) [١]

والسبب ، أنهم ما قدروا الله حق قدره – وهو الكبير العظيم – وما قدروا نصوص الوحي قدرها، ولذلك أعرضوا عنها وعن دلالاتها، وطلبوا الهدى فيما سواها، وعارضوها بمعقولاتهم، بعد أن اتهموها بالقصور في بيان ما يليق بالله وما لا يليق به ، وجعلوا ظواهرها دالة على الباطل(التشبيه)، فكان لهم نصيب وافر من قول الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ﴾ [٢]

فالمقصود مما تقدم : أن الإيمان باسم الله "الكبير والمتكبر" ينبغي أن يكون له أثر في قلب المؤمن ، بإجلال الله وإكباره عن أن تكون أسماؤه وصفاته الدالة على عظمته وكماله هدفا يخضع للقوانين الكلامية والفلسفية التي لا تقيم وزنا للكتاب والسنة !! .

ومن آثار الإيمان باسم الله " الكبير والمتكبر" آثار سلوكية معنوية يجد العبد المؤمن حلاوتها في قلبه وتظهر في تصرفاته ومعاملاته مع غيره .

من ذلك : أن العبد عندما يعرف معنى هذين الاسمين الكريمين ، الذين تسمى الله بهما ، فإن هذه المعرفة تجعل دون قلبه حصنا منيعا ، يمنع من دخول الكبر فيه ، ويعدمه إن كان موجودا قبل؛ لأن الكبر- هذا الداء العضال والمرض القلبي الفتاك-إنما ينشأ في القلب باجتماع جهلين :

أحدهما : جهل العبد بقدر نفسه وحقيقتها .

الثاني : جهله بقدر الرب سبحانه وتعالى وبعظمته وكبريائه التي يدل عليها اسمه" الكبير والمتكبر" ، فالعبد إذا عرف أن الله تعالى هو الكبير ، وعرف معنى هذا الاسم وما يقتضيه منه من العبودية ، تبين له حينئذ أن ما سوى الله –أيا كان – هو بالنسبة إليه ، صغير فقير ، ومن ثم يعلم أن التكبر لا يليق بغير الله ؛ لأن الله سبحانه هو السيد الكبير ،

---

[١] درء تعارض العقل والنقل ١ / ١٦٤ .

[٢] سورة طه / آية : ١٢٤ .

وكل من سواه عبدٌ محتاجٌ ، ليس من حقه أن يتكبر أو يترفع ؛ إذ شأن العبد أن يتذلل ويتواضع ؛ لعل الله أن يرفعه .

هذا ولما كان خلق "الكبر" في العبد يتنافى مع حقيقة الإيمان باسم الله "الكبير " ومع حقيقة قولنا " الله أكبر " ، الذي يعني تخصيص الرب جل وعلا بالكبرياء والعظمة ، بل يتنافى مع الإيمان الصحيح بأسماء الله وصفاته ، ومع تحقيق العبودية له سبحانه ، كثر في القرآن الكريم ذمه ، والتشنيع على أهله ، ووعيدهم بأشد العذاب يوم القيامة ، قال الله تعالى :

﴿ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ [1] وقال تعالى :﴿ أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين ﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ [3]

وقال تعالى عن الملأ من قوم نوح عليه السلام في معرض الذم لهم أنهم قالوا لنبيهم حين دعاهم إلى توحيد الله تعالى والإيمان به -: ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ [4]

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، التي يعلم من خلالها خطورة الكبر وشناعته ، وأنه سبب من أسباب غضب الله وعذابه ؛ لأنه مشاركة لله فيما هو خالص حقه ، ولا يليق إلا به سبحانه وتعالى .

كما جاء في السنة النبوية أيضا أحاديث عديدة في ذم الكبر والمتكبرين وبيان ما أعده الله لهم من الصغار والهوان جزاءً وفاقاً .

من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(1) سورة الأحقاف / آية : ٢٠ .

(2) سورة الزمر / آية :٦٠ .

(3) سورة الصافات / آيـة : ٣٥ .

(4) سورة الشعراء / آية : ١١١ .

((اختجت الجنة والنار ،فقالت هذه : يدخلني الجبارون والمتكبرون ، وقالت هذه : يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله عز وجل لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها)) [1]

والمراد بالضعفاء والمساكين في هذا الحديث : أي المحتقرون عند الناس ، الساقطون من أعينهم ، والناظرون إلى أنفسهم بعين الاحتقار ؛ لاستشعارهم لعظمة الله وكبريائه وإن كانوا عند الله تعالى هم العظماء الرفعاء فإن من تواضع لله رفعه .

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً : ((من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر أكبه الله على وجهه في النار)) [2]

وفي الصحيحين أيضاً من حديث حارثة بن وهب [3] رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ألا أخبركم بأهل الجنة قالوا : بلى قال صلى الله عليه وسلم : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ثم قال : ألا أخبركم بأهل النار ؟ ! قالوا : بلى ، قال : كل عتلٍ جواظٍ [4] مستكبرٍ)) [5]

---

(1) متفق عليه : أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ح : ٤٨٥٠ (٨ / ٥٩٥ فتح الباري) وأخرجه مسلم واللفظ له في كتاب : "الجنة وصفة نعيمها وأهلها " باب : جهنم أعاذنا الله منها (١٧ / ١٨٠ شرح النووي)

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ٢١٥ .

(3) هو : حارثة بن وهب الخزاعي أخو عبد الله بن عمر لأمه له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن حفصة بنت عمر رضي الله عنه وله في الصحيحين أربعة أحاديث منها : ((صلى النبي صلى الله عليه وسلم آمن ما كان الناس بمنى ركعتين)) الإصابة في تمييز الصحابة ١ / ٧٠٨ .

(4) العتل : قيل هو الشديد الخصومة ، وقيل الجافي عن الموعظة ، وقيل الفظ الشديد من كل شيء وهو في الحديث الكافر وعن الحسن أنه قال : هو الفاحش الآثم ، وقال الخطابي : الغليظ العنيف ، وقال الداودي : السمين العظيم العنق والبطن ، وقال الهروي : الجموع المنوع ، وقيل القصير البطن ، قال الحافظ ابن حجر : وجاء فيه حديث عند أحمد من طريق عبد الرحمن بن غنم مختلف في صحته سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن العتل الزنيم ؟ فقال: هو الشديد الخلق ، المصحح الأكول الشروب ، الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، الرحيب الجوف .
والجواظ : هو الفظ الغليظ ، شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ /١٨٧ –١٨٨ وفتح الباري ٨ / ٦٦٣

(5) متفق عليه : أخرجه البخاري في التفسير ، باب : " عتل بعد ذلك زنيم " ح : ٤٩١٨ (٨ /٦٦٢ فتح الباري)

==

وعن النعمان بن بشير [1]رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((الدعاء هو العبادة ثم قرأ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [2]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال)) [3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يقول الله سبحانه : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار)) [4]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ((إياكم والكبر فإن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة)) [1]

==

وأخرجه مسلم : كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : " جهنم أعاذنا الله منها " (١٧ / ١٨٦ — ١٨٧ شرح النووي) .

[1] هو : أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد الأنصاري الخزرجي، له ولأبيه صحبة ، قال الواقدي : كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهراً ، مات رضي الله عنه سنة خمس وستين من الهجرة . الإصابة ٦ / ٣٤٦ —٣٤٧ .

[2] سورة غافر / آية :٦٠ .والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٢٦٧ وأبو داود في سننه كتاب الصلاة ، باب الدعاء ، ح: ١٤٧٩ ، ٢ / ١٦١ ، والترمذي في سننه ، كتاب التفسير ، باب : " ومن سورة المؤمن " ح : ٣٢٤٧ ، ٥ / ٣٧٤ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه ابن ماجة في سننه : كتاب الدعاء ، باب فضل الدعاء ، ح : ٣٨٢٨ ، ٢/ ١٢٥٨ .

[3] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٩ / ٩٠، تحقيق / مختار أحمد الندوي ، ط/١، ١٤٠١هـ ، الدار السلفية . وأخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة ، باب : (٤٧) ح : ٢٤٩٢ ، ٤ / ٦٥٥ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

[4] أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ٣٧٦ ، ٤١٤ وأبو داود في سننه كتاب اللباس ، بابٌ في الكبر ح : ٤٠٩٠ ٤/ ٣٥٠ .

وابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع ح : ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٢ / ١٣٩٧ ، ١٣٩٨

وأمثال هذه الأحاديث الكثيرة، والصريحة في ذم الكبر والتنفير منه، وبيـــان المصـــير السوء الذي ينتظر المتكبرين يوم القيامة ، حيث يجازون بالذلة والصغار والهوان ، والجـــزاء من جنس العمل ، ولا يظلم الله أحداً .

وكل هذه النصوص القرآنية والحديثية، تدل بوضوح على وجوب تخصيص الله تعالى بصفة الكبرياء ؛ لأنه هو الكامل الكمال المطلق ، الغني بنفسه عن كل شيء ، ومن ســـواه ناقص بطبيعته ، محتاج إلى من يكمله، وعلى هذا : فالتكبر ، والتعالي، والثناء على النفس، وأمر الناس بذلك، وغير ذلك – مما تقتضيه صفة الكبرياء والعظمة – هي من خصـــائص الرب جل وعلا، وأن هذه الأمور إذا صدرت منه سبحانه فهي في حقه كمال محمـــودٌ ، وإذا صدرت من المخلوق فهي نقص مذمومٌ .[٢]

كذلك جاء في أقوال السلف ، ومن بعدهم من الأئمة والعلماء ، ذم الكبر والتحذير منه ، وبيان قبحه ؛ لما فيه من مجاوزة العبد حده ومنازعته ربه ، في حقه الذي لا ينبغي إلا له ، ومن ذلك الأثر المروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال : (إن الرجـــل إذا تواضع رفع الله حكمته ، وقال انتعش نعشك الله فهو في نفسه صغير ، وفي أعين النـــاس كبير ، وإذا تكبر وعدا طوره ، رهصه الله في الأرض وقال : اخسأ خسأك الله ، فـــهو في نفسه كبير ، وفي أعين الناس حقير ، حتى إنه أحقر عندهم من الخنزير !!)[٣] .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال : (من تواضع لله تخشعا رفعه الله يوم القيامة ، ومن تطاول تعظما ، وضعه الله يوم القيامة)[٤]

==

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط : ١ / ١٣٧ ، برقم : ٥٤٣ ، تحقيق / أبي معاذ طارق بن عوض الله بـــن محمد ، و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، ط / دار الحرمين ، ١٤١٥ هـــ. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٠ / ٤٩١ : ((ورواته ثقاة))

(٢) انظر : فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٦ / ١٣٧ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٩ /٩٠ وانظر كذلك : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ٣ /٢٢٨ .

(٤) أخرجه الإمام وكيع في كتاب الزهد له ٢ / ٤٦٧ ، تحقيق / د . عبد الرحمن الفيريوائي ط/١ مكتبـــة الـــدار المدنية .

وعن عتبة بن غزوان [١] رضي الله عنه أنه قال في خطبة له : (... وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً) [٢] وهذا حال المتكبر أعني أنه بينما هو يرى نفسه عظيماً عزيزاً ؛ إذا هو عند الله أحقر الناس ، وأوضعهم ، وأخسهم مترلة ، وهو لا يدري .

وعن مالك بن دينار [٣] أنه رأى المهلب بن أبي صفرة [٤] وهو يتبختر في مشيته فقال له : أما علمت أنها مشية يكرهها الله إلا بين الصفين ؟ فقال المهلب : أما تعرفني ؟! قال بلى : أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرةٌ ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة ، فانكسر وقال : الآن عرفتني حق المعرفة [٥]

وقال الإمام الماوردي في بيان خطورة الكبر ونتائجه السيئة العاجلة :

((الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ، ويكسبان الرذائل ، وليس لمن استوليا عليه إصغاء لنصح ، ولا قبول لتأديب ؛لأن الكبر يكون بالمترلة ، والإعجاب يكون بالفضيلة ، فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين، والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتأدبين)) [٦]

وقال الراغب الأصفهاني : ((الكبر : الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره ، وأعظم ذلك أن يتكبر على ربه ، بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة .

---

[١] هو : أبو عبد الله : عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب الصحابي الجليل رضي الله عنه أسلم سابع سبعة في الإسلام وهاجر إلى الحبشة ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها ، استعمله عمر رضي الله عنه على البصرة فكان هو الذي مصر البصرة واختطها مات سنة ١٧ ه . انظر : الإصابة : ٦ / ٣٧٩ . وسير أعلام النبلاء : ١ / ٣٠٤ .

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزهد ، (١٨ / ١٠٢ شرح النووي)

[٣] هو : علم العلماء الأبرار يعد من ثقات التابعين ومن أعيان كتبة المصاحف بل كان من ذلك بلغته ولد في أيام ابن عباس رضي الله عنهما وتوفي سنة ١٢٧ هـ وقيل ١٣٠ هـ سير أعلام النبلاء ٥ / ٣٦٢

[٤] هو : أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة : ظالم بن سراق العتكي البصري ولد عام الفتح وقيل بل ذلك أبوه كان المهلب أميراً بطلاً وقائداً مظفراً غزا الهند وولي الجزيرة لابن الزبير وحارب الخوارج ثم ولي خراسان وقيل إنه توفي غازياً بمرو الروذ سنة ٨٢ وقيل ٨٣ هـ سير أعلام النبلاء ٤ / ٣٨٣ .

[٥] انظر : سير أعلام النبلاء ، ٥ / ٣٦٢ –٣٦٣

[٦] أدب الدنيا والدين للماوردي ص : ٢٣١ ، تحقيق / مصطفى السقا ، دار الفكر

والتكبر يأتي على وجهين : أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة زائدة على محاسن الغير ، ومن ثم وصف سبحانه وتعالى بالمتكبر .

والثاني : أن يكون متكلفاً لذلك ، متشبعاً بما ليس فيه ، وهو وصف عامة الناس ، نحو قوله تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [1] والمستكبر مثله)) [2]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : ((أركان الكفر أربعة : الكبر، والحسد ، والغضب ، والشهوة)) [3]

وقد تقدم أن الكبر داء يصيب العبد بسبب قصر نظره، وقلة تأمله وغفلته المفرطة عن نفسه، وإلا فلو فكر ابن آدم في نفسه، وما ينطوي عليه من نقائص وعيوب ، في ابتدائه وانتهائه وما بين ذلك ، لكان هذا أكبر زاجر له عن التخلق بخلق التكبر والتعالي كما قيل :

يا مظهر الكبر إعجاباً بصورته   انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم   ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمة   وهو بخمس من الأقذار مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك   والعين مرفضة والثغر ملعوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً   أقصر فإنك مأكول ومشروب [4]

وكل هذه النصوص تدل على قبح التكبر وبشاعته ، من غير مَنْ هو أهله المختص به ، وهو الله سبحانه ، وأن مدعي الكبر قد نازع الرب تعالى في صفته التي لا تليق إلا به ، فدل بذلك على سفاهة نفسه، وعرضها لسخط الله وعقابه، كما تعرض لمقت الناس

---

(1) سورة غافر / آية : ٣٥

(2) المفردات للراغب : ص : ٦٩٧ .

(3) كتاب الفوائد للإمام ابن القيم : ص : ١٩٦ ، ط/١ ، ١٤٢٠ هـ ، دار اليقين .

(4) هذه الأبيات أوردها الماوردي في : أدب الدنيا والدين ص : ٢٣٣ ، في معرض ذم الكبر والمتكبرين و لم ينسبها

وكراهيتهم له ؛ فإنه قد جرت سنة الله تعالى أن المتكبر مبغوض لدى الناس كلهم، مهما نال من الرتب الرفيعة ، والمناصب العالية ، فالنفوس مجبولة على كره من يتعالى عليها .

ومما يدل على عظم جرم الكبر: أن فيه شائبة الإشراك بالله ؛ لأن حقيقة الشرك تتمثل في أمرين :

الأول : التشبيه للمخلوق بالله ، بصرف شيء من حقه تعالى له، كالمحبة والتعظيم المطلقين ونحوهما .

الثاني : التشبه به ، وذلك بدعوى استحقاق شيء من خصائصه ، كالكبرياء والعظمة ونحوها ، فمن تعاظم في نفسه وتكبر فهو مشرك بالله من هذا الوجه ، منازع له في خصائصه التي لا تنبغي لغيره ، لا سيما إذا دعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم ، والخضوع له وتعلق القلوب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة – وهذا حال أغلب المتكبرين ؛ فإنهم يدعون الناس بقولهم أوحالهم ، إلى تعظيمهم وإطرائهم ، والخضوع لهم – فمن فعل ذلك فقد تشبه بالله ، ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حري بأن يهينه الله غاية الهوان ، ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت أقدام خلقه [1] ؛ معاملة له بنقيض قصده كما تقدم في الأحاديث السابقة .

هذا ، ومن الملاحظ بالاستقراء والنظر إلى الواقع المشاهد ، أن داء الكبر إنما يصاب به في الغالب علية الناس ومقدموهم ، وذوو الشأن والمكانة فيهم ، والسر في ذلك : أن العبد متى أحس باستغنائه عن بني جنسه ، وحاجتهم إليه شمخ بأنفه ، وتعاظمت نفسه ، وظن أنه وأنه ... وهذا هو الجهل بقدر النفس ، وهو أحد الجهلين اللذين يفضيان بالعبد إلى التكبر والتعالي .

ومن هنا يعلم أن الدواء الشافي لداء الكبر القاتل: هو أن يتذكر العبد دائما ضعفه وعجزه الذاتي، وأنه عبد من كل وجه وبكل اعتبار، لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضر ، ومن كان كذلك فاللائق به أن يتواضع ويتصاغر ، وأن يعلم أن الله تعالى هو الكبير المتعال على خلقه أجمعين، لا حول ولا قوة إلا به، هو رب كل شيء ومليكه، والأمر كله

---

[1] انظر : الجواب الكافي لابن القيم ص : ١٨٧ .

بيده ، والحمد كله له، وأزمة الأمور كلها بيده، ومرجعها كلها إليه، ومن هذا شأنه هـو الحقيق بالكبرياء، فهذا العلم يثمر للعبد الخضوع، والاستكانة،والتواضع وبذلك يحقق العبودية لربه سبحانه .

ومن الآثار الحسنة ، والنتائج الطيبة ، التي يجنيها العبد من معرفته باسم الله "الكبير" وإيمانه بمقتضاه : البراءة من داء " العجب " بالنفس أو بالعمل ، وهو أيضا آفة من آفات القلوب المهلكة ، ولا تقل خطورة عن أختها " الكبر " ، بل إن العجب بريد الكبر وبابه الواسع ، وينشأ في القلب من شدة اعتداد العبد بنفسه وعمله ، وإحسانه الظن بها ، ومن جهله بكبرياء الله وجلاله ، فإذا استقر في القلب العلم بمعنى كون الله تعالى " الكبير" وامتلأ من الإيمان بمدلوله ، احتقر نفسه ، واستقل كثير ما يقوم به من طاعات لله عز وجل ، ولو كانت أمثال الجبال ، واستكثر قليل ما يرد إليه من ربه ، ولو كان أمثال الذر ؛ لأنه حينئذ يعلم أن أعماله مهما عظمت وكثرت ، فهي لا تفي بحق الله تعالى ، كيف ؟! وهو الكبير العظيم سبحانه ، فالله أكبر من أن تفي بحق عظمته وكبريائه وعزه وجلاله أعمال العبيد الضعاف القاصرين ، ومن هنا يدرك أنه أحقر من أن يستحق على الله تعالى شيئا ، فلا يزال بذلك يرى نفسه مقصرا في جنب الله ، وإذا كان كذلك كان في عصمة وحمية من أن يصاب بداء العجب ، بل يكون دائم الإشفاق على نفسه ، معولا على رحمة الله وفضله ، لا على أعماله [1] وهكذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم ، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((لن يدخل أحدا عمله الجنة ! قالوا:

---

[1] وإنما يخاف أن لا تقبل منه أعماله الصالحة كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال ((لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات)) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦ / ١٥٩ ، والترمذي واللفظ له ، كتاب التفسير باب : ومن سورة المؤمنون ، ح : ٣١٧٥ ، ٥ / ٣٢٧ ، وابن ماجة ، في كتاب الزهد ، باب التوقي على العمل ، ح:٤١٩٨ ، ٢ / ١٤٠٤ .

ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ...)) الحديث [1]

وعلى هذا درج الصالحون من هذه الأمة ، العارفون بعظمة الله وكبريائه ، في استقلالهم لطاعاتهم ، واستعظامهم لزلاتهم وهفواتهم ، وقصصهم في ذلك مشهورة ، وفي كتب التراجم والسير مذكورة .

فالمقصود أن الله تعالى عظيم كبير ، وعظمته وكبرياؤه فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون ، وهذه العظمة تقتضي معرفتها من العبد الضعيف الاعتراف بضعفه ، بتحقيق العبودية لله ، وإظهار الذل والخضوع بين يديه ، كما تستوجب منه دوام الشعور بالتقصير ، وعدم القيام بحقوق الله عليه كما ينبغي ، وهذا شأن أرباب العزائم والبصائر، فإنهم ((أشد ما يكونون استغفارا عقيب الطاعات ؛ لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه ،وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ، ولارضيها لسيده)) [2]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المرضى ، باب تمني المريض الموت ، ح : ٥٦٧٣ ، (١٠ / ١٢٧ فتح الباري)

وفي كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ح : ٦٤٦٣ ، (١١ / ٢٩٤ فتح الباري)

وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صفة القيامة ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، (١٧ / ١٦٠ شرح النووي)

[2] مدارج السالكين ١ / ١٧٥ .

المطلب الثاني :

تكبير الله تعالى في قضائه وقدره :

قضاء الله وقدره سر من أسراره التي استأثر بها ، وحجبها عن جميع خلقه ، وهو من علم الغيب الذي لا يظهر الله عليه أحداً ، إلا من ارتضى من أنبيائه ورسله وملائكته الأبرار .

قال الله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ (1)

وقال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (2)

قال الإمام الطحاوي (3) رحمه الله : ((وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل)) (4).

وقال الإمام أبو المظفر السمعاني (5) رحمه الله : ((سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة، دون محض القياس والعقل ، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلّ وتاه في

---

(1) سورة الجن / آية : ٢٦ –٢٧ .

(2) سورة النمل / آية : ٦٥ .

(3) هو : أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي –نسبة إلى قرية بصعيد مصر- الإمام الحافظ ، ولد رحمه الله سنة تسع وثلاثين وما تين ، وعندما بلغ سن الإدراك تحول إلى مصر لطلب العلم ، وأخذ يتلقى من خاله : إسماعيل بن يحي المزني - صاحب الإمام الشافعي رحمه الله- حتى صار له في الفقه والحديث يد طولى وكان رحمه الله تعالى سلفي الاعتقاد والمنهج كما يدل عليه كتابه " العقيدة الطحاوية" له مصنفات جياد تنبئ عن غزارة علمه وتنوع معارفه ، ومنها كتاب : " معاني الآثار " ، و " مشكل الآثار " ، و كتاب " النوادر الفقهية" وغيرها وكانت وفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة هـ انظر ترجمته في : تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ / ٨٠٨ .

(4) العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز ص : ٢٢٥ ، تحقيق الشيخ / أحمد شاكر ، ط/ وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ، ١٤١٨ هـ

(5) هو : الإمام العلامة منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني الحنفي ثم الشافعي ، ولد سنة ست وعشرين وأربعمائة هـ، وكان رحمه الله من كبار علماء أهل السنة والجماعة شوكاً في أعين المخالفين فقيهاً مبرزاً ، وفيه قال إمام الحرمين رحمه الله :" لو كان الفقه ثوبا طاوياً لكان أبو المظفر السمعاني طرازه" ، توفي سنة

بحار الحيرة، و لم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى ، اختص العليم الخبير به ، وضرب دونه الأستار ، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم ؛ لما علمه من الحكمة فلم يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب)) [١]

فلا يعلم المقضي المقدر إلا بوقوعه ، أو بإخبار الله تعالى به في كتابه أو على ألسنة رسله ، الذين اصطفاهم لرسالاته أنه سيقع ، كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الإخبار بأمور غيبية مستقبلية ، فيعلم المؤمن ويوقن جازما أنها ستقع لا محالة .

وعلى هذا فيجب تعظيم الله وتكبيره في قضائه وقدره وذلك بأمور :

أولها : الإيمان به ، أي الإيمان بأن كل شيء بقدر ، فكل حركة وسكون في هذا الكون ، فقد سبق به علم الله تعالى ومشيئته وتقديره ، كما قال تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [٢]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم :((كل شيء بقدر حتى العجز والكيس)) [٣]

فيجب تكبير الله وإجلاله عن أن يقع في ملكه شيء إلا بعلمه به ، وتقديره إياه في الأزل؛ فالله أكبر وأعظم من أن يفاجأ بشيء لم يسبق به علمه وتقديره؛ فإن ذلك ينافي كبرياءه وعظمته المطلقة، كما ينافي كمال ربوبيته لكل شيء .

ثانيا : من تعظيم الله في قضائه وقدره : عدم الخوض والتعمق ، أو التنازع والتخاصم فيه ؛ لأن ذلك ذريعة إلى التكذيب بالقدر، وعدم الإقرار به ، أو إلى الشك فيه ، وهو بريد الكفر .

==

تسع وثمانين وأربعمائة ه عن ثلاث وستين سنة ، انظر : الأنساب لحفيد المترجم ٣ / ٢٩٩، ط/١، ١٤٠٨هـ ، دار الجنان . وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٩ / ١١٤ .

[١] نقلا عن الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١ / ٤٧٧ .

[٢] سورة القمر / آية : ٤٩ .

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب : كل شيء بقدر ، (١٦ / ٢٠٤ شرح النووي)

ومن ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوض في مسائل القدر ، وأمر بالإمساك عنها ،كما في حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا ((إذا ذكر القدر فأمسكوا)) [1]

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوما على أصحابه وهم يتنازعون في القدر؛فغضب غضبا شديدا حتى احمر وجهه كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان ، فقال : ((أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما أهلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه)) [2]

والنهي الوارد في هذين الحديثين وما في معناهما من الأحاديث ليس على إطلاقه بمعنى أنه ليس المراد به الزجر عن الكلام في القدر والإمساك عن مسائله مطلقا كما هو ظاهر الحديث الأول ولهذا فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة منها :

١ - أن المنهي عنه إنما هو الخوض فيه بالباطل ، وذلك بالتعمق في كل ما يتعلق بالقدر ، ومحاولة معرفة وجه الحق فيه عن طريق العقل القاصر، وطرح الأسئلة المتعنتة فيه، ولا شك أن هذا لا يجوز؛ لما تقدم من أن ذلك يؤدى حتما إلى التكذيب به أو الشك فيه وكلاهما يتناق مع تعظيم الله فيه .

٢ – أن مما يدل على أن النهي ليس على إطلاقه : أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة وهذا يتطلب الحديث عنه ، وبيانه ، وتعليم الناس بما يجب عليهم حياله من اعتقاد أو عمل ، ورد المفاهيم الخاطئة التي تعرض لبعض الناس فيه ، ولا يكون ذلك منهيا

---

[1] أخرجه الطبراني في الكبير ١٠ / ٢٤٣ ، برقم (١٠٤٤٨) وأبو نعيم في الحلية ٤ / ١٠٨ وقال : غريب من حديث الأعمش تفرد به عنه مسهر . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٢٠٢ : وفيه مسهر بن عبد الملك وثقه ابن حبان وغيره ، وفيه خلاف ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١١ / ٤٧٧ . وقال الشيخ الألباني : صحيح ، انظر : صحيح الجامع الصغير برقم : ٥٤٥ ، والسلسلة الصحيحة ١ / ٤٢ .

[2] أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب القدر ، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ح : ٢١٣٣ ، ٤/ ٤٤٣ ، وقال : وفي الباب عن عمر وعائشة وأنس ، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المري وصالح المري له غرائب ينفرد بها لا يتابع عليها .

وقال الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح سنن الترمذي ٢ / ٢٢٣ رقم : ١٧٣٢ – ٢٢٣١ : ((حسن))

وله شاهد من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ : ((لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم)) أخرجه أحمد ١ /٣٠ ، وأبو داود في سننه ٥ / ٨٤ ، رقم : (٤٧١٠)و(٤٧٢٠)، والحاكم ١ / ٨٥ .

عنه ، بل قد يكون واجبا على أهل العلم ؛ أداء لأمانة العلم التي ائتمنهم الله عليها ، وحذارا من مغبة كتمانه المتوعد عليه .

٣ – أن في الحديث الأول قرينة تدل على هذا ، وهي أنه قد ورد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا)) ، وليس المراد من ذلك الإمساك عن ذكر الصحابة وفضائلهم وجهادهم ومناقبهم ... إلخ ، بل المقصود هو الكف عمّا شجر بينهم وعن ذكرهم بالباطل – فعل الرافضة – فكذا النهي عن الكلام في القدر، وهكذا فهم العلماء قديما وحديثا هذا النهي النبوي ؛ ولذلك بحثوا في مسائل القضاء والقدر ، وألفوا فيها الرسائل والكتب ، وبينوا فيها الحق والصواب الذي يجب اعتقاده كما ردوا على الطوائف الضالة فيه ، ولو فهموا منه وجوب الكف مطلقا لما كان منهم ذلك [١] .

ثالثا : ومن تعظيم الله تعالى في قضائه وقدره التسليم له والرضى به وعدم الاعتراض عليه فيما قضاه وقدره للعبد أو عليه، واعتقاد أن كل ذلك محض العدل الذي لا جور فيه والفضل الذي لا حدود له، كما قال أعلم الخلق به رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ماض في حكمك عدل في قضاؤك)) [٢]

فكل قضاء الله في عبده عدل ؛ فإنه وضع له في موضعه الذي لا يحسن في غيره [٣]

ولهذا قال أحد الصالحين : ((لو قرض جسمي بالمقاريض أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله ليته لم يقضه)).

---

[١] انظر : كتاب : الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لابن بطة العكبري ١ / ٢٤٣ –٢٥٢ ، تحقيق الدكتور / عثمان عبد الله آدم الأثيوبي ، ط/١، ١٤١٥هـ، دار الراية ، وكتاب :"القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه " ص : ٢٧ . للدكتور / عبد الرحمن بن صالح المحمود ، ط/ ٢ ، ١٤١٨ هـ ، دار الوطن .

[٢] أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٣٩١ ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ١٣٦ ، : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ... ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان .

[٣] شفاء العليل لابن قيم الجوزية ص : ٥٧٦ ، طبعة التراث .

وقال آخر : ((أذنبت ذنبا أبكي عليه منذ ثلاثين سنة ، وكان قد اجتهد في العبادة ، قيل له وما هو ؟ قال : قلت لشيء كان ليته لم يكن)) [1]

وقال صاحب منازل السائرين : ((تعظيم القضاء والقدر ألا يبغى له عوج ، أو يدفع أو يدفع بعلم أو يرضى بعوض)) [2]

ذكر ههنا ثلاثة أمور ، لابد من مراعاتها في التعامل مع قضاء الله وقدره ؛ ليكون العبد معظما لله تعالى في باب القضاء والقدر ، والإخلال بهذه الأمور أو بشيء منها يعتبر قدحا ونقصا في تعظيم الرب تعالى في هذا الباب العظيم من الدين .

قال الإمام ابن القيم في شرح هذه الأمور الثلاثة : قوله : ألا يبغى له عوج : أي يطلب له أو يرى فيه عوج بل يراه كله مستقيما لأنه صادر عن الحكمة فلا عوج فيه وهذا موضع أشكل على الناس جدا .

ثم ذكر رحمه الله الطوائف المنحرفة في هذا الباب كالقدرية النفاة الذين أخرجوا المعاصي عن أن تكون مقدرة لله ؛ لأنها في نظرهم مشتملة على أعظم التفاوت والعوج ، وليس في خلق الرحمن تفاوت ، إذن فلا تكون المعاصي من خلقه ، وهذا مقتضى تعظيم الله عندهم في باب القضاء والقدر .

والجبرية الغلاة الذين يقابلون هؤلاء ويقولون إن المعاصي مقدرة لله مخلوقة منه وما دامت كذلك فهي مستقيمة لا عوج فيها !!

قال ابن القيم : ((والطائفتان ضالتان منحرفتان وهذه الثانية أشد انحرافا لأنها جعلت الكفر والمعاصي طريقا مستقيما لاعوج فيه ، وعدم تفريق الطائفتين بين القضاء والمقضي والحكم والمحكوم به هو الذي أوقعهم فيما أوقعهم فيه ، وقول سلف الأمة وجمهورها : أن

---

[1] طريق الهجرتين لابن القيم ، ص : ٣٦٥ . تخريج وتعليق / عمر بن محمود أبو عمر ، ط/١ ، ١٤٠٩ هـ دار ابن القيم

[2] مدارج السالكين ٢ / ٥٢٠ .

القضاء غير المقضي فالقضاء فعله ومشيئته وما قام به ، والمقضي مفعوله المباين له المنفصل عنه وهو المشتمل على الخير والشر والعوج والاستقامة)) [1]

وهذا وجه الجمع بين ما ورد من النصوص الدالة على انقسام القدر الإلهي إلى خير وشر كما في حديث جبريل الطويل الذي فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم ((وتؤمن بالقدر خيره وشره)) [2] وبين ما ورد في نصوص أخرى من نفي نسبة الشر إلى الله تعالى كقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك)) [3]

فيقال : إن الشر في القدر هو ما لا يلائم طبيعة الإنسان المقدر عليه بحيث يحصل له به أذية أو ضرر ، كما أن الخير في القدر هو ما يلائم طبيعة الإنسان المقدر له بحيث يحصل له به ارتياح وسرور وكل ذلك من الله تعالى .

وعليه فالجمع بين ما ورد في حديث جبريل من قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((وتؤمن بالقدر خيره وشره)) وبين قوله : ((والشر ليس إليك)) أن يقال :

الشر في القدر ليس شرا باعتبار تقدير الله عز وجل له وإن كان شرا باعتبار ما يحصل به للعبد المقدر عليه ، فهناك قدر يراد به التقدير وهو فعل الله تعالى القائم به ، وقدر يراد به المقدر وهو مفعوله المباين المنفصل عنه كما أن هناك خلقا هو فعل الله وصفته القائمة به ومخلوقا هو مفعوله المباين له ، وهناك إرادة ومرادا ، فباعتبار تقدير الله وخلقه وإرادته ليس في قدر الله شر بل هو خير محض وعدل محض وإن كان لا يلائم العبد ويؤذيه ويضره وهذا هو المراد بحديث : ((والشر ليس إليك))

لكن باعتبار المقدور يمكن أن يقال : المقدور إما خير وإما شر فالمقصود بالقدر خيره وشره : أي المقدور خيره وشره [4]

وبناء على ما تقدم ، فالتسليم، والرضا بقضاء الله وقدره ، فيه التفصيل الآتي :

---

[1] مدارج السالكين ٢ / ٥٢٠ .

[2] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تعريف الإسلام والإيمان ، (١ / ١٥٧ شرح النووي)

[3] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب صلاة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ودعائه بالليل (٦ / ٥٨ – ٥٩ شرح النووي)

[4] انظر : شرح العقيدة الواسطية للشيخ / محمد بن صالح العثيمين رحمه الله ، ٢ / ١٩١ – ١٩٢ .

أما من حيث كونه قضاء لله وفعلا من أفعاله القائمة به، فيجب الرضى به من هـــذا الوجه ؛ لكونه صفة من صفات الله العلى، البالغة من الكمال والجلال نهايته ، وعدم الرضا به من هذا الوجه يعد إخلالا بتكبير الله في قضائه وقدره .

وأما من حيث هو مقضي لله تعالى منفصل عنه ، فقد يرضى به إن كان شيئا محبوبـا ملائما لطبيعة الإنسان ورغبته ، وقد لا يرضى به إن كان شيئا مسخوطا غير ملائم له [1]

وهذا كما أننا نبغض الكفر والكفار والنفاق والمنافقين ، وسائر المعاصي وأصحابهـا مع أنهم وفعلهم من تقدير الله تعالى وخلقه وإرادته ، وليس عدم الرضا بالقضاء والقدر من هذا الوجه قدحا في تعظيم الرب وتكبيره في قضائه وقدره ،

وإذا كان لا بد في تعظيم الرب تعالى فيما قضاه وقدره من الإعراض عن الاعـــتراض عليه والرضى بفعله وتقديره ، فإن كثيرا من الناس قد أخلوا بهذا الأمر بحالهم أو بمقـالهم ، وليس أدل على ذلك مما ترى وتسمع من اعتراضات سافرة على الله تعالى، وهذا أمر جـد خطير، ومع ذلك، فما أكثر الواقعين في شراك الشيطان فيه !! فالله المستعان .

يقول ابن القيم رحمه الله : ((ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعتبا على القدر، وملامة له، واقتراحا عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من هذا ؟!

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا [2]

قال صاحب تيسير العزيز الحميد على قول الإمام ابن القيم رحمه الله : ((ولو فتشت من فتشت ...)) :

((قلت : بل يبوحـــون بذلك ، ويصرحون بـــه جهارا في أشعارهم وكلامهم ،

---

[1] المصدر السابق ،

[2] زاد المعاد ٣ / ٢٣٥ .

قال ابن عقيل [١] في الفنون [٢]: الواحد من العوام إذا رأى مراكب مقلدة بـــالذهب والفضة ، ودارا مشيدة مملوءة بالخدم والزينة ، قال : انظر إلى إعطائهم مع سوء أفعـالهم ! ولا يزال يلعنهم ويذم معطيهم ، حتى يقول : فلان يصلى الجماعات والجمع ، ولا يـؤذي الذر ، ولا يأخذ ما ليس له ، ويؤدي الزكاة إذا كان له مال ، ويحج ويجاهد ولا ينال خلة بقلبه ... ويظهر الإعجاب كأنه ينطق أن لو كانت الشرائع حقا لكان الأمر بخلاف مـا ترى وكان الصالح غنيا والفاسق فقيرا)) [٣]

وهذا وأمثاله من الاعتراضات، تمرد على الله في قضائه وقدره، وإخلال بين بتعظيمـه فيه؛فإن القلب الممتلئ من معرفة عظمة الرب وكبريائه يسلم ولا يعترض ، ويرضـــى ولا يسخط، والسالم من سلمه الله ، فعرف كبرياء الرب جل وعـلا، وأدرك صغـر نفســه وحقارتها وعجزها، وجهلها بتفاصيل حكمة الله البالغة، وعلم أن الله تعالى أكبر مـــن أن يعترض عليه العبد الضعيف فيما قضاه وقدره، كيف ؟! وكل شيء ملكه [٤] .

---

[١] هو الإمام البحر أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف الكثـــيرة ، ولد سنة إحدى وثلاثين وأربع مائة ه وكان من أذكياء الدنيا إلا أنه بسبب صحبته المعتزلة ربما وافقهم في بعـــض ضلالهم في صفات الله عز وجل ، قال ابن تيمية رحمه الله (ولابن عقيل أنواع من الكلام؛ فإنه كان من أذكيـــاء العالم كثير الفكر والنظر في كلام الناس، فتارة يسلك مسلك نفاة الصفات الخبرية، وينكر على من يسميها صفات، ويقول إنما هي إضافات، موافقة للمعتزلة ، كما فعله في كتابه : " ذم التشبيه وإثبات التنزيه " وغيره من كتبه) درء تعارض العقل والنقل ٨ / ٦٠ ،توفي ابن عقيل سنة ٥١٣ هـ انظر : طبقات الحنابلة : ٢٥٩/٢ ط/ دار المعرفة ، وسير أعلام النبلاء ١٩ / ٤٤٣ .

[٢] هو اسم كتاب لابن عقيل رحمه الله يقال : إنه أكبر تصانيفه قال عنه الذهبي : وهو أزيد من أربعمائـــة مجلـــد حشد فيه كل ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة ، وما يسنح له من الدقائق والغوامض ، وما يســـمعه مـــن العجائب والحوادث . سير أعلام النبلاء ، ١٩ / ٤٤٥ .

[٣] تيسير العزيز الحميد ص : ٦٨١ – ٦٨٢ .

[٤] فالمعظمون لله عز وجل من شأنهم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذي يخـــالف تدبـــير الله تعـــالى واختياره فلا يزاحم تدبيرهم واختيارهم تدبير الرب واختياره؛ لتيقنهم بأنه الملك القاهر القابض على نواصي الخلـــق المتولي تدبير أمر العالم كله ، وتيقنهم مع ذلك بأنه سبحانه حكيم في كل ما يفعله ، فأفعاله لا تخرج عن الحكمـــة والرحمة ، وعلى هذا لم يدخلوا أنفسهم معه في تدبيره لملكه، وتصريفه أمور خلقه ب"لو كان كذا- وكـذا ، ولا ==

ومن أجل ما في هذا الأمر من خطورة بالغة، وجهل عظيم بالله سبحانه وبقدر عظمته وكبريائه، شدد العلماء النكير على من اشتهر عنهم الاعتراض على الله تعالى سواء في قضائه وقدره، أو في شرعه وأمره، وبينوا ما في كلامهم المتضمن للاعتراض من الجهل والسفه، وحذروا الناس من سلوك طريقهم المردي ، فهذا أبو العلاء المعري الشاعر (1) كان ممن اشتهر عنه الاعتراض على الرب سبحانه في خلقه وأمره ، وجاء في أشعاره الشيء الكثير من ذلك ، كقوله وهو يخاطب الله تعالى :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنونا وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب العباد على امرئ رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

وهو القائل أيضاً مستهزئاً بالرسل، ومصرحا بأنهم كانوا شراً محضا على الناس؛ لأنهم – بزعمه- ضيقوا على الناس حياتهم، بعد أن كانوا في سعة وفسحة من أمرهم، وذلك بسبب ما جاءوا به من شرائع وأحكام :

فلا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطروه

وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالمحال وكدروه .

قال ابن كثير بعد أن حكى عنه هذه الأبيات الصريحة في الكفر والزندقة : ((وقلت أنا معارضة عليه :

فلا تحسب مقال الرسل زوراً ولكن قول حق بلغوه

وكان الناس في جهل عظيم فجاءوا بالبيان فأوضحوه)) (2) .

==

بعسى ولعل ، ولا بـ " ليت " بل ربهم أجل وأعظم في قلوبهم من أن يعترضوا عليه . انظر طريق الهجرتين ص : ٣٦٤ .

(1) أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري ، ولد سنة ٣٦٣هـ وتوفي سنة ٤٤٠هـ ترجمته في : وفيات الأعيان ١ / ١١٣ ، وسير أعلام النبلاء ١٨ / ٢٣.

(2) البداية والنهاية ١٢ / ٧٩ .

وقال ابن الجوزي رحمه الله بعد حكايته شيئاً من شعر المعري - الدال على الإلحاد والانسلاخ من الدين، والمتمثل في إنكار الرسالات السماوية، والاستهزاء ببعض الأنبياء ، والتشكيك في صحة الكتب المترلة، كالتوراة والإنجيل والزبور، والاعتراض على الله في قضائه وقدره ، وفي تشريعه بعض الأحكام الشرعية، مثل قطع يد السارق في ربع دينار، والذي يقول فيه المعري :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار [1]

قال ابن الجوزي: (وإنما ذكرت هذا من أشعاره ليستدل بها على كفره فلعنه الله)[2]

وأما قول صاحب المنازل: ((أو يدفع بعلم)) فقال ابن القيم رحمه الله : ((أحسن ما يحمل عليه كلامه أن يقال : قضاء الله وقدره وحكمه الكوني لا يناقض دينه وشرعه وحكمه الديني ، بحيث تقع المدافعة بينهما؛ لأن هذا مشيئته الكونية ، وهذا إرادته الدينية ، وإن كان المرادان قد يتدافعان ويتعارضان ، لكن من تعظيم كلٍّ منهما أن لا يدافع بالآخر ولا يعارض ؛ فإنهما وصفان لله، وأوصافه لايدافع بعضها ببعض، وإن استعيذ ببعضها من بعض، فالكل منه سبحانه، وهو المعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعلمّ الخلق به : ((أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك))

إلى أن قال رحمه الله في نهاية تقريره عدم المعارضة بين قضاء الله الكوني القدري، وقضائه الديني الشرعي، وأن اعتقاد ذلك إخلال بتعظيم كلٍّ منهما :

((فتأمل هذا ، فإنه محض العبودية والمعرفة ، والإيمان بالقدر والاستسلام له ، والقيام بالأمر والتنفيذ له بالقدر ، فما نفذ المطيع أمر الله إلا بقدره ، ولا دفع مقدور الله إلا بقدره وأمره)) [3]

---

[1] وقد كفره بعض العلماء بسبب هذين البيتين قال الإمام الذهبي رحمه الله : (وبإسنادي قال السلفي : إن كان قاله – يعني ما في هذين البيتين – معتقداً معناه فالنار مأواه وليس له في الإسلام نصيب) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٣١ .

[2] المنتظم لابن الجوزي ١٦ / ٢٧ .

[3] مدارج السالكين ٢ / ٥٢١ وما بعدها .

إذن : من تعظيم الله في قضائه وقدره ألا يعتقد التعارض بينه وبين شرعه المنزل من عنده، كأن يجعل حجة على فعل المعاصي وارتكاب المنهيات، أو على ترك الواجبات الشرعية ؛ لما في ذلك من إسناد التناقض إلى الرب- تعالى وتقدس - كما هو شأن المشركين المكذبين ، فقد حكى الله عنهم احتجاجهم بالمشيئة الكونية على ما كانوا عليه من الشرك بالله تعالى، وأنهم قالوا: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ [1]

قال ابن الجوزي رحمه الله : ((أي إذا لزمتهم الحجة، وتيقنوا باطل ما هم عليه من الشرك ، وتحريم ما لم يحرمه الله ، قالوا : ﴿ لو شاء الله ... ﴾ إلخ ، فجعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل ، فكأنهم قالوا : لو لم يرض ما نحن عليه لحال بيننا وبينه وإنما قالوا ذلك مستهزئين ، ودافعين للاحتجاج عليهم ، فيقال لهم : لم تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالون ، وإنما هم على المشيئة أيضاً ، فلا حجة لهم ؛ لأنهم تعلقوا بالمشيئة وتركوا الأمر ، ومشيئة الله تعم جميع الكائنات وأمره لا يعم مراداته ، فعلى العبد اتباع الأمر ، وليس له أن يتعلل بالمشيئة بعد ورود الأمر)) [2]

فهؤلآء المشركون ومن سلك طريقهم في الاحتجاج بالقدر ومدافعة الشرع به ما عظموا الله، ولا كبروه في قضائه وقدره، لما جعلوه حجة لهم على ارتكاب أعظم ما نهى الله عنه، وهو الشرك بالله تعالى، وعلى ترك أعظم ما أمر الله به، وهو توحيده وإفراده بالعبادة بجميع أنواعها ، كما جعلوا المشيئة حجة وذريعة لهم إلى القول على الله بغير علم بقولهم : ﴿ ولا حرمنا من شيء ﴾ فاستندوا في تحريمهم ما لم ينزل الله بتحريمه عليهم سلطانا إلى مشيئة الله وقدره الكوني ، فجمعوا بذلك بين أكبر جريمتين :

أ- الشرك بالله العظيم .

ب- والقول عليه بغير علم .

---

[1] سورة الأنعام / آية : ١٤٨ .

[2] زاد المسير للإمام ابن الجوزي ٣ / ١٤٥ ، ط/١، ١٣٨٥ هـ المكتب الإسلامي .

هذا مع اعتقادهم أن الله تعالى قد رضي منهم بذلك، وإلا لحال بينهم وبينه، ولزمهم من ذلك: القول بالتدافع بين قضاء الله الكوني، وقضائه الديني الشرعي ، وقد تقدم في كلام ابن القيم السابق إبطال دعوى التعارض بين الأمرين ، وأن العبودية الحقة التي مبناها على المحبة المطلقة، والتعظيم المطلق للمعبود، تقتضي من العبد أن يؤمن بالأمرين كليهما، من غير إيجاد تعارض بينهما ، فإن ذلك ينافي الإيمان بهما ، ويسقط حرمتهما ، ويقلل من شأنهما في القلب ، ومن هنا يضعف الانقياد لهما .

فالحاصل أن القدر الإلهي يجب الإيمان به، واعتقاد أنه مقتضى الحكمة والعدل ، ويحرم الاحتجاج به لتبرير ما يقع من العبد من المعاصي والمخالفات ((فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس ، ومن احتج به ضارع المشركين ، ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته؛ كان شبيهاً بإبليس فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه وأنه قال : ﴿ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ﴾))[1]

وكل هؤلآء ما عظموا الله في قضائه وقدره .

وأما قوله : ((ولا يرضى بعوض)) فقال ابن القيم في توضيحه : ((أي أن صاحب مشهد الحكم قد وصل إلى حد لا يطلب معه عوضاً، ولا يكون ممن يعبد الله بالعوض، فإنه يشاهد جريان حكم الله عليه، وعدم تصرفه في نفسه ، وأن المتصرف فيه حقا هو مالكه الحق، فهو الذي يقيمه ويقعده، ويقلبه ذات اليمين وذات الشمال، وإنما يطلب العوض من غاب عن الحكم وذهل عنه، وذلك منافٍ لتعظيمه ، فمن تعظيمه أن لا يرضى العبد بعوض يطلبه بعمله؛ لأن مشاهدة الحكم وتعظيمه يمنعه أن يرى لنفسه ما يعاوض عليه ، فهذا الذي يمكن حمل كلامه عليه، من غير خروج عن حقيقة الأمر، والله سبحانه أعلم))[2]

ولا يسلم على الإطلاق بأن طلب العوض من العمل الصالح يعد إخلالاً بتعظيم الله في قضائه وقدره ! وذلك أن الله سبحانه أمر عباده ونهاهم، وتعبدهم بفعل المأمورات

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية ٨ / ١١٤ .

[2] مدارج السالكين ٢ / ٥٢٢ .

وترك المنهيات ، ورتب على امتثال الأوامر الثواب الجزيل والنعيم المقيم ؛ ترغيباً في الامتثال وتخفيفاً لمشقة الأعمال، كما أنه رتب على انتهاك النهي العقاب الأليم ؛ ردعاً وزجراً من الوقوع فيه ، فكيف إذن تكون الرغبة في العوض - الثواب - إخلالاً بتعظيم القضاء والقدر ؟! إذ لوكان كذلك لما رغب الله العباد في شيءٍ تكون الرغبة فيه إضاعة لحقه من التعظيم والإجلال ، وكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مليئان من ذكر الجزاء الحسن في مقابل الأعمال الحسنة ، والجزاء السوء في مقابل الأعمال السيئة ترغيباً وترهيباً.

فمثلاً لو أن عبداً قدر الله عليه أمراً غير مرغوب فيه، من مرض أو فقر، ونحوهما من المصائب التي تسوء الإنسان، فعمل بما أمره الله به من الصبر والاحتساب والرضى، ثم رجا وأمّل من ربه عز وجل أن يجزيه جزاء الصابرين، ويثيبه إثابة المحتسبين، فهذا طالب للعوض على صبره واحتسابه، راج من الله تعالى الحسنى ، ولا يقال لمن هذا حاله إنه أخل بتعظيم القضاء والقدر، على أنه ينبغي التفريق هنا بين أمرين قد يشتبهان على بعض الناس :

أحدهما : طلب العوض على العمل الصالح ، ورجاؤه من الله تعالى بفضله وكرمه ،

الثاني : المطالبة بالعوض، بحيث يرى العامل أن له على ربه حقاً بأن يثيبه ويعوضه على ما قام به من عمل صالح يستحق عليه الأجر والثواب في نظره ، فالأول مشروع وجائز، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة .

قال الله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ...﴾ الآية [1]

فهذا إخبار منه تعالى عن هؤلاء أنهم يرجون رحمته، بعد أن ذكر عنهم أنهم يدعونه ويبتغون إليه الوسيلة، ولم ينكر ذلك عليهم، بل مدحهم به، مما يدل على أن ذلك ليس فيه إخلال بتعظيم القضاء والقدر .

---

[1] من سورة الإسراء / آية : ٥٧ .

وفي الحديث أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس ، فقال صلى الله عليه وسلم : ((ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)) [1]

والشاهد : أن النبي صلى الله عليه وسلم أقره على ذلك ، ولم ينهه عن قصد العوض من عمله ، إذ كان أصل العمل مبتغى به وجه الله عز وجل .

والثاني : غير مشروع ، ولا يصدر إلا من جاهل بعظمة الله تعالى وكبريائه ؛ لأن المطالبة تقتضي ثبوت حق للمطالب على المطالب منه ، والله تعالى أكبر وأعظم من أن يكون للعباد عليه من حق ، إلا ما أحقه على نفسه، تفضلا منه وكرماً، كما قال تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفورٌ رحيم ﴾ [2]

وكما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وفيه ((... وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) [3]

فهذا حق جعله الله على نفسه؛ تكرماً منه وإحساناً، لا أن العباد استحقوه عليه بأعمالهم الصالحة .

فالله عز وجل كما قال القائل :

ما للعباد عليه حق واجب   كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا   فبفضله وهو الكريم الواسع [4]

---

[1] أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الزهد ، باب الزهد في الدنيا ح : ٤١٠٢ ، ٢ / ١٣٧٣، والطبراني في المعجم الكبير ٦ / ١٩٣، رقم : (٥٩٧٢) ، تحقيق / حمدي عبد المجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله ، انظر : صحيح ابن ماجة ٣ / ٣٤٤ ، والسلسلة الصحيحة ٢ / ٦٢٤ ، رقم : (٩٤٤).

[2] سورة الأنعام / آية : ٥٤ .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، ح : ٧٣٧٣ ، (١٣ / ٣٤٧ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب حق الله على العباد وحق العباد على الله (١ / ٢٢٩ من شرح النووي) .

[4] انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص : ٢١٠ ، تحقيق الشيخ / أحمد شاكر .

ومن هنا يتبين أنه ليس من الإخلال بتعظيم الله في قضائه وقدره أن يرغب العبد في ثواب الأعمال التي يقوم بها ، بل هذا من كمال عبوديته لله تعالى بإحسان الظن به، وقوة الرجاء له ، نعم ، لا يعول على أعماله مهما عظمت وحسنت في تقديره ، وإنما يكون تعويله على فضل الله ورحمته وعفوه وكرمه ، وأما ترك تعظيم الله في قضائه وقدره فيكون بالأمور التالية :

أولاً : بإنكار القضاء والقدر، كما هو فعل القدرية النفاة ، الذين كفرهم الأئمة .

ثانيا : بالاعتراض على الله تعالى ، وعدم التسليم والرضى بما قضاه وقدره ، ويكون ذلك ناتجا عن جهل العبد بأن لله عز وجل في كل ما قضاه وقدره حكمة بالغة ؛ لوجوب تنزيهه عن العبث في شرعه وقدره جميعاً ، وإذا كان كذلك فلا وجه للاعتراض عليه .

ثالثاً : بأن يظن أنه لو فعل كذا وكذا من الأسباب لما كان هذا الأمر المقدر عليه أو لكان كذا وكذا ، ومن ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن "اللو" بعدما يصيب العبد من المصائب المقدرة عليه وأخبر أنها لا تمنع القدر بل تفتح عمل الشيطان [1]

رابعاً : باعتقاد وجود تعارض بين القدر وبين الشرع .

خامساً : بالاحتجاج بالقدر على اقتراف المعاصي المنهي عنها مثل احتجاج المشركين به على شركهم ، واحتجاج بعض العصاة به لتبرير ما يأتونه من المعاصي ، وكذا بالاحتجاج به على ترك الطاعات المأمور بها .

فهذه بعض مظاهر الإخلال بتعظيم الله في قضائه وقدره فمن اتصف بها أو بشيء منها تجاه القضاء والقدر فإنه ما كبر الله ولا أجله في باب القضاء والقدر .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((فمن أثبت القدر وجعل ذلك معارضاً للأمر فقد أذهب الأصل، ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى، بل هؤلاء قولهم متناقض، لا يمكن أحداً منهم أن يعيش به، ولا تقوم به مصلحة أحدٍ من الخلق، ولا يتعاشر عليه اثنان ، فإن القدر إن

---

[1] كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب الإيمان للقدر والإذعان له (١٧ / ٢١٥ شرح النووي)

كان حجة فهو حجة لكل أحد ، وإلا فليس حجة لأحد ، فإذا قدر أن الرجل ظلمه ظالم ، أو شتمه شاتم ، أو أخذ ماله ، أو أفسد أهله ، أو غير ذلك ، فمتى لامه أو ذمه أو طلب عقوبته ، أبطل الاحتجاج بالقدر)) [1]

وقال في موضع آخر : فمن أعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد نظراً إلى القدر فقد ضل ومن طلب القيام بالأمر والنهي معرضاً عن القدر فقد ضل بل المؤمن كما قال تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فنعبده اتباعاً للأمر ونستعينه إيماناً بالقدر)) [2].

وعلى هذا ، فالإيمان بالقدر مرتبط بامتثال الشرع ، وامتثال الشرع مرتبط بالإيمان بالقدر ، وانفكاك أحدهما عن الآخر محال [3] ومن طلب انفصال أحدهما عن الآخر طلب المحال ، ولم يعظم ربه في كل منهما .

---

(1) فتاوى شيخ الإسلام م ابن تيمية ٨ / ١٠٦ .

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨ / ٧٣ .

(3) معارج القبول للشيخ / حافظ الحكمي ٣ / ٩٥٢ ، ط/٣ ، ١٤١٥ هـ ، دار ابن القيم

المطلب الثالث :

تكبير الله وتعظيمه في أوامره ونواهيه

وشعائره وحرماته وحدوده :

إن من تكبير الله وتعظيمه تعظيم أوامره ونواهيه ، فإن تعظيم الأمر والنهي تعظيم للآمر والناهي ، الذي أمر بالأوامر وألزم بها ، ونهى عن النواهي وزجر عنها ، فمن ادعى تعظيم الله وتكبيره مع تضييعه لأوامره ونواهيه كانت دعواه كاذبة [1] ،

وكذلك شعائر الله عز وجل، وهي أعلام دينه، [2] يجب تعظيمها واحترامها ؛ تعظيماً لله تعالى الذي نصبها شعائر، وقد نهى سبحانه عن إحلالها بقوله : ﴿ يآأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ﴾،[3] وأخبر سبحانه أن تعظيمها أمارة ودليل على تقوى القلوب ، قال تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ [4]

وهكذا حرمات الله تعالى : يجب تعظيمها ، واحترامها ، واعتقاد حرمتها ؛ لأن ذلك تعظيم لمن جعلها حرمات ، وهو الله عز وجل ؛ ولهذا أخبر الله تعالى أن تعظيم حرماته سبب للخير عنده ، فقال : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ [5] وتعظيمها يكون بترك ملابستها ؛ إجلالاً لله تعالى وتكبيراً .

---

[1] قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ : (يقول وعظم ربك يا محمد بما أمرك أن تعظمه به من قول و فعل وأطعه فيما أمرك ونهاك) . تفسير الطبري ٩ / ١٧٩ ، وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في الآية : (أي : عظمه تعظيماً شديداً ، ويظهر تعظيم الله في شدة المحافظة على امتثال أمره واجتناب نهيه والمسارعة إلى كل ما يرضيه) . أضواء البيان ٣ / ٦٣٥ .

[2] معالم التنزيل للبغوي ٥ / ٣٨٤، والبحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٣٤٢، ط/١، ١٤١٣هـ دار الكتب العلمية.

[3] سورة المائدة / آية : ٢ .

[4] سورة الحج / آية : ٣٢ .

[5] سورة الحج / آية :٣٠ .

وأما حدود الله تعالى : فهي أيضاً مما أمر الله بتعظيمها ، وتعظيمها يكون بعدم اقترابها، أو بالحذر من تعديها ، فإن الله سبحانه نهى عن اقترابها في قوله : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ [١]

وتوعد على تعديها ، وسمى المتعدي لها ظالما لنفسه في قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [٢]

وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ [٣] وحدود الله قيل : هي شروطه ، وقيل : هي فرائض الله ، وقيل : هي ما يمنع الناس من مخالفتها ؛ لأن أصل الحد في اللغة المنع ، ومنه قيل للبواب : حداد ؛ لأنه يمنع الناس من الدخول [٤]

وفي حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً ((إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها...)) الحديث. [٥]

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : ((وأما حدود الله التي نهى عن اعتدائها ، فالمراد بها جملة ما أذن في فعله ، سواء كان على طريق الوجوب ، أو الندب ، أو الإباحة ، واعتداؤها هو تجاوز ذلك إلى ارتكاب ما نهى عنه)). [٦]

وقد ذكر صاحب منازل السائرين أنه لا بد في تعظيم الأوامر والنواهي الشرعية من ثلاثة أمور هي بمثابة الشروط لتحقيق إيفاء الأمر والنهي الشرعيين حقهما من التعظيم .

الأول : ألا يعارضا بترخص جافٍ .

---

[١] سورة البقرة / آية : ١٨٧ .

[٢] سورة الطلاق / آية : ١ .

[٣] سورة النساء / آية : ١٤ .

[٤] تفسير البغوي ((معالم التنزيل)) ١ / ٢١٠ .

[٥] أخرجه الدار قطني ٤ / ١٠٩ تحقيق / مجدي بن منصور بن سيد الشوري ، ط/١ ، ١٤١٧ هـ ، والطبراني في الكبير ٢٢ / ٥٨٩ ، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠ / ١٢ – ١٣ موقوفاً ، وأبو نعيم في الحلية ٦ / ١٧ ، وإسناده حسن كما قال محقق سنن الدار قطني .

[٦] جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ٢ / ١٦٠ .

الثاني : ألا يعرضا لتشدد غال .

الثالث : ألا يحملا على علة توهن الانقياد .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان هذه الأمور وتوضيحها : ((ههنا ثلاثة أشياء تنافي تعظيم الأمر والنهي ، أحدها : الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال .

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي، فالأول تفريط والثاني إفراط.

ثم قال : وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان ، إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو ، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه كالوادي بين جبلين ، والهدى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له ، فالغالي فيه مضيع له ، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد ، وقد نهى الله عن الغلو بقوله :

﴿ قل يآأهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ﴾ [١])) [٢]

وتضييع الجافي عن الأمر والنهي لتعظيمهما ظاهر وواضح ، وذلك بتركه للأمر ، وعدم امتثاله له ، وبانتهاكه للنهي ، وعدم انزجاره عنه ، فمن كان هذا حاله مع الأوامر والنواهي فهو الجافي عنها ، وهو غير معظم لها ، وبالتالي هو غير معظم لله تعالى الذي هو الآمر والناهي .

وأما تضييع الغالي لتعظيم الأمر والنهي ، فهو من جهة زيادته على الحد المشروع فيهما، ففي الأمر- مثلا- يحمل نفسه القيام بأمور زائدة على المأمور به ، أو يأتي به على كيفية لم يأمر به الشارع كذلك ، فيجعل تلك الكيفية المبتدعة واجبة أو مستحبة ، من غير توقيف من الشارع ، وأما النهي فيكون تضييع الغالي لتعظيمه بتكلف اجتناب أمر لم يأمر الله باجتنابه ، على سبيل التعبد لله عز وجل بذلك الاجتناب ، وفي كلا الحالين ربما انقطع هذا المتكلف ، وعجز عما حمل نفسه به ، من فعل أو ترك غير مشروعين ؛ فيصير

---

(١) سورة المائدة / آية : ٧٧ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ٥١٧ –٥١٨ .

حاله كحال من قال الله تعالى فيهم : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ﴾ [1]

ويتبين من هذا أن في كل من الغلو والجفاء في الأمر والنهي إضاعة لحقهما من التعظيم الذي هو تعظيم للآمر والناهي ، والمعظم لهما حقا ، هو من يفعل المأمور محبا له راضيا به، ويترك المنهي عنه كارها له ومبغضا إياه ، وكل ذلك على ضوء الدليل الشرعي من كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، دون زيادة متكلفة ولا نقصان متعمد .

وأما قوله : وأن لا يحملا على علة توهن الانقياد :

فقال ابن القيم في توضيحه : ((يريد أن لا يتأول في الأمر والنهي علة تعود عليهما بالإبطال، كما تأول بعضهم تحريم الخمر بأنه معلل بإيقاع العداوة والبغضاء، والتعرض للفساد، فإذا أمن هذا المحذور جاز شربه كما قيل :

أدرها فما التحريم فيها لذاتها ولكن لأسباب تضمنها السكر

إذا لم يكن سكر يضل عن الهدى فسيان ماء في الزجاجة أو خمر))[2]

وهذا الشرط يقع في مخالفته كثيرا صغار المتفقهة، الذين يتصدرون قبل أوان رسوخهم في العلم، بحيث يحاولون أن يجعلوا لكل أمر أو نهي شرعي علة هي الباعثة في نظرهم على تشريع الأمر أو النهي، فإذا انتفت تلك العلة التي نصبوها من عندهم، قالوا : انتفى الأمر، أو بطل النهي، أو كلمة نحوها ؛ "لأن الحكم يدور مع علته وجودا وعدما " كمن يجعل علة تحريم جر الإزار وإسبال الثياب، هي الخيلاء فقط، مرتبا على ذلك أنه ما لم توجد خيلاء فإن الإسبال لا بأس به ، [3] هذا مع أنه يجوز- على الصحيح – تعليل الحكم

---

[1] سورة الحديد / آية : ٢٧ .

[2] مدارج السالكين ٢ / ٤٩٧ .

[3] قال ابن العربي رحمه الله في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح : ((إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان أسفل من ذلك ففي النار)) : فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم الغاية في لباس الإزار الكعب وتوعد ما تحته بالنار فما بال رجال يرسلون أذيالهم ويطيلون ثيابهم ثم يتكلفون رفعها بأيديهم ، وهذه حالة الكبر وقاعدة العجب ، وأشد ما في الأمر أنهم يعصون ويحتجون ويلحقون أنفسهم بمن لم يجعل الله معه غيره ولا ألحق به سواه قال النبي صلى الله عليه وسلم ((لا ينظر الله لمن جر ثوبه خيلاء ، ولفظ

==

الواحد بأكثر من علة، [1] وانتفـاء علة واحدة من تلك العلل ، لا يوجب انتفاء سائرها كما هو معلوم ، والعلة ما لم تكن منصوصة فالأولى التورع عن تعليل الحكم بها؛ حتى لا يقع الإنسان في محذور القول على الله بغير علم وهو من الخطورة بمكان .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله- في قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : ((مالنا وللرمل ! إنما كنا راءينا به المشركين، وقد أهلكهم الله، ثم قال : شيءٌ صنعه النبي صلى الله عليه وسلم فلا نحب أن نتركه)) [2] -: ((ومحصله أن عمر كان هم بترك الرمل في الطواف؛ لأنه عرف سببه وقد انقضى، فهم أن يتركه لفقد سببه، ثم رجع عن ذلك ؛لاحتمال أن تكون له حكمة ما اطلع عليها، فرأى أن الاتباع أولى من طريق المعنى، وأيضاً إن فاعل ذلك إذا فعله تذكر السبب الباعث على ذلك، فيتذكر نعمة الله على إعزاز الإسلام وأهله)) [3]

قال ابن القيم رحمه الله : ((وقد بلغ هذا – يعني افتعال العلل الواهية للأحكام الشرعية من أوامر ونواه – بأقوام إلى الانسلاخ من الدين جملة ، وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معللا بالإسكار، فله أن يشرب منه ما شاء ما لم يسكر ...ومن العلل التي توهن الانقياد : أن يعلل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر، فيضعف انقياد العبد إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم ،

==

الصحيح : من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله له يوم القيامة)) قال أبو بكر : يا رسول الله ، إن إحدى شقي إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه قال : ((لست ممن يصنعه خيلاء)) فعمم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنهي واستثنى أبا بكر الصديق ، فأراد الأدنياء إلحاق أنفسهم بالأقصياء وليس ذلك لهم . أحكام القرآن ٤ / ١٨٨٧ – ١٨٨٨ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط/ مصطفى الحلبي ، ١٣٩٤ هـ

[1] انظر روضة الناظر وجنة المناظر للإمام ابن قدامة المقدسي ٢ / ٢١٤ ، ومجموع الفتاوى ١٨ / ٢٣ .

[2] صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب الرمل في الحج والعمرة ، (٣ / ٤٧١ من فتح الباري)

[3] فتح الباري ٣ / ٤٧٢ .

ولهذا كان طريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور ، وفي بعض لآثار القديمة : ((يا بني إسرائيل ، لا تقولوا لم أمر ربنا، ولكن قولوا : بم أمر ربنا)) [1]

وبين هاتين الصيغتين فرق كبيرٌ فإن الأولى وهي : "لم أمر ربنا" سؤالٌ عن العلة الباعثة على الأمر ، فلسان حال السائل : أني لا أمتثل الأمر حتى أقف على العلة ، وفي هذا ما فيه من الجهل بمقام الآمر، وإساءة الأدب معه، وذلك إخلال بتعظيمه وإجلاله ،

والثانية : سؤال عن المأمور به نفسه، فكأنه يقول : أريد أن أعرف بأي شيء أمر ربنا فأمتثله ، عرفت الحكمة أم لا ، وهذا هو التعظيم اللائق بمقام الرب جل وعلا تجاه أوامره ونواهيه .

قال ابن القيم رحمه الله: ((وأيضاً فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتى تظهر له علته؛ لم يكن منقاداً للأمر، وأقل درجاته أن يضعف انقياده ... إلى أن قال : وكل هذا من ترك تعظيم الأمر ، وقد دخل من هذ الفساد على كثير من الطوائف ، ما لا يعلمه إلا الله ، فما يدري ما أوهنت العلل الفاسدة من الانقياد إلا الله ، فكم عطلت لله من أمر ، وأباحت من نهي، وحرمت من مباح ، وهي التي اتفقت كلمة السلف على ذمها)) [2]

وخلاصة القول : أنه يجب تعظيم الأمر والنهي الإلهيين؛ لأن ذلك تعظيم لله عز وجل الذي هو الآمر الناهي ، كما أنّ ذلك مقتضى قولنا (الله أكبر) الذي نردده كل يوم مرات عديدة، و إنما يتحقق تعظيم الأمر بالامتثال المطلق للمأمور به ، وعلى الفور إن كانت الصيغة الدالة عليه اقتضت الفورية، وفي وقته إن كان موقوتاً كالصلوات الخمس المفروضة ، وعلى الكيفية المشروعة فيه .

وأما تعظيم النهي : فيكون بالانتهاء المطلق عن المنهي عنه، دون التعرض والبحث عن العلل والحكم الباعثة على الأمر أو النهي ، ويكفي العبد المؤمن أن يعلم أن الله تعالى حكيم بالغ الحكمة ، كما وصف بذلك نفسه في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وأنه متره عن العبث في خلقه وأمره ، وعلى هذا ، فهو سبحانه أكبر وأعظم وأجل منّ أن يأمر

---

[1] مدارج السالكين ٢ / ٥١٩ .

[2] المصدر السابق

بشيء، أو ينهى عن شيء إلا لحكمة بالغة ، علمها من علمها ، وجهلها من جهلها ، وعدم علمنا بها لا ينفي وجودها ؛ لأن مدارك البشر وعقولهم أضيق من أن تتسع لإدراك جميع حكم الرب الكبير ، في خلقه أو في شرعه، من أوامر ونواه؛ ولهذا ، فلا ينبغي صرف الهمم إلى الاشتغال بالبحث عن علل الأوامر والنواهي الشرعية ، وجعل الوقوف عليها ومعرفتها شرطا في الامتثال والانتهاء ، فإن ذلك يتنافى مع ما يجب لها من التعظيم والإجلال .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((وإذا علم العبد من حيث الجملة : أن لله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة، كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علما وإيمانا؛ ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله، ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[1]))[2]

هذا ومن مظاهر الإخلال بتعظيم الأوامر والنواهي الشرعية : دعوى سقوطها عن العبد إذا بلغ مرتبة ما، كما هو قول بعض الغلاة من الصوفية ، متأولين في ذلك تأويلا فاسدا قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [3] [4]

يقول ابن تيمية عن هؤلاء ودعواهم : ((وقول هؤلاء شر من قول المعتزلة؛ ولهذا لم يكن في السلف من هؤلاء أحد ، وهؤلاء يجعلون الأمر والنهي للمحجوبين، الذين لم يشهدوا هذه الحقيقة الكونية؛ ولهذا يجعلون من وصل إلى شهود هذه الحقيقة يسقط عنه الأمر والنهي، ويقولون : إنه صار من الخاصة !! وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، فاليقين عندهم هو معرفة هذه الحقيقة، وقول هؤلاء كفر صريح وإن وقع فيه طوائف، لم يعلموا أنه كفر ؛ فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام، أن الأمر والنهي لازمان لكل عبد ما دام عقله حاضرا إلى أن يموت، لا يسقطان

---

(1) سورة فصلت / آية : ٥٣ .

(2) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٨ / ٩٧ .

(3) سورة الحجر / آية : ٩٩ .

(4) انظر روح المعاني للألوسي ١٤ / ٨٧ .

عنه، لا بشهوده القدر، ولا بغير ذلك ، فمن لم يعرف ذلك عرفه وبين له، فإن أصر على اعتقاده سقوط الأمر والنهي فإنه يقتل)).[1]

والصحيح أن معنى اليقين في الآية : الموت ، وبه فسره جماعة من أئمة السلف، كابن عمر والحسن ومجاهد وغيرهم [2] ، وسمي الموت باليقين ؛ لأنه متيقن اللحوق بكل حي ، ومعنى الآية : دم على العبادة مادمت حيا من غير إخلال بها لحظة، وهذا الذي فهمه النبي صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام، لم يزل قائما بمراسم العبودية لله تعالى حتى لحق بالرفيق الأعلى، أفيقال إنه صلى الله عليه وسلم لم يأته ذلك اليقين الذي يدعيه أصحاب الكشف والشهود ؟! وبهذا يعلم بطلان هذا القول ومخالفته لهدي النبي صلى الله عليه وسلم الثابت عنه قولا وعملا [3]

---

(1) العبودية لابن تيمية ص / ٤٤ – ٤٥ وانظر : الفتاوى ١٠ / ١٦٦ – ١٦٧ .

(2) انظر الدر المنثور للسيوطي ٥ / ١٠٥ .

(3) انظر روح المعاني ١٤ / ٨٧ –٨٨ .

الفصـــل الثـــالث :

ذكر بعض المواطن التي شرع فيها لفظ التكبـــير " الله أكبر "

وفيه مدخل وثمانية مباحث :

المدخل : في بيان أن التكبير إنما يشرع في المواضع الكبار مكانا وزمانا وحالاً

المبحـــــث الأول : مشروعية التكبير على الهداية :

المبحـــــث الثاني : التكبير على الرزق :

المبحـــــث الثالث : التكبير في الصلاة :

المبحـــــث الرابع : التكبير في العيدين :

المبحـــــث الخامس : التكبير في أيام "منى" أيام التشريق :

المبحـــــث السادس : التكبير في الطواف وعلى الصفا والمروه :

المبحـــــث السابع : التكبير عند العلو على شرف :

المبحـــــث الثامن : التكبير في الحرب عند لقاء العدو:

مدخل :

مشروعية التكبير في المواضع الكبار مكاناً، وزماناً، وحالاً :

لما كانت هذه الكلمة "الله أكبر" تشتمل على ذلك المعنى العميق من تعظيم الله وإكباره وإجلاله ، بالإخبار عنه بأنه عز وجل أكبر من كل كبير كائناً ما كان ، حظيت باعتناء الشارع بها عناية كبيرة ، وشرع ذكر الله تعالى بها في الأماكن والأزمان والأحوال الكبيرة التي لها شأن في النفوس ومكانة في القلوب ، ليستشعر العبد المؤمن في تلك الأحوال عظمة الله ،ويستحضر كبرياءه وجلاله أمام تلك الأوضاع العظيمة ، فيقر بقلبه ويلهج لسانه مع ذلك بأن الله سبحانه أكبر من كل شيء ، كما يعمل بجوارحه وأركانه بما تقتضيه هذه الكلمة من مقتضيات، والتي من أهمها وأوجبها على العبد توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة بجميع أنواعها وأشكالها الظاهرة والخفية ، فمن مقتضيات هذه الكلمة العظيمة علم العبد بأنه إذا كان الله سبحانه أكبر من كل شيء ؛ فهو إذن أكبر من أن يتخذ معه شركاء يعبدون ويعظمون من دون الله عز وجل ، فهذه الكلمة بهذا المعنى كفيلة بإبطال الشرك من أساسه صغيره وكبيره ، ظاهره وباطنه .

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله : ((وأما التكبير فلأنه ذكر مأثور عند كل أمر مهول ، وعند كل حادث سرور ؛ شكراً لله تعالى ، وتبرئة له من كل ما نسب إليه أعداؤه ، ولا سيما اليهود قبحهم الله)) [1]

فشرع التكبير – مثلاً- على الهداية وعلى الرزق؛ اعترافاً من العبد بأن واهب الهداية هو الله وحده، وأنه هو الرازق وحده ، وهذان الأمران – أعني الهداية والرزق – نعمتان عظيمتان ، ولهما في النفوس شأن عظيم ومترلة عالية رفيعة ، فهما من أهم المطالب التي يقصدها العقلاء من الناس ، ويسعون جادين لتحقيقها لما يتحقق بهما –بإذن الله تعالى من سعادة الدنيا والآخرة .

---

[1] فتح الباري ٢ / ٤٣٨ .

فالرزق يطلب لضمان طيب المعاش ، والهداية تطلب لضمان طيب المعاد ، والعبد بين معاش ومعاد ، فإذا تحقق له هذان المطلبان فقد طاب معاشه ومعاده بإذن الله تعالى، فيجب عليه في مقابل ذلك شكر الله عز وجل بتكبيره والثناء عليه بما هو أهله، بقلبه ولسانه وأن يعمل بسائر جوارحه وفق ما استقر في قلبه ونطق به لسانه من عظمة الله وكبريائه .

كما شرع التكبير على العدو حال الجهاد في سبيل الله ، وفي ذلك ما فيه من تقوية لمعنوية المجاهد إذ فيه تعليم النفس وإشعارها بأن النصر من عند الله تعالى وليس منه فلا يغتر بقوته ولا بحيلته بل يكون توكله على الله تعالى، حتى مع توفر جميع أسباب الانتصار والغلبة على العدو ، وفي ذلك أيضاً تشجيع للمجاهد ، وحمل له على المضي والإقدام لأنه إذا تقرر معنى التكبير عنده علم أن العدو مهما بلغت عدته وعظمت شوكته فالله أكبر منه ، وبذا تضمحل جميع مشاعر الخوف وعوامل الانهزام النفسي من قلبه ،

وشرع التكبير أيضاً عند العلو على الأشراف، والأماكن العالية ، وفي ذلك كسرٌ للنفس ومنع لها مما قد يعرض لها من الزهو والكبر والعجب، في مثل تلك الحالة، وذلك أنه يشعر برفعة ذاتية، وهذا قد يؤدي إلى الإحساس برفعة القدر، وهو عين الكبر، الذي لا يجوز للعبد التخلق به ، فشرع له أن يكبر الله تعالى ؛ ليذكر نفسه بالله الذي له حقيقة الكبرياء، بل لا تنبغي إلا له وحده .

وشرع التكبير في الصلاة مع كل رفع وكل خفض ، لأنها أكمل حالات العبد، من حيث الذل والخضوع لرب العالمين، وفيها يكون العبد أقرب إلى ربه من كل حال، أعني في حال سجوده بين يدي الله تعالى، متواضعاً متذللاً، مستشعراً ضعفه وفقره، وعظمة من هو مطرح بين يديه ، فالتكبير هي شعار الصلاة الأعظم ؛ليتناسب عظمة الحالة مع عظمة الكلمة التي جعلت شعاراً لها .

وشرع التكبير في حالات أخرى عظيمة، سيأتي ذكر بعضها بإذن الله ، وجماع الأمر أن التكبير مشروع عند كل أمر كبير، من مكان ، وزمان ، وحال ، ورجال ، فتبين أن الله أكبر لتستولي كبرياؤه في القلوب على كبرياء ما سواه، ويكون له الشرف على كل

شرف ، قال تعالى فيما روى عنه رسوله صلى الله عليه وسـلم : ((الكبريـاء ردائـي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما عذبته)) [1] [2]

وهذا يدل على عظم معنى هذه الكلمة، وعظم مقتضياها، وشمولها للدين كله ، ومحبة الله تعالى لذكره بها، لما تتضمنه من إثبات الكمال المطلق له، وتتريهه عن كل عيب ونقص ، وتفضيله وتقديمه على كل ما سواه .

---

[1] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه بلفظ : ((العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته))، صحيح مسلم مع شرح النووي ١٦ / ١٧٣ .

[2] انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٤ / ٢٣٠ .

المبحث الأول

مشروعية التكبير على الهداية :

الهداية شيء عظيم ، ومطلب هام من مطالب أولي النهى ، وذوي البصائر ؛ إذ بها تنال السعادة الحقيقية والأبدية ، ولا يملك إعطاءها إلا الله تبارك وتعالى فهي من خصائص الربوبية ، قال عز من قائل مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم :﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [١] فبين سبحانه في هذه الآية تفرده واختصاصه بإعطاء نعمة الهداية، وأنه سبحانه يهبها لمن يشاء من عباده،وفق حكمته البالغة [٢]؛ولذلك أمر الله عباده ووجههم إلى أن يسألوه نعمة الهداية في صلواتهم في كل يوم مرات عديدة ، وأن يقولوا : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [٣]

وبين تعالى بطلان إلهية من عبد معه من الشركاء والأنداد ، بأنهم لا يهدون أحداً ، وأنه سبحانه الهادي وحده ؛ فاستحق بذلك أن يكون هو المعبود وحده دون من سواه ،

قال تعالى- آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومرشداً إياه إلى كيفية مناظرة المشركين وإقامة الحجة عليهم - :﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون ﴾ [٤]

يقول الفخر الرازي رحمه الله : واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح،كما قال تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ ،وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد

---

[١] سورة القصص / آية : ٥٦ .

[٢] على أن هناك نوعاً آخر من الهداية أثبتها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم هي هداية الإرشاد والدلالة والمنفية هي هداية التوفيق ، قال تعالى ﴿ وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم ...﴾ سورة الشورى / ٥٢ .

[٣] سورة الفاتحة / آية : ٦ .

[٤] سورة يونس / آية : ٣٥ .

وإنما أعطى الحواس لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم ، وأيضاً فالأحوال الجسدية خسيسة، يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم ، ولمس شيء من الكيفيات الملموسة ، أما الأحوال الروحانية والمعارف الإلهية، فإنها كمالات باقية أبد الآباد، مصونة عن الكون والفساد، فعلمنا أن الخلق تبعٌ للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية ، إذا ثبت هذا فنقول : العقول مضطربة ، والحق صعبٌ، والأفكار مختلطة، ولم يسلم من الغلط إلا الأقلون ؛فوجب أن الهداية وإدراك الحق لا يكون إلا بإعانة سبحانه وتعالى وهدايته وإرشاده ، [1]

أراد بهذا التأكيد على أهمية الهداية، وبيان ما لها من شأن ومكانة عظيمة ، حيث إنها المنة الكبرى والنعمة العظمى التي إذا حصلت للعبد حصلت له السعادة في الدارين ، وأنها مع هذه الأهمية لا تنال إلا بتوفيق الله تعالى وإعانته ، وإذا كان الأمر كذلك كان مطلوبا ممن حصلت له نعمة الهداية - بفضل الله ورحمته- أن يقدرها قدرها ، ويعرف حق المنعم بها عليه، فيعظمه بقلبه ولسانه وجوارحه ، ولهذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين المهتدين إلى طاعته التي تجلب محبته ورضاه بأن يكبروه على هدايته إياهم فقال تعالى في سياق آيات الصيام :

﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ [2]

والآية وإن خصها جماعة من المفسرين بتكبير ليلة عيد الفطر ويومه -كما قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله [3]- إلا أنها تحتمل الأمر بتكبير الله وتعظيمه المتضمن لشكره على عموم ما هدانا إليه مما يحبه ويرضاه، من الأعمال الصالحة، إبتداء بالدخول في الإسلام،وانتهاء إلى سائر شرائع الدين، أصوله وفروعه جميعاً ، وقد أشار إلى هذا بعض المفسرين، كالإمام الماوردي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية حيث قال : : وقوله : ﴿ على ما هداكم ﴾ يعني من صيام شهر رمضان، ويحتمل أن يكون على عموم ما هدانا إليه من

---

(1) التفسير الكبير للرازي ١٧ / ٩٠ .

(2) سورة البقرة / آية : ١٥٨ .

(3) انظر : تفسير الطبري : ٢ / ١٦٣ — ١٦٤ .

دينه "[1] وذكره القرطبي قولا في معنى الآية حيث قال : ((قوله : ﴿ على ما هداكم ﴾ : قيل لما ضل فيه النصارى من تبديل صيامهم، وقيل بدلاً عما كانت الجاهلية تفعله، من التفاخر بالآباء ، والتظاهر بالأحساب، وتعديد المناقب ، وقيل : لتعظموه على ما أرشدكم إليه من الشرائع فهو عام)) [2]

وهذا القول أظهر من حيث الأصل ؛ إذ الأصل أن حمل اللفظ العام على جميع ما يصدق عليه من أفراده أولى ، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، وإن كانت صورة السبب تدخل في عموم اللفظ دخولاً أولياً .

وهنا إنما جيء بهذا في سياق آيات الصيام لظهور موجب الهداية في الصيام أكثر من غيره من الطاعات والقربات ، كما قال سيد قطب رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ : فهذه غاية من غايات الفريضة، أن يشعروا بقيمة الهدى الذي يسره الله لهم، وهم يجدون هذا في أنفسهم في فترة الصيام أكثر من كل فترة ، وهم مكفوفو القلوب عن التفكير في المعصية ، ومكفوفو الجوارح عن إتيانها ، وهم شاعرون بالهدى ملموساً محسوساً؛ليكبروا الله على هذه الهداية،وليشكروه على هذه النعمة، ولتفيء قلوبهم إليه بهذه الطاعة، كما قال لهم في مطلع الحديث عن الصيام: ﴿ لعلكم تتقون ﴾ [3]

وآية البقرة هذه أعني قوله تعالى :﴿ ... ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ قد جاء نظيرها في سورة الحج أيضاً، في معرض بيان مشروعية الهدي والأضاحي، وأنها من شعائر الله ، وبيان ما يتعلق بها من أحكام، وكيف أن الله تعالى سخرها لعباده؛ نعمة منه وفضلاً وإحسانا ، ثم ختمت الآية ببيان الحكمة والغاية من ذلك كله ، وهو تكبير الله وتعظيمه على هدايته إياهم لذلك، قال تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها

---

[1] تفسير الماوردي : ١ / ٢٤٢ .

[2] تفسير القرطبي : ٢ / ٣٠٨ .

[3] في ظلال القرآن ١ / ٢٤٦ .

خير ... إلى قوله ... لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ [1]

فالمقصود بيان مشروعية التكبير الذي يعني تعظيم الله وإجلاله على نعمة الهداية ، هذه النعمة العظيمة التي من فاز بها فهو الفائز ، ومن حرمها –والعياذ بالله– فهو المحروم الخاسر في الدنيا والآخرة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((... ولهذا شرع التكبير على الهداية والرزق والنصر ؛ لأن هذه الثلاث أكبر ما يطلبه العبد ، وهي جماع مصالحه ، والهدى أعظم من الرزق والنصر ؛لأن الرزق والنصر قد لا ينتفع بهما إلا في الدنيا ، وأما الهدى فمنفعته في الآخرة قطعا ، وهو المقصود بالرزق والنصر ، فخص بصريح التكبير لأنه أكبر نعمة الحق، وذانك دونه، فوسع الأمر فيهما بعموم ذكر الله)) [2] .

والتكبير المشروع على الهداية، ليس المراد به التكبير القولي اللساني وحسب، بل هو تكبير ينبعث من القلب أولا، بالاعتراف بالنعمة، والفرح بها، ومحبة المنعم بها سبحانه ، فيكون في قلب العبد أحب شيء إليه، و أعظم عنده من كل شيء ، وأن يترجم هذا التكبير القلبي باللسان والجوارح .

ومناسبة مشروعية التكبير على الهداية ظاهرة ؛ فالهداية أعظم الأحوال القلبية التي تحصل للعبد ، والتكبير يشرع في الأمور الكبيرة ، من زمان ومكان ،وحال ورجال ، فناسب أن يشرع التكبير عليها ، فالله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا .

---

[1] سورة الحج / آية : ٣٦ –٣٧ ، وقد فسر الذكر المأمور في الآية بالتكبير والتهليل ، قال أبو حيان في البحر المحيط له ٦ / ٣٤٢ ، ط/١، ١٤١٣ هـ دار الكتب العلمية (وذكر اسم الله : أن يقول عند النحر : الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، اللهم منك وإليك) .

[2] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٤ / ٢٣٠ .

المبحث الثاني :

التكبير على الرزق :

الرزق الحلال عنوان السعادة في الدنيا ، وسبب النجاة في الآخرة بإذن الله ، إذا وفـق العبد لشكر المنعم به عليه ،وهو الله تبارك وتعالى ، وعرف أنه من الله ، وليس من قوتـه وكيسه، وذكائه وحرصه ، - وصرفه في سبل الخير التي يحبها الله ويرضاها ، فيكون قـد كسبه من حله،وصرفه في حقه ، ولو لم يكن في الرزق إلا أنه ستر للعبد وحافظ له مـن ذل مسألة الناس ، والاستكانة لهم ، والتزلف إليهم بسبب الفقر، الذي يجعل العزيز ذليـلاً ، والرفيع وضيعاً ، والمشهور مغموراً ، لكان كافياً في عده من الأمور العظيمة والأحـوال الكبيرة التي يشرع في مثلها تكبير الله وتعظيمه –كما سبق – اعترافاً من العبد بأن ذلـك محض تفضل وتكرم من الله تعالى عليه لا باستحقاق منه لذلك ،

وعلى هذا فالرزق من خصائص الربوبية ، ولذا فهو شامل للخلق كلـهم مؤمنـهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ،ناطقهم وبهيمهم ، وقد أبدى فيه القرآن وأعـاد ، وسـاقه ضمن أدلة الربوبية التي يقر بها الكفار ، ويوحدون الله تعالى فيها ؛ لإلزامهم بتوحيـده في الألوهية التي ينكرونها ، ويتعجبون ممن يدعوهم إليها قائلين : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحـداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [1] قال الله تعالى – مقرراً الكفار بأنه إذا كان هو الخالق وحده والرازق وحده دون من سواه ؛ وجب أن يكون هو الإله المعبود وحده لا شريك له- :

﴿ يآأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم مـن السمآء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ [2]وقال تعالى منكراً علـى الكفـار عبادهم من لا يملكون لهم رزقاً ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقـاً مـن

---

[1] سورة ص / آية : ٥ .

[2] سورة فاطر / آية : ٣ .

السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ [1] وقال تعالى في تأكيد تفرده بالرزق وأن غيره أياكان لا يستطيع أن يرزق أحداً شيئاً : ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ... ﴾ [2]

قال الإمام ابن جرير : ((أمن هذا الذي يطعمكم ويسقيكم ويأتي بأقواتكم إن أمسك بكم رزقه الذي يرزقه عنكم)). [3]

يتبين من هذه الآيات التي سقتها أن الرزق مما تفرد الله تعالى بإعطائه ومنعه ، يعطيه من يشآء ويمنعه عمن يشآء ، وفق حكمته البالغة ، وعليه فيجب على العباد تكبيره وتعظيمه على ما أسبغ عليهم من الأرزاق ، ومن أسماء الله تعالى التي أمر عباده بأن يدعوه بها : الرازق والرزاق ، قال تعالى : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[4] وقال : ﴿ والله خير الرازقين ﴾[5] قال ابن جرير في معنى " الرزاق" : ((هو الرزاق خلقة المتكفل بأقواهم)) [6]

وقال الخطابي رحمه الله : ((هو المتكفل بالرزق القائم على كل نفس بما يقيمها من قوهّا وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته فلم يختص بذلك مؤمناً دون كافر ولا ولياً دون عدو يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيل له ولا متكسب فيه كما يسوقه إلى الجلد ذي المرة السوي قال سبحانه : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾ [7]

وقال : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ [8])) [9]

---

(1) سورة النحل / آية : ٧٣ .

(2) سورة الملك / آية : ٢١ .

(3) تفسير الطبري ١٢ / ١٧٠ .

(4) سورة الذاريات / آية : ٥٨ .

(5) سورة الجمعة / آية : ١١ .

(6) تفسير الطبري ١١/ ٤٧٦ .

(7) سورة العنكبوت / آية: ٦٠ .

(8) سورة هود / آية : ٥٦ .

(9) شأن الدعاء للخطابي ص : ٥٤ .

وهذا الذي ذكره الخطابي في قضية الرزق من الأمور اللافتة للأنظار والتي تستوجب من العاقل استشعار عظمة الله سبحانه، فيكبره، ويستسلم له، ويتوكل عليه، بعد أن يعلم أن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا عقل عاقل كما لا يمنعه حمق أو جهل .

يقول الفخر الرازي في تفسير قول الله تعالى : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾ [1] : ((اعلم أن هذا باعتبار حال أخرى من أحوال الإنسان، ذلك أنا نرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً يفنى عمره في طلب القدر القليل من الدنيا ، ولا يتيسر له ذلك ونرى أجهل الخلق وأقلهم عقلاً وفهماً تنفتح عليه أبواب الدنيا ، وكل شيء خطر بباله ودار في خياله ، فإنه يحصل له في الحال ،ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال ، فلما رأينا الأعقل أقل نصيباً ،وأن الأجهل الأخس أوفر نصيباً علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى :﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [2] وقال الشافعي رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه   بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق)).[3] .

وهذا الكلام لا ينبغي أن يفهم منه التقليل من شأن الأسباب، ومنع جدواها، بل الأسباب المشروعة مما أمر الله بها في طلب الرزق وغيره ، وذم التهاون فيها ،وعلى هذا، فالعقل ، والفهم، والكياسة، والقوة، هي أسباب للرزق، لكنها لا تتعدى كونها أسبابا، أي : أنها لا توجب مسبباتها، فقد تتخلف عنها- كما يحدث ذلك كثيراً –؛ ولهذا، لا ينبغي الاعتماد عليها كلياً ، بل يجب أن يعلم أن وراء تلك الأسباب قدرة الرب الفعال لما يريد، فعند ذلك يعظم شأن الله في قلوب العباد؛ فيكبرونه بألسنتهم عندما يحصل لهم شيء من الرزق ويشكرونه، ويخضعون لحكمه الكوني والشرعي ، بعد أن يعلموا عدم استقلالية الأسباب .

---

[1] سورة النحل / آية : ٧١ .

[2] سورة الزخرف / آية : ٣٢ .

[3] التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٠ / ٧٨ –٧٩ . وانظر : ديوان الشافعي ص : ٦٥ ، جمع /محمد عفيف الزعبي ط/٤ ، دار إحياء التراث العربي .

ومما يدل على مشروعية التكبير على الرزق قول الله عز وجل : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ...﴾ الآية[1]

فسر الذكر المأمور به في هذه الآية بالتكبير .

قال ابن تيمية- رحمه الله-: ((فقيل : الأيام المعلومات : هي أيام الذبح ، وذكر اسم الله: التسمية على الأضحية والهدي، وهو قول مالك في رواية .

وقيل هي أيام العشر، وهو المشهور عن أحمد وقول الشافعي وغيره، ثم ذكر اسم الله فيها: هو ذكره في العشر بالتكبير عندنا)) [2]

والآية وإن كانت مسوقة لبيان مشروعية ذكر الله بالتكبير في تلك الأيام على ما رزقوا من بهيمة الأنعام، إلا أنه يمكن أن يستدل بها على مشروعية التكبير على عموم الأرزاق، في سائر الأوقات، سيما وأن التكبير على الرزق المراد به الإقرار بعظمة الرازق وقدرته على الجلب والسلب، كما أن التكبير على الرزق يتضمن معنى الحمد والشكر لله عز وجل .

وكما يشرع التكبير على الرزق باللسان، بقول: (الله أكبر) [3]كذلك يجب على العبد تكبير الله تعالى على الرزق بالفعل، ويكون ذلك بصرفه وإنفاقه في أوجه البر والإحسان، التي يحبها الله ويرضاها، فإن صرف نعم الله في سبل الشر، وطرق الغواية والضلالة، يتنافى مع تعظيم موليها سبحانه .

هذا وعندما يتقرر في نفس العبد أن الرزق من الله تعالى، وأنه المعطي والمانع، القابض الباسط ، فإنه يظل مرفوع الرأس، لا يحنيه إلا لمن هو المتكفل برزقه، دون غيره؛ لعلمه أن غير الله لا يملك رزقه، لا يملك إعطاءه ولا منعه، ولا نفعه ولا ضره ،فإذا تمكن من قلبه هذه الحقيقة ، لم يسعه إلا أن يكبر الله تكبيرا يصدر عن اعتقاده لعظمته وجلاله، وإيمانه بقدرته الكاملة .

---

[1] سورة الحج / آية : ٢٨ .

[2] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٤ / ٢٢٥ .

[3] انظر مجموع الفتاوى ٢٤ / ٢٢٩ .

المبحث الثالث :

التكبير في الصلاة :

تقدم فيما سبق أن التكبير جاءت مشروعيته في الأحوال والمواضع والأمكنة الكبيرة التي لها في الدين شأن عظيم ، والصلاة التي هي الصلة بين العبد وربه ، وفيها تتم مناجاة المخلوق لخالقه، وفيها الحالة التي يكون فيها العبد أقرب إلى ربه من سائر الحالات –أعني حالة السجود-كما في الحديث الصحيح : ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء)) [1]

ومن هنا،كانت الصلاة إحدى الحالات العظيمة التي تتناسب مع مشروعية التكبير فيها ؛ ولذا فقد شرع التكبير نداء إليها أي في الأذان حيث يفتتح بقول المؤذن: (الله أكبر الله أكبر) مرتين أو أربعا، رافعا بها صوته، طاردا بذلك الشيطان الذي لا يستطيع الثبات أمام هذه الكلمة العظيمة ذات المعنى العميق، فيدبر وله ضراط، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط؛حتى لا يسمع التأذين))[2].

قال النووي رحمه الله: ((... وقيل إنما يدبر الشيطان لعظم أمر الأذان لما اشتمل عليه من قواعد التوحيد وإظهار شعائر الإسلام وإعلانه)) [3].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث : ((ظاهره أنه يتعمد إخراج ذلك إما ليشتغل بسماع الصوت الذي يخرجه، عن سماع المؤذن، أويصنع ذلك استخفافا

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤ / ٢٠٠ من شرح النووي)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب فضل التأذين، ح: ٢٦٠٨ ، (٢ /٨٤ من فتح الباري) وأخرجه مسلم ، في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، (٤ /٩١ شرح النووي)

(3) شرح النووي على صحيح مسلم : ٤ / ٩٢ .

كما يفعله السفهاء، ويحتمل أن لا يتعمد ذلك، بل يحصل له عند سماع الأذان شدة خوف يحدث له ذلك الصوت بسببها،ويحتمل أن يتعمدذلك؛ليقابل ما يناسب الصلاة من الطهارة بالحدث)) [1].

وأظهر هذه الاحتمالات في نظري ، هو أن الشيطان لا يفعل ذلك عن عمد وقصد بل لما يحصل له من الفزع والخوف الشديد؛ بسبب ما يقرع سمعه من كلمات الأذان التي أولاها كلمة (الله أكبر) المتضمنة توحيد الله عز وجل، بإعلان تفرده بالكبرياء والعظمة الحقيقية، وهذا ما يزعج الشيطان ويخيفه، ويكره سماعه؛ لما علم من أن أبغض شيء إليه هو توحيد الله تعالى،وإعلان وحدانيته،وإخلاص الدين له، كما قال ابن الجوزي رحمه الله:

((على الأذان هيبة يشتد انزعاج الشيطان بسببها؛ لأنه لا يكاد يقع في الأذان رياء ولا غفلة عند النطق به)) [2]

ثم شرع التكبير في افتتاح الصلاة وتحريمها، وجعل ركنا من أركانها -أي تكبيرة الإحرام- التي لاتنعقد الصلاة بدونها على أصح قولي العلماء ؛ [3] وذلك لأن غيرها لا يقوم مقامها، ولا يؤدي كامل معناها، فهي كلمة جامعة لمعاني العبودية ، دالة على أصول الثناء وفروعه، تخرج من قلب العبد الالتفات إلى ما سوى الله تعالى، والإقبال على أحد غيره، فيقدم بقلبه على الوقوف بين يدي عظيم جليل،هو أكبر من كل شيء، وأجل من كل شيء، الذي في كبريائه السموات وما أظلت، والأرض وما أقلت، والعوالم كلها،

---

[1] فتح الباري ٢ / ٨٥ .

[2] نقله عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ٢ / ٨٧ .

[3] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ولم يجيء في شيء من الأثر بدل قول ((الله أكبر)) ((الله أعظم)) ولهذا كان جمهور الفقهاء على أن الصلاة لا تنعقد إلا بلفظ التكبير ، فلو قال : ((الله أعظم)) لم تنعقد به الصلاة لقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم)) وهذا قول مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف وداود وغيرهم ، ولو أتى بغير ذلك من الأذكار ، مثل : سبحان الله ، والحمد لله لم تنعقد به الصلاة . مجموع الفتاوى ١٦ / ١١٢ – ١١٣ .

عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، فهو القاهر فوق عباده، العالم بما تكنه صدورهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ولا يخفى عليه شيءٌ من أحوالهم.[1]

فالمقصود أن كلمة (الله أكبر) من شأنها جمع القلب على الله تعالى عند استحضار حقيقة معناها، والتأمل في مقتضياتها ولوازمها .

وقد ذكر العلماء أن الحكمة من جعل هذه الكلمة مفتتح الصلاة، هي : استحضار المصلي عظمة من تهيأ للوقوف بين يديه؛ ليمتلئ هيبة، ويحضر قلبه ويخشع ولا يغيب ،

قال الخطابي رحمه الله: ((وقدم هذا القول-يعني"الله أكبر"- أمام أفعال الصلاة تنبيهاً للمصلي كي يخطره بباله عند قيامه إلى الصلاة، فلا يشغل خاطره بغيره، ولا يعلق قلبه بشيء سواه ، إذا كان يعلم أنه أكبر مما يشتغل به)) [2]

وقال النووي رحمه الله : ((والحكمة في افتتاح الصلاة بالتكبير افتتاحها بالتنزيه والتعظيم ونعته بصفات الكمال والله أعلم)) [3] .

وقال الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله : ((ولما كان مقصود الصلاة الذكر، وجب أن يتعرف قدر المذكور وملاحظته ؛ ليلزم مع الدب ، فافتتح بالتكبير الدال على الكبرياء ؛ ليعلم لمن هو قائم وقاعد ، وراكع وساجد ؛ ليخضع له خضوعاً يجب مثله لكبريائه ، فإذا لاحظ كبرياءه لزم آداب الصلاة والطهارة والنظافة الظاهرة والباطنة ، واشتغل بالله وحده ، وأتت هذه الإشارة بقوله عليه السلام : ((وفرغ قلبه لله)) [4]

---

[1] انظر شفاء العليل للإمام ابن القيم ص : ٤٧٩ .

[2] شأن الدعاء للإمام الخطابي ص: ٦٧ .

[3] شرح صحيح مسلم ٤ / ٩٧ .

[4] جزء من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه : ((فإن هو قام فصلى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجده بالذي هو له أهل ، وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه)) . أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين ، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها ، صحيح مسلم مع شرح النووي (٦ / ١١٨) .

وقوله عليه السلام لما سئل عن الإحسان : ((أن تعبد الله كأنك تراه)) [1] ومن عبد الله كذلك فرغ قلبه ، وخرج عن الأكوان)) [2]

فالمصلي بهذا الشعور يعلم أن كل ما يخطر بقلبه في تلك الحال فالله تعالى أكبر وأعظم منه، فهو إذن، أولى بالالتفات إليه رغبة ورهبة، وقد قيل إن أعظم لفظة قالته العرب في معنى التعظيم هي لفظة " الله أكبر " [3] وهي كذلك؛ فإنها- على اختصارها- كلمة جامعة لمعاني الربوبية، والألوهية، متضمنة لجميع صفات الكمال والجلال، توجب على قائلها التذلل والخضوع والهيبة والإجلال لرب العالمين ؛ وذلك لما تضمنته من إثبات كل كمال لله عز وجل، كما تضمنت تنزيهه عن النقائص والعيوب جميعها ، وبملاحظة المصلي لمعاني هذه الكلمة ومستلزماتها فإنه يقبل على صلاته بخشوع وحضور قلب .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : ((لا أحسن من كون التكبير تحريما للصلاة، فتحريمها تكبير الرب تعالى الجامع لإثبات كل كمال له وتنزيهه عن كل نقص وعيب، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله)).

ويقول أيضا :((فالتكبير يتضمن تفاصيل أفعال الصلاة وأقوالها وهيئآتها فالصلاة من أولها إلى آخرها تفصيل لمضمون (الله أكبر) ، وأي تحريم أحسن من هذا التحريم المتضمن للإخلاص والتوحيد)). [4]

---

(١) جزء من حديث عمر بن الخطاب ، المشهور رضي الله عنه ، المشهور بحديث جبريل ، الذي أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان ... (١ / ١٥٧ صحيح مسلم مع شرح النووي) .

(٢) كتاب مقاصد الصلاة للعز بن عبد السلام ، ص : ٢١ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٦ / ٨٨ ، ط/١ ، ١٤١٣ هـ دار الكتب العلمية، وتفسير القرطبي ١٠ / ٣٥٢.

(٤) كتاب الصلاة وحكم تاركها للإمام ابن القيم : ص : ١٨٦، خرج أحاديثه محمد نظام الدين الفتيح ط/٢ ، ١٤١٢هـ ، مكتبة دار التراث .

كذلك شرع التكبير بعد تكبيرة الإحرام ؛ ليكون شعارا للصلاة مع كل خفض وكل رفع فيها [1] ، وبهذا يحصل للمصلي قدر كبير من التكبيرات في صلواته، بحيث يبلغ عدد تكبيراته في الصلوات المكتوبة عليه في اليوم الواحد أربعا وتسعين مرة، فإذا أضيفت إلى ذلك تكبيراته في النوافل المقيدة والمطلقة، التي يأتي بها في يومه وليلته، كان العدد أكثر وأكثر .

والظاهر أن الحكمة من مشروعية التكبير في انتقالات المصلي في كل خفض ورفع : هي من أجل أن يظل مستحضرا تلك العظمة والكبرياء التي ابتدأ صلاته باستحضارها ، وبذلك تبقى صلاته حية، ببقاء روحها الذي هو الخشوع ، الناشئ عن معرفة عظمة من هو واقف بين يديه، وهو الله تبارك وتعالى [2] .

وبهذا يجتمع في الصلاة تكبير الله وتعظيمه بالأقوال والأفعال والهيئات،فالأقوال تتمثل في تكبيرات المصلي وتسبيحاته، والأفعال تتمثل في قيامه وركوعه وسجوده، الذي يضع فيه أشرف شيء فيه وأعلاه، وهو الوجه وقد صار أعلاه أسفله خضوعا بين يدي ربه الأعلى، وخشوعا وتذللا لعظمته، واستكانة لعزته وجلاله ، وهذا غاية خشوع الظاهر ؛ فإن الله سبحانه خلقه من الأرض التي هي مذللة للوطء بالأقدام [3]

---

[1] كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يكبر حين يقوم ، ثم يكبر حين يركع ، ثم يقول : سمع الله لمن حمده حين يرفع صلبه من الركعة ، ثم يقول ربنا لك الحمد ، ثم يكبر حين يهوي ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يكبر حين يسجد ، ثم يكبر حين يرفع رأسه ، ثم يفعل ذلك في الصلاة كلها حتى يقضيها ، ويكبر حين يقوم من الثنتين بعد الجلوس)) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب التكبير إذا قام من السجود ، ح : ٧٨٩ ، (٢ / ٢٧٢ فتح الباري) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب إثبات التكبير في كل خفض ورفع في الصلاة ... ، (٤/ ٩٧ شرح النووي) .

[2] يقول الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله ، مبينا الحكمة من مشروعية تكبيرات الانتقال في الصلاة :

((ولذلك شرع التكبير لله في جميع الانتقالات ؛ لأن اشتغاله في أطوار الصلاة بملاحظة أطوارها قد شغله عن ملاحظة الكبرياء ، فشرع في ابتداء كل طور تجديد ملاحظة الكبرياء ؛ ليوفي ذلك الطور حقه من الخضوع والخشوع)) كتاب مقاصد الصلاة ص : ٢١-٢٢ .

[3] انظر كتاب الصلاة لابن القيم / ص: ١٧٨ –١٧٩ .

وبهذا تتبين دقة كلام ابن القيم رحمه الله، بأن الصلاة من أولها إلى آخرها إنما هي تفصيل وتطبيق عملي لمضمون كلمة (الله أكبر) [1] وذلك بالأقوال والأفعال والأحوال .

وقد جاءت السنة أيضاً بمشروعية التكبير عقب الصلوات كما في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكبير)) متفق عليه [2] قال النووي رحمه الله : فيه دليل لما قاله بعض السلف أنه يستحب رفع الصوت بالتكبير والذكر عقب المكتوبة . [3]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفي الصحيح أن رفع الصوت بالتكبير عقب انصراف الناس من المكتوبة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنهم كانوا يعرفون انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك [4]

وقال ابن حزم [5] في المحلى : ورفع الصوت بالتكبير إثر كل صلاة حسنٌ

---

[1] بل إن الدين كله يعد تفصيلاً لكلمة (الله أكبر) فالمسلم يقوم بالطاعات جميعها والعبادات كلها تكبيراً لله وتعظيماً لشأنه ، وقياماً بحقه سبحانه ، – فما لم يقم بقلب المسلم معنى هذه الكلمة ويستحضرها فإن أداءه للعبادات فعلا وتركا يكون أداء ضعيفاً لا يثمر الثمرة المفيدة – وهذا مما يبين عظمة هذه الكلمة وجلالة قدرها . انظر : دراسات في الباقيات الصالحات، للأستاذ / عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد (١١٣) ص ٩٧ .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة ، ح: ٨٤٢ ، (٢ / ٣٢٥ فتح الباري)

[3] شرح صحيح مسلم للنووي ٥ / ٨٤ .

[4] مجموع الفتاوى ٢٢ / ٥١٥ ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب الذكر بعد الصلاة ، (٥ / ٨٣ من شرح النووي) .

[5] هو : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الإمام الظاهري، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام الكبار، كان فقيهاً أصولياً عالما بالفرق والديانات ، من مؤلفاته: " المحلى " في الفقه و :" الفصل في الملل والأهواء والنحل " قال الذهبي رحمه الله :" وكان قد مهر أولاً في الأدب والأخبار والشعر ، وفي المنطق وأجزاء من الفلسفة فأثرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك ". ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ وتوفي سنة ٤٥٦ هـ ترجمته في : وفيات الأعيان ٣ / ٣٢٥ ، و سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٨٤ .

المبحث الرابع :

التكبير في العيدين :

العيد شعيرة من شعائر الإسلام العظام، وموسم من مواسم الخير للمسلمين، يشعر فيه المسلم بتوالي نعم الله عليه، وإحسانه إليه، فشرع له مقابل ذلك الإكثار من ذكر الله بما يناسب هذا المقام الشريف، وهو تكبيره وتعظيمه والثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وهو ما يتضمنه قول المسلمين (الله أكبر) .

وقد اتفق العلماء في الجملة على مشروعية التكبيرات الزوائد في العيدين، وإن كان بينهم اختلاف في تفاصيل لا تعني هذا البحث، كاختلافهم في توقيت التكبير ابتداء وانتهاء ، واختلافهم في عدد التكبيرات في صلاة العيدين، فمن قائل : إن التكبير في صلاة العيدين سبع في الركعة الأولى وخمس في الثانية سوى تكبيرة القيام، ومن قائل : إن التكبير في كل ركعة ثلاث سوى تكبيرة الإحرام والقيام، وقائل غير ذلك ...[1]

والذي أريد بيانه هنا: هو ثبوت أصل المشروعية؛ لتأكيد ما ذكره العلماء من أن التكبير إنما يشرع في المواضع والأزمنة والأحوال الكبيرة، والعيدان هما من تلك الأزمنة الكبيرة الشريفة التي تناسبها مشروعية التكبير، ثم النظر بعد في المعنى العقدي الذي تفيده مشروعية التكبير في العيدين .

أما عن مشروعية التكبير في العيدين، فقد وردت في أحاديث منها :

ما رواه أبو داود في سننه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((التكبير في الفطر سبع في الأولى وخمس في الآخرة والقراءة بعدهما كلتيهما)) وفي لفظ : ((كان يكبر في الفطر في الأولى سبعاً ثم يقرأ ثم يكبر ثم يقوم

---

[1] انظر : عيون المجالس للقاضي عبد الوهاب البغدادي ١ / ٤٢٩-٤٣٣، تحقيق / د . أمباي كيبا كاه، ط/ ١، ١٤٢١هـ مكتبة الرشد .

فيكبر أربعا ثم يقرأ ثم يركع)) [1]

وروى الترمذي في سننه من حديث كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم: ((كبر في العيدين في الأولى سبعا قبل القراءة،وفي الآخرة خمسا قبل القراءة)) [2]

ففي هذين الحديثين مشروعية التكبيرات الزوائد في صلاة العيدين من قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله .

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أن التكبير يشرع أيضا في ليلتي العيدين، وأن ذلك مستحب لجميع المسلمين مقيمين كانوا أو سفرا في مساجدهم ومنازلهم وطرقهم .

قال الإمام ابن قدامة رحمه الله: ((يستحب للناس إظهار التكبير في ليلتي العيدين في مساجدهم ومنازلهم وطرقهم مسافرين كانوا أو مقيمين وليس التكبير واجبا)) [3]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقد سئل عن التكبير في العيدين :

((أما التكبير فإنه مشروع في عيد الأضحى بالاتفاق وكذلك هو مشروع في عيد الفطر عند مالك والشافعي وأحمد، وذكر الطحاوي ذلك مذهبا لأبي حنيفة وأصحابه،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة باب التكبير في العيدين ، ح : ١١٥١ –١١٥٢ ، ١ / ٦٨١ –٦٨١ ،وأخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء في كم يكبر الإمام في العيدين ح: ١٢٧٧ ، ١ / ٤٠٧ . وهذا الحديث صححه علي بن المديني كما في فتح الباري لابن رجب الحنبلي ، ٩ / ٨٥ .
وقال الشيخ الألباني رحمه الله : وأحسن أحاديث الباب عندي حديث عائشة وعبد الله بن عمرو؛ فإن الضعيف الذي في مسنديهما يسير بحيث يصلح أن يتقوى أحدهما بالآخر . إهـ من إرواء الغليل ٣ / ١١٠ .

(٢) سنن الترمذي ، أبواب الصلاة ، باب ما جاء في التكبير في العيدين ، ح: ٥٣٦ ، ٢ / ٤١٦ ، قال الترمذي : حديث جد كثير :حديث حسن، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب عن النبي عليه السلام، .واسمه: عمرو بن عوف المزني ، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وقال الترمذي في علله : سألت محمدا – يعني ابن إسماعيل البخاري – عن هذا الحديث ؟ فقال : ليس في هذا الباب شيء أصح من هذا ، وبه أقول قال : وحديث الطائفي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده في هذا الباب هو صحيح أيضا ، وأخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب ما جاء في كم يكبر الإمام في صلاة العيدين ، ح:١٢٧٩ ، ١ / ٤٠٧ ، وقال الشيخ الألباني رحمه الله (صحيح) صحيح ابن ماجة ، ١ / ٢٥ ، رقم : ١٠٥٧ .

(٣) المغني لابن قدامة ٣ / ٢٥٥، تحقيق الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي ، والدكتور / عبد الفتاح محمد الحلو ، ط/١، ١٤٠٧هـ دار هجر للطباعة والنشر .

والمشهور عنهم خلافه، لكن التكبير فيه هو المأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم، والتكبير فيه أوكد من جهة أن الله أمر به بقوله : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ ،والتكبير فيه أوله من رؤية الهلال وآخره انقضاء العيد وهو فراغ الإمام من الخطبة على الصحيح، وأما التكبير في النحر: فهو أوكد ؛ منّ جهة أنه يشرع أدبار الصلوات))[١]

مما سبق من الأحاديث وأقوال الأئمة ، تبين لنا مشروعية التكبير في العيدين، في ليلتهما وصلاتهما، وأما عن المعنى الاعتقادي الذي يشعر به المسلمون في تكبيرات العيدين: فهو إظهار شعائر الإسلام، وتعظيم الدين، بإعلان عظمة الله وكبريائه، وتذكير الغير بذلك، وإغاظة أعداء الدين، من الكفار والمنافقين، المتربصين به وبأهله، كما أن في إظهار التكبير في العيدين تعبيرا عن الفرح والسرور، بما أنعم الله عليهم من توفيق لأداء ما افترض عليهم من صيام رمضان، وحج بيته العتيق ، وبما أسبغ عليهم من نعمة إبقاء رؤوس الأهل والولد إلى سنة أخرى[٢] والتكبير يتضمن كذلك الشكر لله تعالى على هذه النعم الجليلة .

ولهذه الأمور كلها، استحب العلماء رفع الصوت به، وإظهاره في كل مكان، وعلى أي حال كانوا ،حتى النساء يستحب لهن الخروج في العيد؛ ليكبرن بتكبير الرجال،

ففي الصحيحين من حديث أم عطية الأنصارية [٣] رضي الله عنها قالت : ((كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد، حتى نخرج البكر من خدرها، وحتى نخرج الحيض، فيكنّ خلف الناس، فيكبرن بتكبيرهم، ويدعون بدعائهم، يرجون بركة ذلك اليوم وطهرته)) [٤]

---

[١] مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤ / ٢٢١ .

[٢] انظر حجة الله البالغة للدهلوي ٢ / ٧٧ –٧٨ ، قدم له وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر ، ط/١، ١٤١٠هـ ، دار إحياء العلوم .

[٣] هي : نسيبة بنت الحارث، وقيل بنت كعب الأنصارية من فقهاء الصحابة ، وهي غسلت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم لما توفيت رضي الله عنها ، ولها عدة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، منها حديثها في البخاري : ((نهينا عن اتباع الجنائز و لم يعزم علينا)) توفيت سنة ترجمتها في : الاستيعاب٤ / ١٩١٩، و أسد الغابة ٧ / ٣٥٦ ، والإصابة ٨ / ٤٣٧

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى ، وإذا غدا إلى عرفة ح : ٩٧١

قال النووي- رحمه الله- في قول أم عطية رضي الله عنها: ((يكبرن مع النـــاس)) : دليل على استحباب التكبير لكل أحد في العيدين، وهو مجمع عليـــه، قـــال أصحابنـــا : يستحب التكبير ليلتي العيدين، وحال الخروج إلى الصلاة ، قال القاضي : التكبير في العيـد أربعة مواطن :

في السعي إلى الصلاة إلى حين يخرج الإمام ، والتكبير في الصلاة وفي الخطبة ، وبعـــد الصلاة)) .[1]

المبحث الخامس :

التكبير في أيام "منى" أيام التشريق :

أيام التشريق هي من الأزمنة الشريفة والمعظمة في الإسلام ، وهي الأيام الثلاثة الـــتي تلي يوم النحر، وهي الأيام المعدودات التي نوه الله بها في القرآن الكريم وأمر المؤمنـــــين- سيما الحجاج منهم- بأن يكثروا من ذكره في تلك الأيام ، في قوله تعالى : ﴿ واذكـــروا الله في أيام معدودات ﴾ [2] كما فسرها بذلك ابن عباس رضي الله عنهما [3]

وهي التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم:((إنها أيام أكل وشرب وذكر لله)) [4]

==

(٢ / ٤٦١ فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين ، باب إباحة خـــروج النســـاء في العيدين إلى المصلى ، (٦ / ١٧٨ – ١٧٩ شرح النووي).

[1] شرح النووي على صحيح مسلم : ٦ / ١٧٩ .

[2] سورة البقرة / آية : ٢٠٣ .

[3] أورده البخاري في صحيحه معلقا مجزوما به، انظر : صحيح البخاري ، كتاب العيدين، بـــاب فضـــل أيـــام التشريق (٢ / ٤٥٧ من فتح الباري) .

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام ، باب تحريم صوم أيام التشريق ، (٨ /١٧ شرح النووي).

وقد فسر السلف رحمهم الله الذكر المأمور في الآية والمندوب إليه في هذا الحديث تفسيرا عمليا بالتكبير، فجاء عن غير واحد منهم الاشتغال بالتكبير، والإكثار منه في تلك الأيام الفاضلات، حتى قيل : إن معنى التشريق : التكبير دبر كل صلاة [1]

أخرج البخاري رحمه الله –تعليقا– عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ((أنه كان يكبر في قبته بمنى، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرا –وهذا يعني المبالغة في اجتماع الأصوات وارتفاعها بالتكبير–قال : وكان ابن عمر يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه ، ومجلسه وممشاه، تلك الأيام جميعا، وكانت ميمونة [2]– رضي الله عنها– تكبر يوم النحر، وكن النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان [3] وعمر بن عبد العزيز [4] ليالي التشريق مع الرجال في المسجد))[5]

---

[1] انظر فتح الباري ٤ / ٢٤٢، و ٢ / ٤٥٧ .

[2] هي : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية أخت أم الفضل زوجة العباس – رضي الله عنهم أجمعين – كان اسمها برة فسماها النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة كما أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس رضي الله عنهما وصححه ووافقه الذهبي .تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ميمونة بعد فراغه من عمرة القضية سنة سبع ه وبنى بها بسرف وكانت من سادات النساء ، توفيت بسرف وقيل بمكة سنة ٥١ هـ ، ترجمتها في : أسد الغابة ٧ / ٢٦٢ ، والإصابة ٨ / ٣٢٢ .

[3] هو ابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، الإمام الفقيه سمع أباه وزيد بن ثابت رضي الله عنهما قال ابن سعد في الطبقات ٥ / ١٥٢ : ثقة له أحاديث عن أبيه وكان به صمم ووضح كثير ، أصابه الفالج في أواخر عمره. توفي أبان سنة ١٠٥ هـ

[4] هو أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، وأمه : بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين حسن الخلق والخلق جيد السياسة وافر العلم حريصا على العدل بكل ممكن توفي رحمه الله مسموما سنة ١٠١ هـ وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ، انظر كتاب : سيرة عمر بن عبد العزيز لأبي الفرج ابن الجوزي .

[5] صحيح البخاري ، كتاب العيدين، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة (٢ / ٤٦١ من فتح الباري).

وروى الإمام مالك رحمه الله عن يحي بن سعيد أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خرج الغد من يوم النحر بمنى، حين ارتفع النهار شيئا، فكبر وكبر الناس بتكبيره، ثم خرج الثانية من يومه ذلك بعد ارتفاع الضحى، فكبر وكبر الناس بتكبيره، ثم خرج الثالثة من يومه ذلك حين زاغت الشمس، فكبر وكبر الناس بتكبيره، حتى بلغ تكبيرهم البيت، فعرف الناس أن عمر خرج يرمي .

قال الإمام مالك رحمه الله : ((وتكبير أيام التشريق على الرجال والنساء، من صلى منهم في جماعة أو وحده، بمنى أو بالآفاق كلها ...)) [١]

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى ويقول : التكبير واجب ويتأول هذه الآية : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ [٢]

وعن يحي بن أبي كثير [٣] في قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ قال : هو التكبير في أيام التشريق دبر الصلوات [٤]

هكذا كان حرص السلف- رحمهم الله- رجالا ونساء على التكبير في تلك الأيام، وهو كاف في الدلالة على مشروعية الاشتغال بالتكبير في أيام التشريق، وأنه من أفضل القربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى في ذلك الوقت .

وأما الحكمة من مشروعية التكبير في أيام التشريق، ومناسبته الاعتقادية: فهي إظهار توحيد الله عز وجل، وإفراده بعبادة الذبح، حيث إن الجاهلية كانوا يذبحون في تلك الأيام لطواغيتهم وأصنامهم، فشرع التكبير فيها للمسلمين؛ إشارة إلى تخصيص الذبح لله تعالى وعلى اسمه عز وجل [٥] ومخالفة لما كان عليه أهل الجاهلية الذين كانوا يحيون تلك الأيام

---

(١) موطأ الإمام مالك بن أنس ١ / ٥٤١ –٥٤٢ ، تحقيق الدكتور / بشار عواد معروف ومحمود محمد خليل ط/١ ١٤١٢ هـ مؤسسة الرسالة .

(٢) الدر المنثور للسيوطي ١ / ٥٦٢ .

(٣) هو أبو نصر الطائي مولاهم اليمامي ، واسم أبيه صالح ، وقيل يسار ، وقيل نشيط ، قال الذهبي :((كان طلابة للعلم حجة))، توفي سنة ١٢٩هـ على الأصح ، ترجمته في سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٧ .

(٤) الدر المنثور ١ / ٥٦٢ .

(٥) انظر فتح الباري ٢ / ٤٦١ .

بالشرك بالله والذبح للأصنام، وذكر مآثر الآباء والتفاخر بهم ، فيكون من مقاصد التكبير فيها الإعلان عن تفرد الله تعالى بالكبرياء والعظمة؛ للدلالة على استحقاقه وحده لجميع أنواع العبادة من الذبح وغيره، كما قال تعالى :﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [(١)]

وهذا مما يؤكد صلة الأذكار الشرعية –ومنها التكبير- بالعقيدة كما تقدم، وأنها كلها تتضمن التوحيد الخالص لله عز وجل بل هو المقصود بها أصلا .

ومن الأزمنة الفاضلة التي يشرع فيها الإكثارمن ذكر الله تعالى بالتكبير: أيام العشر من ذي الحجة، التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها:((مامن أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر))[(٢)]

في هذا الحديث: الحث على الاجتهاد في الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى في أيام عشر ذي الحجة، وأفضل ما يشتغل به من الأعمال في العشر ذكر الله عز وجل ،-وأفضل ما يذكر الله به التكبير، كما دل عليه عمل السلف رحمهم الله، فقد أثر عن جماعة منهم عنايتهم بالتكبير في أيام العشر ومداومتهم عليه .

قال البخاري في صحيحه : ((وقال ابن عباس : ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ : أيام العشر ، والأيام المعدودات : أيام التشريق ، وكان ابن عمر

---

(١) سورة الأنعام / ١٦٢ – ١٦٣ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصوم ، باب في صوم العشر ، ح : ٢٤٣٨ ، ٢ / ٨١٥ ، والترمذي في سننه ، كتاب الصوم ، باب ما جاء في العمل في أيام العشر ، ح : ٧٥٧ ، ٣ / ١٢١ . -
وقال : حديث ابن عباس : حديث حسن صحيح غريب ، وأخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب الصيام ، باب صيام العشر ، ح: ١٧٢٧ ، ١/ ٥٥٠

وأبوهريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر، يكبران ويكبر الناس بتكبيرهما،وكبر محمد بن علي[1]خلف النافلة)) [2] .

وقال الحافظ ابن حجر : وقال الطحاوي: كان مشايخنا يقولون بذلك ، أي بالتكبير في أيام العشر [3] .

المبحث السادس :

التكبير في الطواف وعلى الصفا والمروة :

ومن المواضع العظيمة التي يشرع فيها ذكر الله بالتكبير: بيت الله الحرام وذلك عند الطواف به في حج أو عمرة ، فيشرع للطائف عند محاذاته للحجر الأسود ، أن يقول : (الله أكبر) في كل شوط من أشواط الطواف السبعة؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: ((طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير كلما أتى الركن أشار إليه بشيء في يده وكبّر)) [4]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ((وفيه استحباب التكبيرعند الركن الأسود في كل طوفة)) [5]

---

[1] هو أبو جعفر الباقر ولد زين العابدين ولد سنة ست وخمسين ه وكان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدد والشرف والثقة والرزانة، -وهو أحد الأئمة الإثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين- مات سنة ١١٤ هـ بالمدينة ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٠١ .

[2] صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق ، (٢ / ٤٥٧ من فتح الباري) ، وأثر محمد بن علي متعلق بالتكبير في أيام التشريق لا بأيام العشر ، وقد نبه على هذا الحافظ ابن حجر ، متعقباً على الكرماني الذي جعله متعلقاً بالتكبير في أيام العشر كالأثر الذي قبله . انظر فتح الباري ٢ / ٤٥٨ .

[3] فتح الباري : ٢ / ٤٥٨ .

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحج ، باب التكبير عند الركن ، ح : ١٦١٣ ، (٣ / ٤٧٦ فتح الباري).

[5] فتح الباري ٣ / ٤٧٦ .

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه كان يدخل مكة ضحىً، فيأتي البيت، فيستلم الحجر ويقول : بسم الله والله أكبر [1] قال النووي في المجموع : إسناده صحيح [2]

وكذلك يشرع التكبير مع التهليل على الصفا والمروة في أثناء السعي بينهما في حج أوعمرة، لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما –في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه : ((... ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره ... إلى قوله ... حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا)) الحديث [3]

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنه كان إذا أتى المسعى سعى وكبر [4]

وقد استحب الإمام أحمد- رحمه الله- أن يكون التكبير على الصفا والمروة في أثناء السعي بينهما، سبع مرات، أي على كل منهما في كل شوط من أشواط السعي السبعة [5]

ويشرع رفع الصوت بالتكبير في هذا الموضع كما دل عليه ظاهر السنة الثابتة عن النبي- صلى الله عليه وسلم- في حديث جابر رضي الله عنه ، وسيأتي في المبحث الآتي إن شاء الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : والسنة رفع الصوت بالتكبير، نص عليه [6]؛ لأن جابرا- رضي الله عنه- سمع ذلك من النبي- صلى الله عليه وسلم-، ولولا جهره له لم يسمعوه، ولأنه شرف من الأشراف ، والسنة الجهر بالتكبير على الأشراف [1]

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ١٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٥ / ٧٩ .

(2) المجموع ٨ / ٣١ .

(3) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، (٨/ ١٧٧ شرح النووي).

(4) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ١٤ ، قال الساعاتي في الفتح الرباني : حديث صحيح .

(5) شرح العمدة ٢ / ٤٥٧ ، تحقيق د / صالح بن محمد الحسن ط/١ ، ١٤٠٩ هـ مكتبة الحرمين بالرياض .

(6) أي نص عليه الإمام أحمد رحمه الله في رواية المروذي عنه انظر شرح العمدة ٢ / ٤٥٧ .

ويظهر أن المناسبة الاعتقادية للتكبير في هذا الموضع هي إقناع المكلف نفسه بالانقياد والاستسلام المطلق لأمر الله تعالى بالقيام بهذه الشعيرة ((السعي بين الصفا والمروة)) فإن مجرد التنقل بينهما سبع مرات وبكيفية خاصة عبادة غير معقولة المعنى لدى المكلف، فإذا كبر الله استشعر عظمته وجلاله ، وتنزهه عن العبث ، وأن كل ما شرعه لعباده إنما شرعه لحكمة تامة ورحمة واسعة .

المبحث السابع :

التكبير عند العلو على شرف :

يشرع للمسلم عندما يعلو على مرتفع من الأرض سواء كان جبلا أو كثيباً من رمال أن يقول : (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر) اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان من هديه- عليه الصلاة والسلام- ذكر الله عز وجل على الأماكن المرتفعة بالتكبير عليها .

أخرج البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- قال : ((كنا إذا صعدنا كبرنا وإذا نزلنا سبحنا)) [٢]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ((كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من الحج أو العمرة- ولا أعلمه إلا قال : الغزو- يقول : كلما أوفى على ثنية أو فدفد، كبر ثلاثا، ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

==

[١] شرح العمدة ٢ / ٤٥٩ .

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد ، باب التكبير إذا علا شرفاً، ح : ٢٩٩٤ ، (٦ / ١٣٥ من فتح الباري) .

قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ...)) [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يارسول الله ، إني أريد أن أسافر فأوصني، قال: ((عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف، فلما ولى الرجل قال: اللهم اطو له الأرض، وهون عليه السفر)) [2]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((ولأن التكبير مختص بالذكر في حال الارتفاع، كما أن التسبيح مختص بحال الانخفاض كما في السنن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : ((كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كبرنا وإذا هبطنا سبحنا فوضعت الصلاة على ذلك)))) [3].

وأما الحكمة من مشروعية التكبير في حال الارتفاع: فهي تعظيم الله عز وجل بالإعلان بأنه المختص بالكبرياء دون من سواه،والبراءة من الكبر والإعجاب الذي قد يحس به الإنسان في تلك الحال، فإذا كبر الله تذكر كبرياءه، وعظمته، وأن كل ما سواه مهما كان فهو دونه، وعند ذلك يتواضع ويتصاغر، ويقر بالكبرياء لمن هو أهل لها .

قال المهلب[4] تكبيره صلى الله عليه وسلم عند الارتفاع استشعار لكبرياء الله عز وجل عندما تقع عليه العين من عظيم خلقه أنه أكبر من كل شيء [5]

---

(1) المصدر السابق .

(2) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢ / ٣٢٥ ، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات ، باب (٤٦) ح : ٣٤٤٥ ، ٥ / ٥٠٠ ، وقال : هذا حديث حسن ، وأخرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب الجهاد ، باب الحرس والتكبير في سبيل الله ح : ٢٧٧١ ، ٢ / ٩٢٦ . والحاكم في المستدرك ١ / ٦١٥ وقال : صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه ، وأقره الذهبي ، وأخرجه البغوي في شرح السنة ٥ / ١٤٣ ، وقال : هذا حديث حسن .

(3) مجموع الفتاوى ١٦ / ١١٣ .

(4) هو المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأسدي الأندلسي كان أحد الأئمة الفصحاء الموصوفين بالذكاء ، له كتاب شرح صحيح البخاري توفي سنة خمس وثلاثين وأربع مائة ه ترجمته في : الديباج المذهب لابن فرحون ٢ / ٣٤٦ ، تحقيق / محمد الأحمدي أبو النور ، ط/ دار التراث ، وشجرة النور الزكية ١ / ١١٤ ، دار الكتاب العربي .

(5) فتح الباري ٦ / ١٣٦ .

المبحث الثامن:

التكبير في الحرب عند لقاء العدو:

ذكر الله عز وجل عند مواجهة أعداء الله، في ساحات الجهاد في سبيل الله، مما ثبتت مشروعيته بالكتاب والسنة، وعمل به المجاهدون في سبيل الله، في الوقائع التي لقوا فيها العدو، قال الله تعالى : في بيان عوامل النصر، وأسباب الظفر بالأعداء: ﴿ يآأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [1]

اشتملت الآيتان على توجيهاتٍ إلهية، إلى عدة عوامل تحقق بإذن الله النصر على أعداء الله وهي :

١ _ الثبات عند اللقاء .

٢ — الإكثار من ذكر الله .

٣ — طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

٤ — نبذ الاختلاف والتنازع .

٥ — الصبر .

والمقصود هنا : هو العامل الثاني، وهو ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً، حيث علق سبحانه عليه فلاح المقاتلين في سبيله بقوله : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾

قال ابن العربي رحمه الله: فيه ثلاثة احتمالات :

الأول : اذكروا الله عند جزع قلوبكم فإن ذكره يثبت .

الثاني : اثبتوا بقلوبكم واذكروه بألسنتكم فإن القلب قد يسكن عند اللقاء ويضطرب اللسان؛ فأمر بذكر الله حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر .

---

[1] سورة الأنفال / آية : ٤٥ —٤٦ .

الثالث : اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم، في ابتياعه أنفسكم منكم، ومثامنته لكم، ثم قال رحمه الله : وكلها مرادة، وأقواها أوسطها؛ فإن ذلك إنما يكون عن قوة المعرفة ونفاذ القريحة واتقاد البصيرة وهي الشجاعة المحمودة في الناس [1] ولأن فيه اجتماع ذكر اللسان مع ذكر القلب وذلك أبلغ في استحضار المعاني وأدعى إلى مراقبة المذكور الذي هو الله تعالى، وبه يحصل اطمئنان القلوب كما قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[2] والمجاهد أحوج ما يكون إلى طمأنينة قلبه بوعد الله له بالنصر ، لا سيما مع قوة العدو، وشدة بأسه، وتطور أسلحته .

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: وأما ذكر الله عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن، كما أنه التعليم المطرد، الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي، ومما حكاه القرآن الكريم من ذلك قول سحرة فرعون- عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأةً فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي-: ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ [3] فواجهوا تهديدات فرعون ووعيده إياهم بذكر الله ودعائه والتوكل عليه، ومما حكاه القرآن كذلك عن الفئة المؤمنة من بني إسرائيل وهي تواجه جالوت وجنوده قوله تعالى : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [4]

ومما حكاه القرآن عن الفئة المؤمنة على مدار التاريخ قوله تعالى : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا

---

[1] أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٤١٤ .

[2] سورة الرعد / آية : ٢٨ .

[3] سورة الأعراف / آية : ١٢٦ .

[4] سورة البقرة / آية :٢٥٠ .

والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسـرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [1]

فالمقصود: أن ملجأ فئة الإيمان ومفزعها في المواطن التي يلاقون فيها أعداء الله وأعداء دينه، كان ذكر الله عز وجل، وسؤاله النصر على الأعداء، فيعينهم ذلك على الصمود والثبات في وجه العدو أيا كانت قوته وحنكته في الحرب، وينصرهم الله ويهزم عدوهم كما قال تعالى عن طالوت وجنوده بعد أن حكى عنهم ما تقدم من تضرعهم إليه : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت ﴾ [2] فرتب هزيمة أعدائه على ما كان من أوليائه من ذكرهم إياه، وسؤالهم النصر من عنده، فدل ذلك على أن الهزيمة كان سببها ذلك الدعاء الذي توجهوا به إلى ربهم سبحانه، فثبت بهذا أن ذكر الله تعالى عند لقاء العدو، عامل مهم من عوامل الانتصار على الأعداء، على مر تاريخ الأمة المؤمنة .

ولهذا فقد جاء في السنة النبوية العناية بالذكر والدعاء في الوقائع التي لقي فيها النبي صلى الله عليه وسلم أعداء الله، كما في الصحيح من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ، ثم قام في الناس فقال :((لا تمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال: اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم)) [3]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ((وفي الحديث استحباب الدعاء عند اللقاء، والاستنصار، ووصية المقاتلين بما فيه صلاح أمرهم، وتعليمهم بما يحتاجون إليه، وسؤال الله تعالى بصفاته الحسنى وبنعمه السالفة)) [4]

---

[1] سورة آل عمران / آية : ١٤٦ . وانظر : في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله ٤ / ٢٥ –٢٦ .

[2] سورة البقرة / آية : ٢٥١ .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الجهاد، باب لا تمنوا لقاء العدو ، ح : ٣٠٢٤ ، ٣٠٢٥ ، (٦ / ١٥٦ من فتح الباري) .

[4] فتح الباري ٦ / ١٥٧ .

يتضح مما سلف مشروعية ذكر الله تعالى في الحرب عند لقاء العدو، ومـــن الذكـــر المشروع في ذلك (التكبير) أي قول : (الله أكبر) ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : ((صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وقـــد خرجـــوا بالمساحي على أعناقهم، فلما رأوه قالوا: محمد والخميس [١] فلجئوا إلى الحصن، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فســـاء صباح المنذرين)) متفق عليه [٢] وقد بوب البخاري على هذا الحديث بقوله : ((بـــاب التكبير عند الحرب)) قال الحافظ ابن حجر: أي جوازه أو مشروعيته .

وعند مسلم قال أنس : قالها ثلاث مرار ، قال النووي رحمه الله: ((فيه اســـتحباب التكبير عند اللقاء)) [٣]

وبهذا عمل المجاهدون في سبيل الله ، في الوقائع التي يجابهون فيها الأعداء ،كان التكبير شعارهم الذي به يهتفون عند بدء الهجوم على أعداء الله ، إظهاراً للقوة ودفعاً لمـــا قـــد يحصل لهم من الخوف، ففي معركة البويب [٤] قال المثنى بن حارثة الشيباني لجيشـــه: إني مكبر ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا في الرابعة [٥]

وفي معركة القادسية [٦] التي قاد جيوش المسلمين فيها سعد بن أبي وقاص رضـــي الله عنه ،كان مما أوصاهم به قبل بدء القتال قوله : ((... لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر،

---

(١) أي : الجيش

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب التكبير عند الحرب، ح : ٢٩٩١ ، (٦ / ١٣٤ من فتح الباري) . وهذا لفظ البخاري وأخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة خيبر ، (١٢ / ١٦٣ –١٦٤ من شـــرح النووي)

(٣) شرح صحيح مسلم ١٢ / ١٦٤ .

(٤) نهر كان بالعراق موضع الكوفة كانت عنده وقعة بين المسلمين والفرس في أيام عمر رضي الله عنـــه ، معجـــم البلدان ٥ / ٣٦١ . تحقيق / فريد عبد العزيز الجندي، ط/١ ، ١٤١٠ هـــ دار الكتب العلمية .

(٥) تاريخ الطبري ٣ / ٤٦٥ ، ط/٢ دار المعارف، والبداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٩ ، ط/١ دار الكتب العلمية

(٦) اسم موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً وفيه وقعت الوقعة الشهيرة بين المسلمين والفرس في أيام عمـــر رضي الله عنه معجم البلدان ٤ / ٣٣١

فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة فكبروا، واستعدوا، واعلموا أن التكبير لم يعطه أحد قبلكم ، واعلموا أنكم إنما أعطيتموه تأييدا لكم ، ثم إذا سمعتم التكبيرة الثانية فكبروا ولتستتم عدتكم ، ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا؛ لينشط فرسانكم الناس ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعا حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله)) [1]

وفي وقعة نهاوند[2] أمر النعمان بن مقرن [3] رضي الله عنه جنده قائلا: ((إني مكبر ثلاثا فإذا كبرت الثالثة فإني حامل فاحملوا)) [4]

وهكذا كان جند الله ينتصرون على أعداء الله بذكره سبحانه، فإن الذكر عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى ؛ لأنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب، والذي يورث الثقة بالله الذي ينصر أولياءه ، وهو في الوقت ذاته، فيه استحضار لحقيقة المعركة وبواعثها، وأنها معركة لتقرير ألوهية الله في أرضه على عباده، وطرد الطواغيت المدعية لهذه الألوهية، كما قال المغيرة بن شعبة [5] رضي الله عنه لرستم قائد الفرس : ((جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد)) [6]

---

(1) تاريخ الطبري ٣ / ٥٣٥ .

(2) نهاوند : بفتح النون وتكسر والواو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة اسم مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام فتحها المسلمون سنة ١٩ وقيل سنة ٢٠ هـ في أيام عمر رضي الله عنه و لم يقم للفرس بعد وقعة نهاوند قائم؛ فسماها المسلمون فتح الفتوح ، معجم البلدان ٥ / ٣٦١ .

(3) هو : النعمان بن مقرن بن عائذ المزني يكنى أبا عمرو وقيل أبو حكيم، كان صاحب لواء مزينة يوم الفتح، وأمره عمر رضي الله عنه على جيش المسلمين يوم نهاوند، وقال: إن قتل النعمان فالأمير حذيفة، وإن قتل حذيفة فجرير، فكان النعمان أول شهيد في المعركة، فأخذ الراية حذيفة ففتح الله عليهم، وكان ذلك سنة ٢١ هـ . انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ١٥٠٥ ، ط/١ ، ١٤١٢ هـ دار الكتب العلمية .

(4) تاريخ الطبري ٤ / ٧٤ .

(5) هو الصحابي الجليل المكنى أبا عيسى وقيل أبو عبد الله وقيل أبو محمد أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهد بيعة الرضوان، و من كبار الصحابة ومن أولي الشجاعة والمكيدة ، داهية من الدهاة حتى كان يقال له مغيرة الرأي ، أصيبت عينه في معركة اليرموك ، وكان ممن اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه توفي بالكوفة سنة ٥٠ هـ ترجمته في : أسد الغابة ٥ / ٢٣٨ .. والإصابة ٦ / ١٥٦ .

(6) البداية والنهاية ٧ / ٤٩ .

إذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا، لا للسيطرة والهيمنة الذاتية، ولا للمغنم والاستعلاء الشخصي أو القومي [1] كما أن في مشروعية الذكر في تلك الساعات الحرجة والمواقف الصعبة توكيدا لأهميته ووجوبه، وأن المؤمن لا ينبغي له مفارقته؛ إذ فيه حياته الحقيقية .

وإذا كان للذكر بصفة عامة هذا الشأن العظيم، وهذه الوظيفة الهامة، عند مواجهة الأعداء فإن للتكبير شأنا أخص، فهو مع ما فيه من إلقاء الرعب والخوف في قلوب العدو، وتوهين قواهم المعنوية، فيه أيضا إشعار المسلم المجاهد نفسه بأنه إنما يقاتل بقوة الله التي لا تهزم، وأنه تحت رعاية الله التي لا تغفل، وهذا الشعور يضمن له حصانة لقلبه من أن يدخله عجب أو كبر، أو إضافة النصر إلى نفسه، إذا هو انتصر على الأعداء، ويعينه على الإحساس بالحاجة إلى عون الله تعالى وتأييده، لأنه هو الذي بيده أزمة الأمور كلها، وهو أكبر من كل شيء وأقوى من كل شيء، وهو الذي يملك النفع والضر، وله الخلق والأمر، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، ويعينه أيضا على الشعور بالضعف والعجز، إن هو ترك وحده، فهو فقير محتاج إلى الغني القادر بالذات، الذي لو شاء لسلط عليه العدو؛ ابتلاء وتمحيصا، كما قال تعالى: ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾[2]

وبهذا لا يغتر المجاهد بكثرة عدد جيشه مهما كثر، ولا يعجب بعدته مهما عظمت، وكل هذا الشعور يعينه على تحصيله كلمة (الله أكبر) مع معرفة معناها ومقتضاها، واعتقاد ذلك؛ إذ هي نداء التعظيم والتتريه والإخلاص، على لسان المسلمين في كل حين، في السراء والضراء وحين البأس، فبها يلجأ المسلم إلى ربه ليسدده ويحميه من كيد عدوه،

---

[1] انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب ٤ / ٤٦ .

[2] سورة النساء / آية : ٩٠ .

ويجعله معتدلاً في أموره، فلا يفرح فرحاً مفرطاً عند الانتصار والغلبة، ولا يجـــزع عنـــد الهزيمة، كما قال كعب بن زهير [1] رضي الله عنه في وصف الصحابة المجاهدين :

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا [2] .

ومتى غاب هذا الإحساس عن قلب المجاهد، فأعجب بكثرة أو قوة، كان عرضـة لأن يتخلى الله عنه، ويكله إلى نفسه، كما حدث ذلك لبعض المسلمين في غزوة حنين، حيـث أعجبتهم كثرتهم، حتى كأنهم اتكلوا على ذلك، وحتى قال بعضهم: ((لن نغلب اليوم من قلة)) فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وكانت الغلبة عليهم في أول اللقـــاء، [3] وفي ذلك أنزل الله قوله تعالى : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنـــين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بمـــا رحبـــت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنـــزل جنـــودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشآء والله غفور رحيم ﴾ [4]

عن مجاهد رحمه الله قال : ((هذه أول آية نزلت من براءة ، يذكر الله للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم، في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك

---

[1] كعب بن زهير بن أبي سلمى صحابي، قدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من الطائف، فأسلم بعـد أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أهدر دمه لأبيات قالها، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مدح بهـا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومطلعها قوله :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول منيم إثرها لم يفـد مكبول

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فعفا عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل منه اعتذاره، ترجمته في الاستيعاب في معرفة الأصحـاب ٣ / ١٣١٣ ، وأسد الغابة ٤ / ٤٤٩ . والإصابة ٥ / ٤٤٣ .

[2] ديوان كعب بن زهير ص : ٤٢ ، صنع الإمام أبي سعيد الحسين بن الحسين العسكري ، ط/١، ١٤١٤هـ دار الكتاب العربي .

[3] انظر الدر المنثور ٤ / ١٥٨ – ١٥٩ .

[4] سورة التوبة / آية : ٢٥ –٢٧ .

من عنده تعالى، وبتأييده وتقديره، لا بعَددهم ولا بعُددهم، ونبههم أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه؛ ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده وإن قل الجمع، فـ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [1])) [2]

ولقد خاطب الله المؤمنين المجاهدين، الذين شهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بدر فقال:﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ [3]

وهذه الوقعة أعظم الوقائع دليلاً على ما أريد تقريره هنا، وهو أنه ينبغي أن يمتلئ قلب المجاهد اعترافاً ويقيناً بأن انتصار الجيوش الإسلامية في المعارك التي يخوضونها ضد أعداء الله، إنما يكون بنصر الله وإمداده، فقد بلغ عدد جيش المشركين يومئذٍ ثلاثة أضعاف جيش المسلمين ومع ذلك كانت الغلبة للمسلمين عليهم؛ لشدة إيمانهم، واستشعارهم لعظمة الله وكبريائه، وأن جيش العدو مهما بلغت قوته وكثرته، فهو ضعيف في جنب قوة الرب الجبار، الذي يقاتلون في سبيله لإعلاء كلمته .

والمقصود مما تقدم أن رسوخ معنى ((الله أكبر))- التي يرددها المجاهدون في سبيل الله- في نفس المؤمن، وإيمانه بما تدل عليه، يغرس فيها شجاعة عجيبة، تجعله يرفض كل عبودية لغير الله عز وجل، يبدأ بنفسه ليسيطر على أهوائها التي تنافي العبودية الصادقة لله تعالى، وبذلك يصفو قلبه من كل عبودية، إلا من العبودية لله تعالى الواحد الأحد، الذي هو أكبر من كل شيءٍ، فلا يبقى في نفسه إلا عبادة الله وتعظيمه التعظيم المطلق، وينظر إلى كل ما سواه نظرة لا خضوع فيها ولا خوف .

هذا ، وقد جاءت مشروعية التكبير في مواضع وأزمنة وأحوال أخر غير ما تقدم .

---

(١) سورة البقرة / آية : ٢٤٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٤٤ ، وانظر الدر المنثور ٤ / ١٥٨.

(٣) سورة آل عمران / آية : ١٢٣ .

من ذلك :

التكبير عند الذبح : كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أقرنين أملحين ذبحهما بيده وسمى وكبَّرَ ووضع رجله على صفاحهما)) (1)

قال النووي رحمه الله: واتفق أصحابنا على استحباب التكبير مع التسمية فيقول : بسم الله والله أكبر، لحديث أنس المذكور وهو صحيح كما سبق (2)

وقال ابن قدامة رحمه الله : ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا ذبح قال : ((بسم الله والله أكبر)) وكذا كان يقول ابن عمر وبه يقول أصحاب الرأي ولا نعلم في استحباب هذا خلافاً (3)

والظاهر أن الحكمة في مشروعية التكبير عند الذبح هي إشعار الذابح نفسه بنعمة الله تعالى عليه وبعظمته وقدرته على تسخير هذا الحيوان له ؛إذ لولا تسخير الله عز وجل إياه لما كان له عليه قدرة ،فشرع له تسمية الله تعالى مخالفة للمشركين الذين لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم، وشرع له التكبير ليتذكر عظمة الله وقدرته ويعترف بنعمته وتمكينه إياه

ومنها :التكبير عند ركوب الدابة ، لما روى أبو داود والترمذي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، أنه أتي بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله في الركاب قال: ((بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم قال: الحمد لله ثلاث مرات ، ثم قال: الله أكبر الله أكبر الله أكبر،

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأضاحي باب التكبير عند الذبح ، ح: ٥٥٦٥ ، (١٠ / ٢٣ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل والتسمية والتكبير ، (١٣ / ١١٩ شرح النووي)

(2) المجموع للنووي ٨ / ٤١٠ ، وانظر شرح صحيح مسلم له ١٣ / ١٢١ .

(3) المغني لابن قدامة ١٣ / ٣٩٠ .

ثم قال: سبحانك إني ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت))الحديث [1] ورفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلّى الله عليه وسلم((كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون)) [2]

ومنها: التكبير عند رمي الجمار، فيسن للحاج في أثناء رمي الجمار أن يكبر مع كل حصاة يرميها قائلاً: الله أكبر ، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صح ذلك عنه في أكثر من حديث، كحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ((أنه حين رمى جمرة العقبة استبطن الوادي حتى إذا حاذى بالشجرة اعترضها فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ، ثم قال: من هاهنا والذي لا إله غيره قام الذي أنزلت عليه سورة البقرة))[3]

ومثله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: ((أنه كان يرمي جمرة العقبة بسبع حصيات ثم يكبر على إثر كل حصاة ثم يقول: هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل)) [4]

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب ما يقول الرجل إذا ركب، ح: ٢٦٠٢ ، ٣ / ٧٧ ، وأخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا ركب الناقة، ح : ٣٤٤٦ ، ٥ / ٥٠١ ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ،

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب الذكر إذا ركب دابته لسفر حج أو عمرة، وبيان الأفضل من ذلك الذكر ، (٩ / ١١٠ شرح النووي) .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب يكبر مع كل حصاة، ح: ١٧٥٠ ،(٣ / ٥٨١ فتح الباري) ، وأخرجه مسلم ، في الحج ، باب رمي جمرة العقبة من بطن الوادي .... ويكبر مع كل حصاة (٩ / ٤٢ شرح النووي على صحيح مسلم) .

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب رفع اليدين عند الجمرة الدنيا والوسطى ، ح : ١٧٥٢ ، (٣ / ٥٨٣ من فتح الباري) .

وقد بوب البخاري رحمه الله على حديث ابن مسعود فقال: ((باب يكبر مع كل حصاة قاله ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم)) .

كما يسن التكبير للحاج عند الدفع إلى عرفات وعند الإفاضة منها إلى المزدلفة لحديث أنس رضي الله عنه : ((أنه سئل كيف كنتم تصنعون في هذا اليوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رضي الله عنه: كان يهل المهل فلا ينكر عليه ويكبر المكبر فلا ينكر عليه)) [(١)]

قال الإمام أحمد رحمه الله: ((فإذا دفع الإمام دفعت معه ولا تفض حتى يدفع الإمام وأنت في خلال ذلك تلبي فإذا أفضت من عرفات فهلل وكبر ولب)) [(٢)]

وقال الإمام النووي رحمه الله: ((فصل : في الأذكار المستحبة في الإفاضة من عرفات إلى مزدلفة، ثم قال: يستحب أن يقول: لا إله إلا الله والله أكبر ويكرر ذلك)) [(٣)]

ومنها: التكبير عند الخوف[(٤)] فيشرع للمسلم عندما يخاف من سلطان جائر ظالم أن يكبر الله تعالى حتى يقيه من شره فعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : ((إذا أتيت سلطانا مهيباً تخاف أن يسطو عليك فقل: الله أكبر، الله أكبر من خلقه جميعاً، الله أعز مما أخاف وأحذر، أعوذ بالله الذي لا إله غيره، هو الممسك السماوات السبع أن يقعن على الأرض إلا بإذنه من شر عبدك فلان))[(٥)]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج ، باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة ح : ١٦٥٩ ، (٣ / ٥١٠ فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب التلبية والتكبير في الذهاب من منى إلى عرفات يوم عرفة (٩ / ٣٠ شرح النووي)

(٢) شرح العمدة ٢ / ٥١١ .

(٣) كتاب الأذكار للنووي ص : ٢٥٧، تحقيق / بشير محمد عيون ، ط/١، ١٤٠٨هـ مكتبة المؤيد .

(٤) انظر كتاب تحفة الذاكرين للشوكاني ، ص : ٢٠٠ ، دار الكتب العلمية .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الدعاء ، باب الرجل يخاف من السلطان ما يدعو به ؟١٠ / ٢٠٣ تحقيق / مختار أحمد الندوي ط/١ ،١٤٠١ هـ الدار السلفية، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم : ٧٠٨ والطبراني في المعجم الكبير ١ / ٢٥٨، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ١٣٧ ، وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

والمناسبة الاعتقادية للتكبير في هذه الحال : هي إشعار المسلم نفسه بعظمة الله عز وجل، ووجوب إفراده بالخوف، الذي هو نوع من أنواع العبادة، التي يجب إخلاصها لله تعالى، فيذهب من قلبه الخوف من كل شيء إلا الخوف من الله ، الذي هو أكبر من كل شيء، فكل ما يخاف منه، من جن وإنس وغيرهما ، فالله جل جلاله أولى بأن يخاف منه؛ إذ هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وإن من شيء إلا هو آخذ بناصيته، وقول المسلم: الله أكبر يعينه على استحضار هذه الحقيقة ، والعمل بموجبها .

ومن الحالات الكبيرة التي يشرع فيها ذكر الله تعالى بالتكبير : حالة الكسوف والخسوف ، وهما حالتان تطرآن للشمس والقمر فيذهب نورهما وتخلفه ظلمة وسواد، وهما كما قال النبي صلى الله عليه وسلم آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده)) [1]

فشرع للمسلمين إذا رأوا ذلك أن يفزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة ، ومن الذكر المشروع في ذلك : التكبير، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا ...)) الحديث [2]

وفي التكبير في مثل هذه الحالات العظيمة والمخيفة إشعار للنفس بعظمة الله تعالى وكبريائه، وأن هذه الحالة مهما عظمت فهي دون كبرياء الله عز وجل، وأنه سبحانه هو وحده القادر على كشفها وإزالتها، وبذلك تطمئن نفس المؤمن إلى تفريج الله تعالى لهذه الكربة، ويزول قلقها واضطرابها.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الكسوف ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : يخوف الله عباده بالكسوف ح : ١٠٤٨، (٢ / ٥٣٦ فتح الباري) من حديث أبي بكرة وأبي موسى رضي الله عنهما، وأخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها ، كتاب الكسوف ، باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف (٦/ ٢٠٥ شرح صحيح مسلم للنووي)

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف ، ح : ١٠٤٤، (٢ / ٥٢٩ فتح الباري) وهذا لفظ البخاري ، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف ، (٦ / ٢٠٠ شرح النووي) .

ومن الحالات التي وردت مشروعية التكبير فيها: حالة الحريق : فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتكبير عند الحريق كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إذارأيتم الحريق فكبروا ؛ فإن التكبير يطفئه))[(١)]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((فالتكبير شرع أيضاً لدفع العدو من شياطين الإنس والجن والنار التي هي عدو لنا)) .[(٢)]

ويذكر ابن القيم رحمه الله أن الحكمة من مشروعية التكبير في حالة الحريق هي أنه : ((لما كان الحريق سببه النار، وهي مادة الشيطان التي خلق منها، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله، كان للشيطان إعانة عليه، وتنفيذ له، وكانت النار تطلب بطبعها العلو والفساد،وهذان الأمران- وهما العلو في الأرض والفساد- هما هدي الشيطان، وإليهما يدعو، وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد، وكبرياء الرب عز وجل تقمع الشيطان؛ ولهذا كان تكبير الله عز وجل له أثر في إطفاء الحريق؛ فإن كبرياء الله عز وجل لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبيره في خمود النار وخمود الشيطان التي هي مادته، فيطفئ الحريق، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك، والله أعلم))[(٣)]

إذن : فالحكمة في تخصيص التكبير هاهنا هي الإيذان بأن من هو أكبر من كل شيء قادر على أن يقهر النار ويطفئها.

ومثل هذا إنما يكون تأثيره بمقدار معرفة القائل بمعنى ما يقول، وإيمانه بمدلوله ومقتضاه فإذا قويت المعرفة وقوي الإيمان قوي التأثير بإذن الله، وإلا انعدم أو ضعف بحسبه.

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة رقم : ٢٨٨ – ٢٨٩ ، وعند الطبراني في الأوسط ٨/ ٢٥٩ بلفظ : ((أطفئوا الحريق بالتكبير)) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ / ٣٨ ، وقال : وفيه من لم أعرفهم .

(٢) مجموع الفتاوى ١٦ / ١١٣ .

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد ٤ / ١٩٤ –١٩٥ .

الباب الثاني :

دلالات التكبير :

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول

دلالة التكبير على توحيد الأسماء والصفات :

الفصل الثاني :دلالة التكبير على تتريه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقات :

الفصل الثالث : دلالة التكبير على توحيد العبادة :

تمهيد :

أشرت فيما سبق إلى أن كلمات الذكر المشروعة، مثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، التي اصطفاها الله عز وجل لعباده؛ ليذكروه بها ويثنوا بها عليه، ورتب عليها الأجر العظيم والثواب الجزيل، والفوائد الجليلة في العاجل والآجل ، أنها إنما حظيت بهذه العناية الفائقة من قبل الشارع سبحانه؛ للمعاني العظيمة التي تضمنتها، والتي يحبها الله ويرضاها، وهي مما تعبد خلقه بتحقيقها، والعمل بها، و علق عليها صلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة، وفيما يلي محاولة لإبراز بعض المعاني العقدية، التي تدل عليها كلمة (الله أكبر)، التي تعني أن يكون الله في قلب العبد أكبر وأعظم من كل شيءٍ ، وذلك في الفصول الثلاثة الآتية :

الفصل الأوّل :

دلالة التكبير على توحيد الأسماء والصفات :

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

تعريف توحيد الأسماء والصفات :

توحيد الأسماء والصفات أصل عظيم من أصول الدين الإسلامي الذي بعث الله بـه رسله، وأنزل به كتبه، وهو أحد أقسام التوحيد الثلاثة، وتحقيقه من لوازم الإيمان بالله، الذي هو الركن الأول من أركان الإيمان الستة ،

ومعناه: إفراد الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، التي وردت في الكتاب والسنة، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ، من غير تحريف[1] ولا تعطيل، ومن غير تكييف[2] ولا تمثيل[3] ولا تشبيه، بل تمر كما جاءت مع اعتقاد مدلولاتها ومعانيها اللائقة بجلال الله وعظمته وكبريائه .

---

[1] التحريف في اللغة : التغيير، وفي الاصطلاح : تغيير نص الكتاب أو السنة لفظاً أو معنى .

وتحريف أسماء الله وصفاته : هو تغيير ألفاظ النصوص الدالة عليها أو تغيير معانيها إلى معان باطلة لاَيدل عليها الكتاب والسنة .

فمثال تحريف اللفظ : نصب لفظ الجلالة في قول الله عز وجل : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ليكون التكليم من موسى عليه السلام ويتيسر للمحرف بذلك نفي صفة الكلام عن الله تعالى .

ومثال تحريف المعنى : تحريف معنى اليدين المضافتين إلى الله عز وجل إلى القوة أو النعمة ، وتحريف وجهه تعالى إلى ذاته وما أشبه ذلك .

[2] هو تكلف بيان كيفية صفات الله عز وجل، بأن يقال : إنها على هيئة كذا أو على كيفية كذا .

[3] هو إثبات مثل صفات المخلوقين لله تعالى . انظر هذه التعريفات في : التحفة المهدية، للشيخ /فالح بن مهدي ص : ٣٢ ، تصحيح وتعليق / د. عبد الرحمن بن صالح المحمود ، ط/١، ١٤١٤ هـ دار الوطن

= =

ومعنى إفراد الله بأسمائه وصفاته : إفراده بحقائق أسمائه وصفاته وكنهها، وليس المـــراد إفراده بإطلاق تلك الأسماء عليه سبحانه دون غيره؛ لما علم من وجود اتفاق بينــه وبــين بعض خلقه في بعض أسمائه، كما سمى نفسه حياً عليماً سميعاً بصيراً رؤوفاً رحيماً ملكـــاً عزيزاً جباراً، وسمى بعض خلقه بهذه الأسماء بعينها، إلا أنه يجب أن يعلم أن (الاتفــاق في الأسماء لا يقتضي تماثل المسميات) (١)

إذن : فما كان من اتفاق بين بعض أسماء الله تعالى وأسماء بعض خلقه إنما هو اتفـــاق في التسمية والألفاظ فقط، لا في الحقائق والكيفيات الخاصة بكلٍ منها، فأسماء الله وصفاته لها حقائق وكيفيات خاصة بها، لا يعلمها أحد من الخلق ، لا الأنبياء ، ولا الأوليـــاء ولا الصالحون ؛ إذ لا يعلم كيف الله إلا الله (٢)

كما أن أسماء المخلوقات وصفاتهم لها حقائق وكيفيات خاصة بها، فمن خصـــائص صفات المخلوقين أنها محدثة مخلوقة، ثم هي زائلة فانيةٌ، أعني أن العدم يســـبقها والفنـــاء يلحقها، ويعتريها النقص والضعف، بخلاف أسماء الخالق وصفاته، فإن من خصائصها: أنها أزلية أبدية بذاتها (٣) وأنها صفات كاملة، منزهة عن النقص والعيب، فمن وفق لإدراك هذه الحقيقة في هذا الباب من الإيمان بالله، سلم من قذارة التمثيل ونتن التعطيل، والموفق مـــن وفقه الله .

==

وفتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ / محمد بن صالح العثيمين ص : ٥٤ –٥٥ وشرح الواسـطية للشيخ / صالح بن فوزان الفوزان ص : ١٣ –١٤ ، ط/٤ ، ١٤٠٧ هـــ، مكتبة المعارف .

(١) انظر : الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ضمن مجموع الفتاوى ، ٣ / ١٠ .

(٢) مجموع الفتاوى ٣ / ٥٨.

(٣) يقول الإمام الطحاوي رحمه الله: ما زال بصفاته قديما قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكـــن قبلهم من صفته ، وكما كان بصفاته أزليا، كذلك لا يزال عليها أبدياً، ليس بعد خلـــق الخلـــق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استحق الباري، له معنى الربوبية ولا مربـــوب، ومعنـــى الخالق ولا مخلوق) العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز ، ص : ٧٩ ...

الحقيقة في هذا الباب من الإيمان بالله، سلم من قذارة التمثيل ونتن التعطيل، والموفق من وفقه الله .

وهكذا عرف السلف الصالح من هذه الأمة ربهم، بمعرفتهم لأسمائه وصفاته، الواردة في كتابه العزيز، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، غير معطلين لها تعطيل النفاة المتكلفين، ولا مشبهين إياها بصفات المحدثين تشبيه الممثلة الكذابين، بل كان مذهبهم هدىً بين هاتين الضلالتين، ونوراً بين تينك الظلمتين .

وهذه نصوص لبعض العلماء الذين حكوا مذهب السلف في باب الأسماء والصفات، يتبين من خلالها صحة ما اعتقدوه في ربهم عز وجل؛ ليعلم الخلف أن السلامة، والعلم، والإحكام، بكل الاعتبارات منحصرة في مذهب السلف رحمهم الله، وأن ما خالفه من المذاهب لا قيمة لها؛ إذ هي مبنية على مصادمة النصوص الشرعية، وتقديم العقول والأذواق عليها، وإساءة الظن بها، وما كان كذلك فهو فاسد الاعتبار أياً كان مصدره.

قال الإمام الصابوني [1] رحمه الله تعالى في بيان عقيدة السلف في باب الأسماء والصفات : ((أصحاب الحديث حفظ الله أحياءهم ، ورحم أمواتهم ، يشهدون لله تعالى بالوحدانية ، وللرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة والنبوة، ويعرفون ربهم ــ عز وجل ــ بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله ، أو شهد له بها رسوله صلى الله عليه وسلم، على ما وردت الأخبار الصحاح به، ونقلته العدول الثقات عنه ، ويثبتون له جل جلاله منها ما أثبت لنفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يعتقدون تشبيهاً لصفاته بصفات خلقه، فيقولون : إنه خلق آدم بيده، كما نص سبحانه عليه في قوله عز من قائل: ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ [2] ولا يحرفون الكلام عن مواضعه، بحمل اليدين على النعمتين أوالقوتين تحريف المعتزلة والجهمية

---

[1] هو أبو عثمان، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسحاق الصابوني شيخ الإسلام ، ولد سنة ٣٧٣ ه وكان حافظاً كثير السماع والتصانيف، قال عنه الذهبي : كان مقبولاً عند الموافق والمخالف، مجمعاً على أنه عديم النظير، وسيف السنة، ودامغ البدعة ، توفي أبو عثمان سنة ٤٤٩ هـ انظر سير أعلام النبلاء ١٨ / ٤٠

[2] سورة ص / آية ٧٥ .

أهلكهم الله، ولا يكيفونهما بكيف، أويشبهونهما بأيدي المخلوقين، تشبيه المشبهة خذلهم الله، وقد أعاذ الله أهل السنة من التحريف والتكييف والتشبيه، ومن عليهم بالتعريف والتفهيم، حتى سلكوا سبل التوحيد والتنزيه، وتركوا القول بالتعطيل والتشبيه، واتبعوا قول الله عز وجل : ﴿ ليس كمثله شيءٌ وهوالسميع البصير ﴾ [1] وكذلك يقولون في الصفات التي نزل بذكرها القرآن، ووردت بها الأخبار الصحاح، من السمع، والبصر، والعين، والوجه، والعلم، والقوة، والقدرة، والعزة، والعظمة، والإرادة والمشيئة، والقول والكلام، والرضا، والسخط، والحياة، واليقظة، والفرح، والضحك، وغيرها، من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون إلى ما قاله الله تعالى، وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير زيادة ولا إضافة إليه، ولا تكييف له ولا تشبيه، ولا تحريف ولا تبديل،...))[2]

وقال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي[3] : ((الحمد لله الذي له ما في السموات و ما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، عالم الغيب، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، يعلم سر خلقه وجهرهم ، ويعلم ما يكسبون، نحمده بجميع محامده، ونصفه بما وصف به نفسه، ووصفه به الرسول، فهو الله الرحمن الرحيم، قريب مجيب، فعال لما يريد، الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، له الأمر من قبل ومن بعد، له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين، وله الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، يقبض ويبسط، ويتكلم، ويرضى، ويسخط، ويغضب،

---

(1) سورة الشورى / آية : ١١ .

(2) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص / ٢٦ -٢٨ ، تحقيق / بدر بن عبد الله البدر ط/٢ ، ١٤١٥ هـ، مكتبة الغرباء الأثرية .

(3) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني الهروي الشافعي ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٨٠ هـ وكان أحد الأعلام الثقات والعلماء الأثبات الذابين بقوة وعلم عن عقيدة أهل السنة والجماعة، يشهد له بذلك تصانيفه القيمة التي أوضح فيها معتقدهم بالدليل والبرهان ورد على المبتدعة المخالفين لهم بجهل وعناد،فرحمه الله، ترجمته في: تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٢١ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ٢٠٥ . ،

ويحب ويبغض، ويكره، ويضحك، ويأمر وينهى، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليد والقبضتين، والقدرة والسلطان، والعظمة والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولا يزال، استوى على عرشه فبان من خلقه، لا تخفى عليه منهم خافية، علمه بهم محيط، وبصره بهم نافذ، ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾، فبهذا الرب نؤمن، وإياه نعبد، وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلى إله بخلاف هذه الصفات، فإنما يعبد غير الله ، وليس معبوده بإله، كفرانه لا غفرانه))[1]

وهاهنا أمور مهمة، ينبغي معرفتها في توحيد الأسماء والصفات؛ ليتم إيمان العبد بها، ويسلم من كثير من البدع و الأخطاء التي وقع فيها كثير من الناس في هذا الباب .

الأمر الأول : أن أسماء الله توقيفية، أي أنه يشترط في صحة إطلاق الاسم على الله تعالى ورود النص به من الكتاب أو السنة، وهذا الأصل من الأمور المجمع عليه عند أهل السنة والجماعة؛ لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته إلا الوحي (الكتاب والسنة) ولا مجال فيه للقياس ولا مدخل فيه للعقل .

يقول الإمام الخطابي رحمه الله : ((ومن علم هذا الباب، ومما يدخل في أحكامه ويتعلق به من شرائط، أنه لا يتجاوز فيها التوقيف، ولا يستعمل فيها القياس ؛ فيلحق بالشيء نظيره في ظاهر وضع اللغة، ومتعارف الكلام، فالجواد لا يجوز أن يقاس عليه السخي، وإن كانا متقاربين في ظاهر الكلام؛ وذلك أن السخي لم يرد به التوقيف كما ورد بالجواد ... وهذا الباب يجب أن يراعى ولا يغفل، فإن عائدته عظيمة،والجهل به ضار وبالله التوفيق))[2] .

ولهذا جعل أهل العلم إغفال هذا الأمر، وتسمية الله تعالى بغير ما جاء به التوقيف في الكتاب وصحيح السنة نوعاً من الإلحاد في أسمائه وصفاته، قد توعد الله فاعله في قوله تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون

---

[1] الرد على الجهمية ص : ١٧ –١٨ تقديم وتعليق / بدر بن عبد الله البدر ط/٢ ، ١٤١٦ هـ دار ابن الأثير

[2] شأن الدعاء للخطابي ص: ١١١ –١١٢ .

ما كانوا يعملون ﴾[1] فمن الإلحاد في توحيد الأسماء والصفات تسمية الله تعالى بغير ما سمى به نفسه، أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن فعل ذلك فإنه لم يكبر الله تعالى في هذا الباب؛ إذ من تكبير الله في أسمائه وصفاته أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة.

قال الإمام ابن حزم رحمه الله: ((ولا يحل لأحد أن يسمي الله عز وجل بغير ما سمى به نفسه، ولا أن يصفه بغير ما أخبر به عن نفسه، قال عز وجل: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ فمنع تعالى أن يسمى إلا بأسمائه الحسنى ، وأخبر أن من سماه بغيرها فقد ألحد)) [2]

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : ((وقد قال أهل التفسير : من الإلحاد في أسمائه تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة)) [3]

الأمر الثاني: أن أسماء الله وصفاته لا تدخل تحت حصر ولا يحويها عدد[4] وهذا من دلائل عظمته وكبريائه، فالعباد لا يحيطون به علما؛ لأنهم لا يحيطون علماً بأسمائه وصفاته، وهذه قاعدة من القواعد المهمة، عند أهل السنة والجماعة، في باب أسماء الله وصفاته ؛ لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ما أصاب عبداً قط هم، ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله

---

[1] سورة الأعراف / آية : ١٨٠ .

[2] المحلى ١ / ٢٩ .

[3] فتح الباري ١١ / ٢٢١ .

[4] انظر بدائع الفوائد للإمام ابن القيم ١ /١٦٦، طبع / إدارة الطباعة المنيرية ، الناشر : دار الكتاب العربي .

همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً، قالوا: يارسول الله أفلا نتعلمهن ؟ قال بلى ينبغي لمن يسمعهن أن يتعلمهن)) [1]

والشاهد في الحديث قوله: ((أو استأثرت به في علم الغيب عندك)) فهو دليل على عدم انحصار أسماء الله وصفاته في عدد معين معلوم للبشر، وأن له أسماءً وصفاتٍ انفرد بعلمها ولا يعلمها غيره .

وهذا هو الصواب، وعليه مضى سلف الأمة وأئمتها، وهو قول جمهور العلماء ولم يخالفهم فيه إلا طائفة من المتأخرين كابن حزم [2] وغيره [3]

ففي هذا الحديث جعل النبي صلى الله عليه وسلم أسماء الرب تعالى ثلاثة أقسام :

١ - قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من خلقه من الملائكة وغيرهم ولم ينزل به كتابه .

٢ - وقسم آخر أنزله في كتابه فتعرف به إلى عباده وتعبدهم بذكره ودعائه به .

٣ - وقسم ثالث استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه؛ ولهذا قال: ((أو استأثرت به)) أي : انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت حتى في بعض الأسماء التي أنزل بها كتابه [4]

قال الإمام الخطابي مستدلاً بهذا الحديث على عدم انحصار أسماء الله تعالى : ((وهذا يدلك على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجبها عن خلقه ولم يظهرها لهم)) [5]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٣٩١ ، وابن حبان في صحيحه ، انظر الإحسان ٣ / ٢٥٣ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٠ / ١٨٦ ، رواه أبو يعلى، ورجال الحديث رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان ،

(٢) انظر المحلى ١ / ٣٠ ط/ دار الفكر ، والفصل في الملل والأهواء والنحل ٢ / ٣٤٥ . تحقيق د . محمد بن إبراهيم نصر ، ود . عبد الرحمن عميرة ، ط/ دار الجيل ، ١٤٠٥ هـ

(٣) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٢ / ٤٨٢ .

(٤) انظر بدائع الفوائد ١ / ١٦٦ .

(٥) شأن الدعاء للخطابي ص : ٢٤ .

وقال ابن كثير رحمه الله : ((ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين)) واستدل على ذلك بحديث ابن مسعود السابق، [1]

وأما ما ورد في الحديث الصحيح من قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة))[2] والذي اعتمد عليه من يرى حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد فقد أجاب عنه العلماء بوجوه منها:

١-منع دلالة الحديث على حصر الأسماء في هذا العدد، وأن ليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم من الحديث حصر الأسماء الحسنى في تسعة وتسعين؛ [3] إذ لو كان المراد الحصر لكانت العبارة : ((إن أسماء الله تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة)) ، أو نحو ذلك مما يدل على الحصر ، وعلى هذا فمعنى الحديث : أن هذا العدد المنصوص عليه في الحديث من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة ، فجملة ((من أحصاها دخل الجنة)) مكملة لما قبلها وليست مستأنفة [4] ،والمقصود أن هذا لا يمنع أن يكون لله تعالى أسماء أخر غير التسعة والتسعين اسما المخصوصة بهذه البشارة لمن أحصاها .

٢-أن التسعة والتسعين لم يأت تعيينها في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأما ماورد من تعيينها في الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي رحمه الله تعالى [5]

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٧٠ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد، ح : ٦٤١٠ ، (١١ /٢١٤ فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، (١٧ / ٥ شرح النووي) .

(٣) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص : ٦ ، تحقيق / محمد زاهد الكوثري دار إحياء التراث العربي .

(٤) انظر القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، ص: ١٧ ط/٢ ، ١٤١٥ هـ مكتبة الإرشاد، صنعاء .

(٥) في سننه كتاب الدعوات ، باب (٨٣) ح: ٣٥٠٧ ، ٥ / ٥٣٠ –٥٣١ ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث ، ثم قال : وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث .

وغيره[1] زيادة على ما في الصحيحين فالحفاظ من أهل الحديث يقولون: إن هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث[2] أي أنه غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ – أنه قد ثبت في القرآن وصحيح السنة، أسماء أخرى لله تعالى، وهي ليست في الحديث المذكور [3] كاسمه تعالى " الرب، المنان، السبوح، الشافي، الوتر، الجميل، الطيب، وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، وأحسن الخالقين ... وغير ذلك مما ثبت اسما لله عز وجل وجاز دعاؤه بها بالإجماع[4]، ولا يدعى الله تعالى إلا بأسمائه وصفاته، فثبت بذلك أنها أسماء له سبحانه، والقول بحصرالأسماء في التسعة والتسعين كما في الحديث المذكور ، يقتضي أن ما سواها ليست من أسمائه، وهو خلاف إجماع المسلمين .

٤ – أن الحديث قد روي بطرق أخرى وذكر فيها أسماء مغايرة لبعض ما عند الترمذي، وهو اضطراب يوجب الحكم بضعف الحديث، وعدم صحة نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ ابن حجر: ((وقد أخرجه الطبراني عن أبي زرعة الدمشقي عن صفوان بن صالح، فخالف في عدة أسماء فقال: (القائم الدائم)بدل(القابض الباسط) و(الشديد) بدل (الرشيد)و (الأعلى المحيط مالك يوم الدين)بدل(الودود المجيد الحكيم)، ووقع عند ابن حبان عن الحسن بن سفيان عن صفوان (الرافع)بدل(المانع)، ووقع في صحيح

---

[1] كالحاكم في المستدرك ١ / ٥٧، وقال : هذا حديث محفوظ من حديث أيوب وهشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مختصراً دون ذكر الأسامي الزائدة فيها ، وعبد العزيز بن الحصين ثقة ، قال الذهبي : " بل ضعفوه " وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠ / ٢٧ ، طبعة دار الفكر ، والبغوي في شرح السنة ٥ / ٣٢ ، طبعة مكتبة المعارف .

[2] انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٢ / ٤٨٢ ،

[3] انظر شرح السنة للبغوي ٥ / ٣٥

[4] انظر مجموع الفتاوى ٢٢ / ٤٨٢

ابن خزيمة في رواية صفوان أيضاً مخالفة في بعض الأسماء قال: (الحاكم) بدل (الحكيم) و(القريب)بدل(الرقيب)و(المولي)بدل(الوالي)و(الأحد) بدل(المغني) .

ووقع في رواية البيهقي وابن منده من طريق موسى بن أيوب عن الوليد (المغيث) بالمعجمة والمثلثة بدل (المقيت) بالقاف والمثناة ...)[1]

وهذا كله يدل على عدم صحة رفع تعيين الأسماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو دليل أيضاً على عدم حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد المعين، وهو أيضاً دليل على عظمة الرب وكبريائه، وأن العباد لا يحيطون به علماً وهو المراد تقريره هنا .

الأمر الثالث : اعتقاد أن دلالة الأسماء الحسنى على معانيها دلالة حقيقية ، مطابقةً وتضمناً والتزاماً، [2] فاسمه تعالى (الرحمن) يدل على الذات وعلى صفة الرحمة مطابقةً ، ويدل على الذات وحدها وعلى صفة الرحمة وحدها تضمناً، ويدل على صفة الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، وغيرها التزاماً، وعلى هذا سائر أسماء الله الحسنى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((فأسماؤه كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة، ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر، فالعزيز يدل على نفسه مع عزته، والخالق يدل على نفسه مع خلقه، والرحيم يدل على نفسه مع رحمته، ونفسه تستلزم جميع صفاته، فصار كل اسم يدل على ذاته والصفة

---

[1] فتح الباري ١١ / ٢١٦ .

[2] المراد بدلالة المطابقة هو دلالة اللفظ على تمام معناه، وسميت مطابقة للتطابق الحاصل بين معنى اللفظ وبين الفهم الذي استفيد منه .

والمراد بدلالة التضمن : دلالة اللفظ على بعض معناه، وسميت تضمناً لأن اللفظ قد تضمن معنى آخر إضافة إلى المعنى الذي فهم منه .

والمراد بدلالة الالتزام : دلالة اللفظ على معنى خارج عن معناه إلا أنه لازم له، وسميت التزاماً لأن المعنى المستفاد لم يدل عليه اللفظ مباشرة لكن معناه يلزم منه هذا المعنى المستفاد . انظر معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ، للأستاذ / محمد بن خليفة التميمي ، ص : ٤٢٤ – ٤٢٥ ، ط/١، ١٤١٧ هـ دار إيلاف الدولية.

المختصة به بطريق المطابقة، وعلى أحدهما بطريق التضمن، وعلى الصفة الأخرى بطريق اللزوم)) [(١)] .

وقال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله : ((واعلم أن دلالة أسماء الله تعالى حق على حقيقتها، مطابقة، وتضمناً، والتزاماً، فدلالة اسمه تعالى (الرحمن) على ذاته عز وجل مطابقة، وعلى صفة الرحمة تضمناً، وعلى الحياة وغيرها التزاماً، وهكذا سائر أسمائه تبارك وتعالى، وليست أسماء الله تعالى غيره، كما يقوله الملحدون في أسمائه، تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً؛ فإن الله عز وجل هو الإله وما سواه عبيد، وهو الرب وما سواه مربوب، وهو الخالق وما سواه مخلوق، وهو الأول فليس قبله شيءٌ، وما سواه محدث كائن بعد أن لم يكن، وهو الآخر الباقي فليس بعده شيءٌ، وما سواه فان، فلو كانت أسماؤه غيره-كما زعموا- لكانت مخلوقة مربوبة محدثة فانية ؛ إذ كل ما سواه كذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً)) [(٢)] .

الأمر الربع : أن من أسماء الله الحسنى ما لا يطلق عليه إلا مقروناً بما يقابله من أسمائه تعالى ؛ إذ لو أطلق عليه مفرداً مجرداً لأوهم ذلك نقصاً في حقه سبحانه، ومن هذا النوع :

اسمه تعالى: (المانع) لا يطلق على الله إلا مقروناً باسمه (المعطي) فيقال: (المانع المعطي) واسمه تعالى: (الضار) يذكر مقرونا باسمه (النافع) فيقال : (النافع الضار)واسمه تعالى: (القابض) يذكر مقرونا باسمه(الباسط) فيقال: (القابض الباسط)وكذلك اسمه : (الخافض) يقرن بالرافع فيقال: (الخافض الرافع) فهذه الأسماء وما أشبهها مما يوهم النقص عند تجرده عن مقابله، لا تطلق على الله تعالى مجردة [(٣)] ؛ لأن الكمال والثناء والتعظيم يكون في اقترانها دون تجردها.

الأمر الخامس : هناك أفعال أخبر الله بها عن نفسه، في مواضع خاصة، وهي تدل على صفات لائقة به سبحانه، ولكن، لا يجوز أن يشتق من تلك الأفعال أسماء له سبحانه؛ لأنها

---

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص : ١٤٨ ، ط/٥ ، ١٤١٦ هـ المكتب الإسلامي .

(٢) معارج القبول ١ / ١١٩-١٢٠ . تحقيق / عمر محمود أبو عمر ، ط/٣ ، ١٤١٥ هـ ، دار ابن القيم .

(٣) انظر بدائع الفوائد ١ / ١٦٧ .

أفعال منقسمة إلى ما يحمد وما يذم، وما كان كذلك فلا يدخل في أسماء الله الحسنى؛ إذ أسماؤه تعالى كلها محمودة على الإطلاق، وذلك مثل المخادعة، كما في قوله تعالى: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ [1] والمكر كما في قوله تعالى : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ [2] والاستهزاء كما في قوله تعالى : ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [3] ونحو ذلك من النصوص التي ورد فيها صفات كهذه، فهي تتضمن في حق الله في هذه المواضع مدحاً وكمالاً، ومع ذلك لا يجوز أن يطلق عليه : المخادع، ولا الماكر، ولا المستهزيء، على صورة أسماء له، كما لا يجوز أن يخبر عنه بأنه يخادع، ويمكر، ويستهزئ ، على سبيل الإطلاق، إلا أن يذكر معه من يفعل به المكر والخداع والاستهزاء، ممن هو أهل لذلك من أعدائه الكفار والمنافقين ، على سبيل الجزاء والمقابلة ، فيقال – مثلاً – : الله يخادع المنافقين، ويستهزئ بهم، ويمكر بالكلفرين، ونحو ذلك .

******* ************** ******** **********

المبحث الثاني :

وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته

الواردة في الكتاب والسنة :

الإيمان بأسماء الله وصفاته الثابتة في الكتاب والسنة الصحيحة، واجب كوجوب الإيمان بالله تعالى، وبرسوله ، وبالكتب المنزلة من عنده سبحانه؛ ذلك لأن الإيمان بالله- وهو أشرف أصول الإيمان وأعظمها، بل إن بقية أركان الإيمان فروع عليه-((هو الاعتقاد

---

(1) سورة النساء / ١٤٢ .

(2) سورة آل عمران / ٥٤

(3) سورة البقرة / ١٥

الجازم بأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه متصف بصفات الكمال، منزه عن كل عيب ونقص، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والقيام بذلك علماً وعملاً))[1]

إذن فالإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، لابد من اجتماعها لحصول الإيمان وصحته،

الأول : الإيمان بوجوده تعالى .

الثاني : الإيمان بربوبيته أي بأنه الرب الذي له الخلق كله، والملك والتدبير ، ولا شيء من ذلك لأحد سواه .

الثالث : الإيمان بألوهيته، أي بأنه الإله الذي لا يعبد بحق إلا إياه، مع العمل بمقتضى ذلك

الرابع : الإيمان بأسمائه وصفاته، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

فمن لم يؤمن بوجود الله فليس بمؤمن، ومن آمن بوجوده و لم يؤمن بانفراده بالربوبية فليس بمؤمن، ومن آمن بذلك و لم يفرده بالألوهية فليس بمؤمن، ومن آمن بوجوده وربوبيته وألوهيته و لم يؤمن بما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، صار إنكاره لذلك إنكاراً لما تقدم لزوماً [2]؛ لأنه لا يتصور في الواقع موجود ليس له صفة-كما يزعم ذلك غلاة المعطلة –تعالى الله وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ،- والله سبحانه أكمل الموجودات وجوداً، ومقتضى ذلك أن يكون أولى بصفات الكمال التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :((ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه العزيز، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف، ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل)) [3] .

---

[1] شرح العقيدة الواسطية للشيخ / صالح الفوزان ص : ١١ .

[2] انظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله ١ / ٥٥ .

[3] العقيدة الواسطية لابن تيمية، مع شرحها للشيخ/ محمد خليل هراس ص : ٦٥ .

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: ((لا يستقر للعبد قدم في المعرفة، ولا قدم في الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرج عن حد الجهل بربه، فالإيمان بالصفات وتعرفها، هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان)) [1] .

ومن هنا يتبين أن معرفة أسماء الله وصفاته شرط في معرفة الله تعالى ومعرفة عظمته وكبريائه، وكونه أكبر من كل شيء، وأن الإيمان بها والإقرار بثبوتها لله عز وجل شطر في الإيمان بوجود الله تعالى، لا يحصل بدونه ، ولكن هذه الحقيقة ذهبت عن عقول المعطلة .

وكذلك الأمر بالنسبة للقرآن الكريم وسائر كتب الله المنزلة، لا تصح دعوى الإيمان بها وتصديقها إلا مع الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ لأننا مأمورون بالإيمان بالكتاب كله ومن جملة ما جاء فيه ، بل من أكثر ما جاء به الكتاب أسماء الرب جل وعلا وصفاته .

وقد عاب الله تعالى قوماً فرقوا في الإيمان بين أجزاء الكتاب الواحد ، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ ثم توعد من فعل ذلك بالخزي في الدنيا، والعذاب الشديد في الآخرة، فقال : ﴿ فما جزاء من يفعلْ ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾[2] .

ففي الآية ذم بليغ، ووعيد شديد، لكل من جحد شيئاً- ولو يسيراً- من القرآن الكريم و لم يؤمن به، فكيف بمن جحد أكثر ما ورد به القرآن! وهو أسماء الله وصفاته، فإن ما فيه من تقرير الإيمان بثبوتها أكثر مما فيه من تقرير الأحكام الشرعية الفرعية .

وهكذا الأمر في الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، من لوازم صحته وتحققه الإيمان والإقرار بأسماء الله وصفاته، التي حواها كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فهو شرط لتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله، فإن معناها :

---

[1] مدارج السالكين ٣ / ٣٤٧ .

[2] سورة البقرة / ٨٥ .

(طاعته فيما أمر) ومما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم التصديق بالقرآن كله، محكمه ومتشابهه، ومن محكم القرآن باب الأسماء والصفات، التي تعرف الله بها إلى عباده، وتعبدهم بذكره ودعائه بها .

(وتصديقه فيما أخبر) ومما أخبر به صلى الله عليه وسلم: أن لله تعالى أسماء الله وصفات، فيكون الإيمان بها واجبا من جهة أنه تصديق للنبي صلى الله عليه وسلم، وجحدها بأي طريق كان يعد تكذيباً له فيما أخبر به عن ربه جل وعلا ! .

(واجتناب ما عنه نهى وزجر) ومما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم الخوض في كتاب الله بالباطل، ولا ريب أن عدم الإيمان بالأسماء والصفات، وصرف ألفاظها عما دلت عليه من المعاني العظيمة، اللائقة بجلال الله وكبريائه، بالتأويلات المتكلفة، الآيلة بأصحابها إلى التعطيل الصرف، أو بتشبيهها بصفات المخلوقين الناقصين، هو من الخوض في كتاب الله بالباطل، وهو تقول على الله سبحانه، وفاعل ذلك غير مطيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به وفيما نهى عنه، بل هو متقدم عليه، ومستدرك عليه ما لم يكن قد علمه من القرآن! مما لا تصلح أحوال الناس، ولا يصح إيمانهم إلا به — في زعمه- وهذا لسان حال المعطلة والمؤولة، وهو واضح في تعاملهم مع النصوص المشتملة على أسماء الله وصفاته .

(وأن لا يعبد الله إلا بما شرع) ومن تعبد لله تعالى بهذه التأويلات التي يريد بها- في زعمه - التعظيم والتتريه لله تعالى، فقد عبده بغير ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان بذلك مبتدعاً، مشرعاً في دين الله ما لم يأذن به الله .

وقد أدرك السلف رحمهم الله هذا التلازم بين الإيمان بالله والإقرار بما له من الأسماء والصفات، الواردة في نصوص القرآن والسنة، وعلموا أن الإيمان بالله لا يمكن أن يتحقق بدون الإيمان بأسمائه وصفاته، فجاءت أقوالهم مجمعة على وجوب الإيمان بها، وشددوا النكير على من خالفهم في ذلك، حتى مع زعمه إرادة التتريه والتعظيم لله عز وجل، واعتبروا فعلهم هذا غلطاً فاحشا في فهم تعظيم الله جل وعلا، بل حكموا عليهم بالكفر الأكبر، بعد قيام الحجة عليهم وانتفاء موانع التكفير .

قال الإمام الشافعي رحمه الله: ((لله أسماء وصفات لا يسع أحداً قامت عليه الحجة ردها؛ لأن القرآن نزل بها، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القول بها، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه،فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر، فمعذور بالجهل، لأن علم ذلك لايدرك بالعقل، ولا بالروية والفكر))[1] .

وقال الإمام الأوزاعي[2]رحمه الله: ((كنا والتابعون متوافرون نقول : إن الله عز وجل فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته)) [3] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((وقد حكى الأوزاعي- وهو أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين- شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية، وإنما قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم، المنكر لكون الله فوق عرشه، النافي لصفاته؛ ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف هذا))[4] .

وقال أبو عيسى الترمذي رحمه الله بعد روايته حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره ...)) الحديث [5]: ((... و قد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث وما يشبه هذا من الروايات، من الصفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، قالوا: قد ثبتت الروايات في هذا، ويؤمن بها، ولا يتوهم ولا

---

(١) الأربعين في صفات رب العلمين، للذهبي ص : ٨٤ ، تحقيق / عبد القادر بن محمد عطا صوفي ، ط/١، ١٤١٣هـ مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة .

(٢) هو: أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي شيخ الإسلام، وعالم أهل الشام، كان مولده سنة ٨٨ هـ، ببعلبك، وكان من الأئمة المقتدى بهم، علماً وعملاً، صادعاً بالحق قوالاً به، لا يخاف فيه لومة لائم ، توفي سنة ١٥٧ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٧ / ١٠٧

(٣) العلو للعلي الغفار للذهبي ص : ١٣٦ .

(٤) الفتوى الحموية ص: ٢٣ -٢٤ ، ط/٤، ١٤٠١هـ ، المطبعة السلفية ، القاهرة .

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة، ح : ٦٦٢ ، ٣ / ٤١ . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

يقال كيف ؟!، هكذا روي عن مالك بن أنس [1] وسفيان بن عيينة [2] وعبد الله بن المبارك[3] أنهم قالوا في هذه الأحاديث: ((أمروها بلا كيف)) [4]، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات، وقالوا : هذا تشبيه، وقد ذكر الله عز وجل في غير موضع من كتابه اليد والسمع والبصر، فتأولت الجهمية هذه الآيات ففسروها على غير ما فسر أهل العلم، وقالوا: إن الله لم يخلق آدم بيده وقالوا: إن معنى اليد ههنا القوة)) [5] .

وإذا تبين مما تقدم أن معتقد السلف من لدن القرن الأول الذي عاش فيه النبي صلى الله عليه وسلم، كان على وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته، فلا يسع المسلم الحريص على إيمانه ودينه، إلا موافقتهم في اعتقاد ما اعتقدوه في ربهم، بإثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، على وجه يليق بجلال الله وعظمته، كيف لا ؟! وقد زكى الله معتقدهم وتوعد من لم يؤمن بمثل ما آمنوا به فقال تعالى: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [6]

---

(1) يعني الأثر المشهور عن مالك رحمه الله (الاستواء معلوم والكيف مجهول ... إلخ والأثر أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ٣ / ٤٤١ رقم : (٦٦٤) والصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث ص : ٣٨ -٣٩ ، والذهبي في العلو ص : ١٣٨ -١٣٩ ، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٣ / ٤٠٦ -٤٠٧) : (وأخرج البيهقي بسندٍ جيدٍ عن عبد الله بن وهب قال كنا عند مالك ...) فذكره

(2) هو أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي، ولد بالكوفة سنة ١٠٧ هـ وكان نظير مالك رحمهما الله في العلم والإتقان واتباع السنة، توفي سنة ١٩٨ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٥٤ .

(3) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي شيخ الإسلام، ولد سنة ١١٨ هـ وكان قد جمع بين الحديث ، والفقه ، والعربية، وأيام الناس ، والشجاعة ، والسخاء ، والتجارة ، وكان مع تبحره في العلم مجاهدا في سبيل الله ، توفي رحمه الله سنة ١٨١ هـ انظر سير أعلام النبلاء ٨ / ٣٧٨ -٤٢١ .

(4) هذا الأثر أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٣ / ٥٥٨. عن الأوزاعي ، والثوري ، ومالك ، والليث بن سعد .

(5) سنن الترمذي ٣ / ٤١ -٤٢ .

(6) سورة البقرة /١٣٧ ، فالهداية إذً منحصرة في الإيمان بما آمن به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﭫ وليس بعد الهدى إلا الضلال والعمى .

وقال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولـــه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ [1] .

ومعلوم أن من جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فإنه لم يؤمن بمثل ما آمنوا به، كما أنه بذلك مشاقق لله ولرسوله، غير متبع سبيل المؤمنين، فيكون له نصيب وافر من الوعيد الوارد في هاتين الآيتين .

وإذا كان مخالفة سبيل المؤمنين في فرع من فروع الدين أجمعوا عليه تعتـــبر مشـــاقة متوعداً عليها بالنار، فكيف بمخالفتهم في أصل أصول الدين، أعني ما يتعلـــق بمعرفـــة الله وإثبات ما يجب له من صفات الكمال ونعوت الجلال ؟! .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((فحيث تقرر أن من اتبع غير سبيلهم ولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم ، فمن سبيلهم في الاعتقاد : الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه ، التي وصف بها نفسه ، وسمى بها نفسه في كتابه وتنزيله ، أو على لسان رسوله -صلـــى الله عليه وسلم- من غير زيادة عليها ، ولا نقص منها ، ولا تجاوز لها ، ولا تفسير لهـــا ، بل أمروها كما جاءت ، وردوا علمها إلى قائلها ، ومعناها إلى المتكلم بها)) [2]

---

[1] سورة النساء / ١١٥ .

[2] مجموع الفتاوى ٤ / ٢ .

المبحث الثالث :

التلازم بين تكبير الله وتعظيمه

وبين إثبات أسمائه وصفاته :

تقدم بيان أن معنى كلمة التكبير ومدلولها هو أن يكون الله في قلب العبد أكبر وأعظم وأجل من كل شيء، ذاتا وقدرا، ومترلة، فليس ثم شيء يداني الله أو يساويه في شيء من ذلك، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا المعنى الذي انعقد في قلبه، وهذه الحقيقة -أعني كونه سبحانه أكبر من كل شيء - التي تدل عليها هذه الكلمة، تدل على كمال الله المطلق ، وكماله سبحانه يقتضي ثبوت أسمائه وصفاته؛ إذ من المعلوم بالبداهة : أنه لا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم، ولا فعل؛- ونفاة الصفات وإن كانوا لا يعتقدون أن نفيهم للصفات يتضمن نفي الذات الإلهية، إلا أن ذلك لازم لهم لا محالة-[1] ؛ ولذلك عد مذهب المعطلة في صفات الله وأسمائه، بنفيها عن الله تعالى إلحاداً ظاهراً، وأنه من أعظم المكائد التي كيد بها الإسلام وأهله، فإنهم عكسوا الأمر المعلوم عقلا وسمعا، فراحوا يذمون الأمر المحمود، وهو إثبات صفات الكمال والمدح للرب عز وجل، كما أثبتها لنفسه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق، ويمدحون الأمر المذموم عقلاً وشرعاً وفطرةً، القائم على النفي والجحد المحض، المضاد لكتاب الله الصريح وسنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة الثابتة، وأوهموا من لا يعرف حقيقة مذهبهم أن ذلك غاية التعظيم والإكبار والتقديس الواجب لله تعالى، وهو عند التحقيق غاية التنقص من جناب الرب العظيم الكبير، ومنتهى الجراءة عليه، وعلى نصوص وحيه المعصوم — وأنى يكون تكذيب الكتاب والسنة ومعارضتهما بما يسمى قواطع عقلية !! تعظيما لله عز وجل ؟!.

---

[1] انظر درء تعارض العقل والنقل ١ / ٣٠٧ .

وقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بصفات كثيرة كالعظمة، والمجد، والبيان، وغيرها من صفات القرآن، ومقتضى هذه الصفات: أن تكون أخباره كلها صادقة، وأحكامه كلها عادلة، وأن يكون في غاية من البيان والوضوح، يجعله في غنىً تامٍّ عن تأويل المؤولة وتفويض المفوضة، الظانين به ظن السوء، والذين ينطق لسان حالهم صراحة بأن القرآن قاصر في بيان مراد الله تعالى به، بل في بيان أهم شيء يسعى العباد في تحصيله، والوقوف عليه، وهو العلم بالله عز وجل، عن طريق أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأنه مشتمل على ما يجب أن يعظم الله تعالى وينزه عنه !! .

وهذا الظن لا شك أنه يتنافى مع تعظيم القرآن والسنة، و هو هضم لقداستهما، كما يتنافى مع تعظيم الله تعالى المتكلم بالقرآن .

ومن هنا كان من معتقد أهل السنة والجماعة: أن تعظيم الله وإجلاله وتكبيره الذي يدل عليه قول : ((الله أكبر)) يستلزم ضرورةً إثبات أسمائه وصفاته، التي يستدل بها على عظمته وكبريائه، فكان تعاملهم مع نصوص الكتاب والسنة ـ بناء على هذا ـ في هذا الباب وغيره على النحو الآتي :

١ ـ اعتقاد أن القرآن كلام الله حقاً، لا كلام غيره من البشر، كما ادعى ذلك مشركو العرب في قول قائلهم كما حكاه القرآن عنه: ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ [1]

٢ ـ اعتقاد أن الأصل في نصوص القرآن والسنة: إجراؤها على ظواهرها المتبادرة منها إلى الذهن السليم، السالم صاحبه من التأثر بالخيالات والأوهام الفاسدة، دون تعرض لها بتأويل أو تحريف .

٣ ـ اعتقاد أن ظاهرها هو مراد المتكلم بها، وخاصة ما يتعلق منها بأصول الدين والإيمان بالله؛ إذ لا مجال للرأي فيها، هذا مع الإيمان والاعتقاد الجازم بأن المتكلم بها هو أفصح المتكلمين، وأنصحهم لمن يخاطبهم، وأقدرهم على البيان والإيضاح عما يريده، ومن كان كذلك، وجب أن يصان كلامه وينزه عن الإلغاز والتعقيد، والتعمية على السامع؛ فإن هذه الأمور تنافي الفصاحة، والقدرة على البيان، والنصح للمخاطبين .

---

[1] سورة المدثر / آية: ٢٥).

٤ ــ تعظيم كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم عن أن يدل على المعاني الباطلة، أو على شيء غير لائق بعظمة الله وكبريائه، خلافا لما يعتقده المؤولة المتكلفون .

قال ابن أبي العز رحمه الله : ((ويجب أن يعلم: أن المعنى الفاسد الكفري، ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه؛ فهو لقصور فهمه، ونقص علمه)) [1]

وهو كما قال الشاعر :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم [2]

٥ ــ الإيمان بكل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سنته المطهرة، سواء عرفوا معناه أم لم يعرفوه، [3] أدركته عقولهم أم لم تدركه، [4] وهذا ناتج عن اعتقادهم عصمة الكتاب والسنة من الخطأ والغلط؛ ولذلك أمر

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص : ١٨٥ .

(٢) ديوان المتنبيء ٤ / ٢٤٦ ، جمع عبد الرحمن البرقوني ، ط/ دار الكتاب العربي .

(٣) يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : (فالحاصل من مجموع ما تقدم أن الصحابة ومن بعدهم لم يعارضوا ما في السنن بآرائهم، علموا معناه أو جهلوه، جرى لهم على معهود أولا) الاعتصام للشاطبي ٢ / ٨٥٠ ، تحقيق / سليم بن عيد الهلالي .

وليس المراد هنا أن شيئاً من النصوص لا يعلم معناه عند جميع الخلق ، بل قد يتأخر الفهم عند بعض الناس ، وليس لازم الكلام المفهوم أن يفهمه جميع الناس ، انظر مجموع الفتاوى ١٧ / ٣٩٥-٣٩٦ .

(٤) يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (إن وجوب تصديق كل مسلم بما أخبر الله به ورسوله من صفاته ليس موقوفاً على أن يقوم دليل عقلي على تلك الصفة بعينها ، فإنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أخبر بشيء من صفات الله تعالى وجب علينا التصديق به ، وإن لم نعلم ثبوته بعقولنا ، ومن لم يقر بما جاء به الرسول حتى يعلمه بعقله فقد أشبه الذين قال الله عنهم : ﴿ وإذا جآءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته ...﴾ الآية من سورة الأنعام: الآية : ١٢٤ . ومن سلك هذا السبيل فهو في الحقيقة ليس مؤمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم ولا متلقياً عنه الأخبار بشأن الربوبية ، ولا فرق عنده بين أن يخبر الرسول بشيء من ذلك أو لم يخبر به ، فإن ما أخبر به إن لم يعلمه لا يصدق به ، بل يتأوله أو يفوضه ، وما لم يخبر به إن علمه بعقله آمن به وإلا فلا) شرح الأصفهانية ص : ٢٧ -٢٨ ، تحقيق / إبراهيم سعيداى ، ط/١ ، ١٤١٥ هـ مكتبة الرشد ، الرياض .

الله تعالى بالرجوع إليهما عند التنازع، ولولا عصمتهما لما كان لهما على غيرهما ميزة في عدم احتمال الخطأ فيهما، ولا كان للإحالة إليهما عند التزاع وجه.

٦ ــ الاعتقاد الجازم بأن نصوص القرآن والسنة لا يمكن معارضتها بشيء من المعقولات الصريحة، ومن ظن ذلك ــ أعني جواز التعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح ــ فقد ظن بها ظن السوء ، و لم يقدرها حق قدرها، كما لم يقدر المتكلم بها حق قدره .

إذا كان هذا هو حال أهل السنة والجماعة في التعامل مع النصوص، وخاصة النصوص المخبرة عن الله تعالى بأسمائه وصفاته، وتبين من ذلك أنهم هم المعظمون لله تعالى حقاً، فما هو حال غيرهم ممن دخل في شيء من الكلام الفاسد المبتدع مع النصوص ؟

إن حال أولئك مع النصوص على النقيض من حال أهل السنة معها، فإنهم- لسوء ظنهم بالنصوص وخاصة نصوص الأسماء والصفات -، لم يترهوها عن أن تدل على المعاني الفاسدة التي لا تليق بعظمة الله وكبريائه، ولهذا أخضعوها-وبكل جرأة- لآرائهم أو لأهوائهم، فأنكروا ثبوتها تارة، بالطعن في أسانيدها وإن كانت مثل الشمس، [1] أو أنكروا

---

(١) انظر مثالاً لذلك ما صنعه القاضي عبد الجبار المعتزلي في حديث ((إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)) وهو حديث متفق عليه ومع ذلك فقد تكلف الرد عليه فقال : ولنا في الجواب على هذا طرق ثلاثة: أحدها : هو أن هذا الخبر يتضمن الجبر والتشبيه ؛ لأنا لا نرى القمر إلا مدوراً عالياً منوراً ، ومعلوم أنه لا يجوز أن يرى القديم تعالى على هذا الحد فيجب أن نقطع على أنه كذب على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يقله ، وإن قاله فإنه حكاية عن قوم كما ذكرنا .

والطريقة الثانية : هو أن هذا الخبر روي عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله البجلي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيس هذا مطعون فيه من وجهين : أحدهما أنه كان يرى رأي الخوارج ... والثاني : قيل إنه خولط في عقله آخر عمره والكتبة يكتبون عنه على عادتهم في حال عدم التمييز ، ولا ندري أن هذا الخبر رواه وهو صحيح العقل أو مختلط العقل .

والطريقة الثالثة : هو أن يقال : إن صح هذا الخبر وسلم فأكبر ما فيه أن يكون خبراً من أخبار الآحاد ، وخبر الواحد مما لا يقتضي العلم ومسألتنا طريقها القطع والإثبات . شرح الأصول الخمسة ص : ٢٦٨-٢٦٩ .

والشاهد في طعنه على قيس بن أبي حازم ، مع ثناء الأئمة عليه ووصفهم إياه بصفات التوثيق والتعديل ، قال الإمام الذهبي رحمه الله في ترجمته : العالم الثقة الحافظ ... وكان من علماء زمانه ... وقال أبو داود : أجود التابعين إسناداً قيس وقد روى عن تسعة من العشرة انظر سير أعلام النبلاء ٤ / ١٩٩-٢٠٠ .

= =

معانيها ودلالاتها، عن طريق صرف ألفاظها عن ظواهرها المفهومة منـــها، بدعـوى أن إجراءها على الظاهر لا يليق بعظمة الله وكبريائه، وأن ذلك يتعارض مع مـا يسـمونه بالقواطع العقلية!! التي تقضي بسلب جميع الأعراض عن الله تعالى، وظاهر آيات الأسمـاء والصفات وأحاديثها، أعراض عندهم، فوجب- إذن- تسليط قانون التأويل (التحريـف) عليها، واختراع معاني أخرى من عند أنفسهم، لا تقتضيها اللغة، ولا يدل عليها سـياق الكلام ، وكل ذلك بأساليب وعبارات يخيل للناظر في كتبهم والسامع لكلامهم أنهم أشد الناس تعظيما لله عز وجل، وتتريها له عن مشابهة المخلوقين .

والحق: أنهم هلكوا حيث أرادوا السلامة، فروا من التشبيه المتخيل الذي لا حقيقة له، فوقعوا في التعطيل المتحقق وهو أشد قبحا مما فروا منه [1] .

والمقصود: أن تكبير الله وإجلاله يقتضي تصديق أخباره كلها، وخاصة ما أخبر بـه عن نفسه من أسمائه وصفاته وأفعاله، التي هي مظاهر عظمته وكبريائه، كما يوجب علينـا تكبير الله وتعظيمه أن نصون كلامه عن الخيالات الفاسدة، والأوهام الباطلـة، فـالقرآن الكريم أعظم من أن يكون ألعوبة يتكلم فيه من شاء بما شاء، بعلم أو بغير علم ، ومـن لم يعظم القرآن ويتره عن ذلك، لم يعظم الله الذي تكلم به، فالله سبحانه أكبر من أن يتكلم بكلام مشتمل على باطل لا يليق به، ويجب تتريهه عنه، وهو سبحانه أعظم من أن يحـوج خلقه إلى عقول المتكلمين- الذين هم في الحقيقة تلامذة الفلاسفة الكفار- ليبينوا لهـم أن في القرآن ما لا يجوز اعتقاده في الله عز وجل، وأنه يتنافى مع عظمته وكبريائه، ونحن نعلـم قطعاً أنه ليس هناك أعلم بالله من نفسه، ولا هناك أعلم بالله بعد الله من رسول الله صلـى

==

وقال في ميزان الاعتدال ٥ / ٤٧٦ : ثقة حجة كاد أن يكون صحابياً ، وثقه ابن معين والناس ... ثم قال الذهبي : أجمعوا على الاحتجاج به ، ومن تكلم فيه فقد آذى نفسه ، نسأل الله العافية وترك الهوى .

وقال الحافظ ابن حجر عن قيس : وهو متقن الرواية . تهذيب التهذيب ٨ / ٣٣٦ .

[1] كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (إن مرض التعطيل أعظم من مرض التشبيه، فمن يعبد إلهـاً موجوداً موصوفاً بما يعتقده هو من صفات الكمال وإن كان مخطئاً في ذلك خير ممن لا يعبد شيئاً، أو يعبد مـن لا يوصف إلا بالسلوب والإضافات) درء تعارض العقل والنقل ١٠ / ٣٠٦ ، ومجموع الفتاوى ١٣ / ١٥٤ .

الله عليه وسلم، فكيف- والأمر كذلك- لم يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علمه المتكلمون في هذه الآيات والأحاديث؟! وإذا كان قد علمه فكيف لم يحذر أمته عن اعتقاد ظواهرها، -مع تضمنها ما لا يليق بالله عز وجل- ؟! وهو الحريص عليهم، الرؤوف الرحيم بهم، كما وصفه الله تعالى[1] .

وتبين مما سلف أن تكبير الله وتعظيمه وإثبات أسمائه وصفاته قرينان متلازمان، فلا يمكن معرفة الله فضلا عن تكبيره وإجلاله، فضلاً عن اعتقاد كونه أكبر من كل شيء، بدون الإيمان بأسمائه وصفاته، فمن زعم أنه يكبر الله ويجله ولا يثبت له شيئاً من الأسماء الحسنى، ولا شيئاً من الصفات العلى، زعم المحال !! .

وعلى هذا : فالمعطلة لم يكبروا الله جل جلاله، فضلاً عن أن يجعلوه أكبر من كل شيءٍ كما يدل عليه قول المسلمين: (الله أكبر)، بل إنهم جعلوا كل شيءٍ أكبر منه !!؛ لأن ما يتصف بصفات الكمال أكمل وأعظم مما لا يتصف بها، أو لا يقبل الاتصاف بها .

يقول ابن القيم رحمه الله:- وهو يتكلم عن كبرياء الرب تعالى وعلوه وفوقيته ذاتا وقدراً-((... إن تعطيل ذاته المقدسة عن وصفها بذلك، وجعل ذلك مجرد أمر معنوي؛ يقتضي سلب ذلك عنه بالكلية، ولا سيما عند الجهمية النفاة لصفاته وأفعاله، فإنه عندهم لا تقوم به صفة ثبوتية يستحق بها أن يكون أعظم من غيره وأكبر منه، وفوقه، وأعلى منه، فإنهم لا يجعلون ذلك عائداً إلى ذاته؛ لأنه يلزم منه عندهم التجسيم، فليست ذاته عندهم موصوفة بكبر ولا علو ولا فوقية، وليس له عندهم صفة ثبوتية تكون عظمته وفوقيته وعلوه لأجلها، فإن إثبات الصفات عندهم تستلزم التركيب، ولا له فعل يقوم به يكون به أعظم وأكبر من غيره، إلا ما يرجع إلى مجرد السلب والنفي والعدم، مثل كونه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا تحله الحوادث، ولا يفعل لحكمة ولا مصلحة، ولا له وجه ولا يدان، ولا يترل كل ليلة إلى سماء الدنيا، ولا هو مستوٍ على عرشه، ولا يراه المؤمنون في الجنة، ولا يكلمهم، ولا كلم موسى في الدنيا ... ونحو ذلك من النفي والسلب، الذي

---

[1] في قوله: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ سورة التوبة / آية: (١٢٨).

يفرون عنه بنفي التشبيه ثم ينفونه عنه، وحقيقة ذلك نفي ذاته وصفاته وأفعالـــه، فـــهذا حقيقة كونه أكبر من كل شيء وأعظم منه وفوقه وعالياً عليه عندهم، وحقيقة ذلك نفـــي هذا عنه، وجعل كل شيء أكبر منه، لأن ما لا ذات له ولا صفة ولا فعل، فكل ذات لهـــا صفة أكبر منه، فالقوم كبروه وعظموه ونزهوه عن وجوده، فضلاً عن صفـــات كمالـــه وأفعاله)) [1] .

وقال العلامة السعدي رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ : ((أي عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه بأسمائه الحسنى، وبتحميده بأفعاله المقدســة وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له وإخــلاص الدين كله له)) [2] .

وهذا التفسير يدل على أنه يستحيل على قول المعطلة أن يكون الله تعالى كبيراً عظيماً فضلاً عن كونه أكبر من كل شيء، وهذا على قول المقتصدين منهم، أعني الذين يثبتون له الأسماء وينكرون الصفات، أومن يثبت الأسماء وبعض الصفات وينكر بعضاً آخر، وأمـــا على قول غلاتهم الذين ينكرون الأسماء والصفات جميعاً، أو غلاة الغلاة الذين ينفون عـــن الله تعالى النقيضين !- الإثبات والنفي-، فإنه يستحيل وجوده، كما هو معلوم ! كـــبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

---

(1) الصواعق المرسلة ٤ / ١٣٧٩ – ١٣٨٠ .

(2) تفسير السعدي ٤ / ٣٣٣ .

الفصل الثاني :

دلالة التكبير على تنزيه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقات

في شيء من صفاته: وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول:

المشبهة ومذهبهم في صفات الله عز وجل

وبيان تنافيه مع تكبير الله وتعظيمه :

المبحث الثاني:

بطلان مذهب المشبهة من جهة النقل والعقل:

المبحث الثالث:

موقف علماء أهل السنة والجماعة من التشبيه

والمشبهة:

المبحث الأول:

المشبهة ومذهبهم في صفات الله عز وجل

وبيان تنافيه مع تكبير الله وتعظيمه:

أولاً : التعريف بالتشبيه والمشبهة:

المشبهة اسم فاعل من الفعل: شبّه يشبّه تشبيهاً .

والتشبيه في اللغة: التمثيل"[1] يقال: شبّه الشيء بالشيء إذا مثّله به وأقامه مقامه .

وقد قيل : إن بين التشبيه والتمثيل فرقاً ضئيلاً في اللغة :

فالتشبيه: تسوية الشيء بغيره في أكثر الصفات، والتمثيل: تسوية الشيء بغيره في كل الصفات [2] .

أقسام التشبيه:

ينقسم التشبيه في باب الأسماء والصفات إلى قسمين :

الأول: تشبيه المخلوق بالخالق، وذلك باعتقاد استحقاق المخلوق للصفات التي لا تنبغي إلا للخالق سبحانه وتعالى، وهذا ما ادعاه النصارى الضالون في المسيح ابن مريم عليه السلام، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

((والنصارى يصفون المخلوق بصفات الخالق التي يختص بها ويشبهون المخلوق بالخالق، حيث قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم، وإن الله ثالث ثلاثة،وقالوا: المسيح ابن الله))[3] تعالى الله عن قولهم علوا كبيراً .

---

[1] الصحاح للجوهري ٦ / ٢٢٣٦ ، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار، ط/١ ، ١٣٧٦ هـ دار العلم للملايين.

[2] انظر القواعد المثلى للشيخ / محمد بن صالح بن عثيمين ص: ٣٦ .

[3] منهاج السنة النبوية ٥ / ١٦٩ .

وقد وقع في هذا النوع من التشبيه السبئية [1] من غلاة الرافضة الذين غلوا في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى جعلوه إلهاً، وقالوا له أنت الله فزجرهم عن ذلك وبين لهم أن هذا كفر، فلما تمادوا و لم يتزجروا أمر بأخاديد فخدت عند باب كندة وقذفهم فيها، وقال في ذلك :

لما رأيت الأمر أمرا منكراً　　　أججت ناري ودعوت قنبراً [2]

ويدخل في هذا النوع من التشبيه كل من اعتقد في غير الله صفة من الصفات التي هي من خصائص الله تعالى، أو صرف له شيئاً من العبادة التي هي خالص حق الله تبارك وتعالى فمن فعل ذلك فقد شبه المخلوق بالخالق، وساواه به، وهو بذلك لم يجعل الله أكبر من كل شيء !! .

الثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو اعتقاد أن صفات الخالق- سبحانه- مثل صفات المخلوقين، فالمشبه على هذا: هو من جعل صفات الخالق مماثلة لصفات المخلوقين تعالى الله وتقدس .

وهذا النوع من التشبيه هو الغالب على اليهود- لعنهم الله- [3]؛فإنهم يصفون الرب- تعالى- بصفات النقص التي يختص بها المخلوق، ويشبهون الخالق بالمخلوق، وقد ذكر الله عنهم ذلك في كتابه العزيز في أكثر من موضع،كما في وصفهم إياه بالبخل في قولهم:﴿ يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوابماقالوا ﴾[4]وكما وصفوه بالفقرفي قولهم: ﴿ إن الله

---

[1] هم أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي أول من أظهر القول بالنص على إمامة علي رضي الله عنه ومنه انشعبت أصناف الغلاة، ومن مزاعمه الباطلة أن علياً رضي الله عنه حي لم يمت، وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه الذي يجيء في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق تبسمه، وأنه سيترل إلى الأرض فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً ، والسبئية هم أول فرقة قالت بالغيبة والرجعة ، وتناسخ الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي، وغير ذلك من كفرهم، فلعنهم الله ، انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٢٠٤ — ٢٠٥ .

[2] انظر منهاج السنة ١ / ٣٠٧ ، قال الحافظ ابن حجر عقب ذكره لهذه القصة : وهذا سند حسن ، فتح الباري ١٢ / ٢٧٠ .

[3] انظر منهاج السنة ٥ / ١٦٨ .

[4] سورة المائدة / آية:(٦٤).

فقيرونحن أغنياء ﴾[1] ووصفوه بالندم، والرمد، والبكاء على طوفان نوح عليه السّلام، [2] وغير ذلك من النقائص والعيوب، التي وصفوا بها الخالق سبحانه، والتي هي من خصائص المخلوقين، فهذا النوع من التشبيه نزعة يهودية بل هو طباع فيهم[3] .

وكلا هذين النوعين جناية عظيمة على عظمة الله وكبريائه، والواقع في أي منهما يدل بنفسه على خلو قلبه من الإيمان بالله تعالى فضلاً عن الشعور بعظمته وكبريائه .

هذا وقد اختلف الناس فيمن هم المشبهة ، وفيما هو التشبيه، بعد اتفاق جميعهم على ذم التشبيه والمشبهة، وذلك مبني على اختلافهم في الأصول المقررة عند كل طائفة منهم .

فأما مفهوم" المشبهة " عند أهل السنة والجماعة: فهم يطلقون لفظة "المشبهة" على كل من قاس صفات الله تعالى على صفات خلقه، بدعوى أنه لا يفهم من صفاتَ الله عز وجل الواردة في القرآن والسنة الصحيحة إلا ما ألف الناس من صفاتهم، فمن قال مثلاً : لله يد كيدي، وبصر كبصري، وقدم كقدمي، أو وصفه بالنقائص التي في صفات المخلوقات، التي يتنزه الله تعالى عنها، فهو المشبه عند السلف وأهل السنة والجماعة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((ومن قال: له علم كعلمي، أو قوة كقوتي، أو حب كحبي ، أو رضا كرضاي، أو يدان كيداي ، أو استواء كاستوائي ، كان مشبهاً ممثلاً لله بالحيوانات)) [4] .

والمشبهة عند الجهمية : هم كل من أثبت شيئاً من الأسماء والصفات لله عز وجل؛ فإن مذهبهم في هذا الباب قائم على أن تعظيم الله وتوحيده وتنزيهه يستلزم نفي الأسماء والصفات كلها عنه تعالى .

والمشبهة عند المعتزلة : هم من أثبت لله تعالى الصفات؛ فإن مقتضى التوحيد عندهم هو نفي جميع الصفات عن الله تعالى ؛ فهم يثبتون لله تعالى أسماء جامدة مجردة عن المعاني .

---

[1] سورة آل عمران / آية:(١٨١).

[2] الملل والنحل ١ / ٢٥٩ .

[3] المصدر السابق ١ / ١٢١ .

[4] مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣ / ١٦ .

والمشبهة عند الكلابية وقدماء الأشاعرة : هم من أثبت لله تعالى الصفات الاختيارية؛ لأنهم كانوا ينفون قيام الأفعال التابعة لمشيئته واختياره به ؛ فراراً من القول بحلول الحوادث بذاته عز وجل .

وعند متأخري الأشاعرة : كل من أثبت لله تعالى صفة زائدة على الصفات السبع التي يثبتونها فهو مشبه.

بل إن بعض غلاة المعطلة أطلق على بعض الأنبياء أنهم مشبهة لإثباتهم الصفات لله تعالى، فهذا ثمامة بن أشرس [(١)] يقول: ثلاثة من الأنبياء مشبهة: موسى حيث قال: ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾[(٢)] وعيسى حيث قال: ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ [(٣)] ومحمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: ((ينزل ربنا)) [(٤)] [(٥)]

فالمقصود أن كل من نفى شيئاً من الصفات عن الله تعالى سمى المثبت لها مشبهاً [(٦)] وشنع عليه في إثباته، وزعم أنه بذلك لم يقدر الله حق قدره؛ إذ جعله شبيهاً بغيره من المخلوقات، وهذا يدل على قبح التشبيه في نفسه، وتنافيه مع الشعور بعظمة الرب تبارك وتعالى، وأن الواقع فيه قد وقع في عظيمة من العظائم، حقيق بأن يذم ويحذر من فعله .

---

(١) من كبار المعتزلة ، ومن رؤوس الضلالة ، كان له اتصال بالرشيد ثم المأمون ، قال ابن قتيبة رحمه الله : (... ثم نصير إلى ثمامة فنجده من رقة الدين ، وتنقص الإسلام والاستهزاء به ، وإرساله لسانه على ما لا يكون على مثله رجل يعرف الله تعالى ويؤمن به ، ومن المحفوظ عنه المشهور أنه رأى قوماً يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد ؛ لخوفهم فوت الصلاة ، فقال : انظروا إلى البقر انظروا إلى الحمير ، ثم قال لرجل من إخوانه : ما صنع هذا العربي بالناس !) تأويل مختلف الحديث ص : ٣٥-٣٦ . انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٠٣ .

(٢) سورة الأعراف / آية:(١٥٥)

(٣) سورة المائدة / آية: (١١٦)

(٤) يعني حديث النزول وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ح : ٧٤٩٤ ، (١٣ / ٤٦٤ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل مثنى، مثنى ... (٦ / ٣٦ شرح النووي)

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥ / ١١٠ .

(٦) انظر بيان تلبيس الجهمية ١ / ١٠٤ ومنهاج السنة ٢ / ٥٢٣ .

إلا أنه من الظلم وعدم الإنصاف بل من الكذب والجهل ! أن يسمى من أثبت الله تعالى ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم مشبهاً، وبهذا نعلم براءة مذهب أهل السنة في صفات الله وأسمائه من التشبيه الذي يرميهم به مخالفوهم؛ فإنهم لم يزيدوا على نصوص الكتاب والسنة شيئاً، بل يطلقون في النفي والإثبات ما جاء به القرآن والسنة [1] وإن كان خصومهم من سائر الطوائف-كالرافضة-ينبزونهم بالتشبيه، ويلقبونهم بالمشبهة فهذا من باب "رمتني بدائها وانسلت"؛ فإن أول ظهور التشبيه في هذه الأمة كان عن أصناف من الروافض الغلاة [2] وأكثر من اشتهر بمقالة التشبيه هم قدماء الرافضة، كالبيانية: وهم أتباع بيان بن سمعان التميمي_من غالية الشيعة- الذي حكي عنه أنه كان يقول: إن الله على صورة الإنسان وأنه يهلك كله إلا وجهه [3] سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وكذلك المغيرية وهم أتباع المغيرة بن سعيد العجلي الرافضي الذي كان يقول عن نفسه : إنه نبي، وأنه يعلم اسم الله الأكبر، وأن معبوده رجل من نور على رأسه تاج ، وله من الأعضاء مثل ما للرجل، وله جوف وقلب تنبع منه الحكمة وأن حروف"أبي جاد" على عدد أعضائه"[4] ... إلى آخر كلامه الباطل الذي ينفر منه الطباع السليمة والفطر المستقيمة .

ومن غالية الشيعة الذين فشت فيهم مقالة التشبيه : الهشامية نسبة إلى هشام بن الحكم الرافضي، والهشامية المنسوبة إلى هشام بن سالم الجواليقي، وكلاهما من مشبهة الرافضة، فقد حكي عن هشام الجواليقي أنه زعم أن معبوده على صورة الإنسان، وأن نصفه الأعلى مجوف ونصفه الأسفل مصمت، وأن له شعرة سوداء وقلباً تنبع منه الحكمة [5]

---

(1) انظر منهاج السنة ٢ / ١٠٩ .

(2) الفرق بين الفرق للبغدادي ص : ٢١٤ ، ط/٢، ١٩٧٧ م ، دار الآفاق الجديدة .

(3) مقالات الإسلاميين للأشعري ١ / ٦٦ – ٦٧ ، تحقيق / محمد محي الدين عبد الحميد ، ط/٢ ، ١٣٨٩ هـ مكتبة النهضة المصرية . .

(4) انظر مقالات الإسلاميين للأشعري ١ / ٦٩ –٧٢ .

(5) الفرق بين الفرق ص:٢١٦ .

وهذه الحكايات عن هؤلاء تؤكد انتشار مقالة التشبيه عند الرافضة، و أنه أحد أوجه الشبه الكثيرة بين الرافضة واليهود، وأن الرافضة كانوا هم الواسطة بين اليهود والمسلمين، في نقل هذه البدعة المنكرة بدعة التشبيه، إلى الأمة الإسلامية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن نقل كثيراً من مقالات التشبيه عن عدد من طوائف الشيعة الغالية : ((وهذا أمر معلوم، فإن أهل العلم متفقون على أن هذه المقالات الغالية، في وصف الرب بالعيوب والنقائص المتضمنة تشبيه الخالق بالمخلوق في صفات النقص ، وتشبيه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، هي أكثر ما يكون في الشيعة باتفاق الناس ، فلا يوجد في طوائف الأمة أشنع في الحلول والتمثيل والتعطيل مما يوجد فيهم)) [1] .

ويتبين من هذا أن تشبيه الله بخلقه أو العكس ينافي تعظيمه وإجلاله والإيمان بكماله ووحدانيته، وأن قول (الله أكبر)- الذي يراد به أن يكون الله عند العبد أكبر وأعظم من كل شيءٍ، فلا يكون في قلبه شيءٌ يساويه في العظمة والكبرياء- يوجب بطلان اعتقاد المشابهة بينه وبين أي شيءٍ من مخلوقاته، وأنه سبحانه هو الأكبر في ذاته، الأكبر في صفاته، الأكبر في أفعاله، وهو الأكبر بكل معاني الكبرياء ﴿ ليس كمثله شيءٌ ﴾ في شيءٍ من ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله في نونيته :

فالله أكبر جل عن شبه وعن ... مثل وعن تعطيل ذي كفران

والله أكبر أن تكون صفاته ... كصفاتنا جل العظيم الشان [2]

فما عظم الله حق تعظيمه من جعل صفاته الكاملة مثل صفات المخلوقين الناقصين، فالتشبيه ينافي معرفة الله عز وجل فضلا عن الشعور والإيمان بكونه أكبر من كل شيءٍ ؛ لأنه تسوية بين الخالق والمخلوق وهو شرك ظاهر؛ ولهذا يقال: ((المعطل يعبد عدماً والمشبه يعبد صنماً)) [3] والمشبه معارض للقرآن الكريم، و مكذب له؛ لأنه يثبت ما نفاه

---

[1] منهاج السنة النبوية ٢ / ٥١٣ .

[2] نونية ابن القيم ص : ٢٩٦ .ط/الأولى ، نشر مكتبة ابن تيمية القاهرة ، توزيع مكتبة العلم بجدة .

[3] درء تعارض العقل والنقل ١٠ / ٣٠٦ .

القرآن ، وينفي ما أثبته، فإن القرآن دل على أن الله لا يماثله شيءٌ، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله [1] كما أن التشبيه مسبة لله تعالى!! ؛ إذ السب والشتم عبارة عن الوصف بما يقتضي النقص، ومعلوم أن اعتقاد المشابهة بين الخالق والمخلوق في الصفات أو في الأفعال هو وصف له بالنقص، وقد نهى الله تعالى عن التسبب في سبه [2] فكيف بمن سبه مباشرة بالتشبيه !!

وكل بلية دخلت على الأمة الإسلامية في عقيدتها، سيما في باب الأسماء والصفات مصدرها من عدم تعظيم الله وتكبيره عن مشابهة ما سواه من المخلوقات .

يقول ابن الجوزي رحمه الله : ((أصل كل محنة في العقائد، قياس أمر الخالق على أحوال الخلق، وكل من قاس صفة الخالق على صفات المخلوقين، خرج إلى الكفر، فإن المجسمة دخلوا في ذلك؛ لأنهم حملوا أوصافه على ما يعقلون)) [3].

وكذلك المعطلة لم يحملهم على ركوب ظهر التأويل الذي أفضى بهم إلى التعطيل المحض إلا عدم تعظيمهم لله عن مشابهة المخلوقين، وعدم تعظيمهم نصوص القرآن والسنة عن أن تدل على تشبيه الخالق بالمخلوقين، فوقعوا في التشبيه أولاً وفي التعطيل ثانياً، ولهذا قرر العلماء أن : ((كل معطل مشبه وكل مشبه معطل)) [4] .

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: ((والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله؛ لأنه كفر وتشبيه،وإنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق، فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله جل وعلا وعدم الإيمان بها)) [5]

****

---

(1) المصدر السابق ١٠ / ٣٠٧ .

(2) قال الله تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ سورة الأنعام / آية: ١٠٨ .

(3) صيد الخاطر ص : ٢٤٣ ، دراسة وتحقيق / محمد عبد الرحمن عوض ، ط/٣ ، ١٤١٠ هـ دار الكتاب العربي

(4) انظر الفتوى الحموية ص : ١٧ .

(5) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢ / ٣٢٠ .

المبحث الثاني :

بطلان مذهب المشبهة من جهة النقل والعقل :

وبيان أنه مناف للشعور بكون الرب تعالى أكبر من كل شيء :

اعتقاد المشابهة بين صفات الخالق وصفات المخلوق تنقص للخالق ، وهضم لحقه ، وجرأة على جنابه الرفيع ، كيف ؟! وهو العظيم الذي تقصر العقول عن تقدير عظمته وتصورها ، والكبير الذي فاقت كبرياؤه وصف الواصفين ، ومن كان كذلك كيف يكون له مثل أو شبيه ؟! فما عظم الله حق عظمته من شبه صفاته الكاملة بصفات المخلوقين الناقصين القاصرين ، ودعوى أنه لا يعقل من الصفات الإلهية الثابتة لله تعالى في صريح القرآن وصحيح السنة إلا ما ألف من صفات المخلوقين دعوى كاذبة مكابرة للعقل وافتراء على العقلاء ، بل إن جميع العقول السليمة السالم أصحابها من التأثر بالمؤثرات المفسدة لها، تقضي بالمفارقة بين الخالق في صفاته العلى ، وبين المخلوقين في صفاقم الناقصة المناسبة لضعفهم وفقرهم .

هذا وقد دل الدليل السمعي والعقلي على بطلان عقيدة التشبيه وفسادها ، وأنها تنافي تكبير الله وإجلاله الواجب .

أما من السمع : فقد نفى الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم أن يكون له مثل أو كفؤ من خلقه ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ...﴾

إلى آخر هذه السورة الكريمة التي تعدل ثلث القرآن [1]، إذ إن كل آية فيها دليل واضح على نفي المثل والشبيه عن الرب تعالى ، فإثبات الأحدية له في قوله : ﴿ قل هو الله

---

[1] ورد ذلك في حديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في سورة الإخلاص ، ح : ٢٨٩٩ ، ٥ / ١٦٨ .

= =

أحد ﴾ يقتضي عدم مماثلة شيء من المخلوقات له في شيء من خصائصه ، فهو أحد في ذاته أحد في صفاته ، أحد في أفعاله ، فلو فرض شيء من المخلوقات شبيهاً له في شيء من ذلك لم يصح وصفه بالأحدية على الإطلاق ؛ إذ معنى الأحد الذي لا ثاني له ، ولا مثل له ، ولا مشارك له ، والله تعالى هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ، ولا شبيه له ، ولا عديل له ، وقد قيل : إن لفظة ﴿ أحد ﴾ لا تطلق على أحد في الإثبات غير الله تعالى؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله، [1] ولأن معناه في الإثبات لا يصدق على غير الله سبحانه، فالأحد هو المتفرد بصفاته، الذي لا مثل له ولا شبه [2] وكل من سوى الله على العكس من ذلك .

وقد جاء في سبب نزول هذه السورة ما رواه الترمذي بإسناده عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد ... ﴾ السورة ، وروى نحوه عن أبي العالية مرسلاً وقال : ((وهذا أصح)) [3]

ووصفه تعالى بالصمدية في قوله :﴿ الله الصمد ﴾ ، دليل آخر على عظمته وكبريائه وتنزهه عن مماثلة شيء من خلقه ، ويتبين ذلك بذكر معاني كلمة ﴿ الصمد ﴾ مما ذكره أهل التفسير ، فقد قيل في معنى ﴿ الصمد ﴾ : أنه الذي يصمد إليه في الحاجات أي يقصد

==

وقال الترمذي : (هذا حديث حسن صحيح) . وقد وجه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن فقال : ((وذلك أن القرآن إما خبر وإما إنشاء ، والخبر إما خبر عن الخالق وإما خبر عن المخلوق ، فثلثه قصص ، وثلثه أمر ، وثلثه توحيد ، فهي تعدل ثلث القرآن بهذا الاعتبار)) درء تعارض العقل والنقل ٧ / ٢٧٣.

[1] تفسير ابن كثير ٤ / ٥٧١ .

[2] تفسير الماوردي ٦ / ٣٧٠ .

[3] سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة الإخلاص ، ح : ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥ ، ٥ / ٤٥١ – ٤٥٢ . ورواه ابن جرير في تفسيره ١٢ / ٧٤٠ ، بإسناده عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، وابن أبي حاتم في تفسيره كما في الدر المنثور ٨ / ٦٦٩، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧ / ٢٢١.

؛ لكونه قادراً على قضائها دون غيره، وقيل هو الدائم الذي لم يزل ولا يزول ، وقيل : معناه الآية التي بعدها ، أي الذي ﴿لم يلد و لم يولد﴾ [1] وقيل : هو المستغني عن كل شيء ، والمحتاج إليه كل أحد ، وقيل : هو المقصود في الرغائب والمحتاج إليه في المصائب ، وقيل : هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقيل : هو الكامل الذي لا عيب فيه . [2]

وعن مجاهد وعكرمة [3] والضحاك [4] وغيرهم أن ﴿ الصمد ﴾ هو المصمت الذي لاجوف له [5]

وجميع هذه المعاني تدل على عظمة الموصوف بها وكبريائه ، وأنه أكبر وأجل من أن يكون له مثل أو كفؤ في شيءٍ من صفاته ، فهي ثابتة لله تعالى على وجه الاختصاص والانفراد، لا يشاركه فيها غيره .

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿ الصمد ﴾ : أنه ((السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ،

---

(1) انظر تفسير مجاهد ٢ / ٧٩٤-٧٩٥ ، تحقيق / عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي ، المنشورات العلمية ، بيروت ، بدون رقم الطبعة ولا تاريخها .

(2) تفسير القرطبي ٢٠ / ٢٤٥ ،

(3) هو أبو عبد الله القرشي مولاهم المدني البربري الأصل ، كان من خواص تلاميذ ابن عباس رضي الله عنهما ، وحدث عن جماعة من الصحابة منهم ابن عمر ، وأبي هريرة ، وجابر بن عبد الله ، رضي الله عنهم أجمعين توفي سنة ١٠٤هـ ترجمته في : وفيات الأعيان ٣ / ٢٦٥ ، وسير أعلام النبلاء ٥ / ١٢ .

(4) هو أبو محمد الضحاك بن مزاحم الهلالي ، صاحب التفسير ، كان من أوعية العلم ، حدث عن ابن عباس ، وابن عمر ، وأبي سعيد الخدري وغيرهم رضي الله عنهم ، أخرج حديثه أصحاب السنن الأربع ، توفي سنة ١٠٢هـ وقيل سنة ١٠٥ فرحمه الله ، ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤ / ٥٩٨ .

(5) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٥٧١ .

هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار)) [1]

وقوله تعالى: ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ نص صريح في إبطال المشابهة بين الخالق والمخلوقين من كل وجه ، في الذات والصفات والأفعال .

قال الشوكاني رحمه الله : ((هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها ؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة ، كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ، ولا يماثله ، ولا يشاركه في شيءٍ)) [2]

ومما يدل على بطلان عقيدة المشبهة في باب الصفات قول الله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [3]

قال ابن جرير في تفسيره : ((يقول : لا تمثلوا لله الأمثال ، ولا تشبهوا له الأشباه ، فإنه لا مثل له ولا شبه)) [4] وقال ابن الجوزي : ((أي لا تشبهوه بخلقه ؛ لأنه لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، فالمعنى لا تجعلوا له شريكاً)) [5]

ومنها : قول الله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ هذه الآية المحكمة هي أحَدُّ سلاحٍ في يد أهل السنة، في باب الأسماء والصفات؛ إذ بها يردون على المعطلة والممثلة معاً؛ فإن الله عز وجل جمع فيها بين إثبات صفات الكمال لنفسه ، وبين نفي المماثلة بينه وبين أي شيء من مخلوقاته ، فدل ذلك على أن المذهب الصواب : ليس هو نفي الصفات مطلقا، كما تفعل المعطلة، ولا هو إثباتها مطلقاً، كما تفعل المشبهة، بل هو إثباتها بلا تمثيل [6] وهو قول أهل السنة، وهذه الآية أتت بعد أن ذكر الله تعالى قبلها

---

[1] تفسير الطبري ١٢ / ٤٤ ، وتفسير ابن أبي حاتم كما في مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧ / ٢٢٠ ، والدر المنثور للسيوطي ٨ / ٦٨٢ .

[2] فتح القدير ٥ / ٧٥٣ .

[3] سورة النحل / آية : ٧٤ .

[4] تفسير الطبري ٧ / ٦٢١ .

[5] زاد المسير ٤ / ٤٧١ .

[6] انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ص : ٦٩ .

من أوصاف الكمال ما يدل على عظمته وكبريائه ، وعزته وجلالـه ، وقدرتـه التامـة الشاملة ، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ... ﴾ إلى قوله : ﴿ فاطر السموات والأرض ... ﴾ الآيات ، ثم قال بعد ذلك: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [1]

فدل هذا السياق على أن الموصوف بهذه الصفات العظيمة والأفعال الجليلة، كالخلق والعلو والعزة وغيرها هو الذي ليس كمثله شيء ويستحيل أن يكون شيء مثله لكثرة نعوته وثبوتها له على وجه الكمال والجلال .

ومنها أيضاً قوله تعالى :﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ [2] قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً)). والاستفهام في الآية أريد به النفي والإحالة والمعنى : لا تعلم له سمياً [3] .

وقول الله تعالى : ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ [4] وقوله :﴿ وله المثل الأعلى ﴾ [5]

قال ابن جرير رحمه الله في معنى (المثل الأعلى) : ((هو الأفضل، والأطيب، والأحسن، والأجمل، وذلك التوحيد والإذعان له بأنه الإله لا إله غيره)) [6]

وقال ابن القيم رحمه الله في توضيح معنى المثل الأعلى، وبيان دلالته على إبطال التشبيه : ((فالله تعالى وصف نفسه بأن له المثل الأعلى ، وهو الكمال المطلق ، المتضمن للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل، كان بها أكمل وأعلى من غيره، ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل ، كان له المثل الأعلى، وكان أحق به من كل من سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى

---

[1] سورة الشورى / آية : ١ – ١١

[2] سورة مريم / آية : ٦٥ .

[3] انظر تفسير الطبري ٨ / ٣٦١ .

[4] سورة النحل / آية : ٦٠ .

[5] سورة الروم / آية : ٢٧ .

[6] تفسير الطبري ٧ / ٦٠٠ .

المطلق اثنان؛ لأنهما إن تكافآ من كل وجه، لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وهذا برهان قاطع على استحالة التمثيل والتشبيه، فتأمله فإنه في غاية الظهور والقوة)) [1]

فثبوت المثل الأعلى لله تعالى يدل على عظمته وكبريائه التي تمنع أن يكون أحد من خلقه مساوياً له في أسمائه وصفاته وأفعاله ، فليس لأحد من الصفات والأفعال ما يشبه صفات الرب وأفعاله، كما تزعم المشبهة .

وبهذا يعلم عظم جرم المشبهة ، وأنهم لم يثبتوا لله المثل الأعلى، الذي أثبته لنفسه ، وأن قولهم في الله جل وعلا ينافي حقيقة (الله أكبر)، التي تدل على اتصاف الرب تعالى بصفات الكمال كلها، وعلى تنزهه عن النقائص والعيوب كلها، ومن ذلك مشابهة المخلوقات الناقصين المحتاجين .

وأما دلالة العقل السليم على بطلان التشبيه فمن وجوه :

الأول : أن التباين في الذات يستلزم التباين في الصفات ، وقد علم بالعقل أن بين الخالق والمخلوق تبايناً في الذات ، فلزم إذاً تباينهما في الصفات القائمة بالذوات ، فإن الصفة تتبع الموصوف ، فصفة كل موصوف تليق به ، قوة وضعفاً ، وكمالاً ونقصاً .

الثاني : أن العقل يدل على استحالة المماثلة بين الكامل والناقص ، فكيف يكون الرب الخالق الكامل من جميع الوجوه ، مشابهاً في صفاته الكاملة للمخلوق المربوب الناقص المفتقر إلى من يكمله ؟! وهل اعتقاد ذلك إلا تنقص للخالق ، فإن تشبيه الكامل بالناقص يجعله ناقصاً مثله ، وهذا باطل ، وما لزم منه الباطل فهو باطل ، فيكون التشبيه باطلاً في العقل .

الثالث : أن الاتفاق في الاسم لا يلزم منه المماثلة والاتفاق في الحقيقة ، فما بين صفات الخالق سبحانه وصفات المخلوقين من موافقة في الأسماء ، ليس دليلاً على اتفاق

---

[1] الصواعق المرسلة ٣ / ١٠٣٢ .

حقائق الموصوفين بها ، كما توهمه الممثلة ، فإننا نشاهد في المخلوقات أشياء عديدة تتفق في الأسماء ، وتختلف في الحقيقة، فالإنسان مثلاً : له يد و قوة ، ليستا كيد البعير ولا كقوته ، مع أن الجميع يسمى يداً وقوةً [1] وهذا أمر ظاهر في بدائه العقول بحيث لا يحتاج إلى أدنى تأمل أو نظر .

يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : ((والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصْفٍ وصَفَ الله به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، فظاهره المتبادر منه، السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان ، هو التتريه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث، فبمجرد إضافة الصفة إليه جل وعلا، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق ، وبين شيء من صفات المخلوقين [2] وهل ينكر عاقل أن السابق إلى الفهم، المتبادر لكل عاقل، هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته وجميع صفاته ؟! لا والله ! لا ينكر ذلك إلا مكابر)) [3]

وعلى هذا فالذي يجب اعتقاده في هذا الباب : أن الله جل اسمه ، في عظمته وكبريائه وملكوته ، وحسنى أسمائه ، وعلى صفاته ، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يشبه به ، وأن

---

[1] انظر القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمد بن الصالح العثيمين ص : ٣٥ .

[2] يعني أن الصفة إذا أضيفت إلى الله تعالى فالواجب اعتقاد اختصاصه تعالى به ، ويحرم اعتقاد المشابهة بينه وبين أي شيء من المخلوقات في تلك الصفة المضافة إليه سبحانه ، إذن فلا حاجة مطلقاً إلى تكلف تأويله فراراً من التشبيه الباطل ، ولهذا لما قال الحافظ ابن حجر في شرح قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((والله ما من أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته)) صحيح البخاري ، كتاب الكسوف ، باب الصدقة في الكسوف ، ح : ١٠٤٤ ، قال ابن حجر : (قوله : ((أغير)) أفعل تفضيل ... وهي في اللغة تغير يحصل من الحمية والأنفة ، وأصلها في الزوجين والأهلين ، وكل ذلك محال على الله تعالى ؛ لأنه متره عن كل تغير ونقص ، فيتعين حمله على المجاز) فتح الباري ٢ / ٥٣٠-٥٣١ علق الشيخ ابن باز رحمه الله على ذلك فقال : (المحال عليه وصفه بالغيرة المشابهة لغيرة المخلوق ، وأما الغيرة اللائقة بجلاله سبحانه وتعالى فلا يستحيل وصفه بها ، كما دل عليه هذا الحديث وما جاء في معناه ، فهو سبحانه يوصف بالغيرة عند أهل السنة على وجه لا يماثل فيه صفة المخلوقين ، ولا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه ، كالقول في الاستواء ، والترول ، والرضا ، والغضب ، وغير ذلك من صفاته سبحانه ، والله اعلم) انظر فتح الباري ٢ / ٥٣١ ، حاشية رقم (١) .

[3] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢ / ٣٢٠ .

ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق، فلا تشابه بينهما في المعـــنى الحقيقـــي، إذ صفات الرب جل وعز بخلاف صفات المخلوق، فصفات المخلوق لا تنفك عن النقـــص والعجز والافتقار، ثم إنها آيلة إلى الزوال والفناء، بخلاف صفات الباري سبحانه وتعـــالى ، الذي له الكمال المطلق، وله العظمة والكبرياء، وهو الغني بذاته عن كل شيء، ليس كمثله شيء، و لم يكن له كفواً أحد .

المبحث الثالث :

موقف علماء أهل السنة من التشبيه والمشبهة :

من أصول أهل السنة والجماعة : إنكار البدع والمحدثات المخالفة للكتاب والسنة ، والتحذير منها ومن أهلها ، وبيان السنة وتوضيحها ، والتأكيد على ضرورة الأخذ بها ، والسير وراءها ، وهذا من جملة النصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين .

سئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز- رحمه الله- عن موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع ؟ فأجاب بقوله : ((موقفهم إنكار البدع ، وإنكار الأهواء ، والتحذير منها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتفصيل المقام للناس على حسب العلم ، هذا كفر ، وهذه كبيرة ، وهذه صغيرة ، يوضحون للناس الأدلة الشرعية))[1]

ومعلوم أن التشبيه بدعة شنيعة غاية الشناعة ؛ لأنه من بدع الاعتقاد وهي أقبح أنواع البدع وأشدها ، وهو جناية عظيمة في حق الله تبارك وتعالى ، وقد اجتمع فيه عدة محاذير ،كل واحدة منها جريمة مهلكة عند انفرادها ، فكيف إذا اجتمعت ؟!

أولاً : التكذيب لله تعالى ومعارضته بإثبات ما نفاه ونفي ما أثبته .

ثانياً : سوء الظن بالله وبنصوص كتابه العزيز، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : الكذب على الله والقول عليه بغير علم ،

وهذه الأمور الثلاثة تنافي الشعور بعظمة الله وتناقض معنى (الله أكبر) أشد المناقضة.

أما التكذيب لله تعالى : فإن المشبه يثبت المماثلة بين الله تعالى وبين خلقه ، وقد نفاها الله عز وجل مراراً ، فكان بذلك مثبتاً لشيء نفاه الله عن نفسه ، في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أنه ينفي الوحدانية التي أثبتها الله لنفسه ، وقد مرت

---

[1] مزيل الإلباس في الأحكام على الناس ص : ٦٩ ، إعداد / السعيد بن صابر عبده ، ط/١ ، ١٤١٧ هـ . دار الفضيلة .

النصوص الكثيرة الدالة على وجوب توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته ، ونفي المشابهة بينه وبين أي شيء من مخلوقاته ، كما قد دل على ذلك العقل السليم أيضاً .

وأما سوء الظن بالله : فإن المشبه قد أساء الظن بالله العظيم ؛ حيث ظن به خلاف كماله المقدس ، وظن به ما يناقض أسماءه الحسنى ، وصفاته العلى ، وينافي عظمته وكبرياءه، حين أثبت له صفات النقص التي يختص بها المخلوق، ومن المعلوم أن إساءة الظن بالله جل وعلا من أعظم الذنوب ، إن لم يكن أعظمها على الإطلاق ؛ ولهذا توعد الله عليه أشد الوعيد فقال تعالى : ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وسآءت مصيراً ﴾[1] .

ولولا سوء ظن المشبهة بربهم ، وبآياته المفصحة عن أسمائه وصفاته، لما شبهوها بصفات المخلوقين الناقصة ، ولاعتقدوا كمالها المطلق ، الذي يوجب نفي المثل والشبيه عن المتصف بها ، وهو الله جل جلاله، وهذا مقتضى العقل السليم ، ولا ينازع فيه إلا جاهل ضال ، أو مكابر معاند .

ومن هنا نعلم مكابرة المشبهة وافتراءهم على عقولهم ، حيث زعموا أنه لا يعقل في الموجودات إلا جسم وعرض ، ويستحيل عقلاً أن يكون الله تعالى عرضاً ، فتعين كونه جسماً ، وإذا كان جسماً وجب أن يكون متصفاً بالصفات الجائزة على سائر الأجسام ،وهذا لا يعدو كونه شبهةً عقليةً واهية ، قد دل على فسادها العقل والنقل كما تقدم ،

وأما أن التشبيه يتضمن الكذب على الله والقول عليه بغير علم ، فإنه من المستقر في الفطر، المتفق عليه بين أصحاب العقول السوية ، أن الله عز وجل لم يره أحد ، ولم ير أحد مثيلاً له فينعته ، وإنما يستدل عليه جل وعلا بما ظهر لنا من آياته الدالة على عظمته وكماله ، وبما جاءنا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما وصف الله به نفسه ،

---

(1) سورة الفتح / آية : ٦ .

أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فلهذا كل من نعت الله تعالى بما لم يرد في الشرع فهو كاذب متقول على الله تعالى [1] وقد قال الله تعالى: ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾

قال الإمام الشوكاني : ((إن هذه الآية دلت على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته ، على وجه التدقيق ودعاوى التحقيق ، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل ، مخلوط بخلوط هي منافية للعلم، مباينة له ؛ فإن الله سبحانه قد أخبر أنهم لا يحيطون به علماً فمن زعم أن ذاته كذا أو صفته كذا ، فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد)) [2]

وهذا يدل على أن قول المشبهة في صفات الرب جل وعلا ، كذب محض ، وقول على الله بلا علم ، وهو في الخطورة ما لا يخفى .

يقول ابن القيم رحمه الله في بيان عظم جرم القول على الله بلا علم : ((... فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً ، فإنه يتضمن الكذب على الله ، ونسبته إلى ما لا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفي ما أثبته ، وإثبات ما نفاه ، وتحقيق ما أبطله ، وإبطال ما حققه ، وعداوة من والاه ، وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه ، وبغض ما أحبه ، ووصفه بما لا يليق به ، في ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله ، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشد إثماً ،وهو أصل الشرك والكفر ، وعليه أسست البدع والضلالات ، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم ؛ ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها ، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض ، وحذروا من فتنتهم أشد التحذير ، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان ؛ إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد ، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله تعالى ، فقال : ﴿ ولا تقولوا لما تصف

---

[1] انظر مقدمة المحقق لكتاب : مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى الحنبلي، تحقيق / د. سعود الخلف ، ص : ٧٠ – ٧١ قسم الدراسة .

[2] التحف في مذاهب السلف ص : ٧٢ –٧٣ .تحقيق / طارق السعود ، ط/٢ ، ١٤٠٨ هـ دار الهجرة – بيروت .

ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ [1] فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه ما لم يصف به نفسه ؟)) [2]

لا شك أن الافتراء والكذب هاهنا أشد ، وأن صاحبه أعظم جرأة على الله جل جلاله، وأجهل وأعمى عن عظمته تعالى وكبريائه .

ولما كان التشبيه يشتمل على هذه العظائم وغيرها، مما ينافي الشعور بعظمة الرب تبارك وتعالى وكبريائه، ويناقض حقائق أسمائه وصفاته؛ تواتر عن علماء أهل السنة والجماعة ذمه وإنكاره، والرد بشدة على القائلين به، بل وإطلاق القول بتكفيرهم أيضاً !! [3]

ومن ذلك ما جاء عن الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله أنه قال : ((لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين)) [4]

وقال نعيم بن حماد [5] رحمه الله : ((من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، فليس ما وصف الله به نفسه ورسوله تشبيه)) [6]

---

(1) سورة النحل / آية : ١١٦ .

(2) مدارج السالكين ١ / ٣٧٢ – ٣٧٣ .

(3) قال الإمام اللالكائي رحمه الله : (سياق ما روي في تكفير المشبهة) ثم روى عن جماعة من أئمة السلف تكفيرهم للمشبهة ، انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٣ / ٥٨٣ .

(4) الفقه الأبسط ص : ٥٦ ، تحقيق / محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار القاهرة ، سنة : ١٣٦٨هـ .

(5) هو الإمام العلامة الحافظ أبو عبد الله الخزاعي المروزي ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وقد عرف عنه تصلبه في السنة ، وشدته على أهل الأهواء ، ومات في محنة القول بخلق القرآن محبوساً ، سنة ٢٢٤ وقيل سنة ٢٢٩ هـ وقيل إنه أوصى عند موته بأن يدفن في قيوده ، وقال : (إني مخاصم)، قال الإمام البخاري : (ولقد بين نعيم بن حماد أن كلام الرب ليس بخلق ، وأن العرب لا تعرف الحي من الميت إلا بالفعل ، فمن كان له فعل فهو حي ومن لم يكن له فعل فهو ميت ، وأن أفعال العباد مخلوقة ، فضيق عليه حتى مضى لسبيله وتوجع أهل العلم لما نزل به) ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٩٥ .

(6) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣ / ٥٨٧ ، والعلو للعلي الغفار للذهبي ص : ١٧٢ .

قال الذهبي رحمه الله بعد أن نقل هذا الكلام عن نعيم بن حماد رحمه الله : (قلت : هذا الكلام حق ، نعوذ بالله من التشبيه ، ومن إنكار أحاديث الصفات ، فما ينكر الثابت منها من فقه ، وإنما بعد الإيمان بها هنا مقامان مذمومان :

= =

وقال إسحاق بن راهويه [1] رحمه الله : ((من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم؛ لأنه وصف لصفاته، إنما هو استسلام لأمر الله، ولما سن الرسول صلى الله عليه وسلم)) [2]

وقال الإمام وكيع بن الجراح [3] رحمه الله : ((وصف داود الجواربي [4] _ يعني الرب عز وجل- فكفر في صفته، فرد عليه المريسي [5] فكفر المريسي في رده!!؛ إذ قال :

==

تأويلها وصرفها عن موضوع الخطاب ، فما أولها السلف ، ولا حرفوا ألفاظها عن مواضعها ، بل آمنوا بها وأمروها كما جاءت ،

المقام الثاني : المبالغة في إثباتها ، وتصورها من جنس صفات البشر ، وتشكلها في الذهن ، فهذا جهل وضلال، وإنما الصفة تابعة للموصوف ، فإذا كان الموصوف عز وجل لم نره ، ولا أخبرنا أحد أنه عاينه ، مع قوله لنا في تنزيله: ﴿ ليس كمثله شيءٌ ﴾ فكيف بقي لأذهاننا مجال في إثبات كيفية الباري ، تعالى الله عن ذلك ، فكذلك صفاته المقدسة ، نقر بها ونعتقد أنها حق ، ولا نمثلها أصلاً ولا نتشكلها) سير أعلا م النبلاء ١٠ / ٦١٠ -٦١١ .

[1] هو الإمام الكبير أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن راهويه الحنظلي المروزي نزيل نيسابور وأحد الأئمة الأعلام، الذابين عن السنة والدين، ورد عنه أنه قال : إذا قال لك الجهمي : أنا كافر برب يترل من سماء إلى سماء ، فقل له أنا مؤمن برب يفعل ما يشاء ، توفي رحمه الله سنة ٢٣٨ هـ انظر سير أعلام النبلاء ١١ / ٣٥٨ ،

[2] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣ / ٥٨٨ .

[3] هو وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي الكوفي محدث العراق ، ولد سنة تسع وعشرين ومائة وقيل سنة ثمان وعشرين ، وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ ، قال الإمام أحمد رحمه الله : ما رأيت أحدا أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع ، توفي وكيع رحمه الله سنة سبع وتسعين ومائة هـ وهو في طريقه من مكة حاجاً . انظر سير أعلام النبلاء ٩ / ١٤٠ ...

[4] داود الجواربي _ بفتح الجيم والواو وكسر الراء _ نسبة إلى الجوارب وعملها ، وهو رأس في الرفض والتجسيم وقد كفره بعض العلماء ، انظر : ميزان الاعتدال ٢ / ٣٢ ، والفرق بين الفرق ص : ٢٢٨ .

[5] هو بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم البغدادي المريسي من موالي آل زيد بن الخطاب رضي الله عنه كان ممن جند نفسه للقول بنفي صفات الكمال عن الله تعالى ، والقول بخلق القرآن ، حتى كان رأس الجهمية

= =

هو في كل شيءٍ)) [1]

وعن يزيد بن هارون [2] رحمه الله : أن المشبهة يستتابون كالجهمية [3]

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله : ((ومن وصف الله بمعنى من معـاني البشر فقـد كفر)) [4]

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في النونية :

لسنا نشبه وصفه بصفـاتنا   إن المشبه عابـد الأوثـان

من مثل الله العظيم بخـلقه   فهو النسيب لمشرك نصراني [5]

وهكذا اتفقت كلمة الأئمة على ذم التشبيه، والحكم على المشبهة بالكفر والشـرك ، وبيان أنهم والنصارى سواء في الكفر والشرك بالله العظيم .

وتبين من ذلك أن التشبيه ينافي الإيمان بالله وتوحيده، والشعور بعظمته وكبريائـه، وأن قلوب المشبهة خالية من تكبير الله وإجلاله، ومعرفته المعرفة الصحيحة النافعة، إذ لـو كانوا عارفين بالله، معظمين له حق عظمته، لكانت قلوبهم طاهرة نقية من أقذار التشـبيه، ولعلموا أن صفاته تعالى قد بلغت من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين [6] التي طبعها النقص والعجز ، والافتقار إلى الغير، فسـبحان الله وتعالى عن قول المشبهة علواً كبيراً .

==

في عصره وعالمهم فمقته أهل العلم لذلك وكفره جماعة منهم ، مات سنة ٢١٨هـ ترجمته في : وفيات الأعيان ١ / ٢٧٧ ، وسير أعلام النبلاء ١٠ / ١٩٩ .

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣ / ٥٨٧ .

(٢) هو أبو خالد السلمي مولاهم الواسطي ، شيخ الإسلام ، ولد سنة ١١٨هـ ، ويقال إن أصله من بخـارى ، وكان رأسا في العلم والعمل ثقة حجة كبير الشأن ، توفي سنة ٢٠٦هـ في خلافة المأمون ، ولما مات يزيد بدأ المأمون في امتحان الناس بخلق القرآن . سير أعلام النبلاء ٩ / ٣٥٨ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣ / ٥٨٧ .

(٤) العقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز ص : ١٥٢ .

(٥) نونية ابن القيم ص : ٢٠٢

(٦) انظر أضواء البيان ٢ / ٣٢٠ .

الفصل الثالث

دلالة التكبير على توحيد العبادة :

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول::

تعريف توحيد العبادة والتنبيه على أهميته ومكانته في الدين

المبحث الثاني :

دلالة التكبير على وجوب إخلاص الدين لله تعالى وعلى

بطلان الشرك والتنديد :

المبحث الثالث :

دلالة التكبير على بطلان الإلحاد :

المبحث الرابع :

دلالة التكبير على خطورة المعاصي والبدع :

المبحث الأول :

تعريف توحيد العبادة والتنبيه على أهميته ومكانته في الدين :

أولاً : تعريف العبادة في اللغة :

العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع، ومنه قولهم : طريق معبد إذا كان مذللاً بكثرة الوطء [1]

ثانياً : تعريف العبادة شرعاً :

أشهر تعريفات العبادة وأجمعها لمعنى العبادة: هو تعريف الإمام ابن تيمية رحمه الله حيث عرف العبادة بقوله : ((العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك، من الآدميين والبهائم ،والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك من العبادة)) [2]

والعبادة تطلق على شيئين :

الأول : التعبد ، بمعنى التذلل لله عز وجل، بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، محبة وتعظيماً

الثاني : المتعبد به ، فمعناها كما قال شيخ الإسلام في النقل السابق عنه ، فالصلاة مثلاً ، هي في نفسها عبادة ،وهو المتعبد به ، وفعل المكلف لها عبادة ، وهو التعبد، فتطلق

---

(1) لسان العرب ٩ / ١٢ .

(2) العبودية ص : ١٩ .

لفظة العبادة على الفعل والمفعول [1] وحقيقة العبادة ولبها وخلاصتها غاية التذلل باستشعار عظمة المعبود وكبريائه، والشعور الدائم بالافتقار إليه ظاهراً وباطناً، وهذه الحالة لا تنبغي إلا لله عز وجل؛ ولذلك لا يجوز صرف شيء من العبادة لغير الله عز وجل.

ثالثا : معنى توحيد العبادة :[2]

هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ،وإفراده تعالى بالعبادة كلها وإخلاص الدين له وحده [3]

أو هو : إفراد الله عز وجل بأفعال العباد التي يعملونها على وجه الطاعة والقربة بحيث لا يتوجه بشيء من ذلك لغير الله جل جلاله .

وهذا النوع من التوحيد يتضمن النوعين الآخرين وهما :

توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن الألوهية صفة تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فالله سبحانه هو المألوه المعبود؛ لما له من أوصاف العظمة والجلال ، ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال، وتفرده بالربوبية، يلزم منه أن لا يستحق العبادة أحد سواه؛ لأن كل ما سواه- كائنا ما كان- ناقص بالذات فقير محتاج بالطبع ليس فيه من الصفات والكمالات ما تؤهله لاستحقاق العبادة التي تعني الخضوع والمحبة والتعظيم المطلق للمعبود .

---

[1] انظر القول المفيد على كتاب التوحيد ، للشيخ محمد الصالح العثيمين ١ / ١٦ ،ط/١ ، ١٤١٨ هـ دار ابن الجوزي .

[2] هذه التسمية هي باعتبار إضافته إلى الخلق ، ويسمى التوحيد الطلبي والإرادي ، كما يسمى توحيد الألوهية وذلك باعتبار إضافته إلى الله سبحانه ، ويسمى التوحيد الفعلي نسبة إلى أفعال لعباد ، ويسمى توحيد القصد والعمل ، فهذه كلها ألقاب لهذا النوع من التوحيد . انظر : التحفة المهدية ص : ٢٨ ، والقول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ١٦ .

[3] انظر القول السديد في مقاصد التوحيد المطبوع مع كتاب التوحيد ص : ١٩ .

رابعاً : أهمية توحيد العبادة ومكانته من الدين :

هذا النوع من التوحيد هو أعظم أنواع التوحيد الثلاثة ، بل نسبة بقية الأنواع إليه كنسبة الوسائل إلى غاياتها ومقاصدها [1] ، فهو الغاية الكبرى، وتحقيقه والقيام به ألح مطالب الدين وأكبر مقاصده، وهو مضمون كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي أول الأمر وآخره، والتي تعني وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، وأنه لا يعبد بحق إلا هو سبحانه .

ومما يدل على أهمية توحيد العبادة :

١ – أنه الحكمة من خلق الثقلين-الجن والإنس- قال الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [2]

٢ – أنه أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وهو خلاصة رسالاتهم ، بل هو الغاية من إرسال الرسل، فما من أحد من الأنبياء – من أولهم إلى خاتمهم- إلا دعا قومه أول ما دعاهم إلى عبادة الله تعالى ، وترك عبادة ما سواه ، قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [3]

وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [4] وقال الله تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [5]

---

(1) يقول ابن تيمية رحمه الله : (والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص – يعني نصوص الصفات – لمجرد تقرير صفات الكمال له ، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه ، فأفاد (الأصلين) اللذين بهما يتم التوحيد ، وهما : إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو رداً على المشركين) الفتاوى : ٦ / ٨٣ .

(2) سورة الذاريات / آية : ٥٦ .

(3) سورة الأنبياء / آية : ٢٥ .

(4) سورة الزخرف / آية : ٤٥ .

(5) سورة النحل / آية : ٣٦ .

وقال الأنبياء نوح، وهود، وصالح ، وشعيب، لقومهم :﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[1]

وعلى هذا فارق الأنبياء قومهم، وعادوهم، وأعلنوا براءهم منهم، قال الله تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام والذين معه، أنهم قالوا لقومهم: ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[2]

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له : ((إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله)) [3]

٣ – أنه أول واجب على المكلف، لا النظر ولا القصد إلى النظر [4] ولا الشك ! كما يقول أرباب الكلام المذموم[5] وهي كلها أقوال غالطة مخالفة للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة بل هي باطلة في العقل أيضاً [6]

٤ – أنه من أجل تحقيقه شرع الجهاد في سبيل الله حتى لا يعبد في الأرض إلا الله ويكون الدين كله لله قال الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾[7]

---

(١) سورة الأعراف / آية : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

(٢) سورة الممتحنة / آية : ٤ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة ، باب : " لا تؤخذ كرائم الأموال في الصدقة " ح: ١٤٥٨ ، (٣ / ٣٢٢ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، (١ / ١٩٦ شرح النووي) .

(٤) انظر الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني ص : ٢٥ ، تحقيق / أسعد تميم ، ط/١ ، ١٤٠٥ هـ ، مؤسسة الكتب الثقافية .

(٥) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ١٦ / ٣٣٠- ٣٣١ ، وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص :٢٧ .

(٦) انظر مجموع الفتاوى ١٦ / ٣٣٢ .

(٧) سورة الأنفال / آية : ٣٩ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله))[1]

٥ – أنه حق الله على العباد ، الذي من حققه ومات عليه كان حقاً على الله أن لا يعذبه ، كما في حديث معاذ رضي الله عنه ، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((هل تدري ما حق الله على العباد)) ؟ قال : قلت الله ورسوله أعلم ، قال : ((فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركو به شيئاً)) ثم سار ساعة ثم قال : ((يا معاذ بنَ جبل ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك قال : ((هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك)) ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : ((ألا يعذبهم)) متفق عليه[2]

قال النووي رحمه الله : ((واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف ، أن من مات موحداً دخل الجنة قطعاً، على أي حال ... إلى أنَ قال : فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر، ولو عمل من أعمال البر ما عمل))[3] والمراد بالتوحيد هنا هو توحيد الله بالعبادة .

وهذا يدل على أن هذا التوحيد هو مناط النجاة، وضمان السلامة من الدخول في النار، أو من الخلود فيها إن كان صاحبه قد مات على كبيرة و لم يعف الله تعالى عنه، فإنه يعذب في النار بقدر ذنبه ثم يخرج منها إلى الجنة، كما هو مذهب أهل الحق في أصحاب الكبائر عملا بالنصوص الصحيحة الصريحة في ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة ﴾ ح : ٢٥ ، (١ / ٧٥ فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) (١ / ٢١٠ شرح النووي) .

(٢) أخرجه البخاري ، في صحيحه ، كتاب الجهاد ، باب اسم الفرس والحمار ، ح : ٢٨٥٦ ، (٦ / ٥٨ فتح الباري) وأخرجه مسلم في صحيحه ،- واللفظ له- كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (١ / ٢٣٠ شرح النووي) .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١ / ٢١٧ .

٦ – أنه وصف خيار الخلق في القرآن الكريم، من الأنبياء والمرسلين والصالحين ، فبالعبودية نعت الله تعالى المصطفين من عباده على سبيل التنويه والإشادة بهم[١] قال الله تعالى في الثناء على نبيه داود عليه السلام:﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ [٢] وقال عن أيوب عليه السلام:﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشّيطان بنصب وعذاب ﴾[٣]وقال عن نوح عليه السلام:﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾[٤] وقال عن نبيه إبراهيم وذريته عليهم السلام :﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾[٥] .

وبها نعت الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم في أعلى المقامات، وأشرف الحالات [٦] فقال تعالى في مقام الإسراء : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ [٧] ولم يقل برسوله ولا نبيه إشعاراً بأنه عليه الصلاة والسلام إنما نال هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه .

وقال في مقام الدعوة :

﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ [٨]

---

[١] انظر العبودية لابن تيمية ص : ٦٠ .

[٢] سورة ص / آية : ١٧ .

[٣] سورة ص / آية : ٤١ .

[٤] سورة الإسراء / آية : ٣ .

[٥] سورة ص / آية : ٤٥-٤٧ .

[٦] انظر مفتاح دار السعادة ١ / ١١٠ .

[٧] سورة الإسراء / آية : ١ .

[٨] سورة الجن / آية : ١٩ .

وقال في مقام التحدي والإعجاز بالقرآن : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[1] ولو كان في الصفات صفة أشرف منها؛ لكان المقام يقتضي نعته بها؛ ليتناسب شرف المقام مع شرف الصفة ،ومع ما يتطلبه التحدي .

وفي المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ((أن الله عز وجل أرسل جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه يخيره بين أن يكون ملكاً نبياً أو عبداً نبياً، فنظر إلى جبريل كالمستشير له، فأشار إليه أن تواضع، فقال : بل أكون عبداً نبياً))[2]

وبما سبق يتبين عظم شأن هذا النوع من التوحيد، وماله من مكانة في الدين تجعل العناية به وبتحقيقه، والدعوة إليه، والموالاة والمعاداة فيه، وقتال من وقف في طريقه، أوجب الواجبات، وأفضل القربات [3] ولهذا بدأ به الأنبياء والرسل في دعواهم، وجهدوا فيه وفي تقريره وإقامة الأدلة عليه ما لم يجهدوا في غيره؛ ولهذا يعتبر صنيع المتكلمين المصنفين في الاعتقاد مناقضا لطريقة الأنبياء؛ فإنهم أهملوا توحيد الألوهية وعزلوه، و لم يولوه العناية اللائقة به، بل كان اهتمامهم الأكبر بتوحيد الربوبية الذي جعلوه قضية القضايا، وأسرفوا في الكلام عليه وتقريره بما لا ضرورة إليه ولا حاجة .

---

[1] سورة البقرة / آية : ٢٣ .

[2] مسند الإمام أحمد ٢ / ٢٣١ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩ / ١٩-٢٠ : ورجاله رجال الصحيح ، وسنده صحيح ، انظر مفتاح دار السعادة ١ / ١١٠ ، حاشية (١) .

[3] ومع هذا فمن الغريب أن كثيراً من المصنفين في علم التوحيد ولا سيما المتأخرون يركزون على توحيد الربوبية ، الذي يفني فيه أكثر أهل التصوف ، ويجعلونه غاية السالكين وآخر منازل السائرين ! وكأنما يخاطبون قوما ينكرون وجود الرب تبارك وتعالى ، مع أن توحيد الربوبية قضية مسلمة مركوزة في الفطر السليمة ؛ ولهذا لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ؛ ولذا قالت الرسل لقومهم : ﴿ أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ﴾ على وجه الإنكار عليهم ، وأشهر من عرف عنه تجاهله عن الربوبية هو فرعون ، وقد كان مقراً بها في قرارة نفسه كما قال له موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلآء إلا رب السماوات والأرض بصآئر ... ﴾ وقال تعالى عنه وعن قومه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ وإنما تذكر الربوبية وأدلتها في القرآن الكريم ؛ للعبور بها إلى تقرير الألوهية التي هي الغاية ، فكان حال أولئك الكتاب كحال من يعنى بالوسائل ويهمل الغايات . انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢ / ٣٧ ، و شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص : ٢٨ -٢٩ ، والقول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ ابن عثيمين ١ / ١٨

المبحث الثاني :

دلالة التكبير على وجوب إخلاص الدين لله

وعلى بطلان الشرك والتنديد :

إذا كان التكبير يعني أن يكون الله في قلب العبد أكبر وأعظم وأجل من كل شيء ، فإن العبد إذا قال : (الله أكبر) وجب عليه أن يعرف بقلبه معنى هذه الكلمة ومدلولها ، ولابد أن يكون لهذه المعرفة لوازم ومقتضيات ، تعتبر نتائج وثمرات لها، لا يجوز تخلفها عنها بحال، ومن هذه المقتضيات :

إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له : هذا الأمر العظيم الذي هو بمثابة الأساس الذي ينبني عليه سائر مطالب الدين، هو من مقتضيات العلم بأعظمية الله والإقرار بأنه أكبر من كل شيء، فعلم العبد بأن الله عز وجل أكبر من كل شيء يوجب عليه أن تكون أعماله الظاهرة والباطنة كلها خالصة لوجه الله، لا يريد بها غير رضا الله، وما عنده من الثواب، ولا يمكن أن يبقى في قلبه من يراه مستحقاً لأن يصرف له شيء من الأعمال غير الله عز وجل ؛ لأنه الكبير العظيم الذي يملك الضر والنفع، والإعطاء والمنع، فمن كبر الله وعرف ما يقتضيه التكبير، أخلص لله دينه، واتجه بكليته إليه، وأفرده بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، والتذلل والخضوع، وجميع أصناف العبادة التي لا تنبغي إلا لمن تفرد بالكبرياء والعظمة والعزة والجلال، وهو الله سبحانه، فوصفه تعالى بالكبرياء المطلقة التي يدل عليها قول (الله أكبر) يوجب نقصان ما عداه، والناقص لا يجوز أن يكون إلهاً معبوداً ولا يستحق أن يصرف له شيء من العبادة .

ولهذا تجد العلماء بالله ، وبما اتصف به من الكبرياء والجلال ، يصلون إلى درجة من الإخلاص يستوي عندهم مدح الناس وذمهم ، فلا يستميلهم مدح الناس إلى العمل من أجلهم ، كما لا يخيفهم ذمهم فيحملهم ذلك على مراقبتهم من دون الله ، لامتلاء قلوبهم من معرفة عظمة الله وكبريائه، ولمعرفتهم بحال الناس وضعفهم، فإن عدم الإخلاص الذي يعني العمل من أجل الناس ومراقبتهم، والتماس رضاهم، والهرب من سخطهم، لا يكون

إلا من جاهل بالناس وبضعفهم وفقرهم، وجاهل بالله وكبريائه وجلاله، وكمال غناه وصمديته، فمن عرف الناس بصفاتهم أنزلهم منازلهم ، ووقف بهم عند حدهم، ولم يلتفت إليهم، ولم يراقبهم في أعماله، كما أن من عرف الله تعالى بصفاته الدالة على جلاله وكمال عظمته، أخلص له أعماله وأقواله، وأفرده بالمراقبة والملاحظة في حركاته وسكناته، ومن راقب الخلق ، وصرف لهم شيئاً من حقوق الله الخالصة له، دل ذلك على جهله بالله وعظمته .

والمقصود أن قول : (الله أكبر) على اختصار لفظه يتضمن معنى عظيماً يوجب على قائله أن يخلص العبودية لله تعالى، وأن ينظر إلى كل من سوى الله نظرة ليس فيها خضوع ولا خنوع .

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس [1] رحمه الله :((وإن من أسرار كلمة (الله أكبر) التي يأتي بها المؤمن مرات كثيرة في صلواته، وغيرها من أحواله، حفظ القلب من الخنوع للخلق، باستشعار عظمة الخالق، التي يصغر عندها كل مخلوق، فلا يزال المؤمن لهذا قوي القلب، عزيز النفس بالله، لا ينتظر قوة ضعفه إلا به، ولا سد مفاقره إلا منه.

ولقلب المؤمن الموحد أمام من يحب في الله ويعظم بتعظيم الله خضوع أيضاً، ولكنه خضوع هيبة وتوقير وإجلال، لا خضوع ذل وخنوع وضعف وافتقار؛ إذ هذا كما قدمنا لا يكون إلا للغني القوي العزيز القهار .

ومن مظاهر الخنوع الذي لا يكون إلا لله : الطاعة والانقياد وهي أيضاً لا تكون إلا له وقد قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ أي : أطاعه واتبعه، كما قال تعالى : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ فمن اتبع مخلوقاً وأطاعه فيما يأمره وينهاه، دون أن يكون في طاعته مراعياً طاعة الله، فقد عبده واتخذه رباً فيما أطاعه فيه .

---

(1) هو الشيخ : عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس ، ولد سنة ١٣٠٨ هـ في قسنطينة في الجزائر تأسست برئاسته جمعية العلماء الجزائريين سنة ١٩٣٢ م ، وأصدر عدة مجلات وجرائد علمية إصلاحية ، مثل : ((المنتقد)) و((الشهاب)) وغيرهما ، توفي رحمه الله سنة ١٣٥٩ هـ انظر الأعلام للزركلي ٣ / ٢٨٩ .

وفي حديث عدي رضي الله عنه الذي رواه الترمذي وغيره لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمعه يتلو قوله تعالى:﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ فقال عدي : يارسول الله ، إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، قال : ((أليس كانوا إذا حرموا عليهم شيئاً حرموه ، وإذا أحلوا لهم شيئاً أحلوه ؟ قال قلت : نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتلك عبادتهم إياهم))[1] فالمؤمن الموحد لا تكون طاعته إلا لله ولمن طاعته طاعة لله))[2] .

وذلك لأن الطاعة والانقياد المطلق تابع لتعظيم المطاع و تقديسه ، وحقيقة العظمة والكبرياء لا تنبغي إلا لله عز وجل ، فكذلك الطاعة المطلقة لا تجوز إلا له .

وإذا كان التكبير يدل على وجوب إخلاص الدين لله عز وجل ، فإنه بالضرورة يدل على بطلان الشرك بالله سبحانه وتعالى، ويتنافى معه من كل وجهٍ ، ويدل على أنّ من أشرك بالله تعالى وجعل له نداً فإنه ما عظمه حق تعظيمه ، لأن مقتضى تكبير الله وتعظيمه إفراده بالعبادة بجميع أنواعها وصورها الظاهرة والخفية ، ولهذا أخبر الله سبحانه أن المشركين المتخذين معه آلهةً أخرى، ما قدروه حق قدره ، قال الله تعالى ﴿ يآأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقويٌّ عزيز ﴾[3] هذا مع دعواهم أنهم إنما عبدوا من عبدوهم من دون الله تعظيماً لله وإجلالاً ، ومن أجل أن يقربوهم إلى الله ، فإن الله تعالى- في زعمهم- أكبر من أن يعبده أحد من البشر مباشرةً[4] ،كما حكى الله تعالى عنهم في

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب التفسير ، باب : ومن سورة التوبة ، ح : ٣٠٩٥ ، ٥ / ٢٧٨ ، وقال : هذا حديث غريب .

(2) تفسير ابن باديس (في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) ص : ٩٢ –٩٣ ، ط/٢ دار الفكر .

(3) سورة الحج / آية : ٧٣ –٧٤ .

(4) انظر معارج الألباب في مناهج الحق والصواب للشيخ حسين بن مهدي النعمي ص : ٢٤٨ ، تحقيق / محمد حامد الفقي ط/٣، ١٤٠٥هـ ، مكتبة المعارف .

قوله : ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ﴾[1] .

قال الفخر الرازي : ((هذا حكاية لاعتقاد المشركين في أصنامهم والدافع لهم إلى عبادهم ، أما اعتقادهم فيهم ، فهو أنهم قادرون على أن ينفعوهم ، وذلك بأن يقربوهم إلى الله ، وأما الدافع لهم إلى عبادتها فهو التعظيم للرب والإجلال له وملاحظة كبريائه ، والحاصل أنهم قالوا : إن الله أعظم وأجل من أن يعبده البشر مباشرةً ، إذاً فاللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الأكابر من عباد الله ، مثل الكواكب والأرواح السماوية ، ثم إنها تشتغل بعبادة الإله الأكبر ، فهذا المراد من قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾))[2] .

وهذا الفهم الذي فهمه المشركون لتعظيم الله وإجلاله، هو من المفاهيم الباطلة التي لا يقرها شرع ولا عقل، إذ كيف يجعل أبغض الأشياء إلى الله تعالى – أعني الشرك الذي لا يغفره الله– طريقاً إلى تعظيمه وسبباً للوصول إلى مرضاته، وهذا الفهم الفاسدُ نتيجة للقياس الفاسد، قياس الخالق على المخلوق في الحاجة إلى الوسائط والشفعاء، شأن ملوك الدنيا، الذين يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال رعيتهم وحوائجهم ، ويعينهم على قضائها ، فهؤلاء حاجتهم إلى الوسائط حاجة ضرورية، ولا يقوم ملكهم بدونهم .

((فأما القادر على كل شيء، الغني بذاته عن كل شيء، والعالم بكل شيء، الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقصٌ بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده، وظن به ظن السوء، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده، ويمتنع في العقول والفطر جوازه، وقبحه مستقر في العقول السليمة فوق كل قبيح))[3]

---

[1] سورة الزمر / آية : ٣ .

[2] التفسير الكبير للرازي ١٣ / ٢٤١ .

[3] الجواب الكافي ص : ١٨٩ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله – في قول المشركين : إن عظمة الله وكبريائه تقتضي من العبد أن لا يتقرب إليه إلا بواسطة وحجاب؛ إذ التقرب إليه ابتداءً من غير شفعاء ووسائط غض من جنابه الرفيع [(1)] : ((فهذا باطلٌ من وجوه :

منها : أن الذي لا يتقرب إليه إلا بوسائط وحجاب، إما أن يكون قادراً على سماع كلام جنده وقضاء حوائجهم بدون الوسائط والحجاب، وإما أن لا يكون قادراً، فإن لم يكن قادراً كان هذا نقصاً، والله تعالى موصوف بالكمال، فوجب أن يكون متصفاً بأنه يسمع كلام عباده بلا وسائط، ويجيب دعاءهم ويحسن إليهم بدون حاجة إلى حجاب، وإن كان الملك قادراً على فعل أموره بدون الحجاب، وترك الحجاب إحسانا ورحمة، كان ذلك صفة كمال .

وأيضا فقول القائل : إن هذا غض منه، إنما يكون فيمن يمكن الخلق أن يضروه، ويفتقر في نفعه إليهم، فأما مع كمال قدرته واستغنائه عنهم، وأمنه أن يؤذوه، فليس تقربهم إليه غضاً منه، بل إذا كان اثنان أحدهما يقرب إليه الضعفاء إحساناً إليهم ولا يخاف منهم، والآخر لا يفعل ذلك إما خوفاً وإما كبراً وإما غير ذلك، كان الأول أكمل من الثاني .

وأيضاً فإن هذا لا يقال إذا كان ذلك بأمر المطاع، بل إذا أذن للناس في التقرب منه، ودخول داره، لم يكن ذلك سوء أدب عليه ولا غضاً منه ...)) [(2)]

وعلى هذا فالشرك بالله تعالى يتنافى مع الشعور بكبريائه التي تدل عليها قول (الله أكبر)؛ لما فيه من صرف حقه الخالص إلى غيره، ممن لا يستحق شيئاً من ذلك، فالله أكبر جل عن الشريك والند والشبيه والصاحبة والولد، سبحانه وتعالى عن قول المشركين الجاهلين علواً كبيراً .

---

(1) انظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ٥ / ٣٩ .

(2) مجموع الفتاوى ٦ / ١٣٣ –١٣٤ .ومجموعة الرسائل والمسائل ٥ / ٧٦ .

المبحث الثالث :

دلالة التكبير على بطلان الإلحاد :

أعني بالإلحاد هنا معناه الاصطلاحي المتبادر إلى الذهن، وهو بهذا المعنى مذهب فلسفي يقوم على فكرة عدمية أساسها : إنكار وجود الخالق جل جلاله، والقول بالطبع المحي والدهر المفني [1] فأصحاب هذا الاعتقاد هم الملاحدة الدهريون، الذين أخبر الله عنهم في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ [2]

وهذا الاعتقاد خروج على الفطرة التي فطر الله عليها جميع الخلق ، كما أنه مكابرة للعقل الذي خص الله به جنس الإنسان، ولهذا كان من يعتقد هذا أخس مترلة وأوضع درجة عند الله تعالى من البهائم، كما قال الله تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [3]

ولما كان هذا الاعتقاد مناقضاً لمقتضى الفطرة والعقل معاً، ومبنياً على محض الهوى والتخرص، كان يكفي في مناظرة أهله وإبطال قولهم أبسط الحجج العقلية، ولا يحتاج من يتصدى للرد عليهم إلى كثير علم؛ ولهذا يحكى في هذا الصدد عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله أن قوماً من الملاحدة الدهريين أرادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية، فقال لهم : أخبروني قبل أن نتكلم في هذه المسألة عن سفينة في دجلة، تذهب فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها، وتعود بنفسها، فترسي بنفسها ، وتفرغ وترجع، كل ذلك من غير

---

[1] انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢ / ٨١٣ .

[2] سورة الجاثية / آية : ٢٤ .

[3] سورة الفرقان / آية : ٤٤ .

أن يدبرها أحد ؟! فقالوا : هذا محالٌ لا يمكن أبداً !! فقال لهم : إذا كان هذا محالاً في سفينة فكيف في هذا العالم كله علويه وسفليه !! [1]

والمقصود : بيان دلالة التكبير على بطلان الإلحاد، وأن الله تعالى أكبر، وآياته أعظم وأظهر من أن ينكر وجوده سبحانه؛ إذ كل ما يشاهد في هذا الكون فهو دليل قاطع على وجود الله، بل هو دليل على عظمته وكبريائه وكمال قدرته، فلو أن الملاحدة المنكرين وجود الله تعالى لم يعطلوا عقولهم عما خلقت له من التفكر والاعتبار، لما أنكروا هذا الأمر الذي يعتبر أعظم الضرورات، التي لا تجد العقول سبيلا للهرب من التسليم به، بل يكفيهم النظر إلى أنفسهم؛ ليعلموا أنه لابد لهم من خالق مدبر؛ إذ من المحال أن يوجدوا من غير موجد لهم، كما أنه من المستحيل الممتنع أن يوجدوا أنفسهم،كما قال الله تعالى:
﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ [2]

قال ابن كثير رحمه الله : ((هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية ... أي : أوجدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أي : لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً)) [3]

وعلى هذا فالقول بأن الطبيعة أو المصادفة هي التي أوجدت العالم وهي التي تفنيه - كما تدعي الملاحدة- خرافة سخيفة، وقول مخالف لموجب الفطرة والعقل، يدل على بطلانه جميع ذرات هذا الكون، ولكن ! من لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

---

(1) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص : ٣٥ .

(2) سورة الطور / آية : ٣٥ .

(3) تفسير ابن كثير ٤ / ٢٤٥ .

المبحث الرابع :

دلالة التكبير على خطورة المعاصي والبدع :

المعاصي مسخطة للرب، كما أن الطاعات مرضاة له سبحانه، فبقدر ما يكثر العبد من الطاعات والأعمال الصالحة يكون رضوان الله تعالى عنه؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم كثيراً أن الله سبحانه لما يذكر الصالحين من عباده، أهل الطاعة والعبادة، يتبع ذلك بقوله عز وجل : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾[1] والعكس بالعكس، أي بقدر ما يكون انغماس العبد في معاصي الله تعالى يكون غضب الله وسخطه عليه، فيضعف استشعاره لكبرياء الرب سبحانه و تعالى ؛ إذ إن من عقوبات المعاصي العاجلة، أنها تضعف في قلب العاصي تعظيم الله جل جلاله، وهذا من الأمور المسلمة، أعني أن الشعور بكبرياء الله تعالى لا يجامع الشغف بمعصيته في قلب واحد، فمتى تمكن في القلب الإحساس بعظمة الله وكبريائه الموجبة لقدرته على كل شيء؛ اقتضى ذلك بالضرورة الابتعاد عن المعاصي التي تسبب سخط الله وعقوبته .

وعلى هذا، فالمتجرءون على معاصي الله تعالى ما قدروه حق قدره، وما عرفوا قدرته عليهم، إذ كيف يجتمع في قلب واحد تكبير الله وإجلاله وحب معصيته والشغف بها ؟! هذا من أمحل المحال وأبين الباطل. [2]

فلو أن العصاة تصوروا عظمة الله وكبرياءه التي تستلزم قدرته الكاملة الشاملة عليهم، وأنه الذي بيده أزمة الأمور كلها، لأدركوا خطورة ما هم عليه من التمادي في العصيان، ومبارزة الرب تعالى بالجرائم، ولعظموا الله وكبروه عن أن يراهم متلبسين بما يسخطه ، وبهذا الشعور تنعدم المعاصي أو تكاد؛ لأن صاحب هذا الإحساس لا يفرق في المعاصي

---

[1] انظر : في سورة المائدة / آية : ١١٩ و سورة التوبة / آية : ١٠٠ و سورة المجادلة / آية : ٢٢ و سورة البينة / آية : ٨ .

[2] انظر الجواب الكافي لابن القيم ص : ٩٩ .

بين صغائر وكبائر في اجتنابها جميعا وعدم التهاون بشيء منها، لأن نظره ليس إلى الذنب من حيث هو صغيرة كان أو كبيرة، ولكن إلى عظمة من يعصى وهو الله جل جلاله .

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمورا تنقلب بها الصغائر إلى كبائر مهلكات [1] ؛ وذلك بسبب ما يقترن بالذنب من عدم الشعور بعظمة الله وكبريائه، ومنها :

١ – الإصرار على الصغيرة والمواظبة عليها، ولذلك قيل : ((لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار))، فكبيرة واحدة تنقطع وتنصرم ويتبعها العبد الندم والحسنات الماحية، ولا يتبعها أمثالها، كان العفو عنها عند الله أرجى من صغيرة يتبعها العبد صغائر أمثالها .

٢ – استصغار الذنب واحتقاره، فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى، وكلما استصغره كبر عند الله تعالى؛ لأن استعظامه له يصدر عن نفور القلب عنه ، وكراهيته له، ونظره إلى عظمة الرب وكبريائه، واستصغاره له يصدر عن الإلف به، وعن غفلته عن جلال الله وكبريائه .

وهنا يظهر الفرق بين المؤمن التقي والمنافق الفاجر، في موقف كل منهما مع الذنوب، فإن المؤمن كما جاء في الحديث الصحيح : ((يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال بيده هكذا ...)) الحديث [2]

والسبب : هو ما يقوم بقلب كلٍّ منهما من الشعور بكبرياء الله تعالى، فالمؤمن يعرف عظمة الله وكبرياءه، ويستحضرها في كل أحيانه، ويعرف أنه في قبضة الله وتحت قدرته ، وأنه لو شاء أن يهلكه بذنبه لفعل، لا يمنعه من ذلك مانع، وأما الفاجر والمنافق، فقلبه خال من تكبير الله والشعور بجلاله وقدرته؛ لعدم تمكن الإيمان من قلبه، وإنما يعظم الذنب في

---

[1] انظر مدارج السالكين ١ / ٣٢٨ .

[2] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب التوبة ... ، ح : ٦٣٠٨ ، (١١ / ١٠٢ فتح الباري)

قلب العبد بحسب علمه بكبرياء الله عز وجل، فإذا نظر إلى عظمة الله وقدرته رأى الصغيرة كبيرة [1]

قال الغزالي رحمه الله : ((... وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة [2] ، وكذلك قال بعض الصحابة للتابعين : ((إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعرة، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات)) [3] ؛ إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف)).

٣ - السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتبار التمكن منها نعمة والغفلة عن كونه سببا للشقاوة وموجباً لغضب الله تعالى؛ لأنه يجب على من عرف كبرياء الله، وقدره حق قدره، إذا وقع في ذنب من الذنوب أن يشعر بأنه قد وقع في مصيبة عظيمة بسبب اقترافه لهذا الذنب، وإن كان صغيرة، وأن يكون في أسف وندم على غلبة عدوه عليه ، وعلى بعده عن الله عز وجل [4] .

٤ - ومنها تهاون العبد بستر الله عليه وحلمه عنه، و إعلانه للذنب وتجاهره به جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه، وقد قال الله تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من

---

[1] قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : قال المحب الطبري : (إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته ، لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة ،والفاجر قليل المعرفة بالله ، فلذلك قل خوفه واستهان بالمعصية) فتح الباري ١١ / ١٠٥ .

[2] حكاه ابن القيم عن أبي إسحاق الإسفرائيني ، انظر مدارج السالكين ١ / ٣١٥ . والصحيح ما عليه الجمهور وهو انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر كما دل على ذلك الكتاب والسنة الصحيحة .

[3] هو من قول أنس رضي الله عنه كما في صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب ما يتقى من محقرات الذنوب ، ح : ٦٤٩٢، (١١ / ٣٢٩ من فتح الباري) .

[4] (وهذا شأن المسلم ، أنه دائم الخوف والمراقبة ، يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيء)، فتح الباري ١١ / ١٠٥ .

القول إلاّ من ظلم ﴾ [1] كما أن في ذلك تحريكاً للرغبة في الشهوة فيمن أسمعه أو أشهده على ذنبه [2] .

فهذه الأمور حرية بأن تقلب الصغائر كبائر؛ لما فيها من استخفاف العبد بنظر الله تعالى إليه حال اقترافه المعصية، وغفلته عن قدرته عليه، وهذا ينافي تكبير الله وإجلاله الواجب، المقتضي للخوف منه والحذر من عقابه .

وأما البدع : فهي أيضاً تتنافى مع ما يقتضيه تكبير الله وتعظيمه، من حيث إن المبتدع منازع لله تعالى فيما هو خالص حقه، وهو حق التشريع ، فالمبتدع نصب نفسه مشرعاً مع الله عز وجل، والحق أنه لا مشرع إلا الله، فلا يحلل ولا يحرم ولا يبيح إلا الله سبحانه ، والمبتدع أبى إلا أن يكون شريكاً لله في هذا الحق، فكان كالمستدرك على ربه، القائل بلسان حاله : إنه كان ينبغي أن يكون هذا- الأمر الذي أحدثه – أمراً مشروعاً غير أن الشارع أغفله، فيأتي هو ليشرعه لنفسه ولغيره من أتباعه على بدعته، معتمداً على رأيه وعقله الذي أعجب به غاية الإعجاب ! وهذا طعن في قاعدة شرعية عظيمة وهي :

قاعدة كمال الدين ، التي تواترت عليها الأدلة من الكتاب والسنة كما أنه طعن في أمانة المبلغ عن الله تعالى، واتهام له بأنه ترك شيئاً من الدين كان يجب عليه تبليغه، وكلا الأمرين عظيم الخطر، شديد المنافاة مع تعظيم الله، وتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيم شريعته .

ومن هنا كان أعجل ما يجازى به المبتدع من العقوبة : ذهاب عمله وجهده عليه هدراً، لا يجني منه ثمرة ولا فائدة، بل يرد عليه مهما عظم وحسن في نظره،- فإن العمل لا يقبل حتى يكون حسناً، ولا يكون حسناً حتى يكون مشروعاً- كما في حديث عائشة

---

[1] سورة النساء / آية : ١٤٨ .

[2] انظر إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٤ / ١٩٥ – ١٩٦ .

رضي الله عنها مرفوعاً : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ)) متفقٌ عليه ، وفي لفظ لمسلم : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ)) [1]

ويعظم خطر البدعة وتظهر منافاتها لتعظيم الله وإجلاله، إذا كانت من بدع الاعتقاد، كبدعة التجهم والاعتزال والقدر، وغيرها من البدع الاعتقادية، التي مبناها على القول في الله عز وجل بغير علم، فهذه أشد أنواع البدع خطراً؛ لتعلقها بذات الرب وصفاته وأفعاله، تعالى الله وتقدس عن قول الظالمين علوا كبيراً .

ونظراً لخطورة الابتداع في الدين، وتنافيه مع تعظيم الله عز وجل وإجلاله [2] ، حذر العلماء قديما وحديثاً من البدع صغيرها وكبيرها، العملية منها والقولية والاعتقادية، وبينوا أنها كلها سيئة وضلالة، وليس ثم بدعة حسنة؛ لما يترتب على تحسين البدع من المحاذير الشرعية، القادحة في كمال الدين، وفي أمانة المبلغ عن الله تبارك وتعالى ! .

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في حديث عائشة السابق: ((وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أن حديث: ((الأعمال بالنيات)) ميزان للأعمال في باطنها ، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين مالم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء))[3]

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله : ((هذا الحديث من قواعد الدين ؛ لأنه يندرج تحته من الأحكام ما لا يأتي عليه الحصر، وما أصرحه وأدله على بطلان ما ذهب إليه الفقهاء من تقسيم البدع إلى أقسام، وتخصيص الرد ببعضها بدون مخصص من عقل ولا نقل))[4].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ح:٢٦٩٧ ، (٥ / ٣٠١ فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ومحدثات الأمور ، (١٢ / ١٦ من شرح النووي) .

(2) وقد يظن المبتدع أنه معظم لله تعالى مطيع له ، وهيهات أن تكون البدعة طاعة لله عز وجل !!

(3) جامع العلوم والحكم ١ / ١٧٦ .

(4) نيل الأوطار ٢ / ١٣٥-١٣٦ ، تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى محمد الهراوي ، طبع / مكتبة الكليات الأزهرية .

وقال الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله : ((ثم اعلم أن البدع كلها مردودة، ليس منها شيء مقبولاً، وكلها قبيحة، ليس فيها حسنٌ ، وكلها ضلال، ليس فيها هدىً ، وكلها أوزار، ليس فيها أجر، وكلها باطلٌ، ليس فيها حق)) [1] .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمة الله عليه : ((إن قوله صلى الله عليه وسلم: ((كل بدعة)) كلية عامة شاملة، مسورة بأقوى أدوات الشمول والعموم، ((كل)) فكل ما ادعي أنه بدعة حسنة فالجواب عنه بهذا، وعلى هذا، فلا مدخل لأهل البدع في أن يجعلوا من بدعهم بدعة حسنة، وفي يدنا هذا السيف الصارم : (كل بدعة ضلالة)، إن هذا السيف الصارم إنما صنع في مصانع النبوة والرسالة، إنه لم يصنع في مصانع مضطربة، لكنه صنع في مصانع النبوة، وصاغه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصياغة البليغة، فلا يمكن لمن بيده مثل هذا السيف الصارم أن يقابله أحد ببدعة يقول إنها حسنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((كل بدعة ضلالة))[2] .

وهذا_ أعني القول بعدم انقسام البدع إلى حسنة وسيئة وأن البدع كلها سيئة وضلالة– هو قول المحققين من أهل العلم،كشيخ الإسلام ابن تيمية [3] وابن رجب [4] والإمام الشاطبي [5] والشيخ محمد رشيد رضا [6] ، وغيرهم رحمهم الله جميعاً، وحملوا ما ورد من قول أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في جمع الناس على إمام واحد في قيام

---

[1] معارج القبول ٣ / ١٢٢٨ .

[2] الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع ص : ١٣ .

[3] انظر اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص :٢٧٠، مطابع المجد .

[4] انظر جامع العلوم والحكم ٢ / ١٢٨ .

[5] انظر الاعتصام ١ / ١٨٧، حيث قال الشاطبي رحمه الله : (فلو كان هناك محدثة يقتضي النظر الشرعي فيها الاستحسان ، أو أنها لاحقة بالمشروعات لذكر ذلك في آية أو حديث ، لكنه لا يوجد ، فدل على أن تلك الأدلة بأسرها على حقيقة ظاهرها من الكلية التي لا يتخلف عن مقتضاها فرد من الأفراد) .

[6] انظر (منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة) ص ٥١٩ –٥٢٠ ، وهو رسالة ماجستير ، في الجامعة الإسلامية ، إعداد الطالب / تامر محمد محمود متولي .

رمضان : ((نعمت البدعة هذه))[1] على البدعة اللغوية دون الشرعية [2] ((ومراده : أن هذا الفعل لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت، ولكن له أصول من الشريعة يرجع إليها، فمنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحث أصحابه على قيام رمضان ويرغب فيه، وكان الناس في زمنه يقومون في المسجد جماعات متفرقة ووحدانا، وهو صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه في رمضان غير ليلة ثم امتنع من ذلك؛ معللا بأنه خشي أن يكتب عليهم، فيعجزوا عن القيام به [3] ، وهذا قد أمن بعده صلى الله عليه وسلم، وروي أنه كان يقوم بأصحابه ليالي الأفراد في العشر الأواخر[4]، ومنها : أنه صلى الله عليه وسلم أمر باتباع سنة الخلفاء الراشدين [5] ، وهذا صار من سنة خلفائه الراشدين ؛ فإن الناس اجتمعوا عليه في زمن عمر وعثمان وعلي)) [6] رضي الله عنهم أجمعين .

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب صلاة التراويح ، باب فضل من قام رمضان ، ح : ٢٠١٠ (٤ / ٢٥٠ فتح الباري) .

[2] إقتضاء الصراط المستقيم ص : ٢٧٦.

[3] هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب صلاة التراويح باب فضل من قام رمضان ، ح : ٢٠١٢ (٤ / ٢٥٠ – ٢٥١ فتح الباري) .

[4] رواه أصحاب السنن : أبو داود في : كتاب الصلاة ، باب في قيام شهر رمضان ، ح : ١٣٧٥ ، ٢ / ١٠٥ ، والترمذي في : كتاب الصوم ، باب ما جاء في قيام شهر رمضان ، ح : ٨٠٦ ، ٣ / ١٦٠ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، والنسائي في : كتاب قيام الليل وتطوع النهار ، باب قيام شهر رمضان ، ٣ / ١٦٥ ، وابن ماجة في : كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء في قيام شهر رمضان ، ح : ١٣٢٧ ، ١ / ٤٢٠

[5] كما في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه ، رواه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة، ح : ٤٦٠٧ ، ٥ / ١٣ ، والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، ح : ٢٦٧٦ ٥ / ٤٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، ح : ٤٢ ، ١ / ١٥ .

[6] جامع العلوم والحكم ٢ / ١٢٨ .

الباب الثالث :

بعض المفاهيم الباطلة والتصورات الخاطئة لتكبير الله :

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

تكبير الله وتعظيمه عند طوائف المعطلة :

الفصل الثاني :

مقتضى تكبير الله عند القدرية والجبرية :

الفصل الثالث :

تكبير الله بنفي الحكمة والتعليل عن أحكامه وأفعاله :

تمهيد :

ذهب الناس في باب تعظيم الله عز وجل مذاهب شتى ، وافترقوا فيه فرقاً متعددة ، يرى كل فريق منهم أن ما هو عليه من اعتقاد وقول هو اللائق بتعظيم الله وكونه أكبر وأعظم من كل شيء ، وما عليه مخالفه من اعتقاد وقول ينافي تعظيم الله واعتقاد أنه أكبر من كل شيءٍ ، كما يدل عليه كلمة التكبير (الله أكبر) حتى جُعِل من تعظيم الله وإجلاله نفي صفات كماله، كما هو الحال عند المعطلة الذين اتخذوا من هذه البدعة المنكرة – نفي صفات الله تعالى – ديناً يتقربون به إلى الله عز وجل ، كما جُعِل من تعظيم الله وإجلاله إنكار قدرته على كل شيءٍ ، كما هو اعتقاد القدرية ، المنكرين لقدرة الله تعالى على أفعال عباده ، بل قد جُعِل من مقتضى تعظيم الله عز وجل الشرك بالله العظيم !! واتخاذ الوسائط والشركاء من دونه ، كما هو اعتقاد المشركين القائلين: ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ كما قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله – لما قيل له : إن الجهمية ينفون أحاديث الصفات ويقولون : الله أعظم من أن يوصف بشيءٍ من هذا !!– : ((قد هلك قوم من وجه التعظيم ، فقالوا : الله أعظم من أن يترل كتاباً أو يرسل رسولاً ، ثم قرأ : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ ثم قال : هل هلكت المجوس إلا من جهة التعظيم ؟ قالوا : الله أعظم من أن نعبده ولكن نعبد من هو أقرب إليه منا، فعبدوا الشمس وسجدوا لها، فأنزل الله عز وجل:
﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾))[1]

وهذا كله يدل على أن تعظيم الله وإجلاله إنما يكون وفق الضوابط الشرعية، فيعظم الله بما عظم به نفسه في كتابه وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا بما يراه كل أحد تعظيماً، وإلا انقلب التعظيم تنقيصاً، كما وقع في ذلك من لم يتقيد بالقرآن والسنة ، حيث وقعوا في أمور خطيرة لا تليق بعظمة الله وكبريائه وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً،

---

[1] انظر تخريجه في صفحة : ٤

وفي هذا الباب عرض ونقد لبعض تلك المفاهيم الخاطئة لمقتضى تعظيم الله جل جلالـــه ، وبيان أنها منافية تمام المنافاة لما يقتضيه تكبير الله وإجلاله .

الفصل الأول :

تكبير الله وتعظيمه عند طوائف المعطلة :

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

تعريف التعطيل مع بيان دركاته :

أ - تعريف التعطيل في اللغة :

مادة (ع ط ل) في اللغة العربية تأتي بمعنى الفراغ ، والخلو ، والترك ،

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي [1]: ((... والأعطال من الخيل التي لا قلائد لها ولا أرسان في أعناقها ، ... والتعطيل : الفراغ ، ودار معطلة وبئر معطلة أي لا تورد ، ولا يستقى منها ، وكل شيء ترك ضائعاً فهو معطل)).[2]

وقال ابن فارس [3] : ((" عطل " العين والطاء واللام أصل صحيح واحد يدل على خلو وفراغ ، تقول : عطلت الدار ودار معطلة ، ومتى تركت الإبل بلا راعٍ فقد عطلت، وكذلك البئر إذا لم تورد و لم يستق منها، قال الله تبارك تعالى: ﴿ وبئر معطلة ﴾

---

[1] هو الإمام أبو عبد الرحمن منشئ علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي ويقال : الفرهودي البصري ، كان رأسا في لسان العرب دينا ورعا قانعا متواضعا ، ولد سنة ١٠٠ هـ وتوفي سنة بضع وستين ومائة ، وقيل بقي إلى سنة سبعين ومائة ، ترجمته في : الوافي بالوفيات للصفدي ١٣ / ٢٤٠ ، تحقيق / أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى ، ووفيات الأعيان ٢ / ٢٤٤

[2] كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٢ / ٩ — ١٠ ، تحقيق د / مهدي المخزومي و د/ إبراهيم السامرائي بدون رقم ولا تاريخ الطبعة .

[3] هو الإمام العلامة اللغوي أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني المعروف بالرازي المالكي ، كان رأساً في الأدب بصيراً بفقه مالك ، وكان من رؤوس أهل السنة المجردين على مذهب أهل الحديث ، توفي بالري سنة ٣٩٥ هـ ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٠٣ ، وبغية الوعاة ١ / ٣٥٢ ، وانظر مقدمة تحقيق معجم مقاييس اللغة للأستاذ / عبد السلام هارون .

وقال تعالى : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ وكل شيء خلا من حافظ فقد عطل ، من ذلك تعطيل الثغور وما أشبهها ، ومن هذا الباب : العطل وهو العطول ، يقال : امرأة عاطل إذا كانت لا حلي لها، والجمع عواطل، وقوس عطل لا وتر عليها، وخيل أعطال لا قلائد لها)).[1]

وقال ابن سيده : ((التعطيل : التفريغ، وعطل الدار : أخلاها، وكل ما ترك ضياعاً معطَّل ومعْطَلٌ)) [2]

مما سبق من النقول عن أئمة اللغة يتبين لنا أن مادة : (ع ط ل) ومشتقاها ومنها : (التعطيل) تدور معانيها على : التخلية، والتفريغ، والإهمال، والترك، والإضاعة .

وبهذه المعاني فسر أئمة التفسير ما ورد في القرآن الكريم من مشتقات هذه الكلمة ، كقوله تعالى : ﴿ وبئر معطلة ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((التي تركت)) وقال قتادة رحمه الله : ((أعطلها أهلها وتركوها))[3] وقوله تعالى : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال أبي بن كعب رضي الله عنه : ((إذا أهملها أهلها))، وقال مجاهد رحمه الله : ((سيبت وتركت)) [4] .

ب – تعريف التعطيل اصطلاحاً :

التعطيل في الاصطلاح : معناه جحد الصفات وإنكار قيامها بذات الله تعالى ، ونفي ما دلت عليه من الكمال، [5]

وقيل هو : نفي الصفات الإلهية عن الله، وإنكار قيامها بذاته، أو إنكار بعضها [6]

---

(1) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ٤ / ٣٥١ – ٣٥٢ ، تحقيق / عبد السلام هارون ، دار الفكر.

(2) المحكم والمحيط لابن سيده ١ / ٣٣٨.

(3) تفسير الطبري ٩ / ١٦٨.

(4) تفسير الطبري ١٢/ ٤٥٨-٤٥٩ .

(5) التحفة المهدية ص : ٣٢ ،

(6) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص : ٨٧ ، ط/١٨ ، ١٤١٣ هـ .

وهذا معنى التعطيل فيما يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، وإلا فللتعطيل مجالات أخرى ،كالتعطيل في جانب الربوبية، والذي يعني إنكار وجود الخالق سبحانه، كما هو قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوما أصلا، بل لم يزل ولا يزال ، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسموها بالعقول والنفوس، وهناك التعطيل في جانب الألوهية، ويعني تعطيل معاملة الرب سبحانه عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد، كما يفعله بعض غلاة المتصوفة من ادعاء سقوط العبادات عنهم وعن أتباعهم، وزعمهم أن الكمال في فناء العبد عن حظوظه .... إلى آخر شطحاهم[1] .

جـ – بيان دركات التعطيل :

التعطيل في جانب الأسماء والصفات على دركات متفاوتة في شناعتها وبعدها عن الحق والصواب الذي دلت عليه نصوص القرآن والسنة والعقل والفطرة التي فطر الله الناس عليها، فأسوأ دركات التعطيل وأعمقها في الضلال والبعد عن الهدى : تعطيل من ينفي عن الله تعالى النقيضين (الإثبات والنفي) فلا يصفونه تعالى بإثبات ولا نفي، وهؤلاء هم غلاة الغلاة من الفلاسفة والقرامطة الباطنية [2] الذين يقولون عن الله –تعالى عن قولهم علوا كبيرا –: لا موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل؛ لأنهم يزعمون أنهم إذا وصفوه بالإثبات لزم من ذلك تشبيهه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي لزم من ذلك تشبيهه بالمعدومات، فلم يجدوا طريقا للخلاص من التشبيه إلا هذا وهو نفي النقيضين عنه سبحانه، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ إذ وقعوا في شر مما فروا منه وهو تشبيه الله تعالى بالممتنعات المستحيلات [3] وهؤلآء أرادوا – بزعمهم – تعظيم الله وتكبيره ووصفه بالكمال بتتريهه عن مشابهة الموجودات والمعدومات، فوصفوه بأعظم النقص، وهو امتناع وجوده واستحالته، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وهذا القول

---

(1) انظر الجواب الكافي لابن القيم ص : ١٧٧ .

(2) انظر : التحفة المهدية ص : ٤٨ .

(3) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣ / ٧ –٨ .

يقضي ببطلانه العقل والنقل والفطرة السليمة، وهو كفر صريح- والعياذ بالله-؛ لأنه جحد لما علم بالضرورة من دين الإسلام [1]

الثانية : تعطيل من ينفي عن الله تعالى الأسماء والصفات جميعاً، فلا يسميه باسم من أسمائه الحسنى، ولا يصفه بصفة من صفاته العلى، بل جعلوه سبحانه وتعالى الوجود المطلق بشرط الإطلاق؛ لأنه في- زعمهم- إذا كان له اسم من هذه الأسماء التي وردت في النصوص، كالحي، والعليم، والقدير، ونحوها، لزم أن يكون متصفاً بمعانيها، كالحياة، والعلم، والقدرة؛ فإن صدق المشتق (الاسم) مستلزم لصدق المشتق منه (الصفة)، وذلك يقتضي قيام الصفات بالله تعالى وهو -عندهم- محالٌ [2] ؛ولأنه إذا سمي بهذه الأسماء فهي مما يسمى به غيره، فيكون شبيها بالغير، والله تعالى منزه عن مشابهة الغير [3] .

وقد تولى كبر هذا القول ، ونشره، ودعا إليه الجهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم كما هو قول الفلاسفة الدهرية، وقول هؤلآء معلوم بصريح العقل فساده ؛ لأن هذا لا يكون إلا في الذهن، لا فيما خرج عنه من الموجودات [4] .

الثالثة : تعطيل من يسمون مقتصدي المعطلة، وهم الذين ((أثبتوا لله تعالى الأسماء دون ما تتضمنه من الصفات، فمنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال : عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، سميع بصير بلا سمع وبصر، فأثبتوا الاسم دون تضمنه من الصفات))[5] وهذا القول هو قول المعتزلة المجمع عليه بينهم في أسماء الله وصفاته، وقد جعلوا قولهم هذا مقتضى توحيد الله عز وجل ، وبهذا أدرجوا نفي صفات الكمال والجلال عن الله تعالى في مسمى التوحيد، فمن قال : إن لله علماً وقدرة ... ، وأنه يرى في الآخرة ، وأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، فهو عندهم مشبه وليس بموحد .

---

[1] انظر كتاب النبوات لابن تيمية ص : ١٩٨ .

[2] انظر مجموع الفتاوى ٦ / ٣٥ .

[3] انظر المصدر السابق .

[4] انظر المصدر السابق .

[5] مجموع فتاوى ابن تيمية رحمه الله : ٣ / ٨

قال ابن المرتضى المعتزلي : ((فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثاً، قديماً، قادراً، عالماً، حياً، لا لمعان)) [١] .

وقول المعتزلة هذا وإن كان دون قول الجهمية الذي تقدم ، لكنه عظيم أيضاً [٢]

وكونهم يثبتون الأسماء الحسنى ، دون ما تقتضيه تلك الأسماء من صفات الكمال الواجبة لله تعالى ، تستر منهم على الجحود والإنكار، ولم ينفعهم ذلك ، ولا خرجوا به عن دائرة التعطيل .

ولذلك يرى ابن تيمية رحمه الله أن إثباتهم الأسماء لله تعالى مجردةً عن الصفات سفسطة في العقليات وقرمطة في السمعيات [٣] .

ومن عجب !! أن هذا القول الغريب ! قد انطلى على بعض من ينتسب إلى السنة، وخفي عليه وجه فساده فاعتقده صواباً، ورد بشدة على من أثبت معاني الأسماء الحسنى، أعني ابن حزم الظاهري رحمه الله وعفا عنه، فإنه قال - في معرض مناقشاته وردوده العنيفة على أهل القول الحق، القائلين بأن أسماء الله تعالى مشتقة دالة على معانيها - : ((ولم يختلف أحد من أهل الإسلام في أنها أسماء لله تعالى، ولا في أنها لا يقال إنها نعوت له عز وجل ولا أوصاف لله ، ولو وجد في المتأخرين من يقول ذلك لكان قولاً باطلاً ومخالفة لقول الله تعالى ، ولا حجة لأحد في الدين دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذ لا شك فيما قلنا فليست مشتقة من صفة أصلاً)) .

---

(١) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل لأحمد بن المرتضى ص : ٦ ، ط دار صادر ، وانظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص : ١٨٣، والمحيط بالتكليف له أيضاً ص : ١٧٢ ، تحقيق / عمر السيد عزمي ، طبع : المؤسسة المصرية العامة للتأليف . ومقالات الإسلاميين ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) النبوات ص : ١٩٨، دار الكتب العلمية بيروت .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى ٣ / ٩ ، و السفسطة : مذهب فلسفي ظهر في البيئة اليونانية ، ويسمى أهله السوفسطائية ، وهم يمارون في حقائق الأمور ، ويسرفون في المغالطة ، والسفسطة ثلاثة أنواع : نفي الحقائق ، أو الوقوف عندها ، أو جعلها تابعة لظنون الناس ، وقيل بنوع رابع وهو القول بأن العالم في سيلان فلا يثبت . والقرمطة : مذهب باطني ظهر في البيئة الإسماعيلية ، المشتقة من نزعة التشيع ، ويسمى أهله ((القرامطة)) وهم في أصلهم (الإسماعيلي والشيعي) يمارون في مدلولات النصوص ، ويزعمون أن لها معاني غير التي يفهمها الذين وردت النصوص بلغتهم . انظر المنتقى من منهاج الاعتدال ص : ٨٦ ، هامش .

وقال أيضاً : ((ويقال لهم : إذا قلتم إنها مشتقة فقولوا لنا من اشتقها ؟ فإن قالوا إن الله اشتقها لنفسه ، قلنا لهم : هذا هو القول على الله تعالى بالكذب الذي لم يخبر به عن نفسه، وقفوتم في ذلك ما لم يأتكم به علم ، وإن قالوا : إن رسول الله اشتقها ، قلنا لهم: كذبتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد سمى الله بها نفسه قبل أن يخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوحى بها إليه فقط، فصح يقيناً أن القول بأنها مشتقة فرية على الله تعالى وكذب عليه ونعوذ بالله من ذلك، وصح بهذا البرهان الواضح أنه لا يدل حينئذ " عليم " على علم ، ولا " قدير " على قدرة ، ولا " حي " على حياةٍ ، وهكذا في سائر ذلك)) [1] .

إلى آخر ما قاله؛ انتصاراً لهذا القول، ورداً على من خالفه، مما يدل على أن أصحاب هذا القول على الرغم من مخالفة قولهم للنقل الصريح، والعقل الصحيح ، يحسبون أنه الحق الواجب اعتقاده في هذا الباب ، وأنه مقتضى التعظيم والإجلال اللائق بالله عز وجل ، وأن قول من خالفه فرية وكذب على الله تعالى، يتنافى مع موجب التكبير والتعظيم الواجب له سبحانه .

الرابعة : تعطيل من يثبت لله تعالى الأسماء الحسنى مع إثبات بعض الصفات ونفي البعض الآخر، وهذا قول كل من الكلابية، والأشاعرة، والماتريدية .

فالكلابية وقدماء الأشاعرة، ينفون عن الله تعالى الصفات الاختيارية، وهم بذلك لا يثبتون معاني النصوص التي وردت فيها تلك الصفات، بل يؤولونها، ويتكلفون في ردها وإنكارها، مثل : صفة الإتيان، والمجيء، والقبض، والطي، والنزول، ونحوها من الصفات المتعلقة بمشيئة الله واختياره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ((وكان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين : فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها، والجهمية والمعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢ / ٣٢٣ –٣٢٤ .

الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري وغيرهما)) [1] .

وأما المتأخرون من الأشاعرة الذين مالوا إلى الاعتزال والفلسفة، وكذا الماتريدية فإنهم لا يثبتون لله تعالى سوى سبع صفات، يسمونها صفات المعاني، و يرون أن العقل قد دل عليها [2] وهي : صفة الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والإرادة، والكلام ، وزاد بعض الماتريدية صفة ثامنة هي صفة التكوين [3] .

وهذه الأقوال كلها في بعد عن الحق الذي دلت عليه نصوص القرآن والسنة، والذي فاز به أهل السنة والجماعة، الذين سلم مذهبهم في هذا الباب من الإلحاد والزيغ بجميع صوره وأشكاله؛ إذ إن مذهبهم في هذا الباب قائم على ((الإيمان بجميع ما وصف الله به نفسه في كتابه العزيز وجميع ما وصفه به الرسول صلى الله عليه وسلم في سنته من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل)) [4] .

وهذا هو التعظيم لله حقا، ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولنصوص وحيه الكريم، لا ما ذهب إليه أهل الكلام والفلسفة، من الجحود والإنكار للأسماء الحسنى أو

---

(1) درء التعارض العقل والنقل ٢ / ٦ .

(2) وهذا يدل على أن إثباتهم لهذه الصفات السبع لم يكن لورودها في القرآن والسنة بل لأن عقولهم دلتهم عليها فأين قيمة الكتاب والسنة عند هؤلاء ؟!

(3) انظر : كتاب : تبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي ١ / ٣٠٦ ، تحقيق / كلود سلامة ، ط/١ ، ١٩٩٠ م المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، و كتاب : (الماتريدية دراسة وتقويماً) أحمد بن عوض الحربي ، ص : ٢٣٩ ، النشرة الأولى ، ١٤١٣هـ ، دار العاصمة ، و(الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء و الصفات) ٢ / ٤١٨، و (منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله) ٢ / ٥٠٢.

و صفة التكوين عند الماتريدية : يراد بها مبدأ الإخراج من العدم إلى الوجود ، وصفات الأفعال راجعة إليه ، وهو عبارة عن الإيجاد والتخليق والترزيق والإحياء والإماتة ، وهي عندهم صفة أزلية ، وجميع الصفات الفعلية عندهم من متعلقات التكوين ، وليست صفات حقيقية ، وإلا لزم قيام الحوادث بالله تعالى ، أو لزم تكثير القدماء جداً . انظر : تبصرة الأدلة ١ / ٣٠٧ – ٣٠٨ ، و الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات ٢ / ٤١٨ .

(4) العقيدة الواسطية بشرح الهراس ص : ٦٥

لمعانيها، وإن زعموا أنهم أرادوا بذلك تعظيم الله وتتريهه، فتلك دعوى فارغة لم يقيموا عليها أي بينة، ويكفي في الدلالة على بطلانها أنها قائمة على مصادمة النصوص وإهانتها، بتقديم العقل عليها!! ، فكيف يكون مع ذلك تعظيما لله عز وجل ؟! والتعظيم الصادق الذي يقتضيه قول (الله أكبر) إنما يكون بتصديق أخبار الكتاب والسنة وجعلهما حكما ومردا .

يقول ابن تيمية رحمه الله : ((ونفاة الصفات ما قدروا الله حق قدره، فإنه عندهم لا يمسك شيئا ولا يقبضه ولا يطويه، بل كل ذلك ممتنع عليه، ولا يقدر على شيء من ذلك ، وهم أيضا في الحقيقة يقولون : ما أنزل الله على بشر من شيء لوجهين :

أحدهما : أن الإنزال إنما يكون من علو، والله تعالى عندهم ليس في العلو، فلم يترل منه شيء، وقد قال تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مترل من ربك بالحق ﴾ [1] ﴿ تتريل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ [2] إلى غير ذلك، وقولهم : إنه خلقه في مخلوق ونزل منه باطل؛ لأنه قال : ﴿ مترل من ربك ﴾ ولم يجيء هذا في غير القرآن .

والثاني : أنه لو كان من مخلوق لكان صفة له، وكلاما له ، فإن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل، ولأن الله لا يتصف بالمخلوقات، ولو اتصف بذلك لاتصف بأنه مصوت إذا خلق الأصوات ... إلى قوله : فقد تبين أن الجهمية ما قدروا الله حق قدره، وأنهم داخلون في هذه الآية، وأنهم لم يثبتوا قدرته لا على فعل، ولا على الكلام بمشيئة، ولا على نزوله وعلى إنزاله منه شيئا، فهم من أبعد الناس عن التصديق بقدرة الله، وأنه على كل شيء قدير، وإذا لم يكن قديرا لم يكن قويا، ويلزمهم أنه لم يخلق شيئا، فيلزمهم الدخول في قوله : ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴾)) [3] .

---

(1) سورة الأنعام / آية : ١١٤ .

(2) سورة الزمر / آية : ١ .

(3) مجموع الفتاوى ٨ / ٢٦ –٢٧ .

فهذه بعض اللوازم الخطيرة التي تلزم من القول بنفي صفات الله تعالى ، وهي كلها لوازم فاسدة، وفسادها يدل على فساد ملزومها.

المبحث الثاني :

دعوى تكبير الله بتعطيل أسمائه وصفاته :

أسماء الله الحسنى وصفاته العلى تدل على عظمته وكبريائه، وعلى أنه سبحانه أكبر من كل شيء، ولهذا كثرت أسماؤه وصفاته؛ لتكون الأدلة على عظمته كثيرة، فيعظمه العباد، ويقدروه حق قدره، وذلك بتحقيق العبودية له بالخضوع لعظمته وكبريائه، وقد قيل : ((العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال)) [1]

وإذا كان الأمر كذلك، فإن معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة آثارها وأحكامها المترتبة عليها، هي الطريق الوحيد للعلم بعظمته وكبريائه، وعلى هذا، فلا يمكن للعباد تعظيمه وتقديسه، وخوفه ورجاؤه ، ودعاؤه واستغفاره، والتوكل عليه والإنابة إليه، وكل ما يقتضيه تعظيمه، إلا بعد معرفتهم إياه بأسمائه وصفاته، التي تقتضي أن يكون سبحانه العظيم الكبير الذي يجب أن تعظمه القلوب، فتخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه، فيعبد وحده دون من سواه؛ ولهذا أمر الله عباده أن يدعوه بأسمائه الحسنى فقال تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[2] .

ونجد في القرآن الكريم أن الله عز وجل يبين لعباده عظمته وكبريائه من خلال أسمائه وصفاته وآثارها، التي هي أدلة واضحات، وبراهين ساطعات، على عظمة المسمى والموصوف بها، كقوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو

---

[1] بدائع الفوائد ١ / ١٦٠ .

[2] سورة الأعراف / آية : ١٨٠ .

الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ [2] وغير ذلك من الآيات الكثيرة المشتملة على أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، التي لا يجد السامع لها عذراً من الإيمان والإقرار بأن المسمى بهذه الأسماء والمتصف بهذه الصفات هو أكبر من كل شيء، وأنه الحقيق بأن يعظم ويكبر بكل معاني التعظيم والإجلال .

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعظم ربه ويكبره بذكر أسمائه وصفاته، الدالة على كمال المسمى والموصوف بها وعظمته، كقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء الكرب :

((لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم))[3]

وقوله صلى الله عليه وسلم : ((يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون))[4] وغيرها من الأحاديث التي بين فيها النبي صلى الله عليه وسلم عظمة الله وكبرياءه وقدرته القاهرة بذكر أسمائه وصفاته، وهذا يدلنا على أن تعظيم الله وإجلاله والخضوع له وعبادته لا تحصل على الوجه الصحيح الكامل إلا

---

[1] سورة الحشر / آية : ٢٢ – ٢٤ .

[2] سورة الزمر / آية : ٦٧ .

[3] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الكرب ، ح : ٦٣٤٥ ، (١١ / ١٤٥ من فتح الباري) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر ، باب دعاء الكرب ، (١٧ / ٤٧ شرح النووي)

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ ح : ٧٤١٢ ، (١١ / ٣٩٣ فتح الباري) . ومسلم في صحيحه ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، (١٧ / ١٣١ شرح النووي) واللفظ لمسلم .

لمن عرفه بأسمائه وصفاته وآثارها التي تترتب عليها، فإذا عرف العبد ربه بتلك الصفات العظيمة أمكنه حينئذ أن يعظمه ويكبره، ويعبده العبادة الصحيحة .

وهذه الطريقة القرآنية والنبوية في بيان عظمة الله وكبريائه، هي المنهج السوي، والصراط المستقيم، الذي سار عليه أهل السنة والجماعة، من لدن الرعيل الأول صحابة رسول الله صلى الله عليه وتابعيهم بإحسان، فكلهم مجمعون - لا يختلفون – على أن الله تعالى إنما يعرف، ويعظم، ويدعى، ويتعبد له، بأسمائه وصفاته، وأن من لم يقر بأسماء الله وصفاته، لم يمكنه معرفة الله تعالى، فضلا عن أن يعظمه؛ لأنه سبحانه تعرف إلى عباده من خلال ما تسمى به من الأسماء، وما اتصف به من الصفات، في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

ثم نبتت في الإسلام نوابت، في أواخر عصر التابعين، خالفت هذا المنهج وعارضته ، فادعت أن تعظيم الله وإجلاله، وتوحيده، لا يتم إلا بنفي أسمائه وصفاته، فلا يكون العبد عندهم موحدا لله، معظما له، حتى ينفي أسماءه وصفاته، كلها أو أكثرها، وهؤلآء إنما أصيبوا بهذا الانحراف الاعتقادي من تأثرهم بالفلسفة الأجنبية، الدخيلة على الأمة الإسلامية، والتي تحمل في ثناياها الأفكار الفاسدة، والاعتقادات الباطلة، المخالفة لما أخبر الله به عن نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

وبهذا جعل هؤلآء نفي أوصاف الكمال والجلال والجمال، التي مدح الله تعالى نفسه بالاتصاف بها، من مقتضيات تعظيمه وإجلاله، بل من مقتضيات التوحيد التي لا يتحقق إلا بها !! ويدل على ذلك ما يرى في كتبهم التي صنفوها في الاعتقاد، من الدفاع المستميت عن منهجهم هذا، ومن الهجوم الشرس على مذهب أهل الإثبات [1] ، ونبزهم

---

[1] يقول القاضي عبد الجبار مشنعا على مخالفيه الذين يثبتون معاني أسماء الله تعالى : (وعند الكلابية أنه-تعالى- يستحق هذه الصفات لمعان أزلية ، وأراد بالأزلي القديم ، إلا أنه لما رأى المسلمين متفقين على أنه لا قديم مع الله –تعالى- لم يتجاسر على إطلاق القول بذلك ، ثم نبغ الأشعري ، وأطلق القول بأنه-تعالى- يستحق هذه الصفات لمعان قديمة ؛ لوقاحته وقلة مبالاته بالإسلام والمسلمين !) شرح الأصول الخمسة ص : ١٨٣ .

إياهم بالألقاب القبيحة، والأوصاف المنفرة؛ مبالغة في تقبيح قولهم، وتصويره في أشنع صورة .

يقول الزمخشري في تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ... ﴾ الآية [1] بعد كلام طويل نصر فيه مذهب المعتزلة في نفي رؤية الله مطلقاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة ! : ((... فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرجف الجبل بطالبها، وجعله دكاً، وكيف أصعقهم ، ولم يخل كليمه من نفيان ذلك؛ مبالغة على إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه، وقال : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام، المتسمين بأهل السنة والجماعة، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً !! ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة [2] ، فإنه من منصوبات أشياخهم، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجماعة سموا هواهم سنة   وجماعة حمر لعمري موكفة

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا   شنع الورى فتستروا بالبلكفة)) [3] .

فانظر إلى شدة تمسكه بمذهبه، وتشنيعه الشديد على المخالفين له من أهل السنة المثبتين للصفات، وتسمية مذهبهم الذي هو إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وإثبات صفات الكمال لله عز وجل هوىً وعظيمةً !!، وكذلك تسميته إياهم بالحمر الموكفة ، [4] ورميه إياهم بما يقتضي نفاقهم، وهو تسترهم بالبلكفة؛ خوفاً من تشنيع

---

[1] سورة الأعراف / آية : ١٤٣ .

(٢) يعني بها قول أهل السنة عند تقريرهم للإيمان بصفات الله عز وجل : تمر كما جاءت (بلا كيف) ومرادهم بذلك إبطال التكييف وليس التستر على التشبيه كما زعم

[3] الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٠٥ –٥٠٦ ، تحقيق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ / علي محمد معوض ، ط/١ ، ١٤١٨ هـ مكتبة العبيكان .

[4] و هذه الأوصاف هي ألصق بمذهبه الاعتزالي من مذهب أهل السنة الذين لا يتجاوزون القرآن والسنة

الناس عليهم؛ بسبب إثباتهم الصفات، الذي يعتبر عند المعطلة - نفاة الصفات - غاية الإخلال بتعظيم الله وإكباره .

وهذا كله يدل بوضوح، على أن المعطلة اتخذوا نفي الصفات وتجريد الله تعالى عنها سبيلا ومنهجاً لتعظيمه تبارك وتعالى، وأن من خالف ذلك فأثبت لله تعالى الصفات فهو في نظرهم لم يعظم الله التعظيم المستحق له سبحانه .

ومما يدل على ذلك أيضاً : ما جاء في كتاب الخليفة المأمون [1] إلى واليه ببغداد، الذي أمره فيه بإشخاص جماعة من العلماء، وامتحانهم في القرآن : أهو مخلوق أم غير مخلوق ؟ وهذا نصه بطوله : ((أما بعد : فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم : الاجتهاد في إقامة دين الله، الذي استحفظهم عليه، ومواريث النبوة التي ورثهم، وأثر العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته ، برحمته ومنته .

وقد عرف أمير المؤمنين أن السواد الأعظم من حشو الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاء بنور العلم وبرهانه ، في جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور عن أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ؛ لضعف آرائهم ونقص عقولهم، وجفائهم عن التفكير والتذكير ، وذلك أنهم ساووا بين الله عز وجل وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجمعين، واتفقوا غير متعاجمين، على أنه قديم أول ! لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ! وقد قال تعالى في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء

---

[1] هو عبد الله بن هارون الرشيد الخليفة العباسي ، ولد سنة ١٧٠ هـ ، وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل ، وهو الذي أمر بتعريب كتب الفلسفة إثر توليه الخلافة بعد مقتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ وهو الذي ساند المعتزلة وعززهم بقوة السلطة في قولهم بخلق القرآن ، فامتحن العلماء وأهانهم في سبيل إرضاء المعتزلة ، وقد أخذه الله سنة ٢١٨ هـ ، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠ / ٢٧٢ ...

وللمؤمنين رحمة وهدى :﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ [1] فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [2] وقال عز وجل : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ [3] فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها ، وقال : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [4] وكل محكم مفصل فله محكم ومفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه !! ثم هم الذين جادلوا بالباطل؛ ليدحضوا به الحق ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة، وفي كل فصل من كتاب الله وقصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق، والدين، والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك وغروا الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب، والتخشع لغير الله، والتقشف لغير الدين ، إلى موافقتهم عليه ، ومواطأتهم على آرائهم ؛ تزينا بذلك عندهم، وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى الباطل، واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم، وقد أخذ الله عليهم في الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم ، ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [5]

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورؤوس الضلالة ، المنقوصون من التوحيد حظا، والمبخوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهل ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، وابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من

---

(1) سورة الزخرف / آية : ٣ .

(2) سورة الأنعام / آية : ١ .

(3) سورة طه / آية : ٩٩ .

(4) سورة هود / آية : ١ .

(5) سورة محمد / آية : ٢٤ .

أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى، فمرهم بمساءلة من يحضرهم من الشهود عن علمهم في القرآن ، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، والامتناع من توقيعها عنده ، واكتب لأمير المؤمنين بما يأتيك من قضاة عملك في مساءلتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم تفقد أحوالهم ، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والإخلاص في التوحيد ، واكتب لأمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله))[1]

وواضح من هذا الكتاب أن الخليفة المأمون كان يعتقد أن ما فعله من حمل الناس على القول بخلق القرآن، وقسرهم عليه، هو من إقامة الدين الواجبة على ولي الأمر، ومن العمل بالحق في الرعية، ومن التشمير في طاعة الله عز وجل، كما يرى أن المخالفين له في ذلك هم أهل جهالة وضلالة عن الله، وعن حقيقة دينه وتوحيده، وأهل قصور عن أن يقدروا الله حق قدره، ولهذا كله نعتهم بأنهم شر الأمة ورؤوس الضلالة، واستباح أعراض طائفة من العلماء الصالحين والدعاة المخلصين، الذين ثبتهم الله بالقول الثابت، وحفظ بهم دينه، فلم يوافقوه على مذهبه الذي خالف به كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله تعالى .

والمقصود : وضوح دعوى تعظيم الله عز وجل بنفي صفات كماله في هذا الكتاب .

ولقد صدق الإمام أحمد رحمه الله في وصفه للمعطلة – نفاة الصفات – بقوله :

((فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشد الناس تعظيماً لله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلى ضلالة وكفر، ولا يشعر أنهم لا يقولون قولهم إلا فرية في الله))[2]

وتبين من هذا أن الناس في هذا الباب فريقان :

---

[1] تاريخ الطبري ٨ / ٦٣١ – ٦٣٤ . تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/٢ ، دار المعارف ، والمنتظم لابن الجوزي ، ١١ / ١٥ – ١٨ ، تحقيق ودراسة / محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا ، ط/١ ، ١٤١٢ هـ ، دار الكتب العلمية .

[2] الرد على الجهمية والزنادقة. للإمام أحمد رحمه الله ، ص : ١٠٦ ، تحقيق / عبد الرحمن عميرة ، طبع / دار اللواء ، ١٣٩٧هـ.

أ- مثبتة لصفات الكمال لله تعالى على ما يليق بجلال الله وعظمته، وهم أهل السنة والجماعة .

ب - معطلة لصفات الكمال، وهم جميع الفرق المبتدعة المخالفة لأهل السنة، وكل من الفريقين يدعي أن مذهبه هو عين التعظيم والإجلال الواجب لله عز وجل ، ومذهب مخالفه مبني على الجهل بالله تعالى وعدم تقدير الله حق قدره، ولكن ، عند التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، اللذين أمرنا بالرجوع إليهما عند التنازع في أمر ما من أمور الدين، نجد أن قول أهل الإثبات أسعد بالدليل ، وأليق بتعظيم الله جل وعلا ؛ لأنه لا يخرج عن هدي القرآن والسنة ، ويتضح ذلك من خلال عرض الأسس القويمة التي انبنى عليها مذهبهم في هذا الباب وهي :

الأساس الأول : الإيمان بما وردت به نصوص الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء الله وصفاته إثباتاً ونفياً، فهم يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه بلا تكييف ولا تمثيل ، وينفون عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه مما لا يليق بعظمته وكبريائه .

الأساس الثاني : تتريه الله عز وجل عن أن يماثل شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين، فأهل السنة –مع قولهم بإثبات أسماء الله وصفاته، الواردة في نصوص القرآن والسنة – يعظمون الله تعالى ويتزهونه عن مشابهة المخلوقات، كما دل على ذلك النقل والعقل، وبهذا يعلم بطلان تهمة من يتهمهم بالتشبيه .

الأساس الثالث : قطع الطمع عن إدراك كيفية اتصاف الله بصفاته [1] وهذا معنى قولهم: (بلا كيف) الذي ظن المعطلة أنه تستر منهم على التشبيه الذي يعتقدونه في صفات الله –وحاشاهم – وهذه الأسس الثلاثة تميز منهج أهل السنة في باب الأسماء والصفات، عن المناهج الباطلة المخالفة لمقتضى العقل والنقل، وتبرئه مما رماه به أعداؤهم من وصمة التشبيه والتمثيل، بينما تجد مذهب نفاة الصفات في هذا الباب يعتمد أساساً

---

[1] انظر منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، ص : ١٠، وما بعدها، تحقيق الشيخ / عطية محمد سالم ، طبع / الدار السلفية – الكويت ، ١٤٠٤هـ .

على دعوى معارضة العقل للنقل، ومن ثم تقديم ما يزعم أنه موجب العقل ! وذلك باعتبار أن الأدلة العقلية هي- عندهم- قواطع، يجب ترجيحها عند التعارض على الأدلة السمعية، التي هي عندهم ظنيات لا تفيد اليقين، إذ الظن لا يقاوم اليقين، وهذا أول دليل على بطلان دعواهم تعظيم الله وتكبيره بنفي أسمائه وصفاته، وعلى أنهم ما عرفوا الله تعالى ولا قدروه حق قدره، فإن من ادعى معارضة العقل لما جاءت به الرسل عليهم السلام من صفات الله وأفعاله لم يقدر الله حق قدره .

والمقصود : أن المعطلة فيما ذهبوا إليه من تجريد الله تعالى عن صفات كماله ونعوت جلاله ، ليس مستندهم الكتاب والسنة، بخلاف أهل السنة فيما أثبتوه لله من الصفات وما نفوه منها، فإنهم ينطلقون من القرآن والسنة، وهذا وحده كافٍ في ترجيح مذهبهم والحكم له بأنه اللائق بعظمة الله وكبريائه، وغاية ما يذكره المعطلة لإسناد قولهم بالنفي، شبه عقلية باطلة، ليسوا فيها على بصيرة؛ ولذلك يضطربون في تقريرها، ويختلفون فيها اختلافا أكثر من أي اختلاف على وجه الأرض [1] وإن كان الناظر فيها في بادئ الأمر يظنها حججاً قوية فهي عند أهل البصائر النيرة كما قيل :

حججٌ تهافتُ كالزجاج تخالها   حقاً وكلٌّ كاسرٌ مكسورٌ [2] .

وكما قال الإمام ابن القيم رحمه الله :

دعوى إذا حققتها ألفيتها   ألقاب زور لفقت بمحال [3]

وفيما يلي عرض لبعض تلك الشبه التي يتعلق بها نفاة الصفات، ويعارضون بها النصوص الصحيحة الصريحة، من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، مع بيان فسادها وردود العلماء عليها .

---

(1) انظر الفتوى الحموية ص : ١١ .

(2) هذا البيت للإمام الخطابي رحمه الله كما نسبه إليه ابن تيمية ، انظر الفتاوى ٤ / ٢٨ .

(3) إغاثة اللهفان ١ / ٣٥١ .

المبحث الثالث :

الطوائف التي ادعت تكبير الله بتعطيل أسمائه وصفاته

شبههم والرد عليها :

هذه الدعوى يدعيها كثير من الفرق الكلامية التي تنتسب إلى الإسلام ، على اختلاف مراتبهم في التعطيل .

كالفلاسفة : المنتسبين إلى الإسلام ، والذين حاولوا إخضاع النصوص الشرعية – ولاسيما نصوص الأسماء والصفات –للقوانين الفلسفية، بدعوى الجمع والتوفيق .

وقد بدأت هذه المحاولات بعد حركة الترجمة والتعريب لكثير من كتب الفلسفة اليونانية ، في عهد خلفاء بني العباس [1] ، إلا أنها أدت بكثير من أولئك إلى محاكاة الفلاسفة اليونان، وترجيح مذهبهم، وكان لذلك الأثر الكبير في انحرافهم عن الدين الإسلامي والعقيدة الصحيحة التي جاءت بها الرسل، وكان من أشهر من عرف بهذا المنهج : أبو نصر الفارابي [2] وأبو علي بن سينا [3] .

والجهمية : أتباع الجهم بن صفوان الضال المبتدع قال الذهبي رحمه الله في ترجمته : ((أبو محرز الراسبي مولاهم السمرقندي الكاتب، المتكلم، أس الضلالة ، ورأس الجهمية،

---

(1) انظر : مقدمة ابن خلدون ص : ٥١٥ .

(2) هو محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي أبو نصر التركي، فيلسوف، عارف باللغات، حتى قيل إنه يعرف سبعين لساناً، قال الذهبي رحمه الله ((له تصانيف مشهورة ، من ابتغى الهدى منها ضل وحار، منها تخرج ابن سينا ، نسأل الله التوفيق)) توفي في دمشق سنة ٣٣٩هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ١٥ / ٤١٦ .

(3) هو الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، الفيلسوف ، ولد سنة ٣٧٠هـ من مصنفاته : (الشفا) (والإرشادات والتنبيهات) و (القانون) ، توفي سنة ٤٢٨هـ . انظر : وفيات الأعيان ٢ / ١٥٧ ، و سير أعلام النبلاء ١٧ / ٥٣١ .

كان صاحب ذكاء وجدال،... وكان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن ، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها)) [1]

والمعتزلة : أتباع واصل بن عطاء الغزال [2] الذي كان تلميذا للحسن البصري رحمه الله، ومن الملازمين له، إلى أن وقع سؤال في مجلس الحسن عن حكم مرتكب الكبيرة ؟، فأجاب واصل بأنه لا مؤمن ولا كافر، بل هو في منزلة بين المنزلتين !، ثم قام إلى أسطوانة في المسجد، يقرر ما أجاب به على جماعة ممن انضم إليه من أصحاب الحسن، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه بالمعتزلة [3]

والكلابية : وهم أصحاب عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان ، قال عنه الذهبي رحمه الله : ((رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه ... صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة وربما وافقهم ... والرجل أقرب المتكلمين إلى السنة بل هو في مناظريهم)) [4]

وقد أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيما وافق فيه أهل السنة، ودفع عنه ما افتراه عليه أعداؤه من الجهمية والمعتزلة الذين تصدى للرد عليهم [5]

والأشاعرة : وهم الذين ينتسبون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله، الذي كان في بداية حياته على مذهب المعتزلة، يقرره ويدافع عنه، ثم أبان الله له الحق ، وهداه إلى الاعتقاد الصحيح الذي عليه أهل السنة والجماعة، فصار من ألد أعداء المعتزلة ، وألف كتباً في نقض مذهبهم وبيان بطلانه، [6] وقد أعلن عن رجوعه إلى مذهب السلف

---

[1] سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٦ –٢٧ .

[2] هو أبو حذيفة المخزومي مولاهم البصري ، ولد سنة ٨٠ هـ بالمدينة ، وهو مؤسس فرقة الاعتزال ، توفي سنة ١٣١ هـ انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٥٩ ، وسير أعلام النبلاء ٥ / ٤٦٤ .

[3] الملل والنحل ١ / ٦١ –٦٢ .

[4] سير أعلام النبلاء ١١ / ١٧٤ .

[5] انظر مجموع الفتاوى ٥ / ٥٥٥ .

[6] انظر سير أعلام النبلاء ١٥ / ٨٥ – ٩٠ .

وعن اعتقاده جميع ما يعتقدونه، وذلك في كتابه الإبانه عن أصول الديانة [1] الذي يعد آخر مؤلفاته .

والماتريدية : وهم أتباع أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي .

فهذه الطوائف كلها اتخذت نفي صفات الكمال عن الله تعالى طريقاً إلى تعظيمه، وديناً يتقربون به إليه، كما اعتبروا التصدي للرد على المثبتين للصفات- الذين يرون أنهم مشبهة للخالق بالمخلوقين- جهاداً يحتسبون أجره عند الله تعالى؛ ذلك لأنهم يزعمون أن تعطيل الرب تعالى، وتجريده عن صفاته التي هي- عندهم- أعراض وحوادث، ولا تقوم إلا بحادث، هو مقتضى إجلال الله وتوحيده، واعتقاد أنه أعظم من كل شيء، الذي يدل عليه قول (الله أكبر) فإن موجب هذه الكلمة أن يكون الله سبحانه واحداً أحداً لا مثيل له ولا شريك له، عظيماً كبيراً لا نظير له في العظمة والكبرياء، ولا يحقق العبد هذا الأمر في اعتقاد النفاة إلا بأن يجعل الرب تعالى مجرداً عن جميع صفات الكمال أو عن أكثرها ،

ومن ثم وصفوا طريقتهم في التعامل مع نصوص الصفات بأنها أعلم وأحكم !!، مع أنها تتمثل في الإقدام على هذه النصوص بالتأويلات المتعسفة، والحمل على غرائب اللغات وعجائب المجازات، أو بإنكار ثبوتها، أو دعوى أنها ظنيات لا تفيد اليقين [2] ، في حين وصفوا طريقة السلف وأتباعهم حيال نصوص الصفات بأنها أسلم؛ لأنها تعني عندهم مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والسنة، من غير فقه لمعانيها، ولا فهم لدلالاتها، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ﴾ [3] [4]

---

[1] الإبانة ١ / ٢٠ –٢١ ، تحقيق / د. فوقية حسين محمود ، ط/١ ، ١٣٩٧ هـ دار الأنصار – القاهرة .

[2] وقد علل الرازي عدم إفادة الأدلة النقلية لليقين بـ (أنها مبنية على نقل اللغات ، ونقل النحو والتصريف ، وعدم الاشتراك ، وعدم المجاز ، وعدم الإضمار ، وعدم النقل ، وعدم التقديم والتأخير ، وعدم التخصيص ، وعدم النسخ ، وعدم المعارض العقلي –ثم قال– وعدم هذه الأشياء مظنون لا معلوم والموقوف على المظنون مظنون ، وإذا ثبت هذا ظهر أن الدلائل النقلية ظنية وأن العقلية قطعية ، والظن لا يعارض القطع) أصول الدين ص : ٢٤ ، مراجعة وتقديم / طه عبد الرؤوف سعد ، طبع مكتبة الكليات الأزهرية .

[3] سورة البقرة / آية : ٧٨ .

[4] انظر الفتوى الحموية ص : ٦

وهذا الثناء العاطر من المعطلة على طريقة تعاملهم مع نصوص الصفات، يدل على شدة اعتدادهم بها، وظنهم أنها هي الطريقة المثلى، فكانوا في هذا الباب الاعتقادي المهم من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أعني أنهم قد تنقصوا ربهم وهم يظنون أنهم أشد الناس تعظيماً له، كما قال الإمام أحمد رحمه الله .

والقوم في الحقيقة إنما بنوا منهجهم هذا على شبه وخيالات، حسبوها أدلة قطعية ، لا يجوز العدول عنها، ولا النظر في شيء خالفها، وأي شيء عارضها فلا قيمة ولا وزن له عندهم، حتى وإن كان ذلك المعارض وحياً معصوماً ! [1]

ومن هذه الشبه التي تعلقوا بها، وعارضوا بها النصوص الصريحة، والعقول الصحيحة، وبنوا عليها نفي كثير من صفات الله عز وجل الواردة في القرآن والسنة :

أولاً : شبهة نفي الجسمية

هذه الشبهة من أقوى الأدلة التي يستدل بها نفاة الصفات على قولهم في صفات الله عز وجل ،فإنهم توهموا أن القول بظاهر النصوص التي تشتمل على صفات مثل : الوجه ، واليدين ، والقدم ، وغيرها من الصفات الخبرية التي وردت بها النصوص يؤدي- ولا بد- إلى القول بأن الله تعالى جسم، وإذا كان جسما جاز عليه ما يجوز على سائر الأجسام فيلزم من ذلك تشبيهه تعالى بالمخلوقات التي لها هذه الصفات [2] ، فهم- على هذا،- يعظمون الله ويترهونه عن أن يكون جسما شبيها بالمخلوقات ، ولا يتم هذا في نظرهم إلا بنفي هذه الصفات عنه .

---

[1] على أنه في الحقيقة لا يقع تعارض بين صحيح النصوص وصريح المعقول ، وأي تعارض لاح للناظر فيها فهو تعارض موهوم لا حقيقة له في نفس الأمر ، ولتقرير هذه الحقيقة صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كتابه العظيم " درء تعارض العقل والنقل "

[2] ومن هنا جرؤوا على تسمية النصوص المشتملة على شيء من هذه الصفات بـ " نصوص التشبيه "_! ولقبوا من يقول بظاهر تلك النصوص بالمشبهة !

يقول القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي :[1] في قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ... ﴾ الآية[2] نافياً صفة الإتيان التي دلت الآية على اتصاف الله تعالى بها : ((والجواب عن ذلك أن ظاهر الآية لا يصح أن يقول به قوم؛ لأنه يوجب أنه تعالى يأتيهم في ظلل من الغمام ، بمعنى أنه مكان له وظرف! ، وهذا يوجب أنه أصغر من الظلل ، والظلل أعظم منه! ، ويوجب أن تكون الملائكة معه في الظلل لمكان العطف، وذلك يوجب اجتماعه والملائكة في الظلل ![3] وليس ذلك مما يقوله قوم ، ومتى تأولوه على وجه فقد زالوا عن الظاهر ، ومن حمل ذلك على حقيقته فلا بد أن يعترف فيه بأنه جسم مؤلف مصور وذلك يوجب فيه الحدوث على ما قدمنا من قبل))[4]

وقال في نفي صفة الاستواء على العرش ، التي أثبتها الله –تعالى- لنفسه في سبعة مواضع من القرآن الكريم ، مما يدل على تأكد ثبوتها له : ((والاستواء إنما يصح على الجسم ، كما أن القيام والقعود إنما يصحان عليه ، ويوجب جواز الانتقال عليه))[5]

وإنما احتاج الرجل إلى هذا التكلف المستهجن، بسبب سوء ظنه بنصوص القرآن والسنة ، التي وردت بإثبات هذه الصفات لله عز وجل ، وعدم احترامه لها، وإلاء فلو عظم النصوص، لعلم أنها لا تشتمل على الباطل الذي نزه الله –تعالى- نفسه عنه في أكثر من موضع ، وهو في هذا يظن أنه يدافع عن الاعتقاد الصحيح ، وأنه يعظم الله ويكبره عن مشابهة المخلوقات المحدثات .

---

[1] هو : عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل العلامة المتكلم ، شيخ المعتزلة في زمانه ، كنيته أبو الحسن ، صاحب تصانيف كثيرة ، وكان من كبار فقهاء المذهب الشافعي ، وولي قضاء القضاة بالري ، وقد تخرج به خلق كثير في الرأي الممقوت ، مات سنة ٤١٥ هـ انظر سير أعلام النبلاء ١٧ / ٢٤٤ –٢٤٥ .

[2] سورة البقرة / آية : ٢١٠ .

[3] هذه الإيجابات كلها من فهم القاضي وليست مما يدل عليه ظاهر النص ؛ لما علم من أن القرآن والسنّة لا يدلان على باطل .

[4] متشابه القرآن لعبد الجبار ص : ١٢٠ –١٢١ ، تحقيق / عدنان محمد زرزور ، دار التراث .

[5] متشابه القرآن ص : ١٢٠ –١٢١ .

ومثل هذا فعل الغزالي رحمه الله في نفي صفة الاستواء عن الله تعالى بدعوى أن إثباتها يوجب كونه جسماً فيكون شبيها بسائر الأجسام ، حيث قال : ((ندعي[١] أن الله – تعالى– متره عن أن يوصف بالاستقرار على العرش، فإن كل متمكن على جسم والمستقر عليه مقدر لامحالة ، فإما أن يكون أكبر منه أو أصغر أو مساوياً، وكل ذلك لا يخلو عن التقدير، وإنه لو جاز أن يماسه جسم من هذه الجهة، لجاز أن يماسه من سائر الجهات ، فيصير محاطاً به، والخصم لا يعتقد ذلك بحال، وهو لازم على قوله بالضرورة .

وعلى الجملة : لا يستقر على الجسم إلا جسم، ولا يحل فيه إلا عرض، وقد بان أنه ليس بجسم ولا عرض، فلا يحتاج إلى إقرار هذه الدعوى بإقامة البرهان))[٢]

وهكذا أدى تعلق المعطلة بهذه الشبهة الساقطة إلى نفي صفة هي من أعظم صفات الله تعالى، والتي مدح الله بها نفسه في مواضع من كتابه العزيز، مدعين أن إثباتها له ينافي تعظيمه سبحانه؛ لأن ذلك يؤدي بالضرورة إلى تجسيمه وتشبيهه بخلقه– تعالى الله وتقدس عما يقولون–.

ولا شك أن ما ذكروه من لزوم التجسيم والتشبيه [٣] من إثبات صفات الكمال لله تعالى، غير لازم إلا في عقولهم، التي مجدوها وقدموها على نصوص الوحي المعصوم؛ لأن

---

(١) هذه دعوى لا تدعمها بينة صحيحة ، وهي معارضة لنصوص الوحي ؛ إذن فلا اعتبار لها .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص : ٢٩ ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده .

(٣) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان مدى تمسك المعطلة بنفي التشبيه كوسيلة لهم إلى نفي صفات الكمال عن الله تعالى : ((إن هؤلآء المعارضين بين الوحي والعقل، من الجهمية المعطلة، والفلاسفة الملاحدة، ومن اتبع سبيلهم ، هم دائما يدلون بنفي التشبيه والتمثيل، ويجعلونه جنة لتعطيلهم ونفيهم ، فجحدوا علوه على خلقه ومباينته لهم، وتكلمه بالقرآن والتوراة والإنجيل وسائر كتبه، وتكليمه لموسى، واستواءه على عرشه، ورؤية المؤمنين له بأبصارهم من فوقهم في الجنة ، وسلامه عليهم ، وتجليه لهم ضاحكاً ، وغير ذلك مما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وترسوا بنفي التشبيه، واتخذوه جنة يصدون به القلوب عن الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته ، وكل من نفى شيئاً مما وصف الله به نفسه جعل نفي التشبيه له كالوقاية في الفعل ، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن نفى ذاته وماهيته؛ خشية التشبيه ، فقال : هو وجود محض لا ماهية له !! ونفى آخرون وجوده بالكلية خشية التشبيه ، وقالوا : يلزمنا في الوجود ما لزم بشتى الصفات، والكلام والعلو في ذلك فنحن نسد الباب بالكلية)) الصواعق المرسلة ٤ / ١٣٦٦ .

الله تعالى الذي أثبت لنفسه هذه الصفات، هو الذي نفى المماثلة والمشابهة بينه وبـــين أي شيء من المخلوقات، وهو أعرف بنفسه من كل أحد سواه، و أدرى بما يليـــق بجلالـــه وكبريائه من صفات الكمال، وما لا يليق به من صفات النقص، كما أنه من غير الجـــائز اعتقاد أن كلام الله متناقض يهدم بعضه بعضا، ويكذب بعضه بعضاً، أو أنـــه ســبحانه يصف نفسه بما هو غير لائق به، أو بما يوجب اتصافه به مشابهته للمخلوقات .

وعلى هذا : فهذه الشبهة التي جعلها المعطلة حجة قوية، ومنطلقاً أساسياً إلى نفي كل ما لم تستسغه عقولهم من الصفات الإلهية، ليست إلا وحيا من الشيطان زينه لهم وأوهمـهم أنها حجة قاطعة لا تقبل النقاش .

ثانياً : شبهة التركيب :

هذه أيضاً من الشبه المضللة، التي وضعها الفلاسفة الذين حاولوا الجمع بين فلســـفة اليونان وما جاء من حقائق الدين الإسلامي وعلى رأسهم رئيسهم ابن سينا [١]، وعنـــهم أخذ المعتزلة هذه الشبهة ومفادها : أنه لوكان لله تعالى صفة من هذه الصفات التي وردت بها النصوص لكان مركباً، والمركب مفتقر إلى أجزائه التي تركب منها وأجزاؤه غـــيره ، والمفتقر إلى غيــره لا يكون واجباً بنفسه فلا يكون إلهاً !! [٢]

---

[١] يقول ابن تيمية رحمه الله –في بيان انحراف الفلاسفة –: (ولهؤلاء في نصوص الأنبياء طريقتان : طريقة التبديل ، وطريقة التجهيل ، أما أهل التبديل فهم نوعان : أهل الوهم والتخييل ، وأهل التحريف والتأويل ، فـــأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون : إن الأنبياء أخبروا عن الله وعن اليوم الآخر ، وعن الجنة والنار ، بل وعـــن الملائكة ، بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله جسم عظيم ، وأن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً ، وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر ، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به ويتخيلون أن الأمر هكذا ، وإن كان هذا كذباً ، فهو كـــذب لمصلحة الجمهور ، إذ كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريق ، وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على الأصل ، كالقانون الذي ذكره في ((رسالته الأضحوية)) ، وهؤلاء يقولون : الأنبياء قصدوا بهذه الألفاظ ظواهرها ، وقصدوا أن يفهم الجمهور منها هذه الظواهر ، وإن كانت الظواهر في نفس الأمر كذباً وبـــاطلا ومخالفة للحق ، فقصدوا إفهام الجمهور بالكذب والباطل للمصلحة !! ...) درء تعارض العقل والنقـــل ١ / ٨-٩ .

[٢] انظر منهاج السنة ٢ / ١٦٤ .

وقد وافق الأشاعرة المعتزلة في هذه الشبهة واعتبارها دليلا قوياً يوجب نفي صفات الله تعالى ، يقول الرازي محتجاً بهذه الشبهة على نفي الصفات :

((إن كل متحيز فإما أن يكون قابلاً للقسمة أو لا يكون ، فإن كان قابلا للقسمة كان مركباً مؤلفاً، وإن كان غير قابل للقسمة فهو الجوهر الفرد، وهو في غاية الصغر والحقارة، وليس في العقلاء أحد يقول هذا القول، فثبت أنه تعالى لو كان متحيزاً لكان مؤلفاً وذلك محال؛ لأن كل ما كان كذلك فهو مفتقر في حقيقته إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه فهو غيره، فكل مركب فهو مفتقر في الحقيقة إلى غيره وكل ما كان كذلك فهو ممكن لذاته ، فكل مركب ممكن لذاته، فيلزم أن يكون الممكن لذاته واجباً لذاته، وذلك محالٌ فيمتنع أن يكون متحيزاً)) [1]

وقد رد العلماء على هذه الشبهة وأبطلوها بما حاصله : أن ألفاظها مجملة محتملة لأكثر من معنى ، فالمركب يراد به ما ركبه غيره ، وما كان متفرقاً فاجتمع ، وما يقبل التفريق ، والله سبحانه متره عن جميع هذه المعاني بالاتفاق، كما أن هذه المعاني ليست لازمة من القول بإثبات الصفات لله تعالى ، لكن ، إن أريد بالمركب الذات الموصوفة بصفاتها اللازمة فلا دليل على أن هذا المعنى ممتنع في حق الله تعالى ، وتسمية هذا المعنى تركيباً ليست تسمية لغوية ولا شرعية، وإنما هي اصطلاح اصطلح عليه قوم ولا يلزم غيرهم .

وأما لفظ (المركب) فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى اسماً؛ لكونه يوهم بطلاً، ولأن إطلاقه عليه ينافي خاصية هذا الباب، وهي التوقيف ، فلا يسمى الله تعالى ولا يوصف إلا بما ورد في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة .

وأما لفظ (الافتقار) : فإن أريد به أن الصفات غير الذات بمعنى أنها مباينة لها ، وأن وجود الله متوقف عليها فهذا باطلٌ ، وإن أريد به أن الصفات تعقل بدون الذات والذات تعقل بدون الصفات، وأن الصفات مع ذلك لازمة للذات قائمة بها، فهذا لا محذور فيه

---

[1] أساس التقديس ص : ٤٩ ، تحقيق / أحمد حجازي السقا ، ط/١ ، ١٤١٣ هـ دار الجيل .

وأما إن أريد أن الذات مفتقرة إلى الصفات افتقار المخلوق إلى خالقه، أو الجسم إلى الحيز فليس هذا لازما من القول بإثبات الصفات لله تعالى ، فإن المثبتين لا يقولون بأن الله عز وجل خلق صفاته، وليست العلاقة بين الصفة والموصوف علاقة فاعل بمفعول أو جسم بحيز ، [1]

وإذا بطلت هذه الشبهة بطل ما بنوه عليها من نفي الصفات الإلهية الثابتة لله تعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً : شبهتا تعدد القدماء [2] وحلول الحوادث :

هاتان أيضاً من الشبه التي أثارها المعطلة " نفاة الصفات " من المعتزلة، واعتبروها دليلاً قاطعاً على نفي صفات الله عز وجل، وذلك أن القدم عندهم أخص صفات الإله [3] والتي لا يتصف بها غيره، وأنه لو كان هناك صفات زائدة على الذات الإلهية لزم من ذلك أحد محالين :

---

(1) انظر منهاج السنة ٢ / ١٦٤ ، وما بعدها

(2) وهذه الشبهة شبهة اعتزالية ، وقد تولدت عند المعتزلة من خلال ردودهم على النصارى (فإن النصارى قالوا : إن كلمة الله التي بها خلق كل شيء تجسدت بإنسان ، فكان من ردود أهل الإسلام عليهم –لبيان باطلهم- أن بينوا تهافت قولهم ، وأن كلمة الله بها خلق كل شيء ، لأن الخالق هو الله ، وهو خلق الأشياء بقوله : (كن) وهو كلامه فالكلام الذي به خلقت الأشياء ليس هو الخالق لها بل به خلق الأشياء، فضلال هؤلاء أنهم جعلوا الكلمة هي الخالق ، والكلمة مجرد الصفة ليست خالقة ، وإن كانت الصفة مع الموصوف فهذا هو الخالق وليس هو المخلوق به ، والفرق بين الخالق للسماوات والأرض ، والكلمة التي بها خلقت السماوات والأرض أمر ظاهر معروف كالفرق بين القدرة والقادر ... فهؤلاء النصارى جعلوا الصفة غير الموصوف وجعلوها خالقة ، بل جعلوها حلت في أحد المخلوقات ، وكان من آثار مناقشة المعتزلة أن تطرقوا لهذا الموضوع كثيراً ، فنشأت عندهم شبهة تعدد القدماء ، وأن إثبات صفة لله تعالى يلزم منه أن تكون الصفة قديمة ، وإذا كانت قديمة غير الموصوف لزم تعدد القدماء ، فظنوا أن تحقيق التوحيد والخلوص من شرك النصارى لا يتم إلا بنفي جميع الصفات عن الله تعالى) انظر الجواب الصحيح لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣ / ٥٤ –٥٥ ، تحقيق / مجدي قاسم ، مكتبة البلد الأمين جدة . والسياق السابق للشيخ عبد الرحمن المحمود في موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣ / ١٠٩٠ – ١٠٩١ ، ط/١ ، ١٤١٥ هـ مكتبة الرشد .

(3) انظر الفتاوى ٣ / ٧٠ و ٦ / ٣٤٤ .

الأول : أن تكون هذه الصفات قديمة مشاركة للرب في أخص صفاته (القدم) فيلزم من ذلك تعدد القدماء، الذي يلزم منه تعدد الآلهة، وهو محال؛ إذ لا قديم مع الله ، وقد كفرت النصارى بإثباتهم مع الله قدماء .

الثاني : أن تكون هذه الصفات حادثة، فيلزم من ذلك القول بـ :

حلول الحوادث بذات الله تعالى ، وهو أيضاً محال؛ إذ الحوادث لا تحل إلا بحادث مثلها، والله تعالى ليس بحادث فلا تحل به الحوادث .

ويرد على هاتين الشبهتين – ((**تعدد القدماء، وحلول الحوادث**)) – بأنهما مبنيتان على مسألة أخرى وهي : هل الصفات زائدة على الذات أو لا ؟ وفيها قولان مشهوران:

الأول : أنه لا توجد صفات غير الذات، بل إن الصفات هي الذات بعينها، والمراد به نفي الصفات مطلقاً، وإنكار قيامها بذات الرب سبحانه، وهذا قول المعتزلة، ولهذا أنكروا أن يكون الله تعالى عالما بعلم وقادراً بقدرة وحياً بحياة وهكذا ...

الثاني : أن الصفات زائدة على الذات، ومعناه : أن المعنى المستفاد من الصفات: هو معنى زائد على الذات المجردة التي يثبتها نفاة الصفات، والتي يفرض الذهن وجودها، وإن كان هذا وجوداً ذهنياً لا حقيقة له في الواقع [1]

وعلى هذا، فالمثبتون للصفات لم يقولوا : إن هذه الصفات قائمة بنفسها حتى يلزم من إثباتها تعدد القدماء، بل إنهم يقولون : إنها صفات قائمة بالذات قديمة بقدمها؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموصوف، وتكون تابعة للموصوف في قدمها وحدوثها .

وأما قولهم : إن النصارى إنما كفرت بقولهم بتعدد القدماء، فالجواب أن يقال : إن الله كَفَّرَ النصارى بقولهم بتعدد الآلهة، وادعائهم ألوهية المسيح وأمه، عليهما السلام، هكذا جاء في القرآن الكريم، في أكثر من آية، كما في قول الله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث

---

[1] انظر الفتاوى ٣ / ٧٠ ، و ٥ / ٣٢٦ .

ثلاثة ﴾ أي ثالث ثلاثة من الآلهة، وقوله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ [١]

والمثبتون للصفات لم يقولوا إن الصفات آلهة من دون الله، كما قالت النصارى في المسيح وأمه، كما لم يقولوا بأن الذات المجردة من الصفات هي الله المستحق للعبادة؛ لما علم من امتناع وجود هذه الذات إلا في الذهن، وإنما الإله المستحق للعبادة هو الإله الموجود الكامل بصفاته الكاملة [٢]

وأما حلول الحوادث بذات الله تعالى: وهي أيضا من الشبه التي يتعلق بها النفاة، وقد وافق الأشاعرة المعتزلة على الاحتجاج بها، واستعملوها في نفي الصفات الاختيارية [٣] التابعة لمشيئة الله عز وجل [٤] فالجواب عنها: أن القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى : هو مذهب سلف الأمة وخيارها، وهو الذي اجتمعوا عليه، ولا يمكن أن يجتمعوا إلا على حق ، كما أن القول بذلك من لوازم الإقرار بكمال الرب جل وعلا؛ فإن كونه تعالى يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاؤه، هو الكمال ، وضده نقص يتتره الله تعالى عنه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

((... ثم إن القول بذلك – يعني حلول الحوادث بذات الله تعالى – هو مذهب أهل الحديث بل قول أئمة أهل الحديث، وهو الذي نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها، وكثير من

---

[١] سورة المائدة / آية : ١٧ ، ٧٣ ، ١١٦ .

[٢] انظر منهاج السنة ٢ / ٤٩٤ – ٤٩٥ .

[٣] (وهي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل ، فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته ، مثل كلامه ، وسمعه وبصره ، وإرادته ، ومحبته، ورضاه، ورحمته، وغضبه ، وسخطه، ومثل خلقه، وإحسانه، وعدله، ومثل استوائه، ومجيئه، وإتيانه، ونزوله، ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦ / ٢١٧ ، وهي التي يسميها المعتزلة : حلول الحوادث بذات الله تعالى ، انظر درء التعارض ٢ / ١٠ .

[٤] يقول الفخر الرازي : (المسألة السابعة : في أنه يستحيل قيام الحوادث بذات الله تعالى خلافا للكرامية ، والدليل عليه : أن كل ما كان قابلا للحوادث فإنه يستحيل خلوه عن الحوادث ، وكل ما كان يمتنع خلوه عن الحوادث فهو حادث ينتج أن ما كان قابلا للحوادث فإنه يكون حادثا ، وعندها نقول : الأجسام قابلة للحوادث فيجب كونها حادثة ، ونقول أيضا : إن الله تعالى يمتنع أن يكون حادثا فوجب أن يمتنع كونه قابلا للحوادث) أصول الدين للرازي ص : ٤٤ .

الفقهاء والصوفية أو أكثرهم، وفيهم من الطوائف الأربعة: الحنفية والمالكيــة والشـافعية والحنبلية من لا يحصي عده إلا الله تعالى))[1]

وبهذا يظهر بطلان هذه الشبهة وبطلان ما رتبوه عليها من نفي صفات الله عز وجل، وخاصة الصفات الاختيارية، فليس الله عندهم يفعل ما شاء متى شاء ، فلا يتكلـم متى شاء، ولا يرضى عمن شاء، ولا يغضب على من شاء ، ولا استوى على العرش بعد أن لم يكن مستوياً عليه !! ...الخ – هذا مرادهم بنفي حلول الحوادث بـذات الله تعـالى – وحقيقة هذا ولازمه : تعجيز الله تبارك وتعالى عن أن يفعل ما يشاء متى شاء كيف شاء .

فهذه الشبه هي أهم حجج المعطلة [2] التي من أجلها اتهموا نصوص القرآن والسنة بما هي بريئة منه، وتكلفوا في تأويلها وتحريفها بما يتنافى مع تعظيم المتكلم بها، بل بما لازمــه القدح في كمال الدين، وقصور النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغه، وأنه اهتم بجوانب هي أقل شأناً من هذا الجانب الهام الذي تعتبر المخالفة فيه كفراً !! ومعلوم عند كل أحد لــه مسكة من عقل بطلان ذلك، فما لزم منه فهو باطل مثله .

وعليه، فدعوى المعطلة أن القول بظواهر نصوص الأسماء والصفات يوجب القـول بالتجسيم وتشبيه الخالق بالمخلوقات، أو القول بأنه مركب من أجزاء يفتقر كل جزء منها إلى غيره، أو أنه يوجب القول بتعدد القدماء، دعوى لا تستند إلى شيء، ويكفي دليــلاً على فسادها : أن الصحابة والسلف الصالح من هذه الأمة، لم يفهموا من هذه النصـوص هذه الأمور الباطلة ؛ إذ لو فهموا منها ذلك لكانوا أشد الناس حذراً وتحذيراً من اعتقـاد ظواهرها؛ لما علم من تعظيمهم لله جل وعلا [3] ، فلما لم يؤثر عنهم حرف واحـد مـن

---

(1) بيان تلبيس الجهمية ١ / ٣٠٣–٣٠٤ .

(2) وعامتها إنما أخذوها عن طاغوت من طواغيت المشركين ، أو الصابئين ، أو ورثتهم ممن أمروا أن يكفروا بهم ، أو عمن قال كقولهم لتشابه قلوبهم . انظر الفتوى الحموية ص : ١٢ .

(3) يقول القاضي أبو يعلى : (دليل آخر على إبطال التأويل : أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها علـى ظاهرها ، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا أسبق ؛ لما فيه من إزالة التشبيه ، ورفع الشبهة ، بل قد روي عنهم ما دل على إبطاله) . إبطال التأويلات لأخبار الصفات ١ / ٧١ ، تحقيق / محمد بن حمـد النجـدي ، ط/١، ١٤١٠هـ مكتبة دار الإمام الذهبي .

ذلك، علمنا أنهم لم يعلموا ذلك من نصوص القرآن والسنة، هذا مع علمنا بأنهم فوقنا في العلم، والفهم عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، والحرص على هداية الأمة وتجنيبها سبل الردى وطرق الغواية والضلالة، ومن لم يسعه ما وسع الرسول صلىّ الله عليه وسلم وأصحابه من أمر الدين، فلا وسع الله عليه !! .

الفصل الثاني :

مقتضى تكبير الله عند القدرية والجبرية :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول :

تكبير الله وتعظيمه بنفي القدر :

المبحث الثاني :

مقتضى تكبير الله عند الجبرية " نفي فعل العبد " :

المبحث الأول :

تكبير الله وتعظيمه بنفي القدر :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول:

تعريف القدر وبيان مراتبه ومذهب أهل السنة فيه :

أ – تعريف القدر في اللغة :

القدر في اللغة : مصدر الفعل " قدر يقدر " قدراً ، وقد تسكن داله [١]

قال ابن فارس : ((قدر : القاف والدال والراء : أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته ، فالقدر مبلغ كل شيء ، يقال : قَدَرُهُ كذا أي مبلغه ، وكذلك القَدْر ، وقدرت الشيء أقدِرُه وأقدُرُه من التقدير))[٢]

ب – تعريف القدر في الاصطلاح : هو : ((ما سبق به العلم الإلهي، وجرى به القلم، مما هو كائن إلى الأبد ، وأنه عز وجل قدَّر مقادير الخلائق ، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى أنها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدَّرها)) [٣]

وقيل هو : تقدير الله تعالى للكائنات حسبما سبق به علمه واقتضته حكمته [٤]

جـ – الفرق بين القدر والقضاء :

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين :

---

[١] النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، ٤ / ٢٢ ، تحقيق / محمود محمد الطناحي ، ط/١ ، ١٣٨٣ هـ دار إحياء الكتب العربية .

[٢] معجم مقاييس اللغة ٥ / ٦٢ ،

[٣] لوامع الأنوار البهية ١ / ٣٤٨ ، ط/٢ ، ١٤٠٢ هـ ، مؤسسة الخافقين ومكتبتها .

[٤] رسائل في العقيدة للشيخ محمد الصالح العثيمين ص : ٣٧ .

الأول : قول من يرى أنه ليس ثم فرق بين القدر والقضاء في مدلولهما الشرعي، فكل واحد منهما في معنى الآخر، فحيث أطلق أحدهما دخل فيه الآخر ، أي أنهما كلمتان لمعنى واحد ، وعلى هذا فقولنا : القضاء والقدر هو من باب عطف المترادفين .

يقول الشيخ عبد الرحمن الميداني : ((ويصح لنا أن نجعل كلمتي القضاء والقدر عنوانا مشتركا ، ونأخذ لهما مدلولا واحدا مشتركا ، وهذا يبدو من ظاهر الاستعمالات الشرعية لهما ، إذ قد يجتمعان في الاستعمال وقد ينفردان والمدلول وحد، فمعنى القضاء والقدر معا : هو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ، ثم إيجادها فعلا على وفق المراد)).[1]

القول الثاني : قول من يذهب إلى التفريق بينهما، وأن لكل منهما معنى غير معنى الآخر، وهؤلاء اختلفوا في تفريقهم إلى عدة أقوال :

الأول : أنه بالنسبة لتدبير الله عز وجل وخلقه هناك ثلاثة أمور :

١- الحكم : وهو التدبير الأول الكلي الأزلي .

٢- القضاء : وهو الوضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة .

٣- القدر : وهو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوسة إلى مسبباتها المعدودة المحدودة، بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص ، وهذا رأي الإمام الغزالي رحمه الله [2]

الثاني : أن القضاء هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل ، والقدر هو الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل [3]

الثالث : أن بينهما عموما وخصوصا، فالقدر هو التقدير والقضاء هو التفصيل والتقطيع ، فالقضاء أخص من القدر الذي هو له كالأساس [4]

---

(1) العقيدة الإسلامية وأسسها ص : ٧٣٠ .

(2) انظر كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي ص : ٢٤ ، والدين الخالص لصديق حسن ٣ / ١٥٤ .

(3) فتح الباري ١١ / ١٤٩ و ١١ / ٤٧٧ .

(4) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص : ٦٧٥ – ٦٧٦ .

الرابع : قال الراغب الأصفهاني : ((ذكر بعض العلماء أن القدر بمترلة المعد للكيل ، والقضاء بمترلة الكيل، وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر رضي الله عنهما لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من القضاء ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله ، تنبيها على أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قضي فلا مدفع له، ويشهد لذلك قوله تعالى : ﴿ وكان أمرا مقضيا ﴾ ﴿ كان على ربك حتما مقضيا ﴾ ﴿ وقضي الأمر ﴾ تنبيها أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه)) (١)

الخامس : أن القضاء هو الخلق الراجع إلى التكوين، والقدر هو ما يتعلق بعلم الله الأزلي ، وذلك بجعل الشيء على مقدار محدد قبل وجوده، وهذا قول الماتريدية (٢)

السادس : أن القضاء هو إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما توجد عليه في وجودها الحادث ، والقدر : إيجاد الله الأشياء على مقاديرها المحددة في كل ما يتعلق بها (٣)

د- بيان مراتب القدر :

الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور، تسمى مراتب القدر، أو أركان الإيمان بالقدر ، ولا بد في صحة الإيمان بالقدر من الإقرار بها جميعا.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ص : ٦٧٦ ، وقصة عمر هذه متفق عليها ، لكن بغير هذا اللفظ الذي ذكره الراغب ، بل بلفظ : (نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله) انظر : صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب ما يذكر في الطاعون ، ح : ٥٧٢٩ ، (١٠ / ١٧٩ من فتح الباري) ، وأخرجها مسلم في صحيحه ، كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ، انظر صحيح مسلم مع شرح النووي (١٤ / ٢١٠) وعلى هذا فلا تصلح شاهدا لما أودها من أجله وهو التفريق بين القضاء والقدر ؛ إذ لم يرد فيها لفظ القضاء .

(٢) انظر العقائد النسفية مع شرحها ص : ١١٢ –١١٣ .

(٣) انظر الدرر السنية ١ / ٢٥٥ ، والدين الخالص ٣ / ١٥٤ ، وقد خلص الدكتور عبد الرحمن المحمود بعد حكايته الخلاف في المسألة ، ونقل أقوال من ذهب إلى التفريق بينهما ، إلى ترجيح القول الأول وهو عدم الفرق بينهما ؛ لعدم الدليل الواضح من الكتاب والسنة على ذلك ، ولأن أحدهما إذا أطلق شمل الآخر ، وعلى هذا فلا فائدة من هذا الخلاف ، وأنه خلاف اصطلاحي لا غير ، انظر : القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه ، ص : ٤٤ ، ط/٢ ، ١٤١٨ هـ دار الوطن .

المرتبة الأولى : مرتبة العلم : وتعني ((الإيمان بعلم الله عز وجل المحيط بكل شيء، من الموجودات، والمعدومات، والممكنات، والمستحيلات ، فعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه علم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم ، وآجالهم ، وأحوالهم ، وأعمالهم، في جميع حركاتهم وسكناتهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن هو منهم من أهل النار ، من قبل أن يخلقهم ومن قبل أن يخلق الجنة والنار، علم دق ذلك وجله، وكثيره وقليله، وظاهره وباطنه ، وسره وعلانيته ، ومبدأه ومنتهاه، كل ذلك بعلمه الذي هو صفته، ومقتضى اسمه العليم الخبير، عالم الغيب والشهادة، علام الغيوب)) [1]

فكل ما يقع ويوجد من أعيان وأوصاف وأحداث فهو أثر لذلك العلم الأزلي الذي اتصف الله به في الأزل ، وهذه المرتبة –وهي العلم السابق- قد اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم ، واتفق عليها جميع الصحابة ومن تبعهم من هذه الأمة و لم يخالف فيها إلا غلاة القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة [2]

الأدلة على هذه المرتبة :

أولا – من القرآن الكريم : قال الله تعالى : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [4]

والأدلة من القرآن في تقرير علم الله السابق المحيط بكل شيء كثيرة جدا .

---

[1] معارج القبول ٣ / ٩٢٠ ، تعليق وتخريج / عمر بن محمود أبو عمر ، ط/١ ، ١٤١٥ هـ ، دار ابن القيم

[2] شفاء العليل لابن القيم ص : ٦٦ ، ط/ التراث ، وانظر الفتاوى ١٦ / ٢٣٢ .

[3] سورة سبأ / آية : ٣ .

[4] سورة النجم / آية : ٣٢ .

ثانيا- الأدلة من السنة :

وأما الأدلة من السنة على هذه المرتبة فمنها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن أولاد المشركين ؟ فقال : ((الله أعلم بما كـــانوا عاملين)) [1] أي لو أبقاهم ، وقيل : علم أنهم لا يعملون شيئا ، ولا يرجعون فيعملون ، أو أخبر بعلم شيء لو وجد كيف يكون [2]

قال النووي رحمه الله : ((وفي قوله صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما كانوا عـاملين بيان لمذهب أهل الحق، أن الله تعالى علم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون)) [3]

ففي هذا الحديث بيان أن الله تعالى قد علم في الأزل سعادة من سعد، وشقاوة مـــن شقي، كما يدل على ذلك أيضا حديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار! قالوا يا رسول الله ، فلـــم نعمل أفلا نتكل ؟! قال : لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطـــى واتقى وصدق بالحسنى ... ﴾ إلى قوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ [4]

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب القدر ، باب " الله أعلم بما كانوا عاملين " ح : ٦٥٩٧ ، (١١ / ٤٩٣ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب معنى : كل مولود يولد على الفطـــرة ، (١٦ / ٢١١ من شرح النووي) .

[2] فتح الباري ٣ / ٢٤٧ .

[3] شرح صحيح مسلم للنووي ١٦ / ٢١١ .

[4] أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا ، ح : ٦٦٠٥ ، (١١ / ٤٩٤ من فتح الباري) وأخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له ، كتاب القدر ، باب : كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (١٦ / ١٩٧ شرح النووي) .

ومثله حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ، أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال : فقال ((نعم))، قال : قيل ففيم يعمل العاملون ؟ قال : ((كل ميسر لما خلق له)) [١]

فهذه الآيات والأحاديث السابقة، تدل على شمول علم الله تعالى، وإحاطته بكل شيء قبل كونه، وهذا من لوازم عظمته وكبريائه، التي اتصف بها، وهو مضمون قول : (الله أكبر) فهو سبحانه أكبر وأعظم من أن يخفى عليه شيء في هذا الكون، كما قال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [٢] .

المرتبة الثانية : مرتبة الكتابة : والمراد بها : الإيمان بأن الله تعالى قد كتب في اللوح المحفوظ كل ما سبق في علمه الأزلي من مقادير الخلائق ، إلى يوم القيامة ،

وقد أجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث على ذلك ، وأن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب [٣] التي هي اللوح المحفوظ ، والذكر ، والإمام المبين ، والكتاب المبين .

والأدلة على هذه المرتبة من الكتاب والسنة كثيرة .

فمن القرآن : قول الله تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [٤] وقوله تعالى عن موسى عليه السلام حين قال له فرعون كما حكى القرآن عنه : ﴿ فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [٥]

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه كتاب القدر ، باب : جف القلم على علم الله وقوله : وأضله الله علىّ علم ، ح : ٦٥٩٦ ، (١١ / ٤٩١ من فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له ، كتاب القدر ، باب : كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، (١٦ / ١٩٨ شرح النووي) .

[٢] سورة الملك / آية : ١٤ .

[٣] انظر شفاء العليل ص : ٩٢ .

[٤] سورة الأنعام / آية : ٣٨ .

[٥] سورة طه / آية : ٥١ –٥٢ .

وغيرها من الآيات الكثيرة التي فيها الدلالة الواضحة والإخبار الصريح عن سبق كتابة الله تعالى لكل ما هو كائن إلى يوم القيامة وفق علمه الأزلي الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض .

وأما دلالة السنة النبوية على هذه المرتبة ففي أحاديث كثيرة ومنها : ما في الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه قال : كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به في الأرض ، فنكس وقال : ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة - فقال رجل من القوم : ألا نتكل يا رسول الله ؟!- قال : لا ، اعملوا فكل ميسر ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾)) الآية [1]

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل-اليوم أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل ؟ قال لا بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، قال ففيم العمل ؟ قال زهير ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت ما قال ؟ فقال : اعملوا فكل ميسر [2]

وفي حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :((إن أول ما خلق الله القلم ، ثم قال : اكتب ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة))[3]

---

(1) البخاري في كتاب القدر ، باب : ,, وكان أمر الله قدرا مقدورا ،، ح : ٦٦٠٥ ، (١١ / ٤٩٤ من فتح الباري) ، ومسلم في القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، (١٦ / ١٩٥ من شرح النووي) .

(2) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي فبطن أمه (شرح النووي ١٦ / ١٩٧ –١٩٨).

(3) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ / ٣١٧ ، وأبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في القدر ، ح: ٤٧٠٠ ، والترمذي بلفظ: ((إن أول ما خلق الله القلم ، فقال اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد)) قال الترمذي : (وهذا حديث غريب من هذا الوجه) سنن الترمذي ، كتاب القدر ، باب (١٧) ح : ٢١٥٥ ، ٤ / ٤٥٧ –٤٥٨ ، وقال الشيخ الألباني رحمه الله ، بعد أن تتبع طرقه : ((فالحديث صحيح بلا ريب)) حاشية مشكاة المصابيح ١ / ٣٤ .

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء)) [1]

قال النووي رحمه الله : ((قوله صلى الله عليه وسلم : ((كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء)) قال العلماء : المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره ، لا أصل التقدير؛ فإن ذلك أزلي لا أول له)) [2]

فهذه الأحاديث وما في معناها، تدل على أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فقد مضت به المقادير ، وسبق به علم الله الأزلي ، وتمت كتابته في اللوح المحفوظ ، وجف به القلم الذي كتب به ، وامتنعت فيه الزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير، فضلا عن المحو والإبطال، وإنكار ذلك إنكار لركن من أركان الإيمان بالقضاء والقدر .[3]

وهذه المرتبة –أعني مرتبة الكتابة– يندرج تحتها خمسة تقادير أخرى تعتبر تفصيلات لها وهي كالآتي :

التقدير الأول : الأزلي، وهو الذي كان قبل خلق السماوات والأرض ، لما خلق الله تعالى القلم وأمره بأن يكتب، وهو المراد في نحو قول الله عز وجل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ [4] وقوله : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من أن قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ [5] وهو المراد في حديثي عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو السابقين .

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم ، (١٦ / ٢٠٣ من شرح النووي) .

(2) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦ / ٢٠٣ .

(3) انظر شرح صحيح مسلم للنووي ١٦ / ١٩٧ –١٩٨ .

(4) سورة التوبة / آية : ٥١ .

(5) سورة الحديد / آية : ٢٢ .

التقدير الثاني : هو كتابة الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته، كما في قول الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا... ﴾ الآية [1]

عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم .. ﴾ الآية ، قال : ((جمعهم فجعلهم أرواحاً ثم صورهم فاستنطقهم فتكلموا ثم أخذ عليهم العهد وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى قال : فإني أشهد عليكم السماوات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بذلك ، اعلموا أنه لا إله غيري فلا تشركوا بي شيئاً ، إني سأرسل إليكم رسلي يذكرونكم عهدي وميثاقي ، وأنزل عليكم كتبي ، قالوا شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ، لا رب غيرك فأقروا بذلك)) [2]

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ... ﴾ الآية ؟ فقال رضي الله عنه : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : ((إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال : خلقت هؤلآء للنار، وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجلٌ : يا رسول الله ففيم العمل ؟ قال : إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخل به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخل به النار)) [3]

---

[1] سورة الأعراف / آية ١٧٢ .

[2] أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٣٢٣ ، وقال : (صحيح الإسناد و لم يخرجاه) ووافقه الذهبي ، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٣ / ٦١٨، و عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه ، وابن عساكر في تاريخه ، كما في الدر المنثور ٣ / ٦٠٠ .

[3] أخرجه مالك في الموطأ ، كتاب القدر ، باب النهي عن القول بالقدر، وأبو داود من طريقه في السنة ، باب في القدر ، ح : ٤٧٠٣ ، ٥ / ٧٩ – ٨٠ ، والترمذي في سننه ، كتاب التفسير ، باب : ومن سورة الأعراف ح: ٣٠٧٥ ، ٥ / ٢٦٦ ، وقال : هذا حديث حسن .

التقدير الثالث : العمري وذلك عند تخليق النطفة في الرحم فيكتب إذ ذاك ذكورتها وأنوثتها ، والأجل والعمل ، والسعادة والشقاوة، والرزق، وجميع ما يكون له أو عليه ، ويدل على هذا حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق- ((إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد...)) الحديث [1]

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : ((وبكل حال فهذه الكتابة التي تكتب للجنين في بطن أمه، غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق، المذكورة في قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾))[2]

وقال النووي رحمه الله : ((ثم المراد بجميع ما ذكر، من الرزق، والأجل، والشقاوة والسعادة، والعمل، والذكورة، والأنوثة، أنه يظهر ذلك للملك، ويأمره بإنفاذه، وكتابته، وإلا فقضاء الله تعالى سابق على ذلك، وعلمه وإرادته لكل ذلك موجود في الأزل، والله أعلم))[3]

التقدير الرابع : الحولي ، وذلك في ليلة القدر ، التي يكتب فيها كل ما يكون في السنة إلى مثلها ، قال الله تعالى: ﴿ حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾[4]

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان))[5]

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب القدر ، ح : ٦٥٩٤ ، (١١ / ٤٧٧ فتح الباري) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، (١٦ / ١٩٠ شرح النووي) .

(2) جامع العلوم والحكم ١ / ١٦٨ .

(3) شرح صحيح مسلم ١٦ / ١٩١ –١٩٢ .

(4) سورة الدخان / آية : ١-٤ .

(5) أخرجه محمد بن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٣٩٩ .

التقدير الخامس : اليومي ، وهو سوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق في علم الله الأزلي ، وهو المراد بقول الله تعالى : ﴿ يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾ [1] عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال : ((من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع أقواماً ويضع آخرين)) [2]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((إن الله خلق لوحاً محفوظاً، من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، وعرضه ما بين السماء والأرض، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة ويحي ويميت، ويعز ويذل ويفعل ما يشاء)) [3]

المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر : مرتبة المشية، وهي الإيمان بأن كل ما كان فهو بمشيئة الله تعالى النافذة، وقدرته الكاملة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ودل عليها جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، والفطرة التي فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان [4]

ونصوص القرآن والسنة الدالة على هذه المرتبة كثيرة جداً .

ومنها : قول الله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشآء الله ﴾ [5] وقوله: ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ [6]

---

(1) سورة الرحمن / آية : ٢٩ .

(2) أخرجه ابن ماجة في المقدمة ، باب (١٣) ، ح : ٢٠٢ ، ١ / ٧٣ ، وجزم البخاري بوقفه على أبي الدرداء انظر صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب سورة الرحمن ، (٨ / ٦٣٠ فتح الباري) .

(3) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١١ / ٥٩٢، والحاكم في المستدرك ٢ / ٥١٩ ، وأبو الشيخ في العظمة ٢ / ٤٩٢ ، وأخرجه أيضا ابن المنذر وابن مردويه كما في الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٦٩٩ .

(4) شفاء العليل ص : ٩٦ .

(5) سورة الكهف / آية : ٢٣ —٢٤ .

(6) سورة الأنعام / آية: ٣٩

وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام وهو يخاطب الخضر عليه السلام : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ (١)

ومن السنة قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفه حيث يشاء)) (٢)

وكما في حديث ابن عباس رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ((ما شاء الله وشئت))، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ((أجعلتني لله عدلاً بل ما شاء الله وحده)) .

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي فيها تعليق وقوع الحوادث كلها على مشيئة الله تعالى وقدرته .

وبين مشيئة الرب تعالى وقدرته عموم وخصوص، فالقدرة أعم من المشيئة؛ لأنها تشمل كل ما كان وما سيكون وما هو كائن، وما لا يكون، فالله تعالى على كل شيء قدير، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ لا يكون لا لعدم قدرته عليه، بل لعدم مشيئته إياه، كما قال الله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ (٣) فعدم اقتتالهم، ليس لعدم قدرته تعالى، ولكن لعدم مشيئته له .

---

(١) سورة الكهف / آية : ٦٩ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليهما وسلم ، (١٦ / ٢٠٤ شرح النووي) ، وهذا الحديث من أحاديث الصفات ، فيدل على ثبوت صفة الأصابع لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته ، وقد ذكر النووي رحمه الله في معنى الحديث قولين كلاهما خطأ في ميزان أهل السنة والجماعة الذي يوجب إمرار الأحاديث المشتملة على صفات الله عز وجل على ظاهرها من غير تعرض لها بتأويل ولا تعطيل ، ولا تفويض للمعنى .

القول الأول : الإيمان بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة المعنى ، بل يؤمن بأنها حق وأن ظاهرها غير مراد

القول الثاني : يتأول بحسب ما يليق بها فعلى هذا المراد المجاز !! شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ / ٢٠٤ .

(٣) سورة البقرة / آية : ٢٥٣ .

ومثل هذا قول الله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ [1] وقوله : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [2] فالمشيئة تستلزم متعلقها ، فكلما تعلقت به مشيئة الله فهو كائن بخلاف القدرة فإنها تتعلق بما يكون وبما لا يكون .

المرتبة الرابعة من مراتب القدر : مرتبة الخلق والإيجاد، وتعني وجوب الإيمان بأن الله تعالى هو خالق جميع الكائنات وموجدها، بذواتها وصفاتها، فليس في العالم علويه وسفليه شيء إلا والله تعالى خالقه وموجده، لا خالق غيره ولا رب سواه، وهذا مقتضى عظمته وكبريائه، وموجب غناه عن كل شيء، وافتقار كل شيء إليه .

وهذه المرتبة قد دلت عليها جميع الكتب السماوية ، وأجمع عليها جميع رسل الله عليهم الصلاة والسلام، كما اتفقت على الإقرار بها الفطر القويمة والعقول السليمة، وإنما خالف فيها القدرية مجوس هذه الأمة [3]

والأدلة عليها من الكتاب والسنة كثيرة ،

فمن القرآن قول الله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾ [4] وقوله : ﴿ أم جعلوا لله شركآء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ [5] وقوله : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ [6] وغيرها من الآيات الدالة على أن كل ما في الكون فهو مخلوق لله مربوب له، خلقه بعلمه ومشيئته وقدرته الشاملة الكاملة التي خضع لها كل شيء .

ومن السنة حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ((كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط في واد، إلا

---

(1) سورة الأنعام / آية : ٥٣ .

(2) سورة الأنعام / آية : ١٠٧ .

(3) انظر شفاء العليل ص : ١٠٩ .

(4) سورة الأنعام / آية : ١٠٢

(5) سورة ارعد / آية : ١٦ .

(6) سورة الزمر / آية : ٦٢ .

رفعنا أصواتنا بالتكبير ... وفي آخره : ثم قال : ((يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمةً هي كتر من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله)) متفق عليه [1]

والشاهد في الحديث قوله : ((لا حول ولا قوة إلا بالله)) ففيه الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله ، ولا راد لأمره ، وأن العبد لا يملك من أمره شيئاً ، فمعناه : لا حركة ولا استطاعة، ولا حيلة، إلا بمشيئة الله تعالى، وقيل معناه : لا حول في دفع شر ولا قوة على تحصيل خير إلا بالله ، وقيل : لا حول عن معصية الله إلا بعصمته ، ولا قوة على طاعة الله إلا بمعونته ، وهذه المعاني متقاربة [2]

ويدخل في عموم كل شيء عند أهل السنة والجماعة أفعال المخلوقات والهدى والضلالة ، فالله سبحانه هو الخالق لها جميعاً ، وكلها تكون بمشيئته إما فضلاً وإما عدلاً .

ومما يدل على ذلك حديث البراء بن عازب في الصحيحين قال رضي الله عنه : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا   ولا صمنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا   وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا   إذا أرادوا فتنة أبينا [3]

ففيها إسناد هذه الأمور المذكورة إلى مشيئة الله وخلقه وتوفيقه، وأنه لولاه لما كان شيء منها حاصلاً .

والمقصود مما تقدم : أن العبد كلما كمل إيمانه بالقضاء والقدر، بمراتبه الأربع التي تقدمت، أثمر له ذلك ألواناً من العبودية لله تبارك وتعالى، ومن ذلك إفراده سبحانه

---

(1) أخرجه البخاري واللفظ له في كتاب القدر ، باب : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ح : ٦٦١٠ ، (١١ / ٥٠٠ من فتح الباري) ، وأخرجه مسلم في كتاب الذكر باب استحباب الإكثار من قول : " لا حول ولا قوة إلا بالله " (١٧ / ٢٥-٢٦ شرح النووي) .

(2) انظر شرح صحيح مسلم للنووي ١٧ / ٢٦ -٢٧ .

(3) متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب القدر ، باب : وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ح : ٦٦٢٠ ، (١١ / ٥١٥ -٥١٦ فتح الباري)، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب وهي الخندق ، (١٢ / ١٧١ شرح النووي).

بالتعظيم والإجلال المطلق، الذي يورث الهيبة والخشية؛ لأنه يعلم أن من هذا شأنه، - يعلم كل شيء قبل وقوعه، ويكتبه، ولا يقع في الوجود شيء إلا بمشيئته، بل هو الخالق لكل شيء بقدرته وفق ما سبق به علمه وجرى به قلمه- حقيق بأن يعظم ويجل ويهاب ويخاف منه ويرجى ، ويعتقد أنه أكبر من كل شيء؛ إذ كل ما سواه ليس له من الأمر شيء ؛ فلا يستحق التعظيم والإجلال المطلق، وبهذا ينطبع في نفس العبد المؤمن معنى (الله أكبر) انطباعاً كاملاً ، فتخلص عبوديته لله تعالى ، ويتحرر من العبودية لغير الله أياً كان ذلك الغير؛ لأنه يعلم أن كل ما سوى الله سبحانه فهو عبد مملوك، مقهور، مغلوب على أمره، لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً .

هـ - مذهب أهل السنة في القضاء والقدر :

مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة القضاء والقدر كما في غيرها من مسائل الدين الأخرى ، يتسم بالوسطية والاعتدال ، لا إفراط فيه ولا تفريط، فهم بين الفرق والطوائف كالإسلام بين الأديان في وسطيته واعتداله .

وهم في باب القدر وسط بين طائفتين ضالتين :

أ- طائفة القدرية : وهم الذين بالغوا في إثبات قدرة العباد على أفعالهم، حتى زعموا أن قدرهم مستقلة بالتأثير في أفعالهم، وأفضى بهم ذلك إلى إنكار قدرة الله تعالى وخلقه لأفعال العباد، بل ذهب غلاتهم إلى نفي علم الله تعالى بأفعال العباد قبل أن يفعلوها !، وعن هؤلآء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في معرض كلامه عن مراتب القدر، بعد أن ذكر مرتبة العلم والكتابة : ((فهذا التقدير قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً، ومنكروه اليوم قليل)) [1]

ب- طائفة الجبرية : وهم بعكس القدرية، من جهة أنهم أثبتوا قدرة الله وخلقه لكل شيء ، لكنهم ضلوا حيث أنكروا أن يكون للعباد قدرة على أفعالهم، وزعموا أنهم عليها مجبورون مقسورون، لا قدرة لهم ولا اختيار ، وتكايس بعضهم فأثبتوا للعباد قدرة إلا أنها قدرة غير مؤثرة على أفعالهم .

---

[1] العقيدة الواسطية مع شرحها للهراس ص : ٢٢١ .

فتوسط مذهب أهل السنة بين هاتين الطائفتين الغاليتين، فكان هدى بين ضلالين وحقا بين باطلين ، إذ قام مذهبهم في القدر على اعتبار أن الإيمان به ركن من أركان الإيمان ، التي لا يتم الإيمان بل لا يحصل إلا بالإيمان بها مجتمعة، فيؤمنون بعلم الله تعالى الأزلي، الشامل لكل شيء ، وكتابته لكل ما هو كائن ، وأن جميع الحوادث والكائنات إنما تحدث تبعاً لمشيئة الله تعالى ، وأنه سبحانه الخالق لكل شيء لا خالق غيره ولا رب سواه، مستندين في ذلك كله إلى نصوص القرآن والسنة الصحيحة، التي تقدم ذكر جملة منها في الكلام على مراتب القدر .

وهذا هو الذي قرره المصنفون من أهل السنة في كتبهم التي ألفوها في الاعتقاد، وبينوا بطلان ما خالفه من الأقوال والاعتقادات، وأنكروا على أصحابها أشد الإنكار، وحذروا منهم نصحا للأمة، وإقامة للحجة ، وأنقل هنا بعضا من أقوال السلف وعلماء أهل السنة التي يتضح من خلالها مذهب السلف في القضاء والقدر، كما يتبين موقفهم من الفرق الضالة المجانبة للحق في هذا الباب .

روى الإمام البيهقي رحمه الله بإسناده عن الربيع بن سليمان المرادي [1] رحمه الله قال: سئل الشافعي رضي الله عنه عن القدر فأنشأ يقول :

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن

على ذا مننت وهذا خذلت ... وهذا أعنت وذا لم تعن

فمنهم شقي ومنهم سعيد ... ومنهم قبيح ومنهم حسن [2]

---

[1] هو أبو محمد المرادي مولاهم المصري المؤذن من خواص أصحاب الإمام الشافعي رحمة الله عليه وهو ناقل علمه ، أفنى عمره في العلم ونشره ، ولد سنة ١٧٤ هـ وروي عن الشافعي رحمه الله أنه قال للربيع : لو أمكنني أن أطعمك العلم لأطعمتك وقال أيضا : الربيع راوية كتبي ، مات الربيع سنة ٢٧٠ هـ انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٢ / ١٣٢ ، وسير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٨٧ .

[2] الاعتقاد للبيهقي ص : ١٩٢ – ١٩٣ ، تحقيق أبي عبد الله أحمد بن إبراهيم أبو العينين ، ط/١ ، ١٤٢٠هـ دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، وشرح أصول الاعتقاد للالكائي ٤/ ٧٧٧، وطبقات الشافعية الكبرى ٢٩٥/١

فهذه الأبيات المأثورة عن الإمام الشافعي رحمه الله فيها تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في باب القضاء و القدر، وأن كل شيء بقدر الله تعالى، حتى الشقاوة والسعادة، وحتى القبح والحسن، كلها بمشيئة الله وخلقه .

قال البيهقي رحمه الله : ((وعلى نحو قول الشافعي رضي الله عنه في إثبات القدر لله ووقوع أعمال العباد بمشيئته درج أعلام الصحابة والتابعين ، وإلى مثل ذلك ذهب فقهاء الأمصار الأوزاعي، ومالك بن أنس ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، والليث بن سعد [1] وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم، وغيرهم، رضي الله عنهم ، وحكينا عن أبي حنيفة رحمه الله مثل ذلك)) [2]

وقال الإمام ابن أبي زيد القيرواني [3] في مقدمة رسالته المشهورة وهو يقرر معتقد أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر :

((والإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وكل ذلك قدر قدره الله ربنا ، ومقادير الأمور بيده، ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه، فجرى على قدره، لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضاه، وسبق علمه به، ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره، إلى ما سبق من علمه وقدره، من شقي أو سعيد ، تعالى أن يكون في ملكه ما لا

---

(١) هو أبو الحارث الفهمي المصري شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية ، ولد سنة ٩٣هـ، وكان على مذهب أهل الحديث في الاعتقاد ، قال الوليد بن مسلم : سألت مالكا والثوري والليث والأوزاعي عن الأخبار التي في =الصفات ؟ فقالوا : أمروها كما جاءت ، توفي الليث سنة ١٧٥هـ ترجمته في : وفيات الأعيان ٤ / ١٢٧ ، وسير أعلام النبلاء ٨ / ١٣٦ .

(٢) الاعتقاد للبيهقي ص : ١٩٢ –١٩٣ .

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي كان يقال له مالك الصغير ، صنف المصنفات الكثيرة البديعة ومنها : كتاب النهي عن الجدال ، ورسالة في الرد على القدرية ، قال الذهبي رحمه الله : (وكان رحمه الله على طريقة السلف في الأصول ، لا يدري الكلام ولا يتأول) سير أعلام النبلاء ١٧ / ١٠ ، ترجمته في : الديباج المذهب ١ / ٤٤٧ ، وشجرة النور الزكية ١ / ٩٦ .

يريد، أو يكون لأحد عنه غنى، خالق لكل شيء، ألا هو رب العباد ورب أعمالهم، والمقدر لحركاتهم وآجالهم)) [1]

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني في رسالته "عقيدة السلف أصحاب الحديث":

((ويشهدون أن الله تعالى يهدي من يشاء إلى دينه، ويضل من يشاء عنه ، ولا حجة لمن أضله الله عليه ، ولا عذر له لديه ، قال الله عز وجل : ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [2] وقال : ويشهد أهل السنة ويعتقدون، أن الخير والشر، والنفع والضر، والحلو والمر، بقضاء الله تعالى وقدره، لا مرد لهما ولا محيص ، ولا محيد عنهما، ولا يصيب المرء إلا ما كتبه له ربه ، ولو جهد الخلق أن ينفعوا المرء بما لم يكتبه الله له لم يقدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضروه بما لم يقضه الله عليه لم يقدروا، على ما ورد به الخبر عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما [3] ومن مذهب أهل السنة وطريقتهم- مع قولهم بأن الخير والشر من الله وبقضائه- لا يضاف إلى الله ما يتوهم منه نقص على الانفراد ، فلا يقال: يا خالق القردة والخنازير، والخنافس والجعلان ، وإن كان لا مخلوق إلا والرب خالقه ، وفي ذلك ورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح : ((تباركت وتعاليت ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك)) [4] ومعناه —والله أعلم- والشر ليس مما يضاف إليك إفرادا وقصدا، حتى يقال لك في المناداة : يا خالق الشر أو يا مقدر الشر، وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعا .

وكذلك من مذهب أهل السنة أن الله مريد لجميع أعمال العباد خيرها وشرها ، لم يؤمن به أحد إلا بمشيئته، ولم يكفر به أحد إلا بمشيئته، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولو شاء أن لا يعصى ما خلق إبليس، فكفر الكافرين، وإيمان المؤمنين، وإلحاد الملحدين،

---

[1] شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني (الثمر الداني في تقريب المعاني) ص : ١٢-١٣ .

[2] سورة الأنعام / آية :١٤٩ .

[3] حديث ابن عباس رواه الإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٩٣ ، والترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة، باب (٥٩) ، ح : ٢٥١٦، ٤ / ٦٦٧ ، وقال : حديث حسن صحيح .

[4] أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين ، باب صلاة النبي صلى الله عيه وسلم ودعائه بالليل (٦ / ٥٩ من شرح النووي)

وتوحيد الموحدين ، وطاعة المطيعين، ومعصية العاصين كلها بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره، وإرادته ومشيئته، وأراد كل ذلك وشاءه وقضاه، ويرضى الإيمان والطاعة، ويسخط الكفر والمعصية ولا يرضاها)) [1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله-وقد سئل عن القدر واختيار العبد لأفعاله- ؟: ((أصل هذه المسألة : أن يعلم الإنسان أن مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها، من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، ولا يمتنع عليه شيء شاءه، بل هو قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئا إلا وهو قادر عليه، ، وأنه -سبحانه- يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، قدر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون)) [2] .

وهذا الذي حكاه هؤلاء الأئمة عن أهل السنة والجماعة في هذا الباب، الذي ضلت فيه أفهام كثير من الطوائف، هو اللائق بعظمة الله تعالى وكبريائه، وهو مقتضى كونه أكبر من كل شيء ؛ لأنه لو جاز أن يكون في ملكه شيء خارج عن علمه وإرادته وخلقه- كما يزعم نفاة القدر – لكان ذلك عجزاً ونقصا ينافي عظمته وكبرياءه ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

---

[1] عقيدة السلف أصحاب الحديث ص : ٩١-٩٥ ، تحقيق / بدر بن عبد الله البدر ، ط/٢، ١٤١٥هـ مكتبة الغرباء الأثرية .

[2] مجموع الفتاوى ٨ / ٤٤٩-٤٥٠ .

المطلب الثاني :

منشأ ضلال القدرية في هذا الباب :

القدرية : نسبة إلى القدر ، والمراد بهم هنا : نفاة القدر ومنكروه ، القائلون بأن الله — تعالى عن قولهم — لم يقدر الأشياء قبل كونها و لم يتقدم علمه بها، وأنها مستأنفة العلـــم [(1)]، أي أن الله تعالى إنما يعلم الأمور الحادثة بعد حدوثها لا قبل ذلك .

وكل من أنكر مرتبة من مراتب القدر الأربع فهو من القدرية؛ إذ لا يصح الإيمـــان ببعضها دون بعض .

ونشأة القول بنفي القدر في الإسلام كانت في البصرة على يد معبد الجهني [(2)] وذلك بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين وبعد إمارة معاوية بن أبي سفيان [(3)] رضي الله عنه في زمن الفتنة التي وقعت بين ابن الزبير [(4)]رضي الله عنهما وبين بنـــي أمية، وهذا يدل علـــى

[(1)] انظر شرح صحيح مسلم للنووي ١ / ١٥٤ ، والقول بنفي تقدم علم الله تعالى بالأشياء هو قول غلاة القدريـة ثم صار جمهورهم يقر بذلك ، وإنما ينكرون عموم المشيئة والخلق . انظر مجموع الفتاوى ٧ / ٣٨٥ .

[(2)] هو معبد بن عويمر وقيل ابن عبد الله بن عكيم الجهني نزيل البصرة ، وأول من تكلم بالقدر نافيا له وكان ذلك في زمن الصحابة ، وكان معبد هذا ممن خرج مع ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف الثقفي فقتله الحجـــاج صبرا سنة ٨٠هـــ انظر : تهذيب التهذيب ١٠ / ٢٢٥ ، وسير أعلام النبلاء ٤ / ١٨٥

وقد قيل إن أول من قال بالقدر رجل نصراني يدعى سوسن ، كان أسلم ثم تنصر وعنه أخذ معبد هـــذه البدعـــة المنكرة، انظر سير أعلام النبلاء ٤ / ١٨٦ —١٨٧ .

[(3)] هو أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان بن حرب أبو عبد الرحمن الأموي القرشي المكي ، خير ملوك الإســـلام أسلم مع أبيه يوم الفتح ، ثم كان أحد كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولي خلافة المســلمين بعد تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عام الجماعة سنة أربعين للهجرة ، وظل خليفة عشرين سنة ، وكان من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم ، توفي سنة ٦٠هـــ ترجمتـــه في : أســـد الغابـــة ٥/ ٢٠١، والإصابة ٦ / ١٢٠.

[(4)] هو عبد الله بن الزبير بن العوام صحابي ابن صحابي ابن صحابية ، كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ســـنة ٢هـــ وهو أحد العبادلة الأربعة ، بايع النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين ، وبويع له بالخلافة بعـــد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـــ وجرى بينه وبين بني أمية فتنة عظيمة إلى أن قتل بمكة محاصرا بهـــا ســـنة ٧٣هـــ ترجمته في : أسد الغابة ٣ / ٢٤١، والإصابة ٤/ ٧٨ .

أن بدعة إنكار القدر قد ظهرت في عصر مبكر أي في أثناء المائة الأولى من الهجرة، فلما بلغ الصحابة [1] ما أحدثه معبد وشيعته في القدر أنكروا مقالتهم أشد الإنكار، وأعلنوا براءهم منهم، وحذروا الناس من بدعتهم، كما روى مسلم رحمه الله في صحيحه عن يحي بن يعمر [2] قال : ((كان أول من قال بالقدر في البصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري [3] حاجين أو معتمرين، فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت : أبا عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتقفرون العلم، وذكر من شأهم، وانهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف! قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر ، ثم ذكر الحديث بطوله ...))

ثم أخذت المعتزلة هذه المقالة – مقالة القدر – ونصروها، واحتجوا لها بكل ما يستطيعون من حجج عقلية ونقلية، بل أبعد من ذلك عدوها أصلا من أصولهم الخمسة التي قام عليها مذهب الاعتزال، وشددوا النكير على كل من خالفهم في ذلك ، وسموهم مجبرة، بل يرون أن خصومهم في هذا الباب أسوأ حالا من سائر أرباب الملل-اليهود

---

[1] كابن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، انظر مجموع الفتاوى ٨ / ٤٥٠ .

[2] هو أبو سليمان العدواني البصري ، قاضي مرو ، يكنى أبا عدي ، وكان من أوعية العلم وحملة الحجة ، وقد قيل إنه أول من نقط المصاحف ، وذلك قبل أن يوجد تشكيل الكتابة بمدة طويلة توفي قبل التسعين للهجرة انظر سير أعلام النبلاء ٤ / ٤٤١ .

[3] شيخ بصري ثقة عالم ، يروي عن أبي هريرة وأبي بكرة الثقفي وابن عمر رضي الله عنهم ، وفاته قريبة من سنة ٩٥هـ انظر سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٩٣ .

والنصارى - بل أسوأ حالاً من الملاحدة المنكرين لوجود الله تعالى !! [(١)] ؛ وذنبهم عندهم أنهم يقولون : إن الله خلق أفعال العباد، وأراد كونها ، وأنه لا تتحرك في العالم ذرة إلا بإرادة الله ومشيته، وأنه ليس لأحد مشيئة نافذة إلا بإرادة الله تعالى ، وأن الخلق إنما يجرون فيما سبق من علم الله تعالى، وهذا هو الاعتقاد الصحيح الذي تظاهرت عليه الآثار ، وتواترت به الأخبار عن السلف الأخيار، كما سبقت حكاية اعتقادهم فيه، وأنه مقتضى تعظيم الله والاعتراف بكبريائه وجلاله، وهو المحجة التي ترك النبي صلى الله عليه وسلم عليها أمته .

لكن القدرية زعموا أن المخلوقين هم الذين يقدرون أعمالهم بأنفسهم، وأنه ليس لله عز وجل في أفعال الناس، ولا في أفعال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير؛ ولأجل هذا سماهم المسلمون قدرية ؛ لإضافتهم التقدير إلى أنفسهم، كما وردت تسميتهم في الحديث مجوس هذه الأمة [(٢)] ؛ لمضاهاتهم المجوس في قولهم بالأصلين- النور والظلمة- يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة ، [(٣)] وقول القدرية –عند التأمل – أشنع من

[(١)] يعلل القاضي عبد الجبار ذلك فيقول : (فإن كل فرقة من الفرق لا يضيفون إلى ربهم إلا ما اعتقدوا فيه الحسن سواهم ! ألا ترى أن الملحدة لما اعتقدوا قبح هذه الصور قالوا : لو كان ههنا صانع حكيم لما جاز أن يخلق هذه الصور القبيحة ؛ لأنه يقدح في حكمته ، فنفوا الصانع ؛ كيلا يلزمهم إضافة القبح إليه ، وكذلك فإن اليهود لما اعتقدوا حسن القول بنبوة موسى عليه السلام ، والعمل بما في التوراة ، وقبح الصيد في السبت ، وتحريم المكاسب فيه أضافوا إليه الأول ونفوا عنه الثاني .

وكذلك فإن النصارى لما اعتقدوا حسن القول بالتثليث وقبح ما عداه ، أضافوا الأول إليه ونزهوه عن الثاني ، وهؤلاء المجبرة مع علمهم بقبح هذه المقبحات أضافوها إلى الله تعالى ، من غير حشمة ولا مراقبة ، حتى أنك تراهم يفتخرون بذلك ولا يأنفون منه ، فقد صار حالهم أسوأ من حال سائر الكفرة) شرح الأصول الخمسة ص : ٧٧٧- ٧٧٨ .

[(٢)] الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في القدر ، ح : ٤٦٩١ ، ٤٦٩٢ ، ٥ / ٦٦ ، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد من طرق ضعفها كلها المحقق ، وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية : (كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة ، وإنما يصح الموقوف منها) شرح الطحاوية ص : ٢٤٩ . وحسن الشيخ الألباني رحمه الله الحديث بمجموع طرقه ، انظر هامش رقم : (٨٠٩) شرح الطحاوية تخريج الألباني ص :٥٢٤ ، وصحح ابن القيم رحمه الله وقفه على ابن عباس انظر زاد المعاد ٣ / ٦٠٩ .

[(٣)] انظر معالم السنن للخطابي بهامش سنن أبي داود ٥ / ٦٦ .

قول المجوس ، من حيث إن المجوس جعلوا خالقين اثنين مع الله تعالى ، أما القدرية فهم بقولهم : إن العباد خالقون لأفعالهم موجدون لها على سبيل الاستقلال قد جعلوا مع الله تعالى خالقين كثيرين ، [1] فلزم من قولهم هذا نفي تفرد الله تعالى بالربوبيه التي تعني أن لا خالق إلا الله ، وأنه سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه، والمتصرف فيه، ولزم من قول القدرية أيضا أن يكون في ملك الله عز وجل ما لا يريده ، وأن يريد الله تعالى ما لا يكون ، نبرأ إلى الله تعالى من هذا القول الذي يشهد ببطلانه العقل والنقل ، ونقول : إن الله عز وجل أكبر وأعظم من أن يغلب على أمره فيكون ما لا يريد، أو يريد ما لا يكون، والله أكبر وأجل وأعظم وأعز أن يكون في عبده شيء غير مخلوق له ، ولا هو داخل تحت قدرته ومشيئته ، فما قدر الله حق قدره من زعم ذلك ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق تعظيمه ، بل العبد جسمه وروحه وصفاته وأفعاله كلها مخلوقة لله تعالى [2]

والمقصود أن القدرية – مع شهادة العقل والنقل والفطرة والحس ببطلان قولهم- يزعمون أنه هو اللائق بتكبير الله وإجلاله ، الذي يوجب تتريهه عن العيوب والنقائص كلها، وأن قول مخالفيهم تنقيص لله تعالى وإضاعة لحقه من التعظيم والتتريه [3] .

ولهذا سموا مذهبهم في باب القدر عدلا ، ولقبوا أنفسهم بالعدلية ، ونبزوا مخالفيهم بالجبرية أو المجبرة؛ لأنهم زعموا أن إرادة الله الكفر من الكافر، وخلقه إياه في قلبه، ثم

---

[1] انظر معارج القبول ٣ / ٩٤٥.

[2] شفاء العليل ص : ٣٠٦ .

[3] ولهذا وقعوا في أعراض المخالفين لهم ورموهم بكل قبيحة ، قال عمرو بن النضر : مررت بعمرو بن عبيد – أحد رؤوس القدرية – فجلست إليه ، فذكر شيئا – يعني مما يقوله القدرية في القدر – فقلت ما هكذا يقول أصحابنا ، قال ومن أصحابك ؟ قلت : أيوب ، وابن عون ، ويونس ، والتيمي ، فقال : أولئك أرجاس أنجاس ، أموات غير أحياء .

قال ابن قتيبة رحمه الله : وهؤلاء الأربعة الذين ذكرهم غرة أهل زمانهم في العلم والفقه ، والاجتهاد في العبادة ، وطيب المطعم ، وقد درجوا على ما كان عليه من قبلهم من الصحابة والتابعين ، وهذا يدل على أن أولئك أيضاً عنده أرجاس أنجاس !! ... انظر تأويل مختلف الحديث ص : ٥٨ ، طبع / دار الكتاب العربي .

تعذيبه إياه على ذلك، ينافي العدل الإلهي ، ولا يمكن أن يتحقق عدل الله تعالى عند القدرية إلا مع القول بنفي القدر!! .

يقول الزمخشري في كشافه عند قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ [1] :

((وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل؛ لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد، والإطناب فيه ، ونظيره : أن يقول العدلي للمجبر : إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب ، ومعذباً عليه سرمدياً فأنا أول من يقول : هو شيطان وليس بإله)) !!

ويعني بالعدلي نفسه ومن على مذهبه في نفي القدر ، وبالمجبرِ كلَّ من يعتقد خلق الله لأفعال العباد من الطاعات والمعاصي بما في ذلك الإيمان و الكفر .

وقد رد عليه العلامة محمد الأمين الشنقيطي في هذا التنظير الشنيع، والتمثيل القبيح، فقال : ((وما قاله الزمخشري في تفسير الآية الكريمة، يستغربه كل من رآه؛ لقبحه وشناعته ، و لم أعلم أحداً من الكفار فيما قص الله في كتابه عنهم، يتجرأ على مثله أو قريب منه ، وهذا مع عدم فهمه لما يقول، وتناقض كلامه ...)) ثم بين رحمه الله ما في كلامه من الباطل ، والجهل بالله تعالى ، والجراءة على جنابه الرفيع فقال :

((وكذلك تمثيل الزمخشري للآية الكريمة، في كلامه القبيح البشع الشنيع، الذي يتقاصر عن التلفظ به كل كافر ، فقد اضطر فيه إلى أن لا يعلق على المحال في زعمه إلا محالاً شنيعاً ، فإنه قال فيه : ونظيره ... إلخ، فانظر قول هذا الضال، في ضربه المثل في معنى هذه الآية الكريمة، بقول الضال الذي يسميه العدلي : إن كان الله خالقاً للكفر في القلوب ... فخلق الكفر في القلوب، وتعذيبه الكفار على كفرهم، مستحيل عنده، كاستحالة نسبة الولد لله تعالى ، وهذا المستحيل في زعمه الباطل إنما علق على أفظع أنواع المستحيل ، وهو زعمه الخبيث أن الله إن كان خالقاً للكفر في القلوب، ومعذباً عليه، فهو شيطان لا إله، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فانظر رحمك الله فظاعة

[1] سورة الزخرف / آية : ٨١ .

جهل هذا الإنسان بالله ، وشدة تناقضه في المعنى العربي للآية ؛ لأنه جعل قوله : إن كـــان الله خالقاً للكفر ومعذباً عليه بمعنى : إن كان للرحمن ولد ، في أن الشرط فيهما مستحيل ، وجعل قوله في الله : إنه شيطان لا إله – سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبـيراً – كقول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أول العابدين ، فلازم الكلام أن يقول : لو كان الله خالقاً للكفر فأنا أول العابدين له ، ولا يخفى أن الادعاء على الله أنه شيطان – تعـــالى الله وتقدس- مناقض لقوله فأنا أول العابدين . ثم قال الشنقيطي رحمه الله : وقد أعرضت عن الإطالة في بيان بطلان كلامه ، وشدة ضلاله وتناقضه لشناعته ووضوح بطلانه ، فـــهي عبارات مزخرفة ، وشقشقة لا طائل تحتها ، وهي تحمل في طياتها الكفر والجهل بـــالمعنى العربي للآية ، والتناقض الواضح ، وكم من كلام مليء بزخرف القول وهـــو عقيـــم لا فـــائدة فيه ولا طائل تحته)) [1] .

والذي نلاحظه من كلام الزمخشري السابق هو شدة تمسكه بمذهبه، القاضي بـــأن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد، و لم يقدرها، إلى حد أنه لو كان حقاً أن الله خالق للكفـــر في قلب الكافر؛ فإنه لا يؤمن بإله هذه صفته !، وهو في هذا يرى أنه معظم لله تعالى، متره له عما لا يليق به، و أن الحق لا يعدو اعتقاده هذا، وأن كل من خالفه في ذلك فهو مجـــبرٌ لم يقدر الله حق قدره .

والحقيقة أن فهمه هذا لتعظيم الله تعالى، هو من المفاهيم الباطلة، الـــتي وقـــع فيـــها القدرية ، فإن من لم يؤمن بقدرة الله وخلقه وتدبيره لكل شيء، و جوز أن يكون شـــيء من الكائنات بغير إرادته وخلقه، لم يعظم الله تعالى ؛ و لم يقدره حق قدره ؛ لأن لازم هذا الاعتقاد : كونه – تعالى – عاجزاً مقهوراً سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

ومنشأ ضلال القدرية في هذا الباب : هو من خطئهم في تقرير عـــــدل الله تعـــالى، وظنهم أن إثبات القدر ينافي الإقرار بعدل الله عز وجل، وهو باطل وما أدى إليه وهـــــو إثبات القدر يكون باطلاً . !!

---

[1] أضواء البيان ٧ / ٢٣٩- ٣٠٣ باختصار .

وكذلك من أسباب ضلالهم في باب القدر : تسويتهم بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، ودعواهم تلازمهما [1] حيث ظنوا أن كل ما أراده الله تعالى وشاءه فقد أحبه ورضيه، [2] والمعاصي ليست مرضية لله عز وجل ولا هي مرادة له تعالى ، فهي إذن خارجة عن عموم مشيئته وخلقه ، فلزم من هذا وصف الله تعالى بالعجز !! كيف لا وقد وقع في ملكه ما لا يريد ولا قدرة له عليه – حسب زعم القدرية – وهذا لا يليق برب موصوف بالعظمة والكبرياء، التي تقتضي قهره لكل شيء ، ونفوذ قدرته على كلّ شيء ، وهم إنما قالوا هذا تعظيماً لله ، وتبرئة له من أن يقدر الشر، وكم من هالك هلك من جهة التعظيم !!

والحق الذي عليه أهل الهدى والحق المستضيئين بأضواء الكتاب والسنة هو : أن ثمة فرقاً بين المشيئة والمحبة، وأنه لا تلازم بين الأمرين ، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله الفرق الذي بينهما فقال :

((الإرادة في كتاب الله على نوعين :

أحدهما : الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد، التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما النوع الثاني : فهو الإرادة الدينية الشرعية ، وهي محبة المراد، ورضاه، ومحبة أهله والرضا عنهم ، وجزاؤهم بالحسنى ، فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ؛ ولهذا كانت الأقسام أربعة :

أحدها : ما تعلقت به الإرادتان ، وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة ، فإن الله أراده إرادة دين وشرع ، فأمر به وأحبه ورضيه ، وأراده إرادة كونية ، ولولا ذلك لما كان .

---

[1] انظر مدارج السالكين ١ / ٢٥١.

[2] يقول القاضي عبد الجبار : لو كانت أفعال العباد بقضاء الله تعالى وقدره للزم الرضا بها أجمع ، وفيها الكفر والإلحاد ، والرضا بالكفر كفر !! شرح الأصول الخمسة ص : ٧٧١ .

الثاني : ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط، وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة ، فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار، فتلك كلها إرادة دين، وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع .

الثالث : ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط، وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها ، ولم يرضها، ولم يحبها؛ إذ هو لا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ، ولما وجدت ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

الرابع : ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه الإرادة ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي)) [1]

ولما لم يفرق القدرية بين المشيئة التي تستلزم متعلقها ، وبين المحبة التي لا تستلزم متعلقها ضلوا ضلالا بعيدا، ووقعوا في أمور باطلة، تنافي عظمة الرب تعالى وكبرياءه ، وتناقض عموم ربوبيته وألوهيته، كما تتناقض مع ما تقتضيه معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى .

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : ((ومن لم يفرق بين المشيئة والمحبة لزمه أحد أمرين باطلين لا بد له من التزامه ، إما القول بأن الله سبحانه يحب الكفر والفسوق والعصيان ، أو القول بأنه ما شاء ذلك ولا قدره ولا قضاه ، وقد قال بكل من المتلازمين طائفة ، قالت طائفة : لا يحبها ولا يرضاها فما شاءها ولا قضاها، وقالت طائفة : هي واقعة بمشيئته وإرادته فهو يحبها ويرضاها، فاشترك الطائفتان في الأصل [2] وتباينا في لازمه [3]

---

[1] مجموع الفتاوى ٨ / ١٨٧ – ١٨٩ باختصار ، وانظر شفاء العليل ص : ٥٨٥ وما بعدها ...

[2] هذا الأصل هو عدم تفريق كل منهما بين المشيئة والمحبة ، أو بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية الشرعية .

[3] حيث كان لازمه عند نفاة القدر أن يقع الكفر والفسوق والعصيان بغير إرادة الله تعالى وخلقه ، وكان لازمه عند الطائفة المقابلة لهم : أن يكون الله تعالى مريدا للكفر محبا له وراضيا به ، وصريح القرآن يكذب كلتا الطائفتين .

وقد أنكر الله تعالى على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه، في سورة الأنعام، والنحل، والزخرف [١])) [٢]

والطائفتان كلتاهما نظرت إلى هذا الأمر بعين عوراء كما قال ابن القيم رحمه الله :

نظروا بعيني أعور إذ فاتهم   نظر البصير وغارت العينان

فحقيقة القدر الذي حار الورى   في شأنه هو قدرة الرحمن [٣]

ولو أن الفريقين رجعوا إلى الكتاب والسنة، باحثين فيهما بالمنهج الصحيح؛ لعرفوا فساد مذهبهم، ولأدركوا أن الإسلام مع كونه يثبت قضاء الله وقدره، وشمول علمه السابق بكل شيء، وكمال قدرته على كل شيء، خلقاً، وتدبيراً، وتنظيماً، فإنه يثبت أيضاً حرية الإنسان ومسئوليته التامة عن تصرفاته وأفعاله الاختيارية، وأنه ليس ثم منافاة بين الإيمان بالقدر والإقرار بكمال عدل الله جل وعلا .

المطلب الثالث :

ما أثر عن السلف من التحذير من القدرية ومقالتهم :

علمنا فيما سبق خطورة التكذيب بالقدر ، وما تتضمنه هذه المقالة المبتدعة من إلحاد صريح في أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما تشتمل عليه من معارضة لله تعالى في كمال ربوبيته وإلهيته ؛ إذ إنها تقتضي أن يكون في الكون شيء خارج عن خلق الله وإيجاده ، واقع بغير مشيئته وإرادته !!، فإن القدرية — نفاة القدر- تخرج أفعال العباد وأفعال سائر الحيوانات عن عموم ربوبية الله عز وجل وإرادته ، بل غلاتهم يخرجونها عن إحاطة علم الله تعالى بها، سبحان الله وتعالى عما يقولون .

---

(١) الأنعام : آية : ١٤٨، النحل : آية : ٣٥، الزخرف : آية : آية : ٢٠.

(٢) انظر مدارج السالكين ١ / ٢٥١ .

(٣) النونية ص : ٣٦ .

ولهذا فقد جاء عن السلف الصالح- رحمهم الله- ذم القدرية، والتحذير منهم، وبيان سوء معتقدهم وفساد نحلتهم ، وأنها تنافي الإيمان بالله عز وجل فضلاً عن الإقرار بعظمته وكبريائه، التي تقتضي أن لا خالق إلا الله تعالى ، وأن لا يوجد شيء في الكون إلا بإرادة الله ومشيئته، ولا ينافي هذا عدله سبحانه وتعالى كما توهم القدرية .

فأول ما ظهر القول بنفي القدر في أواخر عصر الصحابة رضي الله عنهم، أنكر الصحابة الموجودون مقالة القدرية إنكاراً شديداً، وكفروهم [1] وأعلنوا براءتهم منهم وحذروا الناس منهم .

فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال لمن سأله عن القدرية وما يقولونه في الله عز وجل: ((فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ! لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر)) [2]

قال الإمام النووي رحمه الله : ((هذا الذي قاله ابن عمر رضي الله عنهما ظاهر في تكفيره القدرية ، قال القاضي عياض رحمه الله : هذا في القدرية الأول الذين نفوا تقدم علم الله تعالى بالكائنات، والقائل بهذا كافر بلا خلاف)) [3]

وهذا الموقف الذي اتخذه ابن عمر رضي الله عنهما من القدرية ومقالتهم وافقه عليه سائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كابن عباس، وجابر بن عبد الله، [4]

---

[1] قال الإمام اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٤ / ٧٨١ : (سياق ما روي من المأثور في كفر القدرية وقتلهم ومن رأى استتابتهم ومن لم ير) ثم حكى عن ابن عباس وابن عمر ثم عن جماعة من التابعين والفقهاء تكفيرهم القدرية .

[2] صحيح مسلم مع شرح النووي ، كتاب الإيمان ١ / ١٥٦ .

[3] شرح صحيح مسلم للنووي ١ / ١٥٦ .

[4] هو أبو عبد الله جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي ، صحابي ابن صحابي ، من أهل بيعة الرضوان ،وكان مفتي المدينة في زمانه،وهو أحد المكثرين لرواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمره يوم بدر ثماني عشرة سنة ، وهو آخر من شهد العقبة موتاً سنة ٧٨هـ ترجمته في أسد الغابة ١ / ٤٩٢ ، والإصابة ١ / ٥٤٨ .

وواثلة بن الأسقع [1] وغيرهم [2] رضي الله عنهم أجمعين، فقد وقف هؤلاء جميعهم ضد هذه المقالة، وبينوا للناس فسادها، وحذروهم منها أشد التحذير؛ لما تنطوي عليه من الكفر والقدح في ربوبية الله عز وجل .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل يكذب بالقدر ؟ فقال : ((دلوني عليه — وهو يومئذ قد كف بصره وعمي — قيل وما أنت صانع به يا أبا عباس ؟ قال : والذي نفسي بيده ! لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ((كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج تصطك إلياتهن مشركات))، هذا أول شرك هذه الأمة ، والذي نفسي بيده! لينتهين بهم سوء رأيهم، حتى يخرجوا الله من أن يكون قد قدر خيرا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا)) [3]

---

[1] صحابي جليل ، أسلم سنة تسع ، وشهد غزوة تبوك ، وكان من فقراء المسلمين أصحاب الصفة ، وكان من المعمرين ، توفي سنة ثلاث وثمانين هـ ، وهو ابن مائة وخمس سنين وقيل إنه آخر من مات من الصحابة بدمشق ، ترجمته في : أسد الغابة ٥ / ٣٩٩ ، والإصابة ٦ / ٤٦٢ .

[2] انظر مجموع الفتاوى ٨ / ٤٥٠

[3] أخرجه الإمام أحمد في المسند ١ / ٣٣٠ و اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٤ / ٦٩١ ، وسنده ضعيف كما قال محقق كتاب اللالكائي ، لكن قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تحقيقه لشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص : ٢٢٦ ، حاشية (١) : هذا الحديث نقله المؤلف من كتاب اللالكائي من رواية بقية بن الوليد عن الأوزاعي ، ولعل زاعما يزعم تعليله بأن بقية مدلس ـ وليس أمامنا إسناد اللالكائي حتى نعرف أصرح بقية بالتحديث أم لم يصرح ؟ - ولكنها علة ذاهبة ؛ فلم ينفرد بقية بروايته عن الأوزاعي فقد رواه الإمام أحمد مرتين في المسند ٣٠٥٥ ، ٣٠٥٦ فقال في أولاهما : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأوزاعي عن بعض إخوانه عن محمد بن عبيد المكي عن عبد الله بن عباس الخ وقال في الأخرى : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأوزاعي حدثني العلاء بن الحجاج ، عن محمد بن عبيد المكي عن ابن عباس بهذا الحديث ، فالإسناد الأول أبهم فيه شيخ الأوزاعي ، ثم بين في الثاني أنه العلاء بن الحجاج ، وقد فصلنا القول فيه في شرحنا للمسند ، وقلنا إن إسناده حسن على الأقل . وتعقبه الشيخ الألباني رحمه الله فقال : ضعيف ، وعلته العلاء بن الحجاج ، فإنه في عداد المجهولين ، ولم يوثقه أحد حتى ولا ابن حبان ! بل ضعفه الأزدي كما قال الذهبي ، وتضعيفه وإن كان مغموزا فيه فهو معتبر ههنا ؛ لأنه لم يخالف بذلك توثيق أحد ، ولذلك فإن تحسين الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى

= =

ففي هذا الحديث تسمية القول بنفي القدر شركا، ووجه كونه شركا: هو أن القدرية لم يفردوا الله تعالى بالربوبية- التي تعني إفراد الله تعالى بالخلق والتدبير – حيث جعلوا المخلوقين هم الخالقين لأفعالهم، الموجدين لها على سبيل الاستقلال التام، من غير سبق إرادة الله تعالى وخلقه، وهذا النوع من الشرك قد تنزه عنه المشركون الأوائل في هذه الأمة، الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، كما قد حكى القرآن عنهم في غير موضع اعترافهم بتوحيد الله في ربوبيته؛ ولهذا لم تقع الخصومة بين الأنبياء وقومهم فيه وإنما كانت الخصومة في توحيد الألوهية .

كما أن في أثر ابن عباس هذا: الإشارة إلى السبب الحامل للقدرية على نفيهم القدر، وهو إرادة تعظيم الله عز وجل بتنزيهه عن خلق الشر، إلا أنهم وقعوا في شر مما فروا منه ، وهو الشرك بالله تعالى باعتقاد وجود خالقين غيره، وبذلك انتقصوه حيث أرادوا تعظيمه وتقديسه، وهذه قاعدة مطردة وحالة ملازمة لجميع أهل البدع والأهواء، المعرضين عن الكتاب والسنة، الطالبين الهدى في غيرهما، فإنهم يتركون ما دل عليه القرآن والسنة، زاعمين بذلك الانتصار للدين، والتعظيم لله عز وجل، فإذا بهم يقعون فيما هو أقبح وأشنع مما حذروه، على أن ما فروا منه مجرد أوهام وخيالات، ارتسمت في أذهانهم وليس لها عند التحقيق وجود؛ إذ من المحال عقلا وشرعا: أن يكون ما دل عليه الكتاب والسنة الصحيحة قبيحا، لا يجوز اعتقاده، فكيف إذا كان هذا الأمر مما يتعلق بالرب جل وعلا وصفاته وأفعاله .

وعن عطاء بن أبي رباح [1] رحمه الله قال : ((أتيت ابن عباس وهو ينزع في زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له قد تكلم في القدر ! قال أو قد فعلوها ؟! قلت نعم،

لمثل هذا الإسناد من تساهله الذي عرف به عند أهل العلم بهذا الشأن ، وقد أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٧٩) انظر هامش شرح العقيدة الطحاوية ص : ٢٥٠ .

[1] هو أبو محمد القرشي مولاهم المكي ، مفتي الحرم ، حدث عن جماعة من الصحابة ، كـ : عائشة وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم ، وكان ثقة عالما فقيها ، ولد في أثناء خلافة عثمان مات سنة ١١٥هـ ، ترجمته في : وفيات الأعيان ٣ / ٢٦١ ، وسير أعلام النبلاء ٥ / ٧٨ .

قال : والله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [1] أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحدا منهم فقأت عينيه بأصبعي هاتين)) [2]

وفي هذا تحذير بليغ من ابن عباس رضي الله عنهما من القدرية ، وأمر بهجرهم أحياء وأمواتا، وذلك لعظم قولهم، وسوء معتقدهم في الله عز وجل .

وجاء في وصية عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه عند موته : ((يا بني ، أوصيك بتقوى الله ، واعلم أنك لن تتقي الله عز وجل حتى تؤمن بالله ، واعلم أنك لن تؤمن بالله ولن تطعم طعم حقيقة الإيمان ، ولن تبلغ العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ... يابني ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار)) [3] .

إذن فالتكذيب بالقدر موجب لدخول النار ؛ وذلك لأن الإيمان به أحد أركان الإيمان التي لا يتحقق الإيمان إلا بالإيمان بها جميعا.

والمأثور عن السلف في ذم القدرية، والتحذير من بدعتهم كثير، والمقصود : أن هذه المواقف السلفية الصارمة من القدرية، وما اتسمت به من الشدة عليهم، والتنفير عنهم، تدل على خطورة هذه المقالة، وشدة تنافيها مع الشعور بكبرياء الله جل جلاله، وأنه لا يمكن أن يقول بها من لله في قلبه وقار .

ومن هنا أقول : إن القدرية قد أساءوا فهم تعظيم الله عز وجل، إن كان قصدهم من نفي القدر تعظيمه، فإنهم لم يعظموه، ولا جعلوه أكبر من كل شيء ؛ إذ جعلوا معه أندادا

---

[1] سورة القمر / آية : ٤٨-٤٩ .

[2] أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٤ / ٧١٢ و ٨٢٣ . وابن بطة في الإبانة ٢ / ١٩٠-١٩١ .

[3] أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥ / ٣١٧ ، و أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب في القدر ، ح: ٤٧٠٠ ، ٥ / ٧٦ ، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٤ / ٧٤٥-٧٤٦ . قال المحقق : وسنده حسن ، وأخرجه الآجري في الشريعة ص : ١٥٣ ، تحقيق / محمد بن الحسن إسماعيل ، ط/١ ، ١٤١٦ هـ دار الكتب العلمية ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١ / ٤٩٠ : ((وأخرجه الطبراني من وجه آخر بسند حسن عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء مرفوعا مقتصرا على قوله : إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)) .

يخلقون لأنفسهم ما يشاؤون من دون سبق مشيئة الله وإرادته وخلقه، وهذا شرك بـالله في ربوبيته، تعالى الله وتقدس عن قول أشباه المجوس علوا كبيرا .

المبحث الثاني :

مقتضى تكبير الله عند الجبرية " نفي فعل العبد " :

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تعريف الجبر والفرق بينه وبين " الجبل " :

المطلب الثاني : بطلان مذهب الجبرية وبيان لوازمه الفاسدة :

المطلب الثالث : موقف أهل السنة من مقالة الجبرية :

المطلب الأول :

تعريف الجبر والفرق بينه وبين " الجبل ":

أولا – معنى الجبر في اللغة والاصطلاح :

الجبر في اللغة يطلق على عدة معان منها :

الجبر بمعنى العبد ومنه : جبرئيل بمعنى عبد الله وعبد الرحمن ، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما في جبرئيل ، أنه كقولك : عبد الله وعبد الرحمن [1] .

ومنها الجبر : خلاف الكسر ، فجبر الشيء نقيض كسره ، ومن ذلك جبر العظم ، وجبر المسكين، ومنه أيضا : الجبائر : وهي العيدان التي تشد على العظم بعد كسره لينجبر بها ويستوي .

ومن معاني الجبر : الإكراه ، يقال : جبر الرجل على الأمر يجبره جبرا وجبورا، وأجبره : أكرهه ، [2] وهذا المعنى الأخير هو المراد هاهنا .

والجبر في الاصطلاح : عقيدة من العقائد المنحرفة في باب القضاء والقدر ، مبنية على الغلو في إثبات القدر، وإليه تنسب الجبرية وهم (الذين غلوا في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له ولا اختيار ولا فعل ، كالريشة في مهب الريح ، وإنما تسند الأفعال إليه مجازا، فيقال : صلى ، وصام ، وقتل ، وسرق ، كما يقال : طلعت الشمس ، وجرت الريح ، ونزل المطر ، فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي ، ألا ساء ما يحكمون) [3]

---

(1) لسان العرب لابن منظور ٢ / ١٦٦ .

(2) تهذيب اللغة للأزهري ١١ / ٥٨-٥٩ ، ولسان العرب ٢ / ١٦٦ –١٦٧ ، مادة (جبر) ط/٢ ، ١٤١٧ هـ ،دار إحياء التراث العربي .

(3) شرح العقيدة الواسطية للهراس ص : ٢٣٠ .

فالجبر على هذا : هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى ، والجبرية صنفان : جبرية خالصة وهم الذين يزعمون أن العبد مقسور على أفعاله كالريشة في مهب الريح ، ولا قدرة له على الفعل أصلا ، وهؤلاء هم الجهمية أصحاب جهم بن صفوان .

وجبرية متوسطة : وهم الذين أثبتوا للعبد قدرة، لكنها قدرة غير مؤثرة على أفعاله [1]

وقد نشأ القول بهذه العقيدة الباطلة كرد فعل لقول القدرية المجوسية القائلين بأن العبد مستقل بإيجاد أفعاله استقلالا تاما ، ولا قدرة لله –تعالى- على أفعال العباد ألبتة ، إلا أنهم لما لم يستضيئوا في ردهم بأضواء القرآن والسنة الصحيحة، كان رد باطل بباطل مثله أو أشد منه، وكان كلا الطرفين مذموما .

وهؤلآء هم الذين يطلق عليهم القدرية المشركية ؛ لمضاهاتهم المشركين في الاحتجاج بالقدر على إبطال الشرائع ، فإن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ لو شآء الله ما أشركنا ولا آبآؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ [2] وقالوا : ﴿ لو شآء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ [3] وقالوا : ﴿ لو شآء الرحمن ما عبدناهم ﴾ [4] فجعلوا مشيئة الله تعالى حجة لهم على عبادتهم الأصنام من دون الله، وإنكار ما أمر الله به من التوحيد .

وهؤلآء الجبرية لما نفوا فعل العبد واختياره حقيقة ،- وادعوا أن كل ما يقع منه من أفعال، ليس هو الفاعل لها على الحقيقة ، وإنما الفاعل الحقيقي هو الله تبارك وتعالى ،- جعلوا كل ما يفعله العبد على تلك الصورة المجازية حسناً ؛ لأن فاعله هو الله تعالى، والله متره عن فعل السوء ، ولهذا يقول قائلهم : أنا كافر برب يعصى ، ذلك لأن المعصية على مذهبهم غير واقعة ، وقال آخر منهم – وقد دعاه مكاس فقيل له إنه مكاس - : إن كان قد عصى الأمر فقد أطاع الإرادة ، وقال آخر :

---

[1] انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ / ٩٧ .

[2] سورة الأنعام / آية : ١٤٨ .

[3] سورة النحل / آية : ٣٥ .

[4] سورة الزخرف / آية : ٢٠ .

أصبحت منفعلاً لما يختاره مني ففعلي كله طاعات

ويسمون هذا " حقيقة " باعتبار أن اعتقاد ذلك هو حقيقة الإيمان بربوبية الله تعالى وتفرده بالخلق والإيجاد [1]

وبهذا نعلم أن القائلين بالجبر- مع فساد قولهم- يزعمون أنه مقتضى تعظيم الله عز وجل ؛لما فيه من تحقيق توحيد الربوبية في زعمهم ، ولا شك أن هذا أيضاً من المفاهيم الباطلة لتعظيم الله عز وجل .

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن لفظ الجبر إن أريد به نفس جعل العبد فاعلاً، وخلقه متصفاً بهذه الصفات ، كما في قول الله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ [2] فهو بهذا التفسير حق ، ومنه قول محمد بن كعب القرظي رحمه الله في تفسير اسم الله (الجبار) قال : هو الذي جبر العباد على ما أراد "[3] وقول علي رضي الله عنه في الأثر المشهور عنه في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : ((اللهم داحي المدحوات ، فاطر المسموكات ، جبار القلوب على فطراتها شقيها وسعيدها)) [4]

ولكن مع هذا يبقى لفظ الجبر محتملا حقا وباطلا، وعليه، فلا يجوز إطلاق أن الله تعالى يجبر العباد على أفعالهم ؛ لما يحتمله لفظ الجبر من المعنى الباطل الذي ينزه الله تعالى عنه، وينافي كمال عدله وسعة رحمته .

الفرق بين الجبر والجبل :

وقد منع الأئمة كالأوزاعي وسفيان الثوري رحمهم الله من إطلاق لفظ الجبر في حق الله تعالى ، واحتجوا بعدم وروده، لا في الكتاب ولا في السنة، واستحسنوا لفظ

---

(1) أنظر مجموع الفتاوى ٨ / ٢٥٧ .

(2) سورة المعارج / آية : ١٩-٢١ .

(3) انظر الدر المنثور للسيوطي ٨ / ١٢٣ .

(4) انظر درء تعارض العقل والنقل ١ / ٢٥٦، و أثر علي رضي الله عنه أخرجه الطبراني في الأوسط ٩ / ٤٣ ، وقال الهيثمي في المجمع ١٠ / ١٦٤ ، وقال : وسلامة الندي روايته عن علي مرسلة، وبقية رجاله رجال الصحيح .

الجبل؛ لورود ذلك في السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في حديث وفد عبد القيس، في قول النبي عليه الصلاة والسلام لأشج عبد القيس : ((إن فيك خصلتين يحبهما الله ، الحلم والأناة ، قال يا رسول الله ، أخلقين تخلقت بهما أم خلقين جبلت عليهما ؟ قال : بل جبلت عليهما ، فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما)) [1] .

وبهذا يتبين أن بين لفظتي " الجبر " والجبل " فرقا، من حيث إن أحدهما وهو الجبل مشروع؛ لوروده في السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر وهو الجبر محظور؛ لعدم وروده ؛ ولاحتماله معنى قبيحا باطلا، لا يليق بعظمة الله تعالى وكبريائه ، بل إن بينهما فرقا حتى من حيث المعنى اللغوي، فالجبر في اللغة : الإكراه ، وهو إلزام الإنسان على خلاف ما يختاره ويرضاه .

وأما الجبل فمعناه في اللغة : الخلق والطبع ، يقال : جبل الله الخلق يجبلهم : أي خلقهم، وجبله على الشيء : طبعه عليه ، وجبل الإنسان على هذا الأمر : أي طبع عليه ، وجبلة الشيء : طبيعته ، وأصله ، وما بني عليه [2] وهذا المعنى هو المعنى اللائق بالله سبحانه ؛ فإنه قادر على أن يجعل العبد مختارا لما يفعله، راضيا به، وعلى أن يجعله مبغضا وكارها لما يتركه، فلا يكون العبد حينئذ مجبورا على ما يحبه و يرضاه ، وهي أفعاله الاختيارية، [3] وهذا مقتضى عدل الرب، ورحمته، وحكمته تبارك وتعالى .

يقول ابن القيم رحمه الله في حديث وفد عبد القيس: ((وفيه إثبات الجبل- لا الجبر- لله تعالى، وأنه يجبل عبده على ما يريد، كما جبل الأشج على الحلم والأناة، وهما فعلان ناشئان عن خلقين في النفس، فهو سبحانه الذي جبل العبد على أخلاقه وأفعاله ، ولهذا

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤ / ٢٠٦ ، وأبو داود في سننه ، كتاب الأدب ، باب في قبلة الرجل ، ح : ٥٢٢٥ ، ٥ / ٣٩٥ ، وابن ماجة في سننه من حديث أبي سعيد الخدري ، كتاب الزهد ، باب الحلم ، ح : ٤١٨٧، ٤١٨٨ ، ٢ / ١٤٠١ ، وأصله في الصحيحين إلى قوله : ((الحلم والأناة)) . وهذه الزيادة صححها ابن تيمية ، انظر درء تعارض العقل والنقل ١ / ٢٥٥ .

(2) تهذيب اللغة ١١ / ٩٦ ، ولسان العرب ٢ / ١٧٠ .

(3) انظر درء تعارض العقل والنقل ١ / ٦٧ .

قال الأوزاعي وغيره من أئمة السلف نقول : إن الله جبل العباد على أعمالهم ، ولا نقول جبرهم عليها، وهذا من كمال علم الأئمة، ودقيق نظرهم، فإن الجبر أن يحمل العبد على خلاف مراده، كجبر البكر الصغيرة على النكاح، وجبر الحاكم من عليه الحق علىّ أدائه ، والله سبحانه أقدر من أن يجبر عبده بهذا المعنى، ولكنه يجبله على أن يفعل ما يشاء الرب بإرادة عبده، واختياره، ومشيئته، فهذا لون والجبر لون)) [1] .

المطلب الثاني :

بطلان مذهب الجبرية وبيان لوازمه الفاسدة :

هذا المذهب مجرد تصوره تصورا صحيحا يغني عن بيان بطلانه وفساده، إذ هو يتنلق مع قاعدة الأكملية الواجب إثباتها لله تعالى، والتي توجب اتصافه بكل كمال، وتتزهه عن كل عيب ونقص، كالظلم، والعبث، والقسوة، والعجز، وهذه كلها عيوب ونقائص ، وكلها لازمة من القول بالجبر، وهي تنافي عدل الله، وحكمته، ورحمته، وقدرته، وعظمته، فالله تعالى أكبر، وأمره أعظم، وعدله أكمل ، ورحمته أوسع ، وقدرته أعظم من أن يجبر عبده، ولكنه يقضي ويقدر، ويخلق، ويجبل عبده على ما أحب .

كما أن من اللوازم الباطلة للقول بالجبر : إبطال الشرائع والتكاليف؛ وعليه فلا فائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولا من الوعد والوعيد !!؛ ذلك لأن مناط التكليف وشرطه الأساس : الاستطاعة و القدرة على المكلف به، فعلاً كان أو تركاً، والاختيار من المكلف، [2] كما قال الله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [3]

---

[1] زاد المعاد ٣ / ٦٠٩ .

(٢) يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (ومعلوم أن أمر الآمر بفعل نفسه، ونهيه عن فعل نفسه يبطل التكليف جملة ؛ فإن التكليف لا يعقل معناه إلا إذا كان المكلف قد كلف بفعله الذي هو المقدور له ، التابع لإرادته ومشيئته) مفتاح دار السعادة ٢ / ٥١٨ .

[3] سورة البقرة / آية : ٢٨٦ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه)) [1] وحقيقة قول الجبرية : سلب قدرة العبد واختياره، وجعله كالجماد الذي لا حياة له، ولا حركة فيه .

وبهذا يتضح فساد هذا القول ، وأن الجبرية ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوا عظمته وكبرياءه، وكيف يكونون معظمين لله تعالى، وهم يعتقدون فيه ما يلزم منه أنه ظالم ، يعاقب عبده على فعل نفسه، الذي ليس للعبد عليه قدرة، ولا اختيار له فيه ؟! وهذا أمر يشهد على بطلانه العقول الصحيحة ؛ فإنه من المستقر في العقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أمر ما، وألجأه إليه، ثم عاقبه عليه، كان ذلك قبيحاً مستبشعاً عند جميع العقلاء ، فكيف – ولله المثل الأعلى – يليق ذلك بالله العظيم الذي هو أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، هو أرحم بالعبد من أمه، فهو إذن ، أولى بأن يتره عن ذلك، وعن كل عيب ونقص ينافي عظمته وكبرياءه، ورحمته، وأكمليته، سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

************* *********** **********

---

[1] خرجه ابن ماجة في سننه ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسي ، ح : ٢٠٤٥، ١ / ٦٥٩، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : هذا الحديث خرجه ابن ماجة من طريق الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وخرجه ابن حبان في صحيحه ، والدار قطني ، وعندهما : عن الأوزاعي ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا إسناد صحيح في ظاهر الأمر ، ورواته كلهم محتج بهم في الصحيحين ، جامع العلوم والحكم ٢ / ٣٦١ .

المطلب الثالث :

موقف أهل السنة من مقالة الجبرية :

مقالة الجبرية في قضاء الله وقدره، من المقالات الباطلة المنحرفة ؛ لما يلزم منها من أمور باطلة تنافي عدل الله وحكمته ورحمته ، إذ يلزم منها وصف الله تعالى بالظلم، الذي حرمه الله على نفسه، وجعله بين عباده محرماً، وبالقسوة، والعبث، كما يلزم منها بطلان الأمر والنهي ؛ لعدم وجود محلهما في العبد –حسب زعم الجبرية- وهذا نسف للدين جملة وتفصيلاً ، كما أن فيه إبطال حجة الله تعالى على خلقه ، التي بعث الله الرسل لإقامتها، وإثبات الحجة للعباد عليه- سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً- .

ولما كانت مقالة الجبرية بهذه المثابة؛ [1] كان لأهل السنة والجماعة موقف صارم حيالها، وذلك ببيان فسادها ، وذم أهلها والتحذير منهم، وبيان أنهم خصماء الله عز وجل في قضائه وقدره والحكم بكفرهم .

يقول الإمام الخطابي رحمه الله مبيناً سوء فهم الجبرية لمعنى القضاء والقدر الإلهي : ((قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله والقضاء منه معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره، ويتوهم أن فلج آدم في الحجة على موسى إنما كان من هذا الوجه ، وليس الأمر في ذلك على ما يتوهمونه، وإنما المعنى الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد وأكسابهم ، وصدورها عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها ، والقدر اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، كما أن الهدم والقبض والنشر أسماء لما صدر

[1] ومما يجدر التنبيه عليه هنا : أن هذه العقيدة ، عقيدة الجبر ، قد لعبت دوراً كبيراً في إضعاف الأمة الإسلامية وتأخرها عن مكانتها الرائدة ، لما نشأ في الأمة من قعد عن العمل؛ اتكالاً على القضاء والقدر! ، وظناً منهم أن الإيمان بالقدر ينافي الكسب والعمل ، ولسان حالهم أو مقالهم : ما قدره الله تعالى فهو آت عمل العبد أم لم يعمل ! كما أنهم جعلوا القدر عذراً لهم على المعاصي والمنكرات التي يأتونها، ومعلوم أن الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم الذين هم أكمل الناس إيماناً بالقضاء والقدر ، ما زادهم الإيمان بالقدر إلا اجتهاداً في العمل ، وذلك امتثالاً منهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) كما تقدم في حديث سراقة بن مالك رضي الله عنه وغيره .

عن فعل الهادم والقابض والناشر، يقال: قدرت الشيء وقدرت- خفيفة وثقيلة- بمعنى واحد، والقضاء في هذا معناه الخلق ، كقوله عز وجل ﴿ فقضاهن سبع سماوات في يومين ﴾ [1] أي خلقهن ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم، أفعالهم وأكسابهم ، ومباشرتهم تلك الأمور، وملابستهم إياها عن قصد وتعمد ، وتقديم إرادة واختيار، فالحجة إنما تلزمهم بها، واللائمة تلحقهم عليها ...)) [2]

وفي هذا بيان ضلال الجبرية في فهم القضاء والقدر، وتقرير قول أهل السنة بأن أفعال العباد مع كونها مخلوقة لله، واقعة بإرادته ومشيئته ، فلهم فيها اختيار وإرادة ، من أجلها كانوا أهلا للتكليف، والأمر والنهي ، وعليها يترتب الثواب والعقاب .

ويذكر ابن القيم رحمه الله، أن القول بالجبر كما أنه مناف للشرائع الإلهيه جميعها، فهو مناف للخلق أيضا؛ فإن الله سبحانه له الخلق والأمر ، وما قامت السماوات إلا بعدله ، فالخلق قام بعدله وبعدله ظهر، كما أن الأمر بعدله وبعدله وجد، فالعدل سبب وجود الخلق والأمر وغايته، فهو علة الفاعلية والغائية، والجبر لا يجامع العدل، ولا يجامع الشرع والتوحيد . [3]

وعلى هذا : فالقول بالجبر ضلالة وعماية عن معرفة الله تعالى وعن عظمته ، فما عظم الله حق تعظيمه من أبطل حجته على خلقه، وأقام الحجة للخلق عليه، وخاصمه فيما قضاه وقدره، وبغضه إلى عباده ! وهؤلاء هم الذين يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه في تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم ... إلى النار طرا معشر القدرية
سواء نفوه أو سعوا ليخاصموا ... به الله أو ماروا به للشرية [4]

---

[1] سورة فصلت / آية ١٢ .

[2] معالم السنن للخطابي ، بهامش سنن أبي داود ٥ / ٧٦-٧٧.

[3] شفاء العليل ص : ٢٩٨.

[4] مجموع الفتاوى ٨ / ٢٤٦ .

الفصل الثالث :

تكبير الله بنفي الحكمة والتعليل عن أحكامه وأفعاله :.

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الحكمة والعلة :

المبحث الثاني : أدلة نفاة الحكمة والتعليل ومناقشتها :

المبحث الثالث : دلالة النصوص الشرعية على تعليل أفعال الله وأحكامه :

المبحث الرابع : مذهب أهل السنة والجماعة في تعليل أفعال الله وأحكامه

وبيان أنه مقتضى التكبير :

المبحث الأول :

تعريف الحكمة والعلة : [1]

أولا – تعريف الحكمة في اللغة والاصطلاح :

أ – أما معناها في اللغة :

ففي القاموس أن الحكمة تستعمل لمعان عدة منها : العدل، والحلم ، والنبوة ، والقرآن ، الإنجيل ، ... وأحكمه : أتقنه فاستحكم ، ومنعه من الفساد. [2]

وفي لسان العرب : الحكمة : عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم [3]

ب – وأما معناها في الاصطلاح : فقال الراغب الأصفهاني رحمه الله :

((والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل)) [4]

وقال القرطبي رحمه الله : ((الحكيم : المانع ، ومنه سميت حكمة اللجام ؛ لأنها تمنع من الجري والذهاب في غير قصد، والسورة المحكمة : الممنوعة من التغيير و التبديل ، وأن يلحق بها ما يخرج عنها ، ويزاد عليها ما ليس منها ، والحكمة من هذا ؛ لأنها تمنع صاحبها من الجهل ، ويقال : أحكم الشيء إذا أتقنه، ومنعه من الخروج عما يريد ، فهو محكم وحكيم على التكثير)) [5]

---

[1] العلة هنا مرادفة للحكمة في معناه الاصطلاحي المراد في هذه المسألة ، ولهذا فسأكتفي بتعريف الحكمة عن تعريف العلة .

[2] القاموس المحيط للفيروز آبادي ٤ / ١٠٠ ، فصل الحاء ، باب الميم ، دار الجيل ، بدون رقم الطبعة ولا تاريخها

[3] لسان العرب لابن منظور ٣ / ٢٧٠ .

[4] المفردات في غريب القرآن ص : ٢٤٩ .

[5] تفسير القرطبي ١ / ٢٨٨ .

وقال ابن الأثير : ((الحكم والحكيم هما بمعنى الحاكم ، وهو القاضي ، والحكيم فعيل بمعنى فاعل ، وهو الذي يحكم الأشياء ويتقنها ، فهو فعيل بمعنى مفعل ، وقيل الحكيم ذو الحكمة ، والحكمة : عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم)). [1]

والمراد بمسألة الحكمة والتعليل هو : هل أفعال الله تعالى وأحكامه معللة بالحكم والغايات التي لأجلها يفعل ويحكم ؟

وهي من المسائل التي وقع فيها النزاع بين طوائف أهل القبلة ، فانقسموا فيها إلى طائفتين : طائفة أثبتت الحكمة في أفعال الله ، وأحكامه وأخرى نفتها وأنكرتها ، وكل واحدة منهما ترى أن قولها واعتقادها في هذه المسألة هو مقتضى تعظيم الله وإجلاله ، فالمثبتون للحكمة يرون أن إثباتها هو اللائق بعظمة الله وكبريائه ، وأن عظمة الله تعالى تمنع أن تكون أفعاله وأحكامه صادرة لا عن حكمة ؛ لما يلزم من ذلك من تجويز العبث والفوضوية بل والجهل عليه سبحانه وتعالى ، وعند هؤلاء من أنكر الحكمة والعلة في أفعال الله وأحكامه فقد وصفه بالعبث، وهو ينافي تعظيمه واعتقاد أنه أكبر من كل شيء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن ينفي الحكمة من الطرف المقابل، يرى أن إثباتها في خلق الله تعالى وأمرِه يلزم منه وصفه سبحانه بالنقص والحاجة إلى غيره، والاستكمال به، وهذا – لا شك - يتنافى مع عظمة الله وكبريائه وكونه أكبر من كل شيء ، فهو سبحانه أكبر من أن يحتاج إلى أحد سواه، وهذا وجه صلتها بموضوعنا هذا .

وهذه المسألة : هي من فروع مسألة القضاء والقدر، من حيث إنه يجب الإيمان بأن كل ما قضاه الله وقدره للعبد أو عليه ، فله فيه حكمة بالغة ، قد يظهرها الله لبعض خلقه ، وقد يستأثر الله تعالى بعلمها فلا يطلع عليه أحدا من خلقه ، كما أن لها تعلقا وارتباطا بمسألة الأسماء والصفات، من حيث إن من أسماء الله تعالى (الحكيم) والحكمة صفة من صفات كماله سبحانه .

---

[1] النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١ / ٤١٨.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينا أهمية هذه المسألة : ((هذه المسألة ، من أجل المسائل الكبار التي تكلم فيها الناس ، وأعظمها شعوبا وفروعا ، وأكثرها شبها ومحارات ، فإن لها تعلقا بصفات الله تعالى ، وأسمائه وأفعاله وأحكامه، من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد، وهي داخلة في خلقه وأمره، فكل ما في الوجود متعلق بهذه المسألة ، فإن المخلوقات جميعها متعلقة بها، وهي متعلقة بالخالق سبحانه، وهي متعلقة بمسائل القدر والأمر ، وبمسائل الصفات والأفعال ، وهذه جوامع علوم الناس، فعلم الفقه الذي هو الأمر والنهي متعلق بها)) (1)

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله : ((وهذه من أجل مسائل التوحيد المتعلقة بالخلق والأمر بالشرع والقدر)) (2)

هذا وقد احتجت كل طائفة على ما ذهبت إليه بحجج استندت إليها في تقرير مذهبها في هذه المسألة كما يأتي :

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨ / ٨١ .

(2) مفتاح دار السعادة ٢ / ٤٠٩ .

المبحث الثاني :

نفاة الحكمة والتعليل وأدلتهم ومناقشتها :

نفاة الحكمة والعلة عن أفعال الله وأحكامه : هم القائلون بأن الله تعالى لا يفعل ولا يحكم لسبب، ولا لداع ، وإنما خلق ما خلق ، وشرع ما شرع لمحض مشيئته وصرف إرادته، وهو قول الأشاعرة [1] ومن وافقهم ككثير من نفاة القياس في الفقه كابن حزم الظاهري [2]

وقد احتج هؤلاء بحجج، هي في حقيقتها شبه عقلية، من أقواها وأشهرها عندهم قولهم :

إنه لو كان الله تعالى خلق لعلة وحكمة؛ لكان ناقصا بدونها، مستكملا بها ؛ فإنه لابد إما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة إليه سواء ، أو يكون وجودها أولى من عدمها ، فإن كان الأول امتنع أن يفعل لأجلها، وإن كان الثاني أي إذا ثبت أن وجودها بالنسبة إليه أولى من عدمها كان مستكملا بها ، وهذا يوجب أن يكون ناقصا بدونها، محتاجا إليها، وهذا في حق الله تعالى محال؛ لوجوب اعتقاد كماله، ونفي كل ما يضاد ذلك الكمال عنه [3]

---

(1) انظر التمهيد للباقلاني ص : ٥٠، تحقيق / عماد الدين أحمد حيدر ، ط/١، ١٩٨٧م، مؤسسة الكتب الثقافية .
يقول السيف الآمدي : ((القاعدة الثانية : في نفي الغرض والمقصود عن أفعال واجب الوجود : مذهب أهل الحق : أن الباري تعالى خلق العالم وأبدعه لا لغاية يستند الإبداع إليها ، ولا لحكمة يتوقف الخلق عليها ، بل كل ما أبدعه من خير وشر ، ونفع وضر ، لم يكن لغرض قاده إليه ، ولا لمقصود أوجب الفعل عليه ، بل الخلق وأن لا خلق له جائزان ، وهما بالنسبة إليه سيان ، ووافقهم على ذلك طوائف الإلهيين ، وجهابذة الحكماء المتقدمين)) غاية المرام في علم الكلام ص : ٢٢٤، تحقيق / حسن محمود عبد اللطيف ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة، ١٣٩١هـ .

(2) انظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٨ / ٧٦، ٩٧، ٩٨، تقديم / د. إحسان عباس ، ط/١، ١٤٠٠هـ منشورات دار الآفاق الجديدة ، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٨ / ٨٣ .

(3) انظر غاية المرام للآمدي ص : ٢٢٦، ومجموع الفتاوى ٨ / ٨٣، وشفاء العليل لابن القيم ص : ٤٣٥ .

ومن حججهم : أن العلة التي يفعل من أجلها إن كانت قديمة وجب قدم الفعل المعلول بها وهو محال؛ لوجوب تأخر العلة الغائية عن المعلول في الوجود ، فيلزم من قدم العلة أن لا يحدث شيء من الحوادث، وهذا اللازم هو خلاف المشاهدة، وإن كانت العلة التي فعل من أجلها حادثة لزم من ذلك محذوران آخران :

أحدهما : أن يكون الرب -تعالى- محلا للحوادث؛ لأنه إما أن تكون العلة منفصلة عنه لا يعود إليه منها حكم -كما هو قول المعتزلة- فحينئذ يمتنع أن يكون وجودها أولى به من عدمها، وإذا قدر أنه عاد إليه منها حكم، كان ذلك الحكم حادثا؛ فتقوم به الحوادث وهو محذور .

الثاني : أنه يستلزم التسلسل من وجهين :

الأول : أن تلك العلة الحادثة المطلوبة بالفعل هي أيضا مما أحدثه الله بقدرته ومشيئته ، فإن كان أحدثها لغير علة لزم العبث ، أو لعلة فهي أيضا تحتاج إلى علة ، وهكذا إلى غير نهاية فيلزم تسلسل الحوادث [1] .

الثاني : أن تلك العلة إن كانت مرادة لنفسها امتنع حدوثها؛ لأن ما أراده الله تعالى لنفسه لا يؤخر، وإن كانت مرادة لغيرها عاد الكلام السابق فيلزم التسلسل [2]

كما أن النفاة احتجوا ببعض الآيات التي يرون أنها تدل على نفي تعليل أفعال الله وأحكامه، كقول الله تعالى : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [3] وما أشبهها من الآيات التي تدل- عندهم- على أن الله تعالى يتصرف في خلقه وأمره بمجرد المشيئة والإرادة، الخالية من أية حكمة .

قال الألوسي رحمه الله : ((واستدل بهذه الآية على أن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض ، فلا يقال فعل كذا لكذا ، إذ لو كانت معللة لكان للعبد أن يسأل فيقول : لم فعل ؟

---

(١) انظر التمهيد للباقلاني ص : ٥١-٥٢ .

(٢) انظر مجموع الفتاوى ٨ / ٨٣ -٨٤ .

(٣) سورة الأنبياء / آية : ٢٣ .

وإلى هذا ذهب الأشاعرة، ولهم عليها أدلة عقلية أيضا، وأولوا ما ظاهره التعليل بالحمل على المجاز، أو جعل الأداة فيه للعاقبة)) [1]

والمقصود : أن هؤلاء النفاة لتعليل خلق الله تعالى وأمره، إنما أرادوا بذلك تقرير كونه سبحانه أكبر من كل شيء ، وهذا يقتضي كماله المطلق وغناه بنفسه عن كل ما سواه ، والقول بأنه تعالى يفعل لحكمة وعلة غائية مقصودة له بالفعل، ينافي ذلك عندهم ؛ لأنه يستلزم أن يكون –سبحانه – ناقصا مستكملا بغيره، محتاجا إلى ما سواه، وهو باطل بالاتفاق؛ فإن الله تعالى أكبر وأجل وأعز من أن يحتاج إلى شيء سواه ؛ لأن كل ما سواه مخلوق، ومحال أن يحتاج الخالق إلى المخلوق .

مناقشة حجج نفاة الحكمة والتعليل عن أفعال الله وأحكامه :

وقد أجاب المثبتون للتعليل عن أدلة النفاة بما يأتي :

أما حجة الاستكمال التي مفادها : أن كل من فعل شيئا لأجل شيء آخر، كان مستكملا بذلك الشيء الذي فعل من أجله، فيلزم من ذلك كونه ناقصا بدون ذلك الشيء ، فقد أبطلها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من وجوه :

منها : أن كون الباري سبحانه لا يزال قادرا على الفعل بحكمته هو مقتضى الكمال الواجب إثباته له، فلو قدر أنه يفعل لا لحكمة يفعل من أجلها، كان ذلك هو النقص الذي يجب تنزيهه عنه .

ثانيا : أن قول القائل : إنه مستكمل بغيره باطل؛ فإن ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته لا شريك له في ذلك، فلم يكن في ذلك محتاجا إلى غيره، وإذا قيل : كمل بفعله الذي لا يحتاج فيه إلى غيره، كان كما إذا قيل : كمل بذاته وصفاته، فهو – مثلا- إذا فرح بتوبة عبده المؤمن ، وأحب من تقرب إليه بالنوافل ، ورضي عن السابقين الأولين، ونحو ذلك لم يجز أن يقال : إنه مفتقر في ذلك إلى غيره، أو مستكمل بسواه؛ فإنه هو الذي خلق هؤلاء ، وأقدرهم على فعل ما يحبه ويرضاه ويفرح به .

---

[1] روح المعاني ١٧ / ٢٩ .

ثالثا : أن قولهم : إنه يلزم أن يكون ناقصا قبل ذلك ، إن أرادوا به عدم ما تجدد فلا نسلم أن عدمه كان نقصا قبل الوقت الذي اقتضت حكمة الله تعالى وجوده فيه ، بل يقال : إن الحكم المطلوبة، والعلل الغائية: وجودها وقت وجودها هو الكمال، وعدمها حينئذ هو النقص، كما أن عدمها وقت عدمها، هو الكمال، ووجودها حينئذ هو النقص، وعلى هذا، فنافي الحكمة هو الذي نسب النقص إلى الله تعالى لا المثبت لها [1]

وقد أطال الإمام ابن القيم رحمه الله في ذكر أجوبة المثبتين عن هذه الشبهة حتى ذكر ستة عشر جوابا [2]

وأما شبهة لزوم التسلسل وقدم الفعل : فأجيب عنها بأجوبة منها :

أن الحكمة يحذى بها حذو الفعل من حيث قدمه أو حدوثه، فالفعل إما أن يكون قديم النوع أو قديم العين، فتكون الحكمة كذلك، فما جاز على الفعل جاز على الحكمة ، وما امتنع عليه امتنع عليها .

ثانيا : أن الحكمة من صفات الله الذاتية، كالإرادة والمشيئة والكلام ، فمن يقول : إن الله تعالى فاعل في الأزل لما لم يكن بعد، كقول من يقول : هو مريد في الأزل لما لم يكن بعد، فالقول بقدم كونه فاعلا كالقول بقدم كونه مريدا، وعلى هذا، فيمكن القول بقدم الحكمة التي يخلق ويريد من أجلها، ولا يلزم من ذلك قدم الفعل، كما لم يلزم من قدم الإرادة قدم المراد .

وأما لزوم التسلسل : فأجيب عنه بالتفريق بين نوعي التسلسل ، فإن أراد النفاة لزوم التسلسل الممتنع ، وهو التسلسل في العلل والفاعلين والمؤثرات، وذلك بأن يكون للفاعل فاعل، ولذلك الفاعل فاعل إلى ما نهاية له [3] منع اللزوم؛ لأن هذا مما اتفق جميع العقلاء على امتناعه، وإن أرادوا لزوم التسلسل الجائز وهو التسلسل في الآثار المستقبلة، وذلك بأن

---

(1) انظر مجموعة الرسائل والمسائل ١ / ٣٧٩- ٣٨٠ ، وشفاء العليل ص : ٤٣٦ .

(2) انظر شفاء العليل ص : ٤٣٥-٤٤٢ .

(3) انظر : درء تعارض العقل والنقل ١ / ٣٢١.

يكون الحادث الثاني موقوفا على حادث قبله، وذلك الحادث موقوفا على حادث قبله [1]، فذلك ممكن بل واجب باتفاق المسلمين، و لم يخالف فيه إلا بعض أهل البدع كالجهمية والمعتزلة، ومن أجل ذلك التزم الجهم القول بفناء الجنة والنار، [2].

ثانيا : أن التسلسل إن كان ممكنا بطل استدلال النفاة به على نفي الحكمة؛ لأنهم بنوا نفيهم للحكمة على امتناع التسلسل، وإن كان ممتنعا أمكن أن يقال : إن المرادات كلها تنتهي إلى مراد لنفسه فينقطع التسلسل [3]

وأما استدلالهم بقول الله تعالى :﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ فأجيب عنه بأن الآية لا تدل على نفي التعليل، فإنها وردت في سياق إثبات عزة الله سبحانه ، وأنه عز وجل أعز من أن يسأل عما يفعل ، ولا يقتضي ذلك أنه غير حكيم في خلقه وأمره ، فإنه تعالى مدح نفسه بالحكمة كما مدح نفسه بالعزة [4]

وقد قال المفسرون في معنى الآية : ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ : أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد؛ لعظمته وجلاله وكبريائه ، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، ﴿ وهم يسألون ﴾ أي العباد يسألون عما يفعلون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ [5] [6]

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في معرض رده لاستدلال نفاة التعليل بهذه الآية :

((... و لم تكن الآية مسوقة لبيان أنه لا يفعل لحكمة ولا لغاية محمودة ، مطلوبة بالفعل ، وأنه يفعل ما يفعله بلا حكمة ، ولا سبب ، ولا غاية ، بل الآية دلت على نقيض ذلك ، وأنه لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وحمده ، وأن أفعاله صادرة عن تمام

---

[1] درء تعارض العقل والنقل ١ / ٣٢١.

[2] انظر منهاج السنة النبوية ١ / ١٤٦- ١٤٧ ، وشفاء العليل ص : ٤٤٤-٤٤٥ .

[3] انظر شفاء العليل ص : ٤٤٣ ٤٤٥ .

[4] انظر إيثار الحق على الخلق ص : ٢٣١

[5] سورة الحجر / آية : ٩٢-٩٣ .

[6] انظر تفسير القاسمي ((محاسن التأويل)) ١١ / ٤٢٦١ - ٤٢٦٢ ، ط/١، ١٣٧٨هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي .

الحكمة والرحمة والمصلحة ، فكمال علمه وحكمته وربوبيته، ينافي اعتراض المعترضين عليه وسؤال السائلين ... إلى أن قال : فاستدلال نفاة الحكمة بهذه الآية كاستدلال نفاة الصفات بقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ والآيتان دالتان على ضد قول الطائفتين ، فليس كمثله شيء ؛ لكمال صفاته ، التي بكمالها وقيامها به لم يكن كمثله شيء ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لكمال حكمته وحمده)) [1]

************* ******** ****************

المبحث الثالث :

دلالة النصوص الشرعية على تعليل أفعال الله وأحكامه :

دل القرآن الكريم من وجوه متعددة على ثبوت صفة الحكمة لله تعالى ، وعلى أن جميع أفعاله وكذا شرائعه من أوامر ونواه ، كلها صادرة عن حكمة بالغة توجب على العباد حمده على كل حال ، كما توجب عليهم الرضى عنه في قضائه وقدره ، والإذعان له في أوامره ونواهيه .

فمن ذلك أنه سبحانه مدح نفسه بإعطاء نعمة الحكمة من يشاء من خلقه ، وامتن عليهم بذلك ، فقال تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشآء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ [2]

فهذه الآية تدل على أن الحكمة من صفات الكمال التي يهبها الله من يشآء من عباده، وأن عدمها صفة نقص ، ومعلوم بداهة : أن واهب الكمال أولى بأن يتصف به من

---

[1] مختصر الصواعق المرسلة ١ / ٢٠٣ ، اختصار الشيخ محمد الموصلي ، طبع دار الندوة الجديدة ، ١٤٠٥هـ .
وانظر أيضا مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨ / ٧٩ .

[2] سورة البقرة / آية : ٢٦٩ .

غيره ، والقاعدة : أن كل كمال ثبت للمخلوق و لم يلزم من إثباته للخالق محذور ، فالخالق أولى به .

كما أن في القرآن آيات كثيرة يذكر الله تعالى فيها الحكم والعلل الغائية لأفعاله وأحكامه وتشريعاته ، فيذكر أنه فعل كذا لكذا ، وشرع كذا لكذا ، وما فعل هذا إلا لهذا ، وهكذا ... فمن ذلك قول الله تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتترل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ [1]

فبين سبحانه في هذه الآية أن الحكمة من خلق السماوات السبع والأرضين ، وكون الأمر يتترل بينهن : هي تعريف العباد بكمال قدرته وشمولها ، وبإحاطة علمه بكل شيء .

قال ابن جرير الطبري : ((يقول تعالى ذكره : يترل قضاء الله وأمره بين ذلك ؛ كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه أمر شآءه، ولكنه على ما يشاء قدير ، ﴿ وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ يقول جل ثناؤه : ولتعلموا أيها الناس ، أن الله بكل شيء من خلقه محيط علما ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر)).[2]

وكقوله تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[3]

اشتملت هذه الآية على بيان شيء من الحكمة والسبب لإرسال الرسل، بالبشارة والنذارة، وهو قطع الحجج والمعاذير عن الخلق، حتى لا يقولوا يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير .

وقوله تعالى:﴿ وقرءانا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تتريلاً ﴾ [4]

---

(١) سورة الطلاق / آية : ١٢.

(٢) تفسير الطبري ١٢ / ١٤٦ .

(٣) سورة النساء / آية : ١٦٥ .

(٤) سورة الإسراء / آية : ١٠٦.

فيه بيان الحكمة والعلة من إنزال القرآن منجماً لا دفعة واحدة ، وهي كون النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس على فترات ، بحسب الحوادث والنوازل التي تتوالى عليهم، ويحتاجون فيها إلى معرفة حكم الله عز وجل .

ففي الآيات الثلاث السابقة جاء التعليل باللام، التي هي لام العلة، التي تفيد أن ما بعدها علة وسبب لما قبلها ، وفيها إبطال لقول نفاة التعليل القائلين بأن الله تعالى لا يفعل شيئاً لشيء، وأن أفعاله وأحكامه إنما هي لمحض المشيئة ، ولا حكمة ولا علة!!

إلا أنهم من أجل الانتصار لقولهم في هذه المسألة، أنكروا أن يكون في القرآن لام التعليل و باء السببية، ويرون أن كل ما في القرآن من " لام " يرى المثبتون أنها للتعليل إنما هي لام العاقبة والصيرورة [1] ، الواردة في مثل قول الله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [2]

وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الدعوى بأنه حتى مع التسليم الجدلي بكون اللام للعاقبة، فلا بد من أن تكون تلك العاقبة معلومة، ومرادة لله تعالى ، وأن لام العاقبة التي لا يقصد فيها الفاعل الفعل لأجل العاقبة ، لا تجوز على الله عز وجل ؛ لأن ذلك إنما يكون من جاهل أو عاجز، فمثال الجاهل : ما في قول الله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ فإن فرعون وآله لم يكونوا يعلمون هذه العاقبة التي سيئول إليها أمر موسى عليه السلام .

ومثال العاجز : قولهم : لِدُوا للموت وابنوا للخراب ، فإنهم مع علمهم بهذه العاقبة المحتومة، فهم عاجزون عن دفعها عن أنفسهم ، ولا قبل لهم بها ، والله تعالى منزه عن الجهل والعجز ، إذ هو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، فلا يجوز أن يقال إن فعله كفعل الجاهل والعاجز، وهذا من اللوازم الباطلة على قول النفاة وإن لم يلتزموه تعالى الله وتقدس . [3]

---

[1] انظر مجموع الفتاوى ٨ / ٣٧٧ و مفتاح دار السعادة ٢ / ٤١٠ .

[2] سورة القصص / آية : ٨ .

[3] انظر مجموع الفتاوى ٨ / ٤٤ ، وشفاء العليل ص : ٤٠٢.

على أن هناك أدوات أخرى غير اللام، اقترنت بأفعال الله وأحكامه، وهي صريحة في إفادتها للتعليل والسببية، ولا يتأتى فيها هذا التأويل .

فمن ذلك : (كي) كما في قوله تعالى : ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ [1] فهذا صريح في السببية لما قبله ؛فإن الله تعالى لما ذكر الفيء ومصارفه أتبع ذلك بقوله : ﴿ كي لا يكون دولة ... ﴾ ففهم من ذلك أنه سبحانه إنما بين هذه الأحكام المتعلقة بالفيء بهذا التفصيل ؛ لئلا يتخذ الأغنياء مال الفيء متداولا بينهم دون الفقراء والضعفاء .

قال القرطبي في تفسيره: ((فعلنا ذلك في هذا الفيء ؛كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم، دون الفقراء والضعفاء ؛ لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع ، ثم يصطفي منها أيضا بعد المرباع ما شاء ، وفيها قال شاعرهم :

لك المرباع منها والصفايا)) [2]

وقال ابن كثير : ((أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئا إلى الفقراء)) [3]

ومن ذلك أيضا (لعل) فإنها إذا اقترنت بأفعال الله تعالى وأحكامه أفادت التعليل والسببية دون الترجي ؛ إذ الترجي غير جائز على الله تعالى ، كما في قوله تعالى : ﴿ يآأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [4] فالآية دالة نصا على أن تحقيق التقوى هي العلة، والحكمة المطلوبة من مشروعية الصيام وإيجابه .

---

[1] سورة الحشر / آية : ٧.

[2] تفسير القرطبي ١٨ / ١٩ .

[3] تفسير ابن كثير ٤ / ٣٣٧.

[4] سورة البقرة / آية : ١٨٣.

ومنها أيضا : (من أجل) كما في قوله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ [1]

قال ابن كثير رحمه الله : ((من أجل قتل ابن آدم ظلما وعدوانا، كتبنا على بني إسرائيل أي : شرعنا لهم، وأعلمناهم أنه : ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض ... ﴾ الآية أي : من قتل نفسا بغير سبب، من قصاص، أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب، ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعا؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس)) [2]

والآية صريحة في أن هذا الحكم سببه جناية ابن آدم على أخيه بالقتل العمد العدوان .

ومن أوجه دلالة القرآن الكريم على ثبوت الحكمة والعلة لأفعال الله تعالى وأحكامه: إنكاره سبحانه على من ظن به ما ينافي الحكمة ويضادها في أفعاله وأحكامه ، ووصفه تعالى ذلك الظن بأنه سيء لا يليق بعظمته وجلاله ، ومن ذلك إنكاره على من ظن به أنه يسوي بين المفترقين ، أو يفرق بين المتماثلين ، قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق ﴾ [3] فهذا إنكار منه على المكذبين بالبعث الظانين بأنه تعالى يخلق الخلق، ويأمرهم وينهاهم، فيكون منهم المؤمن الممتثل للأوامر، التارك للنواهي ، والكافر الخارج على الأوامر والنواهي ، ثم لا يكون هناك بعث وجزاء للمحسن على إحسانه، وللمسيء على إساءته، ولا شك أن هذا ظن سوء بالله تعالى ينافي حكمته وعدله سبحانه .

---

(1) سورة المائدة / آية : ٣٢.

(2) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٧-٤٨ .

(3) سورة المؤمنون / آية : ١١٥.

ومثل هذا قول الله تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم سآء ما يحكمون ﴾ [(٢)]

ففي هذه الآيات يستبعد الله تعالى وقوع التسوية منه بين الأمور المختلفات ؛ لأن ذلك خلاف الحكمة التي هي صفة من صفات كماله جل وعلا .

ولهذا أثنى على المؤمنين الذين نزهوه عن العبث، وعن أن يصدر منه ما ينافي الحكمة، وسماهم أولي الألباب، قال الله تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [(٣)] أي أنهم يقولون عقب تفكرهم في خلق السماوات والأرض : ربنا ما خلقت هذا الخلق عبثا ولا لعبا، لم تخلقه إلا لأمر عظيم، من ثواب وعقاب، ومحاسبة ومجازاة ، وقولهم ﴿ سبحانك ﴾ أي تنزيها لك عن أن تفعل شيئا عبثا ، ولكنك خلقتهم لعظيم من الأمر لجنة أو نار [(٤)]

وقال البيضاوي [(٥)] في تفسير هذه الآية : ((والمعنى : ما خلقته عبثا ضائعا من غير حكمة، بل خلقته لحكم عظيمة، من جملتها : أن يكون مبدأ لوجود الإنسان ، وسببا

---

(١) سورة ص / آية : ٢٨ .

(٢) سورة الجاثية / آية : ٢١.

(٣) سورة آل عمران / آية : ١٩٠-١٩١.

(٤) تفسير الطبري ٣ / ٥٥١ .

(٥) هو الإمام المفسر عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي الشيرازي ، ولي قضاء القضاة بشيراز مدة ، قال ابن السبكي في ترجمته : (كان إماما مبرزا ، نظارا ، صالحا ، متعبدا زاهدا) توفي سنة ٦٨٥هـ ، ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ٨ / ١٥٧ .

لمعاشه ، ودليلا يدله على معرفتك، ويحثه على طاعتك؛ لينال الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية في جوارك ، (سبحانك) تتريها لك من العبث وخلق الباطل)).[1]

فهذا ثناء من الله تعالى على عباده المؤمنين، المترهين له عن العبث، الواصفين إياه بالحكمة التامة في خلقه وأمره .

هذه بعض أوجه دلالة القرآن الكريم على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالعلل الغائية، ومراعى فيها العواقب الحميدة ، والمصالح العاجلة والآجلة ، التي يحبها الله ويرضاها .

وقد أطال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في ذكر أنواع دلالة القرآن على أن الله تعالى حكيم لا يفعل شيئا عبثا، ولا لغير معنى ومصلحة، وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، حتى عد اثنين وعشرين نوعا ثم قال :

((وجماع ذلك : أن كمال الرب تعالى وجلاله، وحكمته وعدله، ورحمته، وقدرته ، وإحسانه ، وحمده ، ومجده ، وحقائق أسمائه الحسنى ، تمنع كون أفعاله صادرة منه لا لحكمة، ولا لغاية مطلوبة، وجميع أسمائه الحسنى تنفي ذلك، وتشهد ببطلانه، وإنما نبهنا على بعض طرق القرآن، وإلا فالأدلة التي تضمنها إثبات ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وبالله التوفيق)) [2]

*********** ******** ***********

---

[1] تفسير البيضاوي ٢ / ١٣١، تحقيق / عبد القادر عرفات ، دار الفكر ، ١٤١٦هـ .

[2] شفاء العليل ٤٠٠-٤٣٠ .

المبحث الرابع :

مذهب أهل السنة والجماعة في تعليل أفعال الله وأحكامه

وبيان أنه مقتضى التكبير:

جمهور أهل السنة، بل جمهور المسلمين من السلف والخلف، على إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله وأحكامه، فكل ما خلقه الله أو حكم به فله فيه حكمة بالغة لأجلها فعل وحكم ، وحكمته تعالى تتضمن أمرين :

أحدهما : حكمة تعود إليه يحبها ويرضاها ، ولا يقتضي ذلك نقصاً ولا حاجة ولا استكمالاً بغيره ، كما توهم النفاة.

الثاني : حكمة تعود إلى عباده ، هي نعمة عليهم، يفرحون بها ويلتذون بها ، وهذا في المأمورات والمخلوقات [1]

وليس من شرط وجود الحكمة عندهم إدراك العباد لها في كل شيء ؛ لأن ذلك يعني إحاطتهم بجميع أوجه الحكمة الإلهية ، والله تعالى أكبر وأجل من ذلك، بل من الحكم في المخلوقات والمأمورات ما استأثر الله تعالى بعلمها، فيكون ذلك من الغيب الذي طواه الله عز وجل عن جميع خلقه ، وليس للعبد فيها إلا التسليم والانقياد، مع اليقين بأن الله تعالى لا يفعل شيئاً عبثاً ، ولا لغير معنى ومصلحة .

وهذا الاعتقاد هو اللائق بعظمة الله وكبريائه؛ لما فيه من إثبات كماله ، و من تنزيهه تبارك وتعالى عن العبث في خلقه وأمره ، وعن أن تكون أفعاله شبيهة بأفعال السفهاء والصبيان والمجانين، وهذه كلها محاذير لازمة من القول بنفي الحكمة والتعليل، في أفعال الله وأحكامه ، وهي أشد منافاة لعظمة الرب وكبريائه من المحاذير التي يذكرها نفاة الحكمة

---

[1] مجموع الفتاوى ٨ / ٣٥-٣٦.

ويزعمون أنها تلزم من القول بإثبات الحكمة ، وهي في الحقيقة أمور متوهمة لا حقيقة لها ، وليست لازمة من إثبات الحكمة لله تعالى في أفعاله وأحكامه .

وعلى هذا، فمن نفى عن أفعال الله وأحكامه أن تكون صادرة عن حكم بالغة وعلل غائية مقصودة له ، لأجلها يفعل ويأمر وينهى، فهو في نظر أهل السنة غير معظم لله تعالى في خلقه وشرعه ، بل هو قد وصفه بالنقص الذي ينافي عظمته وكبرياءه .

هذا وقد وافق المعتزلة أهل السنة على إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله وأحكامه إلا أنهم-كما يقول ابن تيمية رحمه الله – أثبتوا من الحكمة والتعليل ما لا يعقل [١] حيث إنهم يثبتون حكمة تعود إلى المخلوق فقط ،ولا يثبتون حكمة تعود إلى الخالق سبحانه [٢] وهذا بناء على قواعدهم الفاسدة في نفي الصفات [٣] هذا من وجه ، ومن وجه آخر فإن مقتضى مذهبهم وما يدل عليه تطبيقاتهم في هذه المسألة : دعوى الإحاطة بجميع أوجه الحكمة الإلهية ؛ ولهذا تراهم ينكرون بعض الأمور التي ثبتت في النصوص القطعيات، بدعوى منافاتها للحكمة عندهم ، مثال ذلك :

١- إنكارهم إعطاء الله عز وجل مزيد توفيق لبعض الناس دون بعض ؛ لأنه لا يليق بحكمة الله تعالى- عندهم- تمييز بعض خلقه عن بعض في الهداية .

٢- إنكارهم أن يكون الله تعالى خالقاً لأفعال العباد؛لأن ذلك ينافي الحكمة عندهم ؛ لما فيه من لزوم الجبر والاضطرار ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وبما سبق يتبين لنا أن قول أهل السنة في هذه المسألة هو الذي يدل عليه القرآن والسنة، وبه يتحقق كون الله تعالى حكيماً كما وصف وسمى نفسه بذلك في مواضع شتى من القرآن الكريم ، فإن من لا يفعل لحكمة لا يكون حكيماً ، ولا معنى لكون الله عز وجل حكيماً إلا لأن أفعاله وأحكامه صادرة عن حكم بالغة، ومراعى فيها العواقب المحمودة التي يحبها ويرضاها ، والنافون للحكمة وإن ظنوا أنهم بذلك معظمون لربهم

---

[١] انظر منهاج السنة ١ / ١٤٥ .

[٢] انظر المغني في أبواب العدل والتوحيد ٦ / ٤٨ ، ١١ / ٩٢-٩٣ .

[٣] مفتاح دار السعادة ٢ / ٤١٠ .

منزهون له عن الحاجة والاستكمال بغيره فذاك وهم منهم ، وليس ذلك من تعظيم الله في شيء ؛ فإنهم نفوا كمال الرب تعالى، ووصفوه بما لازمه العيب والنقص؛ حين شبهوا أفعاله تعالى بأفعال الناقصين، القاصرين، العابثين !، الذين لا حكمة لهم ، ولا يفعلون ما يفعلونه لمصالح مرعية، وعواقب محمودة، وهذا نقص يتنزه عنه عقلاء البشر ، فكيف بالخالق عز وجل !! سبحان الله و تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله وسلم على عبده
ورسوله محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم
واقتفى أثرهم إلى يوم الدين .

الخاتمة

في ختام هذا البحث المتواضع أحمد الله تبارك وتعالى على أن أعانني على إتمامه، وذلل لي جميع العقبات بمنه وفضله، فأسأله سبحانه بأسمائه وصفاته أن يجعله لوجهه خالصاً، وأن يتقبله مني ، و يعفو عما كان فيه من خطأ وزلل وسهو وغفلة وقصور وتقصير وكل ذلك فيه.

ويحسن هنا أن أشير إلى بعض النتائج التي أنتجها لي البحث في هذا الموضوع وهي :

١- إن عناية الشارع بألفاظ الذكر كالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وحثه على المداومة عليها، ووعده من يواظب عليها بالأجر العظيم والثواب الجزيل ، ما هو إلا للمعاني العظيمة التي تضمنتها، فمن يتأمل في معنى كلمة ((الله أكبر)) – مثلاً – يجد أنها شملت جميع جوانب الدين ، فالدين كله تطبيق لمعنى هذه الكلمة؛ إذ إن انصياع المسلم لأوامر الله عز وجل وانتهاءه عن نواهيه، ليس إلا تعظيماً لله تعالى ، الذي هو الآمر الناهي ، ولهذا يتفاوت الناس في الامتثال والانتهاء ؛ تبعاً لتفاوتهم في مراقبة الله ، واستشعار عظمته وكبريائه، ولذا أخبر الله تعالى عن العلماء أنهم أهل خشيته والخوف منه، دون غيرهم ممن لا علم لهم ، وما ذلك إلا لكمال علمهم بعظمة الله وكبريائه .

٢- أن الأذكار التي شرع الله تعالى لعباده أن يذكروه بها، قد بينت في الشرع بياناً واضحاً، ولم تترك لاجتهاد الناس ، ليشرع كل أحد ما شاء من الأذكار والأوراد التي لا أصل لها في الكتاب ولا في السنة .

٣- إن الحكمة من مشروعية التكبير في المواضع الكبار مكاناً وزمانا وحالاً هي من أجل أن تستولي كبرياء الله تعالى في القلوب على ما سواه، فيعظمه العباد ويجلوه، ويقدموه على كل من سواه، إذا تقرر عندهم أنه أكبر من كل شيء .

٤- الناس – على اختلاف نحلهم – متفقون على المعنى العام لكلمة ((الله أكبر)) وهو أن يكون الله عند العبد أكبر وأعظم من كل شيء كائناً ما كان، إلا أنهم مختلفون فيما هو من لوازم هذا المعنى اختلافاً كثيراً حيث فهم منه قوم أنه لا بد أن يكون لمن هو

أكبر من كل شيء صفات كمال وجلال ، بها يكون أعظم من غيره، ولا معنى لكونه أكبر من كل شيء إلا لاختصاصه بتلك الصفات التي لا توجد في غيره، وهؤلاء هم الذين أثبتوا لله تعالى صفات الكمال التي وردت بها نصوص القرآن والسنة .

وعارض هؤلاء قوم رأوا أن الإقرار بكون الله تعالى أكبر من كل شيء لا يتم إلا بنفي جميع الصفات عنه ؛ لأن إثبات الصفات له يوجب تشبيهه بغيره، ومن شبهه بغيره لم يجعله أكبر منه !! وهكذا جعل الأولون إثبات الصفات من لوازم تعظيم الله تعالى ، وجعل الآخرون نفي الصفات من لوازم تعظيم الله عز وجل !!

٥- إن خلوص عبودية الإنسان لربه سبحانه متوقف على ما يقوم بقلبه من الشعور بعظمته والخضوع لكبريائه ؛ إذ إنه متى كان في القلب شيء هو أكبر عنده من الله تعالى، أو هو مساوٍ لله عنده، لم تخلص عبوديته لله عز وجل، وكان فيه من الشرك بحسب ما فيه من تعظيم غير الله تعالى ، مما لم يأمر الله بتعظيمه؛ وعلى هذا ، فيجب على المربين أن يحرصوا على تعميق الشعور بأكبرية الله من كل شيء في قلوب من تحت أيديهم من الناشئة ؛ حتى ينشأوا مستشعرين عظمة الله تعالى فيخلصوا له العبودية ، ويفردوه بالخوف والرجاء ،- إذ من لوازم كونه تعالى أكبر من كل شيء إفراده وحده بالعبادة دون ما سواه ؛ فإن التفضيل الذي يدل عليه قولنا ((الله أكبر)) يستلزم نقصان ما عداه ، والناقص لا يستحق العبادة - . فهذا- في نظري- ينبغي أن يكون الخطوة الأولى واللبنة الأساس في التربية، وبدون هذا تبوء جميع المحاولات الإصلاحية بالفشل، ولا يمكنها أن تؤتي الثمار المرجوة منها.

٦- إن ضعف الشعور بهذا المعنى في قلب المؤمن يورث عنده نوعاً من الإنهزام النفسي فتجده ضعيفاً أمام كل التحديات التي تواجهه في حياته ، بخلاف ما إذا تمكن هذا الشعور من قلبه وقوي، فإنه يبقى قوياً لا يخاف إلا الله ؛ لعلمه أن كل ما سواه ضعيف لا يملك أن ينفعه ولا أن يضره إلا بإذن الله عز وجل .

٧- لا معنى لكلمة ((الله أكبر)) عند طائفتي المعطلة والمشبهة ، فالمعطلة لما لم يصفوه بصفات الكمال والعظمة والجلال لم يجعلوه أكبر من كل شيء ، بل جعلوا كل شيء أكبر منه !! والمشبهة لما جعلوا صفاته كصفات المخلوقين المربوبين لم يجعلوه أكبر

منهم بل جعلوه مساوياً لهم ، وكلا المسلكين إضاعة لمعنى ((الله أكبر)) التي تدل على كمال الله عز وجل وتنفي عنه مماثلة المخلوقات .

٨- إن استشعار العبد لعظمة الله وكبريائه له آثار طيبة في سلوكه وأخلاقه، إذ يعينه ذلك على التحلي بالأخلاق الفاضلة التي يحبها الله ويرضى عن المتحلي بها كالتواضع والإخبات، كما يعينه على البعد عن الأخلاق الساقطة، كالكبر والعجب اللذين ينافيان الشعور بعظمة الله ، وأنه وحده الكبير العظيم ، ولا يجوز الكبرياء لغيره .

٩- محدودية قدرة العقل البشري في القضايا الإلهية، وعجزه عن إدراك كنه صفات الباري سبحانه؛ فإن الله تعالى أكبر من أن تحيط به العقول القاصرة، فليس للعقل – إذن – فيها إلا التسليم لما ورد به السمع من الكتاب والسنة، وما أتي الفلاسفة والمتكلمون إلا من جهلهم وغفلتهم عن هذه الحقيقة، حيث أدخلوا عقولهم في الإلهيات، وقدموها على النقل المعصوم عند دعوى التعارض ، ونفوا – بجرأة ووقاحة– كل ما يعارض ما يسمونه " القواطع العقلية "

هذه بعض النتائج المستفادة من هذا البحث ، فنسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل ، وأن يملأ قلوبنا من الشعور بعظمته وكبريائه . والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الفهارس الكاشفة عن محتوى الرسالة

وتتضمن :

١ - فهرس الآيات القرآنية

٢ - فهرس الأحاديث النبوية

٣ - فهرس المصادر والمراجع

٤ - فهرس الأعلام المترجم لهم

٥ - فهرس الموضوعات

(١)

فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــــــــة أو جزء منها	رقمـــها	الصفحة
	سورة الفاتحة	
اهدنا الصراط المستقيم	٦	١٥٨
	سورة البقرة	
الله يستهزئ بهم	١٥	٢٠٩
وإن كنتم في ريب	٣٢	٢٥٢
ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب	٧٨	٢٨٩
فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي	٨٥	٢١١
وقالوا اتخذ الله ولداً	١١٦	٤٣
فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به	١٣٧	٢١٤
فاذكروني أذكركم	١٥٢	١٥
ولتكبروا الله على ما هداكم	١٥٨	١٥٩
وإلهكم إله واحد	١٦٣	٣٦
ومن الناس من يتخذ من دون الله	١٦٥	٥٧
يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	١٨٣	٣٥٥
تلك حدود الله	١٨٧	١٤٧
واذكروا الله في أيام معدودات	٢٠٣	١٧٥
هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل	٢١٠	٢٩١
كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة	٣٤٩	١٩٠
ولما برزوا لجالوت وجنوده	٢٥٠	١٨٤
فهزموهم بإذن الله	٢٥١	١٨٥

الآيـــــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
ولو شاء الله ما اقتتلوا	٢٥٣	٣١٢
ولا يحيطون بشيء من علمه	٢٥٥	١١٥
وسع كرسيه السماوات والأرض	٢٥٥	٦٥
لا يكلف الله نفسا إلا وسعها	٢٨٦	٣٣٩
يؤتي الحكمة من يشاء	٢٦٩	٣٥٢
	سورة آل عمران	
واذكر ربك كثيراً	٤١	٤٥
ومكروا ومكر الله	٥٤	٢٠٩
يآأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته	١٠٢	١
ولقد نصركم الله ببدر	١٢٣	١٩٠
وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير	١٤٦	١٨٥
إن الله فقير ونحن أغنياء	١٨١	٢٢٦
إن في خلق السماوات والأرض	١٩٠	٣٥٧-٧٥
الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً	١٩١	١٦
	سورة النساء	
يآأيها الذين آمنوا اتقوا ربكم	١	١
ومن يعص الله ورسوله	١٤	١٤٧
إنما التوبة على الله للذين يعملون ...	١٧	١٠٨
واللاتي تخافون نشوزهن	٣٤	٦٤
ولو ردوه إلى الرسول	٨٣	١١٧
ولو شاء الله لسلطهم عليكم	٩٠	١٨٨
فاذكروا الله قياما وقعودا	١٠٣	١٧
ومن يشاقق الرسول	١١٥	٢١٥

الآيـــــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم	١٤٢	٢٠٩
يرآءون الناس ولا يذكرون الله	١٤٢	٢١
لا يحب الجهر بالسوء	١٤٨	٢٦٢
رسلا مبشرين ومنذرين	١٦٥	٣٥٣
	سورة المائدة	
يآأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله	٢	١٤٦
لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح	١٧	٢٩٦
من أجل ذلك كتبنا	٣٢	٣٦٠
وقالت اليهود يد الله مغلولة	٦٤	٢٢٥
لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة	٧٣	٢٩٦
قل يآ أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم	٧٧	١٤٨
وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم	١١٦	٢٩٦
تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك	١١٦	٢٢٧
رضي الله عنهم ورضوا عنه	١١٩	٢٦٠
	سورة الأنعام	
الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض	١	٢٨٣
ما فرطنا في الكتاب من شيء	٣٨	٣٠٦
من يشأ الله يضلله	٣٩	٣١١
قل لا أقول لكم عندي خزائن الله	٥٠	٧٩
ولو شاء الله لجمعهم على الهدى	٥٣	٣١٣
كتب على نفسه الرحمة	٥٤	١٤٣
وما قدروا الله حق قدره	٩١	٦٨
سبحانه وتعالى عما يصفون	١٠٠	٤٣

الآيـــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
ذلكم الله ربكم خالق كل شيء	١٠٢	٣١٣
ولو شاء الله ما أشركوا	١٠٧	٣١٣
وكذلك جعلنا في كل قرية	١٢٣	٥٠
لو شاء الله ما أشركنا	١٤٨	٣٣٦،١٤٠
قل فلله الحجة البالغة	١٤٩	٣١٨
قل إن صلاتي ونسكي	١٦٣-١٦٢	١٧٨
	سورة الأعراف	
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره	٥٩	٢٤٩
ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق	٩١-٨٩	٤١
وما تنقم منا إلا أن آمنا بالله	١٢٦	١٨٤
ولما جاء موسى لميقاتنا	١٤٣	٢٨١
إن هي إلا فتنتك	١٥٥	٢٢٥
وإذ أخذ ربك من بني آدم	١٧٢	٣٠٩
ولله الأسماء الحسنى	١٨٠	٢٧٨،٢٠٣،١٨
	سورة الأنفال	
إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله	٢	١٠٢
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة	٣٩	٢٤٩
يآأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة	٤٥	١٨٣،١٧
وأطيعوا الله ورسوله	٤٦	١٨٣
	سورة التوبة	
لقد نصركم الله في مواطن كثيرة	٢٧-٢٥	١٨٩
لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون	٣١	٤٤
رضي الله عنهم ورضوا عنه	١٠٠	٢٥٨

الآيــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
	سورة يونس	
أكان للناس عجباً	٢	٦٩
قل هل من شركائكم من يهدي	٣٥	١٥٨
ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم	٦٢-٦٣	٥٣
وتكون لكما الكبرياء في الأرض	٧٨	١١١
قل انظروا ما ذا في السماوات	١٠١	٧٥
	سورة هود	
الر كتاب أحكمت آياته	١	٢٨٣
ويا قوم استغفروا ربكم	٢٥	٣٠
وما من دابة في الأرض	٥٦	١٦٣
إن الحسنات يذهبن السيئات	١١٤	٣٤
	سورة يوسف	
فلما رأينه أكبرنه	٣١	١١٠
وكأين من آية في السماوات والأرض	١٠٥	٧٥
وما يؤمن أكثرهم بالله	١٠٦	٧٥
	سورة الرعد	
عالم الغيب والشهادة الكبير	٩	٦٤
أم جعلوا لله شركاء	١٦	٣١٣
الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله	٢٨	٢٠
ألا بذكر الله تطمئن القلوب	٢٨	١٨٤
	سورة إبراهيم	
وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم	٧	١٢

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
	سورة الحجر	
فوربك لنسألنهم أجمعين	٩٢-٩٣	٣٥١
واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	٩٩	١٥٢
	سورة النحل	
لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء	٣٥	٣٣٦
ولقد بعثنا في كل أمة رسولا	٣٦	٢٤٨
والله فضل بعضكم على بعض في الرزق	٧١	١٦٤
ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم	٧٣	١٦٣
فلا تضربوا لله الأمثال	٧٤	٢٣٤
ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب	١١٦	٢٤٢
إن الله مع الذين اتقوا	١٢٨	٢٤
	سورة الإسراء	
سبحان الذي أسرى بعبده	١	٢٥١
أولئك الذين يدعون يبتغون	٥٧	١٤٢
ويسألونك عن الروح	٨٥	١١٨
إني لأظنك يا موسى مسحورا	١٠١	٦٣
لقد علمت ما أنزل هؤلاء	١٠٢	٦٣
وقرءانا فرقناه لتقرأه على الناس	١٠٦	٣٥٣
وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا	١١١	٢،٤٥،٥٠
	سورة الكهف	
ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا	٢٣-٢٤	٣١١
ستجدني إن شاء الله صابرا	٦٩	٣١٢
إنما أنا بشر مثلكم	١١٠	٧٩

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا	١٠٣	٨٤
الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا	١٠٤	٨٤
	سورة مريم	
هل تعلم له سمياً	٦٥	٢٣٣
	سورة طه	
واجعل لي وزيرا من أهلي	٢٤-٢٩	٤٤
إنني معكما أسمع وأرى	٤٦	٢٤
قال فما بال القرون الأولى	٥١-٥٢	٣٠٦
إنه لكبيركم الذي علمكم السحر	٧١	٥٠
كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق	٩٩	٢٨٣
ولا يحيطون به علماً	١١٠	١١٥
ومن أعرض عن ذكري	١٢٤	١٢٠
	سورة الأنبياء	
يسبحون الليل والنهار	٢٠	٤٤
لا يسأل عما يفعل	٢٣	٣٤٨
وما أرسلنا من قبلك من رسول	٢٥	٢٤٨
	سورة الحج	
ذلك ومن يعظم حرمات الله	٣٠	١٤٦
ذلك ومن يعظم شعائر الله	٣٢	١٤٦
لن ينال الله لحومها ولا دماؤها	٣٦-٣٧	١٦١
ذلك بأن الله هو الحق	٦٢	٦٤
يآأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له	٧٣-٧٤	٢٥٥

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
	سورة المؤمنون	
فقل الحمد لله الذي نجانا	٢٨	٤٦
أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً	١١٥	٣٥٦
	سورة الفرقان	
أم تحسب أن أكثرهم يسمعون	٤٤	٢٥٨
	سورة الشعراء	
قال كلا إن معي ربي سيهدين	٦٢	٤١
أنؤمن لك واتبعك الأرذلون	١١١	١٢١
	سورة النمل	
قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله	٦٥	١٣٠
وما ربك بغافل عما تعملون	٩٣	٤٦
	سورة القصص	
فالتقطه آل فرعون	٨	٣٥٤
إنك لا تهدي من أحببت	٥٦	١٥٨
	سورة العنكبوت	
ولذكر الله أكبر	٤٥	١٩
وكأين من دابة لا تحمل رزقها	٦٠	١٦٣
قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون	٦٣	٤٦
	سورة الروم	
وله المثل الأعلى	٢٧	٤٧
وهو أهون عليه	٢٧	٥٣

الآيـــــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
سورة لقمان		
ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل	٣٠	٦٤
سورة الأحزاب		
الذين يبلغون رسالات الله	٣٩	٦٣
يأأيها الذين آمنوا اذكروا الله	٤١	١٦
يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله	٧٠-٧١	١
سورة سبأ		
عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة	٣	٣٠٤
حتى إذا فزع عن قلوبهم	٢٣	٦٤
سورة فاطر		
يأأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم	٣	١٦٢
إنما يخشى الله من عباده العلماء	١٧	١٠٧
ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا	٣٢	١٠٢
سورة يس		
إنما أمره إذا أراد شيئاً	٨٢	٤٠
سورة الصافات		
إنهم كانوا إذا قيل لهم	٣٥	١٢١
فلولا أنه كان من المسبحين	١٤٤	٤٤
سورة ص		
أجعل الآلهة إلها واحداً	٥	١٦٢
واذكر عبدنا داود	١٧	٢٥١

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
أم نجعل الذين آمنوا وعملوا كالمفسدين في الأرض	٢٨	٣٥٧
واذكر عبدنا أيوب	٤١	٢٥١
واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق	٤٥-٤٧	٢٥١
قال يا إبليس ما منعك أن تسجد	٧٥	٢٠٠
	سورة الزمر	
تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم	١	٢٧٧
ألا لله الدين الخالص	٣	٢٥٦
أليس في جهنم مثوى للمتكبرين	٦٠	١٢١
الله خالق كل شيء	٦٢	٣١٣
وما قدروا الله حق قدره	٦٧	٦٨-٢٧٩
	سورة غافر	
فالحكم لله العلي الكبير	١٢	٦٥
كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر	٣٥	١٢٦
وقال ربكم ادعوني استجب لكم	٦٠	١٢٣
	سورة فصلت	
فقضاهن سبع سماوات في يومين	١٢	٣٤٢
يسبحون له بالليل والنهار	٣٨	٤٤
سنريهم آياتنا في الآفاق	٥٣	١٥٢
	سورة الشورى	
حم عسق	١	٢٣٥
ليس كمثله شيء	١١	٤٤-٢٠١

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
	سورة الزخرف	
إنا جعلناه قرءاناً عربياً	٣	٢٨٣
وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم	٢٠	٣٣٦
وجعلها كلمة باقية في عقبه	٢٨	٤٧
أهم يقسمون رحمة ربك	٣٢	١٦٤
واسأل من أرسلنا من قبلك	٤٥	٢٤٨
قل إن كان للرحمن ولد	٨١	٣٢٤
	سورة الدخان	
حم والكتاب المبين	١-٤	٣١٠
	سورة الجاثية	
أم حسب الذين اجترحوا السيئات	٢١	١٠٠-٣٥٧
وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا	٢٤	٢٥٨
وله الكبرياء في السماوات	٣٧	٦٥
	سورة الأحقاف	
فاليوم تجزون عذاب الهون	٢٠	١٢١
	سورة محمد	
أفلا يتدبرون القرآن	٢٤	٢٨٣
	سورة الفتح	
ويعذب المنافقين والمنافقات	٦	٢٤٠
وألزمهم كلمة التقوى	٢٦	٤٦
	سورة ق	
ق والقرآن المجيد	١	٦٥

الآيــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
	سورة الذاريات	
إن المتقين في جنات وعيون	١٥-١٨	١٠٣
وما خلقت الجن والإنس	٥٦	٢٤٨
إن الله هو الرزاق ذو القوة	٥٨	١٦٣
	سورة الطور	
إن عذاب ربك لواقع		
ما له من دافع	٧-٨	٩٨
أم خلقوا من غير شيء	٣٥	٢٥٩
	سورة النجم	
هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض	٣٢	٣٠٤
	سورة القمر	
ذوقوا مس سقر	٤٨	٣٣٢
إنا كل شيء خلقناه بقدر	٤٩	١٣١-٣٣٢
	سورة الرحمن	
يسأله من في السماوات والأرض	٢٩	٣١١
	سورة الحديد	
ما أصاب من مصيبة في الأرض	٢٢	٣٠٨
ورهبانية ابتدعوها	٢٧	١٤٩
	سورة المجادلة	
ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات		
ومـــا في الأرض	٧	٢٣
	سورة الحشر	
كي لا يكون دولة بين الأغنياء	٧	٣٥٥

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
ولا تكونوا كالذين نسوا الله	١٩	٣٢
هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب	٢٢	٢٧٩
هو الله الذي لا إله إلا هو الملك		
القدوس السلام	٢٣	٦٥، ١١١، ٢٧٩
هو الله الخالق الباريء المصور	٢٤	٢٧٩
	سورة الممتحنة	
إنا برآء منكم ومما تعبدون	٤	٢٤٩
	سورة الجمعة	
والله خير الرازقين	١١	١٦٣
	سورة الطلاق	
وتلك حدود الله	١	١٤٧
الله الذي خلق سبع سماوات	١٢	٣٥٣
	سورة الملك	
وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل	١٠	١٠٦
ألا يعلم من خلق	١٤	٣٠٦
أمن هذا الذي يرزقكم	٢١	١٦٣
	سورة المعارج	
إن الإنسان خلق هلوعا	١٩	٣٣٧
إذا مسه الشر جزوعا	٢٠	٣٣٧
وإذا مسه الخير منوعاً	٢١	٣٣٧
	سورة نوح	
فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا		
يرسل السماء عليكم مدرارا	١٠-١٢	٣٠

الآيـــــــة أو جزء منها	رقمها	الصفحة
ما لكم لا ترجون لله وقارا		
وقد خلقكم أطوارا	١٣-١٤	٧٢
	سورة الجن	
وأنه لما قام عبد الله يدعوه	١٩	٢٥١
	سورة المدثر	
يآأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر	١-٣	٢،٦١
إن هذا إلا قول البشر	٢٥	٢١٧
	سورة الغاشية	
أفلا ينظرون إلى الإبل...	١٧-٢٠	٧٦
	سورة الليل	
وسيجنبها الأتقى	١٧-٢١	٩٦

(٢)

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	الصفحة
أهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم...	١٢٩
أجعلتني لله نداً...	٨٢ ، ٣١٢
احتجت الجنة والنار...	١٢٢
إذا أتيت سلطاناً مهيباً...	١٩٣
إذا ذكر أصحابي فأمسكوا...	١٣٣
إذا ذكر القدر فأمسكوا...	١٣٢
إذا رأيتم الحريق فكبروا...	١٩٥
إذا رأيتني على هذه الحال فلا تسلم علي ...	٨٨
إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا	٣٣
إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان...	١٦٦
أرأيت إن جئت و لم أجدك...	٩٦ (هامش)
ازهد في الدنيا يحبك الله...	١٤٣
أعوذ برضاك من سخطك...	١٣٩
أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي...	٤٧
أفلح وأبيه إن صدق...	٩٢
أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ..	١٦٦
ألا أخبركم بأهل الجنة ...	١٢٢
ألا أنبئكم بخير أعمالكم...	٣٤
أليس كانوا إذا حرموا عليه شيئاً حرموه...	٢٥٥
أمرت أن أقاتل الناس ...	٢٥٠

طرف الحديث	الصفحة
أنا سيد ولد آدم ...	٨٠
أنا عند ظن عبدي بي ...	٢٢
إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه ..	٣١٠
إن أول ما خلق الله القلم...	٣٠٧
إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله...	١٩٤
إن عرشه أو كرسيه وسع السماوات والأرض...	٨٨
إن فيك خصلتين يحبهما الله...	٣٣٨
إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن...	٣١٢
إن لله تسعة وتسعين اسما...	٢٠٥
إن الله خلق آدم...	٣٠٩
إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها...	١٤٧
إن الله كتب مقادير الخلائق...	٣٠٨
إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه...	٢١٣
إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم...	٩٢
إنها أيام أكل وشرب وذكر لله...	١٧٥
إياكم والكبر...	١٢٣
بئس الخطيب أنت...	٨١
بل أكون عبدا نبيا...	٢٥٢
تباركت وتعاليت...	٣١٨
التكبير في الفطر سبع في الأولى ...	١٧٢
ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب...	١٨٠
والخير كله في يديك.....	١٣٥
الدعاء هو العبادة...	١٢٣

طرف الحديث	الصفحة
رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق...	٩٣
السيد الله تبارك وتعالى...	٨٠
سيروا هذا جمدان...	٢٧
شأن الله أعظم من ذلك...	٨٨
صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر...	١٨٦
ضحى رسول الله صلى الله عليه وسل بكبشين...	١٩١
طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير...	١٧٩
عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف...	١٨٢
فما يفضل منه إلا قدر أربعة أصابع...	٩٠
قوموا إلى سيدكم...	٨٠
كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة...	٤١
كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر...	١٩٢
كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قفل من الحج	١٨٠
كان يكبر في الأولى سبعاً	١٧١
كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج...	٣٣٠
كبر في العيدين في الأولى سبعا...	١٧٣
الكبرياء ردائي والعظمة إزاري...	١٢٣، ١٥٧
كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به...	٩٧
كل شيء بقدر...	١٣١
كل ميسر لما خلق له...	٣٠٦
كنا إذا صعدنا كبرنا...	١٨١
كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علونا كبرنا...	١٨٢
كنا نؤمر أن نخرج يوم العيد...	١٧٤

طرف الحديث	الصفحة
لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله...	١٠٠ـ(هامش)
لا أحصي ثناء عليك...	٥٩
لا إله إلا الله العظيم الحليم...	٢٧٩
لا تجالسوا أهل القدر...	١٣٢ (هامش)
لا تحلفوا بآبائكم...	٩٣
لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم...	٧٩
لا تفكروا في الله ...	١١٥
لا تمنوا لقاء العدو ...	١٨٥
لقيت إبراهيم ليلة أسري بي ...	٣٣
لن يدخل أحداً عمله الجنة ...	١٢٩
ما أصاب عبداً قط هم أو حزن ...	٢٠٤
ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم ...	٩٩
ماض في حكمك عدل في قضاؤك ...	١٣٣
ما من أيام العمل الصالح فيهن خير ...	١٧٨
ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده ...	٣٠٧
مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه...	٢٦
من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ...	٢٦٤
المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل....	٢٦١
من حلف بالله فقد كفر أو أشرك ...	٩٢
من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ...	٣١١
من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ...	٥٣
من عمل عملا ليس عليه أمرنا ...	٢٦٤
من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ...	٣٧

طرف الحديث	الصفحة
من كان في قلبه مثقال ذرة من خردل من كبر ...	١٢٢
من لزم الاستغفار ...	٣٠
هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها ...	٩٧
هل تدري ما حق الله على العباد ...	٢٥٠
والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة ...	٧٨
ويحك أتدري ما تقول ...	٨٨
يا عبد الله بن قيس ...	٣١٤
يا عدي ما يفرك ...	٥٥،٧٨
يطوي الله السماوات يوم القيامة ...	٢٧٩
يترل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا ...	٢٢٧

*********** ********* ***********

فهرس المصادر والمراجع

١- الإبانة عن أصول الديانة : لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، تحقيق/ فوقية حسين محمود ، ط/١، ١٣٩٧هـ دار الأنصار- القاهرة .

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، لابن بطة العكبري ، تحقيق د. عثمان بن عبد الله آدم الأثيوبي ، ط/١، ١٤١٥هـ دار الراية .

٣- الإبداع في كمال الشرع وخطر الابتداع ، محمد بن صالح ابن عثيمين

٤- إبطال التأويلات لأخبار الصفات : أبو يعلى الفراء الحنبلي ، تحقيق / محمد بن حمد النجدي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ، مكتبة دار الإمام الذهبي ، الكويت .

٥- اجتماع الجيوش الإسلامية ، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، تحقيق / د. عواد بن عبد الله المعتق ، ط/١، ١٤٠٨هـ مطابع الفرزدق التجارية -الرياض .

٦- الإحسان لابن بلبان ، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، ط/١، ١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة .

٧- أحكام القرآن ، محمد بن عبد الله (ابن العربي) تحقيق / علي محمد البجاوي ،مطبعة الحلبي ، ١٣٩٤هـ

٨- الإحكام في أصول الأحكام : علي بن أحمد بن سعيد (ابن حزم الظاهري) تقديم / د. إحسان عباس ، ط/١، ١٤٠٠هـ منشورات دار الآفاق-الجديدة.

٩- إحياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد الغزالي . طبعة مصورة عن طبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية . ١٣٥٦هـ .

١٠- أخبار مكة : أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، تحقيق / عبد الملك عبد الله دهيش، ط/٢، ١٤١٤هـ دار خضر .

١١- أدب الدنيا والدين : لأبي الحسن الماوردي ، تحقيق / مصطفى السقا ، دار الفكر .
١٢- الأذكار : الإمام يحي بن زكريا النووي ، تحقيق / بشار عواد معروف ، ط/١، ١٤٠٨هـ مكتبة المؤيد .
١٣- الأربعين في أصول الدين . للغزالي ، تحقيق وتخريج الشيخ/ محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندي بمصر ١٣٩٠هـ .
١٤- الأربعين في صفات رب العالمين : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق/ عبد القادر محمد عطا صوفي ، ط/١، ١٤١٣هـ مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة .
١٥- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد : للجويني ، تحقيق / أسعد تميم ، ط/١، ١٤٠٥هـ ، مؤسسة الكتب الثقافية .
١٦- إرواء الغليل : محمد ناصر الدين الألباني ، ط/٢، ١٤٠٥هـ المكتب الإسلامي .
١٧- أساس التقديس : الفخر الرازي ، تحقيق / أحمد حجازي السقا ، ط/١، ١٤١٣هـ دار الجيل .
١٨- الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لأبي عمر يوسف بن عبد الله النمري ابن عبد البر ، تحقيق / علي بن محمد البجاوي ، ط/١، ١٤١٢هـ دار الجيل .
١٩- أسد الغابة في معرفة الصحابة : علي بن محمد المعروف بابن الأثير ، تحقيق / علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، ط/١، ١٤١٥هـ ، دار الكتب العلمية .
٢٠- الأسماء والصفات : أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق / محمد زاهد الكوثري ، دار إحياء التراث العربي
٢١- الإصابة في تمييز الصحابة : للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق / علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، ط/١، ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية .

٢٢- أصول الدين : الفخر الرازي ، مراجعة وتقديم / طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية .
٢٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : للشيخ محمد الأمين الشنقيطي ،
٢٤- الاعتصام : لأبي إسحاق الشاطبي ، تحقيق / سليم الهلالي ، ١٤١٢هـ دار ابن عفان .
٢٥- الأعلام : لخير الدين الزركلي ، ط/٥، دار العلم للملايين .
٢٦- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان : ابن القيم الجوزي ، تحقيق / خالد عبد اللطيف السبع العلمي ، ط/٢، ١٤١٧هـ دار الكتاب العربي .
٢٧- الاقتصاد في الاعتقاد : أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي ، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده .
٢٨- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، مطابع المجد التجارية .
٢٩- كتاب الأم : محمد بن إدريس الشافعي ، تخريج محمود مطرجي ، ط/١، ١٤١٣هـ دار الكتب العلمية .
٣٠- الأنساب : لأبي سعد ، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ، ط/١، ١٤٠٨هـ دار الجنان .
٣١- كتاب الإيمان : شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط/٥، ١٤١٦هـ المكتب الإسلامي .
٣٢- إيثار الحق على الخلق : محمد بن إبراهيم بن علي الشهير بابن الوزير اليماني ، ط/ دار الكتب العلمية.
٣٣- البحر المحيط : محمد بن يوسف ، أبو حيان الأندلسي ، ط/١، ١٤١٣هـ دار الكتب العلمية .
٣٤- بدائع الفوائد : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ط/ إدارة الطباعة المنيرية، الناشر : دار الكتاب العربي .

٣٥- البداية والنهاية : للحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، ط/١، ١٤١٨هـ دار الكتب العلمية .
٣٦- بغية الوعاة ، للسيوطي ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/١،١٣٨٤هـ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي .
٣٧- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية : ابن تيمية ، تحقيق / محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، ط/١، ١٣٩٣هـ مطبعة الحكومة –مكة المكرمة .
٣٨- تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة الدينوري ، ط/ دار الكتاب العربي .
٣٩- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط/٢، دار المعارف .
٤٠- تبصرة الأدلة ، أبو المعين النسفي ، تحقيق / كلود سلامة ، ط/١، ١٩٩٠م المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية .
٤١- التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر .
٤٢- تحفة الذاكرين : محمد بن علي الشوكاني ، الناشر : دار الكتب العلمية .
٤٣- التحف في مذاهب السلف ، محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق / طارق السعود ، ط/٢ ، ١٤٠٨هـ دار الهجرة –بيروت .
٤٤- التحفة المهدية : فالح بن مهدي ، تصحيح وتعليق / عبد الرحمن بن صالح المحمود ، ط/١، ١٤١٤هـ دار الوطن .
٤٥- تذكرة الحفاظ ، للذهبي ، ط/٤، دار إحياء التراث العربي .
٤٦- التعريفات : علي بن محمد الحسين الجرجاني، ط/١، ١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية .
٤٧- تفسير القرآن العظيم : عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، ١٤٠١هـ .

٤٨- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، تحقيق / عبد القادر أحمد عطا ، دار إحياء التراث العربي .

٤٩- تفسير ابن باديس (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) ط/٢، دار الفكر.

٥٠- تفسير البغوي (معالم التتريل) : الحسين بم مسعود البغوي ، تحقيق / محمد بن عبد الله النمر وآخرين ، ط/ دار طيبة .

٥١- تفسير البيضاوي : عبد الله بن عمر البيضاوي ، تحقيق / عبد القادر عرفات ، دار الفكر .

٥٢- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) محمد بن جرير الطبري ،ط/١، ١٤١٢هـ دار الكتب العلمية .

٥٣- تفسير عبد الرزاق الصنعاني : تحقيق / مصطفى محمد مسلم ، ط/١، ١٤١٠هـ مكتبة الرشد .

٥٤- تفسير القاسمي (محاسن التأويل) دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، ١٣٧٨هـ .

٥٥- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ط/١، دار الحديث –القاهرة .

٥٦- التفسير القيم لابن القيم : جمع محمد أويس الندوي ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية .

٥٧- التفسير الكبير : محمد بن عمر ، الفخر الرازي ، ط/ دار إحياء التراث العربي.

٥٨- تفسير الماوردي (النكت والعيون) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، ط/ دار الكتب العلمية .

٥٩- تفسير مجاهد : تحقيق /عبد الرحمن محمد الطاهر السورقي، المنشورات العلمية ، بدون رقم الطبعة ولا تاريخها

٦٠- تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، ط/٢، دار المعرفة

٦١- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) تحقيق يوسف علي بديوي، ط/١، ١٤١٩هـ دار الكلم الطيب .
٦٢- تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، محمد أحمد لوح ، ط/١، ١٤١٦هـ دار الهجرة .
٦٣- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، للقاضي الباقلاني ، تحقيق / عماد الدين أحمد حيدر، ط/١، ١٩٨٧م مؤسسة الكتب الثقافية .
٦٤- تهذيب التهذيب : للحافظ ابن حجر العسقلاني تحقيق / علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود ، ط/١، ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية ..
٦٥- تهذيب الفروق والقواعد السنية في الأسرار الفقهية ، بهامش الفروق للقرافي ، ط/ دار المعرفة .
٦٦- تهذيب اللغة ، للأزهري ، تحقيق الأستاذ/ علي حسن هلالي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٦٧- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان ، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ط/١، ١٤٠٦هـ مكتبة دار الأقصى -الكويت .
٦٨- تيسير العزيز الحميد ، سليمان بن عبد الله آل الشيخ ، ط/٧، ١٤٠٨هـ المكتب الإسلامي .
٦٩- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق / محمد زهري النجار ، ط/ المؤسسة السعدية .
٧٠- جامع العلوم والحكم : للحافظ ابن رجب الحنبلي ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط ، وإبراهيم باجس، ط/٧، ١٤١٧هـ مؤسسة الرسالة .
٧١- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / مجدي قاسم ، مكتبة البلد الأمين .
٧٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ابن القيم الجوزي ، ط/٢، ١٤١٧هـ دار اليقين .

٧٣- الحجة في بيان المحجة ، تحقيق الدكتور / محمد ربيع المدخلي ، ط/١، ١٤١١هـ دار الراية .
٧٤- حجة الله البالغة ، للشاه ولي الله الدهلوي، قدم له وعلق عليه الشيخ محمد شريف سكر ، ط/١، ١٤١٠هـ دار إحياء العلوم .
٧٥- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين . عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ط/ المطبعة السلفية .
٧٦- الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ، الدكتور / محمد ربيع المدخلي ، ط/١، ١٤١٩هـ مكتبة لينة .
٧٧- حلية الأولياء . لأبي نعيم ، ط/ دار الكتاب العربي .
٧٨- خلق أفعال العباد ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق / عبد الرحمن عميرة ، دار المعارف السعودية ، ١٣٩٨هـ
٧٩- درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشاد سالم، ط / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
٨٠- الدرر السنية في الأجوبة النجدية . جمع عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي القحطاني . ط/٢، ١٣٨٥هـ مطابع المكتب الإسلامي
٨١- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق / محمد سيد جاد الحق ، ١٣٨٥هـ دار الكتب الحديثة .
٨٢- الدر المنثور ، لجلال الدين السيوطي ، ط/ دار الفكر ، ١٩٩٣م .
٨٣- الديباج المذهب ، ابن فرحون ، تحقيق الدكتور / محمد الأحمدي أبو النور ، ط/ دار التراث .
٨٤- الدين الخالص . محمد صديق حسن خان القنوجي ، مطبعة المدني . .
٨٥- ديوان البوصيري ، تحقيق / سيد كيلاني مطبعة الحلبي ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ
٨٦- ديوان الشافعي ، جمع / محمد عفيف الزعبي ، ط/٤، دار إحياء التراث العربي.
٨٧- ديوان الصنعاني ، محمد بن إسماعيل الصنعاني ، ط/١، ١٣٨٤هـ .

٨٨- ديوان الفرزدق ، تقديم وشرح مجيد طراد ، ط/١، ١٤١٢هـ دار الكتاب العربي .
٨٩- ديوان كعب بن زهير ، صنع الإمام أبي سعيد الحسين بن الحسين العسّكري ط/١، ١٤١٤هـ دار الكتاب العربي .
٩٠- ديوان المتنبيء ، جمع عبد الرحمن البرقوني ، ط/ دار الكتاب العربي .
٩١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، السيد محمود الألوسي البغدادي ، ط/ دار إحياء التراث العربي .
٩٢- الرد على الجهمية والزنادقة ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق الدكتور / عبد الرحمن عميرة ، دار اللواء ، ١٣٩٧هـ
٩٣- الرد على الجهمية ، عثمان بن سعيد الدارمي ، تقديم وتعليق / بدر البدر، ط/٢،١٤١٦هـ، دار ابن الأثير .
٩٤- رسائل في العقيدة ، محمد بن صالح العثيمين ،
٩٥- زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، تحقيق / زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، ط/١، ١٣٨٥هـ
٩٦- زاد المعاد في هدي خير العباد ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الرنؤوط ، ط/١٠، ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة .
٩٧- الزهد ، للإمام وكيع ابن الجراح ، تحقيق / عبد الرحمن الفـريوائي، ط/١، مكتبة الدار المدنية .
٩٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، ط/ مكتبة المعارف .
٩٩- سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، إعداد وتعليق / عزت عبيد الدعاس وعادل السيد ، ط/ دار الحديث حمص سورية ، وبهامشه : معالم السنن ، للخطابي ، حمد بن محمد بن إبراهيم .
١٠٠- سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق / إبراهيم عطوه عوض ط/١، ١٣٨٢هـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .

١٠١- سنن ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي . مطبعة دار إحياء الكتب العربية .
١٠٢- سنن النسائي ، احمد بن شعيب ، ومعه زهر الربى على المجتبى ، للحافظ الجلال السيوطي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط/١، ١٣٨٣هـ .
١٠٣- السنن الكبرى للبيهقي ، ط/ دار الفكر .
١٠٤- سنن الدار قطني علي بن عمر ، تحقيق / مجدي بن منصور بن سيد الشوري ، ط/١، ١٤١٧هـ دار الكتب العلمية .
١٠٥- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق مجموعة من الباحثين بإشراف شعيب الأنؤوط ، مؤسسة الرسالة .
١٠٦- شأن الدعاء للخطابي ، تحقيق / أحمد بن يوسف الدقاق ، ط/١، ١٤٠٤هـ دار المأمون للتراث .
١٠٧- شجرة النور الزكية : محمد بن محمد مخلوف ، ط/١، ١٣٤٩هـ دار الكتاب العربي .
١٠٨- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي ، تحقيق / أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، ط/٤، ١٤١٦هـ دار طيبة للنشر والتوزيع
١٠٩- شرح الأصول الخمسة ، للقاضي عبد الجبار الهمداني ، تحقيق / عبد الكريم عثمان ، ط/١، ١٩٦٥م مكتبة وهبة .
١١٠- شرح السنة ، لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش ، الناشر : المكتب الإسلامي .
١١١- شرح العقيدة الأصفهانية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / إبراهيم سعيداي ، ط/١، ١٤١٥هـ مكتبة الرشد .

١١٢- شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق / أحمد محمد شاكر، من مطبوعات وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية .
١١٣- شرح العقيدة الواسطية ، محمد خليل هراس ، ضبط وتخريج / علوي بن عبد القادر السقاف ط/٣، ١٤١٥هـ دار الهجرة للنشر والتوزيع .
١١٤- شرح العقيدة الواسطية للشيخ صالح بن فوزان ، ط/٤، ١٤٠٧هـ مكتبة المعارف .
١١٥- شرح العقيدة الواسطية ، محمد بن صالح بن عثيمين ، خرج أحاديثه سعد بن فواز الصميل ، ط/٤، ١٤١٧هـ دار ابن الجوزي .
١١٦- شرح صحيح مسلم للنووي، ط/١، ١٣٤٧هـ المطبعة المصرية بالأزهر .
١١٧- شرح العمدة لابن تيمية ، تحقيق الدكتور / صالح بن محمد الحسن ، ط/١، ١٤٠٩هـ مكتبة الحرمين بالرياض .
١١٨- الشريعة ، محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري، تحقيق وتخريج / محمد بن الحسن إسماعيل ط/١، ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية .
١١٩- شعب الإيمان . للبيهقي ، تحقيق / محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط/١، ١٤١٠هـ ، دار الكتب العلمية .
١٢٠- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري ، تحقيق الدكتور / مفيد قميحة ط/٢، ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية .
١٢١- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، لابن القيم الجوزي ، تحرير الحساني عبد الله ، الناشر : مكتبة دار التراث .
١٢٢- الصارم المنكي في الرد على السبكي ، لابن عبد الهادي ، ط/ مكتبة التوعية الإسلامية لإحياء الإسلامي .
١٢٣- الصحاح للجوهري ، تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار ، ط/١، ١٣٧٦هـ دار العلم للملايين .

١٢٤- صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل البخاري ، مع فتح الباري ط/ دار المعرفة .
١٢٥- صحيح الجامع الصغير وزياداته . محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي .
١٢٦- صحيح سنن الترمذي . محمد ناصر الدين الألباني .مكتب التربية العربي لدول الخليج .
١٢٧- صحيح سنن ابن ماجة . محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج.
١٢٨- صحيح مسلم ، مع شرح النووي ، ط/١، ١٣٤٧هـ المطبعة المصرية بالأزهر .
١٢٩- كتاب الصلاة وحكم تاركها ، لابن قيم الجوزي ، تخريج محمد نظام الدين الفتيح ، ط/٢، ١٤١٢هـ مكتبة دار التراث .
١٣٠- الصواعق المرسلة لابن القيم ، تحقيق الدكتور / علي محمد الدخيل الله ، الناشر : دار العاصمة .
١٣١- صيد الخاطر ، لأبي الفرج ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق / محمد عبد الرحمن عوض ، ط/٣، ١٤١٠هـ دار الكتاب العربي .
١٣٢- طبقات الحنابلة
١٣٣- طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ، تحقيق / محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط/ دار إحياء الكتب العربية ، فيصل عيسى البابي الحلبي .
١٣٤- الطبقات الكبرى . لابن سعد ، ط/ دار صادر .
١٣٥- طبقات المفسرين للسيوطي ، ط/١، ١٤٠٣هـ دار الكتب العلميّة .
١٣٦- طبقات المفسرين للداودي ط/١، ١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية .
١٣٧- طريق الهجرتين وباب السعادتين . ابن قيم الجوزية ، تحقيق ، عمر بن محمود أبو عمر ، ط/١، ١٤٠٩هـ دار ابن القيم .

١٣٨- العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / علي حسن عبد الحميد ، ط/٢، ١٤١٩هـ دار الأصالة .
١٣٩- العظمة : أبو الشيخ الأصبهاني ، تحقيق / رضاء الله محمد إدريس المباركفوري ، النشرة الأولى : ١٤٠٨هـ دار العاصمة .
١٤٠- العقيدة الإسلامية وأسسها ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، ط/ دار القلم دمشق .
١٤١- عقيدة السلف أصحاب الحديث : أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني ، تحقيق / بدر البدر ، ط/٢، ١٤١٥هـ مكتبة الغرباء الأثرية .
١٤٢- العلو للعلي الغفار : للذهبي ، تحقيق / أشرف عبد المقصود ، ط/١، ١٤١٦هـ مكتبة أضواء السلف .
١٤٣- العين . للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق / مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ،
١٤٤- غاية المرام في علم الكلام للآمدي ، تحقيق / محمود عبد اللطيف ، نشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة .
١٤٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للحافظ ابن حجر العسقلاني ، ط/ دار المعرفة .
١٤٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق / أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد ، ط/١، ١٤١٧هـ دار ابن الجوزي.
١٤٧- الفتوحات المكية : محي الدين ابن عربي الصوفي ، تحقيق / عثمان يحي ، المكتبة العربية القاهرة ، ١٣٩٧هـ.
١٤٨- الفتوى الحموية . لابن تيمية . ط/٤، ١٤٠١هـ المطبعة السلفية – القاهرة .
١٤٩- الفرق بين الفرق ، عبد القاهر البغدادي ، ط/٢، ١٩٧٧م دار الآفاق الجديدة .

١٥٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل. علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، تحقيق / محمد إبراهيم نصر، ود . عبد الرحمن عميرة، ط/ ١٤٠٥هـ دار الجيل .

١٥١- فضائل الصحابة : للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق / وصي الله محمد عباس، ط/١، ١٤٠٣هـ مؤسسة الرسالة .

١٥٢- الفقه الأبسط ، تحقيق / محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار القاهرة .

١٥٣- فقه الأدعية والأذكار ، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، ط/١، ١٤١٩هـ دار ابن عفان .

١٥٤- في ظلال القرآن .للأستاذ سيد قطب ، ط/٧، ١٣٩١هـ دار إحياء التراث العربي .

١٥٥- الفوائد . لابن قيم الجوزية ، ط/١، ١٤٢٠هـ ، دار اليقين .

١٥٦- فيض القدير . للمناوي ، ط/١، ١٣٥٧هـ مطبعة مصطفى محمد .

١٥٧- القاموس المحيط للفيروز آبادي ، ط/ دار الجيل .

١٥٨- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه . عبد الرحمن بن صالح المحمود ، ط/٢، ١٤١٨هـ دار الوطن .

١٥٩- القواعد الحسان لتفسير القرآن : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ط/١، ١٤٢٠هـ مكتبة الرشد .

١٦٠- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ط/٢، ١٤١٥هـ مكتبة الإرشاد ، صنعاء .

١٦١- القول المفيد على كتاب التوحيد : محمد بن صالح العثيمين ، جمعه وخرج أحاديثه د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل ود. خالد بن علي بن محمد المشيقح ، ط/١، ١٤١٨هـ، دار ابن الجوزي .

١٦٢- الكشاف : للزمخشري محمود بن عمر ، تحقيق / عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، ط/١، ١٤١٨هـ مكتبة العبيكان .

١٦٣- الكواشف الجلية عن معاني الواسطية . عبد العزيز محمد السلمان. ط/١٨، ١٤١٣هـ.
١٦٤- لسان العرب : ابن منظور الإفريقي ، ط/٢، ١٤١٧هـ دار إحياء التراث العربي .
١٦٥- لوامع الأنوار البهية : محمد بن أحمد السفاريني ، ط/ مؤسسة الخافقين ومكتبتها ، ١٤٠٤هـ
١٦٦- متشابه القرآن : للقاضي عبد الجبار الهمداني ، تحقيق / عدنان زرزور ، دار التراث.
١٦٧- مجلة الجامعة الإسلامية . العدد (١١٣) مقال بعنوان : دراسات في الباقيات الصالحات ، للأستاذ عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد .
١٦٨- مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار : محمد طاهر الصديقي الفتني ، ط/٣، ١٤١٥هـ مكتبة دار الإيمان .
١٦٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، الناشر : دار الكتاب – بيروت .
١٧٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية ، جمع الشيخ / عبد الرحمن بن قاسم، ومساعدة ابنه محمد .
١٧١- مجموعة الرسائل والمسائل . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، خرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ محمد رشيد رضا . لجنة التراث العربي .
١٧٢- المجموع شرح المهذب . للإمام النووي ، وبهامشه كتاب : فتح العزيز للرافعي ، وكتاب : تلخيص الحبير للحافظ ابن حجر . الناشر :دار الفكر .
١٧٣- المحكم والمحيط الأعظم في اللغة . علي بن إسماعيل بن سيده ، تحقيق / مصطفى السقا ود . حسين نصار ، ط/١، ١٣٧٧هـ ، المكتبة التجارية ، مصطفى أحمد الباز ، مكة المكرمة .
١٧٤- المحلى ... تأليف علي بن سعيد بن حزم الظاهري ، ط/ دار الفكر .

١٧٥- المحيط بالتكليف . للقاضي عبد الجبار الهمداني ، تحقيق / عمـــر السـيد عزمي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف .

١٧٦- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية ، اختصـار محمد بن الموصلي ، طبع دار الندوة الجديدة ، ١٤٠٥هـ

١٧٧- مدارج السالكين : ابن القيم الجوزي ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، طبـع دار الكتاب العربي .

١٧٨- مزيل في الأحكام على الناس : إعداد / السيد بن صـابر عبـده ، ط/١، ١٤١٧هـ دار الفضيلة .

١٧٩- المستدرك على الصحيحين . للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، ط/١، ١٤١٧هـ ، دار الحرمين .

١٨٠- مسند الإمام أحمد بن حنبل . ط/٣، المكتب الإسلامي ، بيروت .

١٨١- المصباح المنير : للفيومي ، تحقيق الدكتور / عبد العظيم الشـناوي ، دار المعارف .

١٨٢- المصنف. لابن أبي شيبة ، تحقيق / مختار أحمد الندوي ، ط/١، ١٤٠٣هـ الدار السلفية .

١٨٣- معارج الألباب في مناهج الحق والصواب : للشيخ حسين بـن مـهدي النعمي ، تحقيق / محمد حامد الفقي ، ط/٣، ١٤٠٥هـ مكتبة المعارف .

١٨٤- معارج القبول بشرح سلم الوصول . تأليف حافظ بن أحمد الحكمـي ، تحقيق / عمر بن محمود أبو عمر . ط/٣، ١٤١٥هـ دار ابن القيم .

١٨٥- معالم السنن للخطابي . بهامش سنن أبي داود .

١٨٦- معاني القرآن لأبي جعفر النحاس ، تحقيق / محمد علي الصـابوني ، ط/١، ١٤٠٩هـ جامعة أم القرى –مكة المكرمة .

١٨٧- معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى . د. محمد بـن خليفـة التميمي ، ط/١، ١٤١٧هـ دار إيلاف الدولية .

١٨٨- المعجم الأوسط . للطبراني ، تحقيق / أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم ، دار الحرمين ، ١٤١٥هـ .

١٨٩- معجم البلدان : ياقوت الحموي ، تحقيق / فريد عبد العزيز الجندي ، ط/١، ١٤١٠هـ دار الكتب العلمية .

١٩٠- معجم الصحابة : أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، تحقيق / محمد الأمين الجكني ، ط/١، ١٤٢١هـ الناشر : مكتبة دار البيان – الكويت.

١٩١- المعجم الكبير للطبراني ، تحقيق / حمد عبد المجيد السلفي . مكتبة ابن تيمية.

١٩٢- معجم مقاييس اللغة . أحمد بن فارس ، تحقيق / عبد السلام هارون ، دار الفكر .

١٩٣- المغني . لابن قدامة المقدسي ، تحقيق / عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط/ دار هجر

١٩٤- المغني في أبواب العدل والتوحيد . للقاضي عبد الجبار الهمداني ، تحقيق الدكتور مصطفى حلمي ، ط/ الدار المصرية .

١٩٥- مفتاح دار السعادة : ابن القيم الجوزي ، تحقيق / علي حسن عبد الحميد ط/١، ١٤١٦هـ دار ابن عفان .

١٩٦- المفردات في غريب القرآن ، للحسين بن محمد المشهور بالراغب الأصفهاني ، تحقيق / صفوان عدنان داودي ، ط/١، دار القلم .

١٩٧- مقالات الإسلاميين : أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، تحقيق/ محي الدين عبد الحميد ، ط/٢، ١٣٨٩هـ ، مكتبة النهضة المصرية .

١٩٨- مقدمة ابن خلدون . ط/ دار البيان

١٩٩- الملل والنحل : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق / أمير علي مهنا و علي حسن فاعور ، ط/٥، ١٤١٦هـ دار المعرفة .

٢٠٠- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . لابن الجوزي ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، ط/١، ١٤١٢هـ دار الكتب العلمّية .
٢٠١- المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال . للإمام الذهبي . تحقيق محب الدين الخطيب ، ط/٢، ١٤٠٩هـ الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية.
٢٠٢- منهاج السنة النبوية . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق / محمد رشّاد سالم ، ط/١، ١٤٠٦هـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
٢٠٣- منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة . رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية ، إعداد/ تامر محمد متولي ، ١٤٢١هـ (غير منشور)
٢٠٤- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات : محمد الأمين الشنقيطي ، تحقيق الشيخ / عطية محمد سالم ، الدار السلفية – الكويت .
٢٠٥- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة . إشراف وتخطيط د. مانع الجهني ، ط/٣، الناشر : دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع .
٢٠٦- موطأ الإمام مالك بن أنس – تعليق / محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٦هـ.
٢٠٧- موطأ الامام مالك بن أنس . تحقيق الدكتور / بشار عواض معروف ومحمود محمد خليل ، ط/١، ١٤١٢هـ مؤسسة الرسالة .
٢٠٨- موقف ابن تيمية من الأشاعرة . د. عبد الرحمن بن صالح المحمود ، ط/١، ١٤١٥هـ ، مكتبة الرشد
٢٠٩- ميزان الاعتدال في نقد الرجال . للذهبي ، تحقيق الشيخ / علي محمد معوض والشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود ، والأستاذ الدكتور / عبد الفتاح أبو سنة ، ط/١، ١٤١٦هـ دار الكتب العلمية .
٢١٠- النبوات . لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط/ دار الكتب العلمية .
٢١١- نهاية الإقدام .عبد الكريم الشهرستاني،

٢١٢- النهاية في غريب الحديث والأثر : علي بن محمد المعروف بابن الأثير، تحقيق / محمود محمد الطناحي، ط/١، ١٣٨٣هـ دار إحياء الكتب العربية .

٢١٣- نونية ابن القيم : ط/١، نشر مكتبة ابن تيمية .

٢١٤- نيل الأوطار : محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد ومصطفى محمد الهراوي ، ط/ مكتبة الكليات .

٢١٥- الوابل الصيب. لابن القيم . تحقيق / بشير محمد عيون ، ط/٤، ١٤١٢هـ مكتبة المؤيد .

٢١٦- الوافي بالوفيات : صلاح الصفدي تحقيق / أحمد الأرنؤوط ، وتركي مصطفى ، ط/١، ١٤٢٠هـ دار إحياء التراث العربي .

٢١٧- وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر .

فهرس الأعلام المترجم لهم في الحاشية

اسم العلم	الصفحة
أبان بن عثمان بن عفان	١٧٦
أحمد بن الحسين بن علي (البيهقي)	٨٧
أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري الشاعر	١٣٨
أحمد بن فارس بن زكريا القزويني	٢٧٠
أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري الطلمنكي	٢٣
أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي	١٣٠
إسحاق بن إبراهيم بن راهويه	٢٤٣
إسماعيل بن عبد الرحمن (أبو عثمان الصابوني)	٢٠٠
بشر بن غياث المريسي	٢٤٣
تميم بن أوس الداري	١٠١
ثمامة بن أشرس	٢٢٧
جابر بن عبد الله الأنصاري	٣٢٩
جبير بن مطعم	٨٨
حارثة بن وهب الخزاعي	١٢٢
الحسن بن أبي الحسن البصري	٢٢
الحسين بن عبد الله (ابن سينا)	٢٨٧
الحسين بن مسعود البغوي	١٩
حمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي	٨٠
حميد بن عبد الرحمن الحميري	٣٢٠
الخليل بن أحمد الفراهيدي	٢٧٠

اسم العلم	الصفحة
داود الجواربي	٢٤٣
الربيع بن سليمان المرادي	٣١٦
رفيع بن مهران الرياحي (أبو العالية)	١٠٩
زيد بن أرقم	٩٦
سعيد بن جبير	١٥
سفيان بن عيينة	٢١٤
الشبلي	٣٦
الضحاك بن مزاحم	٢٣٣
عبد الجبار بن أحمد الهمذاني	٢٩١
عبد الحميد بن باديس	٢٥٤
عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي	٢١٣
عبد الرحمن بن مهدي	٤
عبد الرحيم بن أحمد البرعي	٨٥
عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي	١١٣
عبد الله بن خليفة الهمداني	٩٠
عبد الله بن الزبير	٣٢٠
عبد الله بن سلام بن الحارث الصحابي	١١٥
عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي	٣٥٧
عبد الله بن عون البصري	١٩
عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري)	٢٦
عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان (أبو الشيخ)	٧٣
عبد الله بن المبارك	٢١٢
عبد الله بن هارون الرشيد (المأمون)	٢٨٢

اسم العلم	الصفحة
عتبة بن غزوان	١٢٥
عثمان بن سعيد الدارمي	٢٠١
عطاء بن أبي رباح	٣٣٠
عكرمة مولى ابن عباس	٣٣٣
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري	١٧١
علي بن إسماعيل (ابن سيده)	١١٠
علي بن عبد الكافي السبكي	٨٦
علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي	١٣٧
علي بن محمد بن حبيب الماوردي	١٧
عمر بن عبد العزيز بن مروان	١٧٦
عويمر بن زيد الأنصاري (أبو الدرداء)	١٠٠
عياض بن موسى اليحصبي القاضي	٨٢
الفارابي : محمد بن محمد	٢٨٧
قتادة بن دعامة السدوسي	٢٢
كعب بن زهير بن أبي سلمى	١٨٩
الليث بن سعد	٣١٧
مالك بن دينار	١٢٥
مجاهد بن جبر المكي	١٠٨
محمد بن أحمد بن أبي فرح القرطبي	١٦
محمد بن أحمد بن رشد الحفيد	١١٧
محمد بن أحمد بن طلحة (الأزهري)	٥٣
محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي	٨٦
محمد بن جعفر بن جرير الطبري	٢١

اسم العلم	الصفحة
محمد بن السائب الكلبي	١٠٨
محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي	١٢٧
محمد بن عبد الله بن أبي زيد القيرواني	٣١٧
محمد بن عبد الله (ابن العربي المالكي)	٥١
محمد بن علي (الباقر)	١٧٩
محمد بن علي بن محمد الطائي (ابن عربي الصوفي)	٣٥
محمد بن كعب القرظي	٧٢
محمد بن محمد مصطفى أبو السعود	٥٨
محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور	٦٢
محمود بن عمر بن محمد الزمخشري	٦١
معاوية بن أبي سفيان	٣٢٠
معبد بن عويمر الجهني	٣٢٠
المغيرة بن شعبة	١٨٧
منصور بن محمد بن عبد الجبار أبو المظفر السمعاني	١٣٠
المهلب بن أبي صفرة البصري	١٢٢
المهلب بن أبي صفرة الأندلسي	١٨٢
ميمونة بنت الحارث الهلالية	١٧٦
نسيبة بنت الحارث أم عطية الأنصارية	١٧٤
النعمان بن بشير بن سعد	١٢٣
النعمان بن مقرن بن عائذ المزني	١٨٦
نعيم بن حماد الخزاعي	٢٤٢
همام بن غالب بن صعصعة الفرزدق	٥٤
واثلة بن الأسقع	٣٣٠

اسم العلم	الصفحة
واصل بن عطاء الغزال	٢٨٨
وكيع بن الجراح	٢٤٣
يحي بن أبي كثير	١٧٧
يحي بن يعمر	٣٢١
يزيد بن هارون	٢٤٤

(٥)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة ومحتوياتها	١-١٣
التمهيد :	
أهمية الذكر	١٤-٢٧
ثانياً: فوائد الذكر	٢٧-٤٢
ثالثاً: صلة الذكر بالعقيدة	٤٣-٤٨
الباب الأول: معنى التكبير وأهميته ومواطن مشروعية لفظة " التكبير "	٤٩
الفصل الأول : معنى التكبير ومدلوله	٥٠
المبحث الأول : معنى التكبير لغة	٥٠
المبحث الثاني : معنى التكبير شرعا	٥١
الفصل الثاني : أهمية التكبير ودرجاته	٥٦
المبحث الأول : وجوب تكبير الله وتعظيمه والأدلة على ذلك	٥٧
المطلب الأول : دلالة القرآن الكريم على وجوب تكبير الله عز وجل وأوجه دلالته	٥٧
الوجه الأول : الأمر الصريح المؤكد به	٥٨
الوجه الثاني : وصف الله تعالى نفسه بالكبرياء	٦٤
الوجه الثالث : ذم من أخل بتكبير الله وتعظيمه	٦٧
الوجه الرابع : التنبيه بالمخلوقات العظيمة الدالة على عظمة خالقها	٧٣
المطلب الثاني : ما جاء في السنة النبوية من بيان عظمة الله وكبريائه	٧٧
ما أثر عن السلف الصالح من أقوال وأحوال دالة على تعظيمهم لله تعالى	٩٥

الموضوع	الصفحة
دلالة العقل السليم على وجوب تكبير الله عز وجل	١٠٤
العلم بالله عز وجل وعلاقته بتكبير الله وإجلاله	١٠٧
معنى اسم الله " الكبير والمتكبر " وأثر الإيمان بهما في العقيدة والسلوك	١١٠
الأثر الاعتقادي للإيمان باسم الله الكبير	١١٤
من الآثار السلوكية للإيمان بهذا الاسم البراءة من الكبر والعجب	١٢٠-١٢٩
تكبير الله في قضائه وقدره	١٣٠
النهي عن الخوض في مسائل القضاء والقدر تعظيماً لله تعالى	١٣١
الأمور التي بها يحصل تكبير الله في قضائه وقدره	١٣١
بعض مظاهر الإخلال بتكبير الله في قضائه وقدره	١٤٤
تكبير الله في أوامره ونواهيه	١٤٦
ثلاثة أمور لابد منها في تكبير الله	١٤٧
ذكر بعض المواطن التي شرع فيها لفظ التكبير " الله أكبر "	
والمناسبة العقدية لمشروعيته فيها	١٥٤
مشروعية التكبير في المواضع الكبار مكانا وزمانا وحالاً	١٥٥
مشروعية التكبير على الهداية	١٥٨
مشروعية التكبير على الرزق	١٦٢
التكبير في الصلاة	١٦٦
الحكمة من جعل كلمة " الله أكبر " مفتتح الصلاة	١٦٨
التكبير في العيدين	١٧٢
التكبير في أيام التشريق	١٧٥
التكبير في الطواف وعلى الصفا والمروة	١٧٩
التكبير عند العلو على شرف	١٨١
التكبير في الحرب عند لقاء العدو	١٨٣

الموضوع	الصفحة
مواضع أخرى شرع فيها التكبير	١٩١
الباب الثاني : دلالات التكبير	١٩٦
دلالة التكبير على توحيد الأسماء والصفات	١٩٨
تعريف توحيد الأسماء والصفات	١٩٨
أمور مهمة ينبغي معرفتها في توحيد الأسماء والصفات	٢٠٢
وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة	٢٠٩
التلازم بين تكبير الله وتعظيمه وبين إثبات أسمائه وصفاته	٢١٦
دلالة التكبير على تتريه الله عز وجل عن مشابهة المخلوقات في شيء من صفاته	٢٢٣
التعريف بالمشبهة ومذهبهم في صفات الله تعالى مع بيان تنافيه مع تكبير الله وتعظيمه	٢٢٤
دلالة العقل والنقل على بطلان مذهب المشبهة	٢٣١
الأدلة السمعية على بطلان التشبيه	٢٣١
دلالة العقل السليم على بطلان التشبيه	٢٣٦
موقف علماء أهل السنة من التشبيه والمشبهة	٢٣٩
دلالة التكبير على توحيد العبادة	٢٤٥
تعريف توحيد العبادة والتنبيه على أهميته ومكانته في الدين	٢٤٦
معنى العبادة لغة وشرعاً	٢٤٦
معنى توحيد العبادة	٢٤٧
مما يدل على أهمية توحيد العبادة	٢٤٨
دلالة التكبير على وجوب إخلاص الدين لله تعالى	٢٥٣
من فوائد كلمة " الله أكبر " حفظ القلب من الخنوع لغير الله	٢٥٤

الموضـــوع	الصفحة
دلالة التكبير على بطلان الشرك	٢٥٥
مصدر خطأ فهم المشركين لتكبير الله عز وجل	٢٥٦
دلالة التكبير على بطلان الإلحاد	٢٥٨
دلالة التكبير على خطورة المعاصي والبدع	٢٦٠
الباب الثالث : مفاهيم خاطئة لتكبير الله تعالى	٢٦٧
تمهيد : في بيان اختلاف الناس في فهم تكبير الله عز وجل	٢٦٨
تكبير الله وتعظيمه عند طوائف المعطلة	٢٧٠
معنى التعطيل لغة واصطلاحا	٢٧٠
بيان دركات التعطيل	٢٧٢
دعوى تكبير الله بتعطيل أسمائه وصفاته	٢٧٨
من طرق القرآن والسنة في بيان كبرياء الله تعالى ذكر صفاته العظيمة	٢٧٨-٢٨٠
الأسس التي قام عليها مذهب أهل السنة في باب الأسماء والصفات	٢٨٥
هذه طوائف اعت تكبير الله بتعطيل أوصاف كماله	٢٨٧
أهم شبه المعطلة والرد عليها :	٢٩٠
أولاً : شبهة نفي الجسمية	٢٩٠
ثانياً : شبهة التركيب	٢٩٣
ثالثاً : شبهة تعدد القدماء	٢٩٥
رابعاً : شبهة حلول الحوادث	٢٩٧
مقتضى تكبير الله وتعظيمه عند القدرية والجبرية	٣٠٠
تعريف القدر في اللغة والاصطلاح	٣٠١
الفرق بين القضاء والقدر	٣٠١
بيان مراتب القدر	٣٠٣
مذهب أهل السنة في القضاء والقدر	٣١٥

الموضوع	الصفحة
منشأ ضلال القدرية في هذا الباب	٣٢٠
ما أثر عن السلف من التحذير من القدرية ومقالتهم	٣٢٨
مقتضى تكبير الله عند الجبرية	٣٣٤
معنى الجبر في اللغة والاصطلاح	٣٣٥
الفرق بين الجبر والجبل	٣٣٧
بطلان مذهب الجبرية وبيان لوازمه الفاسدة	٣٣٩
موقف أهل السنة من مقالة الجبرية	٣٤١
تكبير الله بنفي الحكمة والتعليل عن أحكامه وأفعاله	٣٤٣
تعريف الحكمة في اللغة والاصطلاح	٣٤٤
المراد بمسألة الحكمة والتعليل	٣٤٥
نفاة الحكمة والتعليل عن أفعال الله وأحكامه وأدلتهم	٣٤٧
مناقشة حجج نفاة الحكمة والتعليل	٣٤٩
دلالة النصوص الشرعية على تعليل أفعال الله وأحكامه	٣٥٢
مذهب أهل السنة في هذه المسألة وبيان أنه مقتضى التكبير	٣٥٩
الخـــاتمة	٣٦٢
الفهارس	٣٦٥
فهرس الآيات القرآنية	٣٦٦
فهرس الأحاديث النبوية	٣٨٠
فهرس المصادر والمراجع	٣٨٥
فهرس الأعلام المترجم لهم في الحاشية	٤٠٣
فهرس الموضوعات	٤٠٧